تشارلز دكنز

مذكرات بكوك

الجزء الأول

ترجمة عباس حافظ

مراجعة محمد بدران



مذكرات بكوك

الجزء الأول



تأليف :

تشارلز دكنز

ترجمة

عباس حافظ

مراجعة

محمد بدران

القاهرة ـ يونيه ١٩٥٨

THE

POSTHUMOUS PAPERS

OF

THE PICKWICK CLUB

BY

CHARLES DICKENS

ILLUSTRATED BY

PHIZ



الناشر:

المؤسسة القومية للنشر والتوزيع

٥ شارع دوبريه القاهرة. ت: ٧٧٨٧٦

الرسوم بريشة فيز

مقدمة

قلنا في مقدمة الطبعة الأصلية لمذكرات نادى بكوك المنشورة بعد وفاة مؤسسه ان المقصود منها ايراد صور مسلية لأنماط من الناس ، ورسوم فكهة لصنوف من الوقائع والأحداث ، لا محاولة فيها لاظهار البراعة في قصة « محبوكة » موصولة السياق ، ولم يكن المؤلف يرى في ذلك الحين ان ايرادها على هذا الوجه ميسور ، لأن اسلوب النشر المتبع في ذلك الوقت لم يكن على نسق مطرد ، وقلنا كذلك اننا قد اخذنا نغفل شيئا فشيئا الحديث عن جهاز النـادى ، كلما تقدمنا في الكتاب ، وذلك بعد ان تبين لنا أن معالجته من اشق الأعباء،ولئن كانت التجربة والدراسة قد علمتنا فيما بعد شيئا بسبيل بعض تلك المطالب ونحوها حتى لوددت اليوم لو ان هذه الفصول ترابطت ، بخيط قوى واحد ، وامسك بها موضوع يثير الاهتمام العام ، فلا تزال في شكلها الحالي عين ما اريد بهـا أن تكون ..

ولقد رأيت روايات مختلفة لأصل هذه المذكرات التى ظلت على الحالات كلها في تقديرى تتصف بفتنة الطرافة التامة ، وسحر الجدة البالغة ، واذا كان يصح لى أن استخلص من ظهور روايات وأقاصيص منها ان في نفـــوس قرائى توقا الى معرفة حقيقتها ، فانى ساقص عليهم كيف ظهـرت في عالم الوجود

كنت شابا في الثانية او الثالثـــة والعشرين حين اثارت بعض قطع كنت اكتبها في ذلك العهد في صحيفة « المورننج كرونكل » اهتمام الناشرين :

« تشابمان وهول » او كنت قد كتبتها توا فى المجلة الشهرية القديمة « أولد منثلى ماجازين » . وقد جمعت اخيرا سلسلة منها ونشرت فى مجلدين ورسمت لها صور من ريشة المستر جورج كروكتشنك ؟ فجاءنى هذان الناشران يطلبان الى أن أقترح شيئا يصح أن ينشر فى أعداد لا يتجاوز ثمن العدد منها شلنا ، ولم أكن أعرف يومئذ شيئا عنها ، وأعتقد ان احدا سواى لم يكن له بهـا علم ، الا من ذكرى لم تكن واضحة فى خاطرى ، لروايات لا تحصى من هذا القبيل اعتاد الباعة المتجولون حملها والطواف فى الريف بها ، وأذكر انى ذرفت على طائفة منها دموعا غزارا قبل أن أقضى فترة الدربة على الحياة ..

وعندما فتحت باب غرفتى فى فندق « فرنفال » لاستقبل الشريك الذى يمثل دار الطباعة والنشر ، عرفت فيه ذلك الشخص بالذات الذى كنت قد اشتريت منه منذ عامين ، او ثلاثة اعوام ، ولم اكن قد رايته من قبل ، ولم اره من بعد .. النسخة الاولى من المجلة التى القيت اليها خفية ذات مساء على مطالع الشفق بباكورة قلمى ، وهى « صور وشخصيات » دعوتها « المستر مينز وابن عمه » القيتها اليها ، بيد راعشة ، وقلب واجف ، فى جوف صـندوق بريدها القاتم ، ودارها المعتمة ، فى فناء مظلم ، بشارع « فليت ستريت » ، وظهرت تلك الباكورة فيها بكل ما اضفى الطبع عليها من رونق وبهاء ، فانطلقت بها عندئذ الى قاعة وستمنتستر فمكثت فيها نصف ساعة ، لأن عينى قد ارتدتا مشدوهتين من فرط الفرح والشعور بالفخار ، فلم تطيقا الشارع ، ولا كان الطريق بالموضع الذى يصلح لرؤيتها فيه ، وقد حدثت زائرى بتلك المصادفة ، فرحبنا معا بها ، وعددناها بشرى طيبة ، وفالا حسنا . وأقبلنا نتحدث فى الأمر الذى جاء يبحث معى فيه ..

وكانت الفكرة التى شرحها لى هى اصدار شيء شهرى ليكون وسيلة لنشر صور ورسوم من ريشة المستر سيمور ، وان هناك خاطرا بدا لذلك الرسام الفكه الصنع ، أو لزائرى نفسه ، وهو تخيل ناد يدعى « نادى نمرود » يخرج اعضاؤه لصيد الطير ، أو السمك او نحوهما ، فيقعون فى محارج ، وتحيط بهم متاعب وورطات ، لقلة براعتهم وفهمهم لدقائق الاشياء . وقال محدثى ان فكرة كهذه سوف تكون احسن وسيلة لابراز تلك الرسوم والالواح ، فلما بحثت تلك الفكرة اعترضت عليها ، وكان سبب اعتراضى اننى لست بالصياد البارع ، وان كنت قد ولدت وقضيت بعض ايام نشأتى بالريف ، ولم اصب

من « الرياضة » الا ما يتصل بكل أنواع الحركة ، ووسائل الانتقال ، وان الفكرة ليست بالطريفة وانها طرقت كثيرا من قبل ، وانه من الخير الى أبعد حد ان تنشأ الصور نشأة طبيعية من النص نفسه ، وانني احب أن اتخــذ سبيلي طليقا من كل قيد في تصوير المشاهد الانجليزية والناس ، وانني اخشى أن افعل ذلك في النهاية على أية حال ، مهما يكن السبيل الذى اختطه لنفسى في البداية ، ولما قبلت فكرتى ، فكرت في « المستر بكوك » وكتبت العدد الاول ، وكان المستر سيمور يتناول « تجارب الطبع » فيرسم الصور على قدودها ، فهو الذى رسم « النادى » وصور تلك الصورة الجميلة لمؤسسه ، وقد أخذ وصف الثياب والمعالم من المستر ادورد تشبمن عن شخصية حقيقية كثيرا ما رآهـــا بنفسه ، وقد ربطت المستر بكوك بناد ، عملا بالاقتراح الاصلى ، وجئت المستر « ونكل » قصدا ليفتن فيها المستر سيمور كما يشاء ، وبدانا نصدر عــددا من أربع وعشرين صفحة ، بدلا من اثنتين وثلاثين ، وأربع صـــور بدلا من صورتين ، وكانت وفاة المستر سيمور فجأة قبل صدور العدد الثانى ، وهى مصاب أحزننا ، وجزعنا منه ، فاقتضى مماته اتخاذ قرار عاجل فى أمر كنا قد مضينا فعلا فيه ، فجعلنا العدد فى اثنتين وثلاثين صفحة ، واقتصرنا على صورتين وبقى النظام هكذا الى النهاية ٠

وأقول هنا على أشد الكره منى ان اقوالا قيلت تلميحا ، أو متناثرة ، عن المستر سيمور خاصة ، وهى أن له نصيبا فى اختراع هذا الكتاب ، أو فى شيء منه ، لم يعرض بأمانة فى الفقرة السابقة ٠ ولكنى أقتصر هنا على تدوين الوقائع التالية :

وهى ان المستر سيمور لم يبتكر يوما ، ولم يقترح اطلاقا ، حادثة أو عبارة او كلمة ، مما حواهذا الكتاب ، وانه مات حين لم تكن قد صدرت منه غير اربع وعشرين صفحة ولم تكتب على اليقين ثمان واربعون ، وانني اعتقد انني لم ار خط المستر سيمور فى حياتى ، وانني لم ألتق به غير مرة واحدة فى العمر ، وكان لقائى له فى الليلة السابقة لليوم الذى ادركه الموت فى غده فلم يعرض بلا ريب رايا ما خلال لقائنا ولا أبدى اقتراحا ، وكان اجتماعنا فى محضر شخصين لا يزالان فى قيد الحياة ، ويعرفان هـــذه الوقائع كلها حق المعرفة ، ولا يزال تحت يدى اقرار مكتوب منهما بها ٠٠ وأخيرا ان المستر ادورد تشبمن احد الشريكين فى مؤسسة » تشبمن وهول » وهــو لا يزال

حيا يرزق ، قد دون كتابة ، للغرض ذاته ، وهو تسجيل الحقيقة ، كل ما يعرفه شخصيا عن أصل الكتاب وسيرته ، وعن بشاعة هذه الدعوى التى لا أساس لها ، واورد من التفاصيل ما يدل فى ذاته ووضوحه على استحالة احتوائها شيئا من الحق ، ولست اريد عملا بما اخذت نفسى به ، ان انقل هنا رواية المستر ادورد تشبمن لما قابل به شريكه الراحل فى احدى المناسبات ، هذا الادعاء الذى أسلفت ذكره ٠

أما « بوز » BOZ ، ذلك التوقيع الذى كنت اوقع به ما أكتب فى « المورننج كرونكل » و « المجلة الشهرية القديمة » ، والذى كان يظهر على غلاف العدد الشهرى من هذا الكتاب ، وبقى دهرا طويلا بعد ذلك ، فقد كان كنية أطلقت على طفل مدلل ، كان اخا لى أصغر منى سنا ، وكنت أدعوه « موزيس » تكريما لـ « قسيس وكفيلد » فاستحالت هذه الكلمة ، عند النطق بها مزاحا من الانف ، الى « بوزس » ، ثم اصبحت بعد اختصارها « بوز » وكانت هذه اللفظة مألوفة فى أفق بيتنا ، قبل ان أصبح « مؤلفا » بوقت طويل ، فاتخذتها لنفسى توقيعا ٠

وقد لوحظ عن المستر بكوك ان شيئا من التغير طرا قطعا على شخصيته ، فى سياق هذه الصفحات واطرادها ، فقد أصبح أكثر طيبة ، وأوفر عقلا ، ولست أعتقد ان هذا التغير سيبدو مفتعلا أو متعملا لقرائى اذا هم تذكروا ان خواص رجل أوتى شيئا من غرابة الافكار ، ونواحي شذوذه ٠ هى فى الحياة أول ما ينطبع فينا عامة منه ، واننا لا نبدأ عادة ننظر الى ما تحت الظواهر البادية لأعيننا منه ، وندرك النواحي المثلى التى ينطوى عليها ، الا بعد أن نزداد معرفة به ، ومتابعة لدقائق شخصيته

ولكيلا يغيب عن فطنة فريق من سليمى النية ، الفارق بين الدين فى جوهره ، والترائى به ٠ وبين التقوى وادعاؤها ، وبين الاحترام المقترن بالخشوع للحقائق الجليلة التى جاءت فى الكتاب المقدس ، وبين اقحام حرفيته لا روحه اقحاما منطويا على الجراة ومثيرا للاشمئزاز ، فى احقر شئون الحياة ، وأبسط مسائلها وادعائها الى الخلاف . وما يؤدى اليه من البلبلة المتناهية لعقول السذج والجاهلين ٠٠ لكيلا تغيب عن فطنة بعض حسنى القصد ، وكان ذلك جائزا عند أمثالهم قبل أن يصدر من عهد قريب كتاب OLD MORTALITY « الوفيات

القديمة » هذه الفروق التى ذكرتها ، اقول لهم اننى فى هذا الكتاب انما سخرت من الرياء فى الدين لا من الدين ذاته ، وتهكمت بادعاء التقوى لا بالتقوى عينها ، وهجوت الذين يعبدون الله على حرف ، دون الذين يستمسكون بروح الكتاب المنزل ومعانيه ، كما اضيف الى ذلك ، ان كل هذا الذى تعرضت له بالسخرية والتهكم والهجاء ، قد دلت التجارب والمشاهدات كلها ، على انه لا يتفق مع الدين والتقوى وسلامة التناول لتعاليم الدين واصوله ، وانه من المستحيل أن يتحدا ، وانه من أشد الاكاذيب أذى فى المجتمع ، وابلغها على الناس ضررا ، سواء اتخذت مقرها اليوم فى قاعة اكستر ، او كنيسة « ابنزر » او فيهما معا ، ولعل هذا الامر من الوضوح بحيث لا يحتاج الى كلمة تقال فيه ، او ملاحظة تعرض بسبيله ، ولكن الواقع انه ليس ثمة بد فى كل حين من التنديد بهذا العبث السمج بالمقدسات ، الذى نرى الخوض فيه مترددا على الشفاه ، ولا يتأثر به القلب ، او بهذا الخلط بين المسيحية ، وبين اية طبقة من أولئك الذين وصفهم « سويفت » بقوله : ان لديهم من الدين ما يكفى لأن يتباغضوا ، ولا يكفى لأن يجعلهم متحابين .

وقد وجدت من دواعى العجب والاغتباط ، حين عدت أتصفح هذا الكتاب ، فى طبعة جديدة ، طائفة كبيرة الشأن من وجوه الاصلاح الاجتماعى قد تمت بصورة لا تكاد تحس ، منذ كتبت هذه الفصول فى الاصل ، وان كان التسامح مع المحامين ، ومدى الوسائل والاساليب البارعة فى تضليل هيئة المحلفين ، لا يزالان بحاجة ماسة الى التعديل ، كما لا يزال اصلاح نظام الانتخابات البرلمانية - بل لعل البرلمانات ذاتها أيضا - فى حدود الممكنات ، ولكن الاصلاح الذى تناول القضاء قد قلم اظفار أمثال دودين وفج بين طائفة المحامين ، وانتشرت بين وكلائهم وكتبتهم روح الاحترام الذاتى ، والاناة والتعليم والتعاون على هذه الغايات الكريمة ، والاهداف الحسنة ، وتم التقريب بين البقاع النائية ، والاماكن القاصية ، لراحة الجمهور وفائدته ، كما تغيرت القوانين المتعلقة بالحبس من أجل الديون ، وهدم سجن « فليت » مما يرجى ان يقضى مع مر الزمن على جملة من الاحقاد الصغيرة ، وضروب العمى ، وصنوف المساوىء التى ظل الجمهور أبدا ضحيتها دون أحد سواه .

ومن يدرى لعلنا قبل أن تصل هذه السلسلة التى ننشرها تباعا الى ختامها واجدون انه قد أصبح فى الحواضر والريف قضاة مدربون على أن يصالحوا كل

يوم يد البداهة ، ويهزون كف العدل ، وأن « قوانين الفقراء » نفسها ستأخذ بالرحمة معاشر الضعفاء والشيوخ والبائسين ، وان يؤمن الناس بأن المدارس ومعاهد العلم المؤسسة على مبادىء المسيحية السمحة ، هى أجمل ما يزين هذه البلاد المتحضرة طولا وعرضا وأن يحكم رتاج السّجون من الخـــارج ، بذلك الاحكام والتدقيق اللذين يحكم بهما رتاجها من الداخل ، وأن يصبح تعميم وسائل النظافة والصحة حقا لأفقر اهل الفاقة (كما هى اليوم أمر لا غناء عنه لسلامة اهل الغنى ، وأمن الدولة ، وان هـذه الهيئات الصـغيرة والادارات القليلة ، التى لا تزال أقل من قطرات فى بحر البشرية الخضم الذى يهـــدر ويزأر من حولها ، لا تدع اخمى وذات الرئة طليقتين تصيبان خلق الله كمـــا تشاءان ، أو تاركين ربابانها ومعازفها الصغيرة ترسل انغامها ابدا لتستقبل رقصة الموت ..

الفصل الأول

أعضاء نادى بكوك

كان أول خيط من الضياء يبدد الظلام ، ويجلو بنوره الباهر ذلك الغموض الذى أحاط بمطالع تاريخ حياة « بكوك » الخالد وبداية سيرته ، يرجع الى قراءة الفقرات التاليـــة من محاضر جلسات نادى بكوك ، وهى فقرات يسر ناشر هذه المذكرات أشد السرور أن يضعها بين أيدى قرائه ــ دليلا عـــلى العناية البالغة ، والجهد الذى لا يعرف الكلال ، والحصافة المدققة التى توخاها فى بحثه بين عديد الوثائق وتنقيبه •

واليك هذه الفقرات .

« ١٢ مايو سنة ١٨٢٧ ــ برياسة المستر جوزيف اســمجز نائب الرئيس الدائم وعضو نادى بكوك •

تقرر بالاجماع الموافقة على القرارات الآتية :

« بعد أن استمعت الهيئة بارتياح خالص وموافقة تامة ، الى المذكرة التى قدمها المستر صمويل بكوك الرئيس العـــام للنادى ، بعنوان « آراء ونظرات فى منبــع بحيرات هامستد وغدرانها ، مع بعض الملاحظات على نظرية الزقزوق » (١) ،

(١) اسم نوع من الاسماك

نود الهيئة هنا أن تقدم أصدق شكرها للمستر صمويل بكوك الآنف الذكر على هذا البحث .

« والهيئة اذ تدرك عميق الادراك مدى الفوائد التى ستعود حتما على العلم من هذا البحث الذى سلف ذكـــره ، وجملة الحسنات الاخرى للبحوث والدراسات التى عقـــدها بدأب لا يعرف الكلال المستر صمويل بكوك الرئيس العام وعضو نادى بكـــوك فى هورنزى وهايجت وبريكســـتن وكامبرول ، لا يسعها الا أن ترجو رجاء صادقا أن تؤدى حتما بحوث هـــذا العلامة الى فوائد لا تقدر ، ومنافع لا تحصى ، فى ميدان أوسع مدى ، اذا هو مد نطاق أسفاره ، ومن ثم وسع أفق نظـراته وملاحظاته فى سبيل تقدم العلم ونشر المعارف .

وعلى ضوء هذا الرأى ، الذى ذكرناه ، نظرت الهيئة ، بعين الجد والاعتبار ، فى الاقتراح المقدم من المستر صمويل بكوك الآنف الذكـــر ، والرئيس العام للنادى وأحد أعضـــائه ، بالاشتراك مع ثلاثة أعضاء آخرين فى النادى ، سيأتى بعـــد ذكرهم ، بشأن تأليف فرع جديد « لرابطة البكوكيين » يدعى « شعبة المراسلين فى نادى بكوك » .

« وقد حاز الاقتراح المذكور من الهيئة الموافقة والقبول ، وبذلك تم تأليف شعبة المراسلين فى النادى ، وتعيين المستر صمويل بكوك الرئيس العام وعضو النادى ، والمستر تراسى طبمن ، والمستر أوجستس سنود جراس ، والمســـتر نثنايل ونكل ، العضوين بالنادى أعضاء فى هذه الشعبة مع رجائهم أن يقدموا الى النادى بمفرده من وقت الى آخر بيانات معتمدة عن أسفارهم وتحقيقاتهم ، وملاحظاتهم على الاشخاص وأوجه السلوك ، وكل ما يتعلق بالاحداث التى تقع لهم ، مقترنة بكل

النوادر والقصص والمذكرات عن مختلف المشاهد والربوع ، وما يتصل بها .

وقد تلقت هذه الهيئة بالعرفان الخالص ، الاقتراح القاضي بان يقوم كل عضو من أعضاء « شعبة المراسلين » بأداء نفقات سفره ، ولا مانع لديها اطلاقا من أن يواصل أعضاء الشعبة المذكورة بحوثهم لأية فترة من الوقت يشاءون بهذه الشروط ذاتها .

وقد أبلغ أعضاء شعبة المراسلين السالفة الذكر أن الاقتراح المقدم منهم بشأن قيامهم بأداء أجور البريد عن رسالاتهم ، ونقل طرودهم ، قد تم بحثه ومناقشته فى هذه الهيئة وترى أنه اقتراح جدير بان يصدر من العقول الكبيرة التى تفتق عنها ، وانها تسجل هنا موافقتها التامة عليه .

وقد أضاف الامين الذى ندين لملاحظاته بالبيان التالى : يقول ان كل ملاحظ عابر لا يرى شيئا غير مألوف فى ذلك الرأس الاصلع ، والمنظار المستدير اللذين ظلا متجهين نحو وجهه « أى وجه الامين » فى أثناء تلاوته للقرارات التى سلف ذكرها ، وان هذا المنظر كان حقا ممتعا لكل من عرفوا ان عقل بكوك الجبار كان يشتغل خلف تلك الجبهة ، وان عينيه المشعتين كانتا تبرقان من وراء ذلك المنظار ، وقد جلس ذلك الرجل الذى اقتفى مجرى تلك البحيرات العظيمة فى هامستد حتى منبعها ، وهز دنيا العلم بنظريته عن السمك « الزقزوق » ، جلس ذلك الرجل هادئا لا يتحرك كمياه تلك البحيرات فى عمق غورها ، فى يوم شديد الصقيع ، أو كسمكة من تلك الاسماك فى أدق زاوية من زوايا جرة من الصلصال ، وقد ازداد هذا المنظر متعة ، واشتد تشويقا ، حين هبت الاصوات

مرة واحدة من أفواه مريديه تدعوه الى القاء كلمة ، وحين صعد ذلك الرجل الامجد برفق الى ذلك المقعد ، « الوندسور » الذى كان من قبل جالسا فيه ، وراح يخطب أهل النادى الذى كان هو مؤسسه ، لقد كان ذلك منظرا مثيرا خليقا بدراسة فنان ! فقد انثنى بكوك المفوه البليغ وكانت احدى يديه مختفية بشكل جميل خلف ذيل ردائه ، والأخرى يلوح بها فى الفضاء ، يستعين على القاء خطبته الحماسية المتأججة ، وقد كشفت وقفته المشرئبة عن حمائله ولو ان تلك الحمائل ورباطى ساقية كانت على زجل عادى ، لجاز ان تمر دون ملاحظة ، ولكنها على المستر بكوك اذا جاز لنا هذا التعبير ، كانت تثير الرهبة اختيارا لا افتعالا ، وتدعو الى الاحترام والاكبار ، وقد أحاط به فى مجلسه هذا اولئك الذين تطوعوا لمقاسمته أخطار أسفاره ورحلاته ، والذين قدر لهم ان يشاركوه فى مجد اكتشافاته ، وعن يمينه جلس المستر تراسى طبمن ٠٠ طبمن المفرط فى رقة الاحساس ، والذى جمع الى حكمة الشيب وحنكة حماسة الشباب وحرارته ، فى أمتع مواطن الضعف البشرى ، وأدعاها الى الغفران ٠٠ وهو الحب ، وقد اصطلح الزمان والغذاء الطبب على تسمين ذلك القوام الذى كان « قواما ممشوقا روائيا » فى يوم من الايام ، فأصبح « صداره » الحريرى الاسود أكثر على الدهر اتساعا ، وأخذت سلسلة ساعته الذهبية تختفى من تحته وتتوارى شيئا فشيئا من مرمى نظره ، وبدأ ذقنه الرحيب يجور على حدود ربطة عنقه البيضاء ، اما روحه ذاتها ، فلم يطرأ عليها تحول ولا تبديل وظل اعجابه بالجنس اللطيف العاطفة المتحكمة فيه ٠ وعن يسار الزعيم العظيم جلس « سنود جراس » الذى أوتى نزعة شاعرية ، وبجواره كذلك جلس الرياضى « ونكل » وقد بدأ

أولهما في شكل شعرى مرتديا « سترة » زرقاء غريبة ، ذات طوق « ياقة » فى مثل جلد الكلاب ، وأما الآخر فقد أضاف بريقا ظاهرا على سترة صيد جديدة خضراء اللون ، وربطة رقبة من صوف مخطط وسروال ضيق لاصق ببدنه ·

وقد سجلت خطبة المستر بكوك بهذه المناسبة والمناقشات التى دارت حولها فى محاضر جلسات النادى وهى شبيهة الى حد بالغ بالمناقشات التى تدور فى الهيئات الشهيرة الاخرى ، ولما كان من الممتع تتبع وجوه الشبه بين تصرفات العظماء ، فقد رأينا ان ننقل ما ورد فى المحضر الى هذه الصفحات ·

كتب الامين يقول ان المستر بكوك لاحظ ان الشهرة عزيزة على قلب كل انســـان ، فالشهرة الشـــعرية عزيزة على قلب صديقه « سنود جراس » والشهرة بغزو الأفئدة عزيزة كذلك على قلب صديقه « طبمن » والرغبة فى كسب الشـــهرة فى ميدان الصيد ، برا وجوا وعلى الماء ، أعز ما تكون مكانا من صدر صديقه « ونكل » وانه « اى المستر بكوك » لا يريد ان ينكر سلطان العواطف البشرية ، واثر الاحاسيس الانسانية فى نفسه « هتـــاف » ، ولعلـــه تأثر بمواطن الضـــعف البشرى فيه « صيحات » حاشا ، ولكنه يجب ان يقول انه اذا اشتعلت يوما فى صدره نار الاهتمـــام بالذات ، فان ايثـــار الرغبة فى نفع البشر كفيل فعلا باخمادها ، وان مدح الجنس البشرى هو ما يهتز له طربا ، وحب الخير هو الضمان الكفيل به «هتاف حاد» وانه ليعترف بانه قد شعر بشىء من الاعتزاز، ـ وليستغل خصومه هذا القول ما شاء لهم الاستغلال ـ وهو معترف بهذا الشعور صراحة ، اى نعم ·· لقد شعر بشىء من الاعتزاز عندما قدم الى العالم مذكرته بشأن نظرية الســـمك

الزقزوق ، ومن الجائز ان تحتفل الدنيا بها ، أو لا تحتفل ، « هتاف » تحتفل ... وتصفيق شديد ، وانه ليلم بما اعلنه هذا البكوكى الموقر الذى سمع اللحظة صوته ، وهو انها قد احتفلت بها . ولكن اذا قيض لهذا البحث ان تمتد شهرته الى أقصى حدود العالم المعروف ، فان آلفخار الذى سوف ينظـر به الى وضع هذا المؤلف لا يقارن اطلاقا بذلك الفخار الذى ينظـر به الى ما حوله ، فى هـذه السـاعة التى يعدها أعـز اللحظات فى حيـاته « هتاف » ، وهو رجل قليل الشـأن ، « حاشا .. حاشا » ، ولكنه مع ذلك لا يسعه الا ان يشـعر بأنهم قد اختاروه لعمل عظيم ، لا يخلو من بعض الخطر ، فان السفر ليس مأمونا ، وعقول الحوذية غير موزونة ولا مستقرة ، فلينظروا الى الخارج، وليتأملوا المشاهد التى تجرى من حولهم، فان المركبات العامة تنقلب فى كل ناحية ، والخيـل تحرن . والمراكب تنكفىء عاليها سافلها ، والمراجل تنفجـر « هتاف وصوت يصيح كلا ! كلا ! هتاف » فليتقدم حضرة العضـو المبجل الذى صاح بقوله « كلا » ولينكر ان استطاع الى الانكار سبيلا « هتاف » من هو الذى صاح كلا ؟؟ « هتاف حماسى » أهو رجل مغرور فاشل خائب ـ ولا أقول « بائـع خردة » ـ « هتاف مدو » ، أحس عقارب الغيرة تدب فيه من المديح الذى وجه الى بحوثه ، أى بحوث المستر بكوك ، وقد يكون غير جدير به ، وأخذ يتلوى من حرقة الحملات التى توالت على محاولاته هو الضعيفة فى ميدان المنافسة فلجأ الآن الى هذا الاسلوب الخبيث من الثلب والافتراء

فقاطعه المستر بلوتن (من سكان أولدجيت) ووجـه اليه السـؤال : « هل حضرة العضـو المبجـل يعنينى بهذا

التلميح ؟ » ، صيحات « النظـام ٠٠ الرياسة ٠٠ نعم ٠٠ كلا ٠٠ استمر ٠٠ دعوه يتكلم ٠٠ »

ولكن المستر بكوك قال انه ليس بالرجل الذى يسكته الصياح ، وتثنيه الضجة عن مراده ، فهو فعلا قد عنى بتلميحه السيد المحترم « ضجة عامة »

وقال المستر بلوتن انه لا يقبل هذا الاتهام الباطل البذىء الذى اتهمه به السيد المحترم ، بل يقابل هذا الاتهام باحتقار بالغ « هتاف شديد » ان السيد المحترم مخادع « ضجيج وصيحات عالية » الرياسة ، النظام

وهنا انبرى المستر أ ٠ سنود جراس فألقى بنفسه على المقعد ، وقال انه يود ان يعرف هل يصح ان يسمح المجلس بان يستمر هذا الخلاف المعيب بين عضوين من اعضاء النادى ٠٠ « مرحى ٠٠ مرحى »

وقال الرئيس انه واثق من أن العضو المحترم سيسحب التعبير الذى لجأ اليه منذ لحظة ٠

وأجاب المستر بلوتن بأنه مع احترامه العظيم للرياسة على يقين من انه لن يسحبه ٠

وهنا أعلن الرئيس ، انه يرى من واجبه المحتم ان يسأل السيد المحترم ، هل استخدم هذا التعبير الذى أفلت اللحظة منى بالمعنى المتعارف ؟

فلم يتردد المستر بلوتن فى القول بأنه لم يقصد هذا المعنى ، ولكنه استخدمه بمعناه « البكوكى » ـ « مرحى ٠٠ مرحى ٠٠ » وانه يجد لزاما عليه ان يعترف شخصيا بانه يكن

للسيد المبجل أرفع الاعتبار وأسمى التقدير ، وانه انما عده « مخـــادعا » من وجهة النظـــر « البكوكية » ، « مرحى .. مرحى .. »

وقال المستر بكوك انه قد سر كثيرا بهـــذا التفسير الطيب الصريح التام من صديقه المبجل ، وانه يرجو ان يكون مفهوما في التو واللحظـة انه لم يكن يقصـــد بملاحظاته الا تعبيرا « بكوكيا » .. « هتاف »

الى هنا تنتهي الفقرات المقتطفة مـــن المحضر ، ولا يخامرنا الشك في أن المناقشة انتهت عند هذا الحد أيضا ، بعد أن وصلت الى هـــذه النقطة الموفقة الواضـــحة ، كل التوفيق والايضاح ، وليس لدينا بيان رسمي بالوقائع التي سيجدها القارىء مدونة في الفصـــل التالي ، ولكنها بيـــانات جمعت بعناية ، من رسائل ومخطوطات اخرى ، لا يختلف اثنان في صحتها وصدقها مما يبرر روايتها في حلقات متصلة ..

الفصل الثانى

اليوم الأول من أيام الرحلة .. والأحداث التى جرت فى مسائه .. والنتائج التى أسفرت عنها ..

طلعت الشمس ، وهى الخادم المثابر فى خدمة كل عمل ، وبدأت تلقى ضياء على صبح اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ألف وثمانمائة وسبع وعشرين ، حين انبعث المستر صمويل بكوك من نومه ، كأنه شمس أخرى ، وفتح نافذة غرفته ، وأطل على العالم المترامى من تحته ، وكان شارع « جوزول » عند قدميه ، ممتدا عن يمينه ، الى آخر مدى العين، ومتراميا عن شماله ، وكان الجانب المقابل لهذا الشارع فى الجهة الاخرى من الطريق ، وراح المستر بكوك يناجى خاطره بقوله : « كذلك هى آراء الفلاسفة الضيقى النظر الذين يقنعون بفحص الاشياء المترامية أمامهم ، ولا ينظرون الى الحقائق المحجوبة عنهم فيما وراء حدود أبصارهم ، كما لو انى قنعت بادامة النظر الى شارع جوزول ، دون آن أحاول مرة أن أخترق الربوع المحجوبة ، التى تحيط به من كل ناحية »

وما كاد المستر بكوك يتفوه بهذا الخاطر الجميل ، حتى شرع يضع نفسه فى ثيابه ، ويضع ثيابه فى حقيبته ، وقلما ترى

العظماء مدققين في تنسيق ملبسهم ، ولم تلبث عملية الحلاقة واللبس ورشف القهوة ان تمت ، وما هى الا ساعة أخرى ، حتى كان المستر بكوك قد حمل حقيبته بيده ، ووضع منظاره المعظم في جيب معطفه و « مذكرته » في جيب صداره ، وتهيأ لاستقبال أى اكتشافات جديرة بالتدوين ، وقد وصـــل الى موقف المركبات في شارع سانت مارتن موجراند ·

وصاح المستر بكوك مناديا « مركبة ! »

وسمع صوتا يصرخ قائلا : « لبيك ياســيدى ! » ، وكان الصــائح مخلوقا عجيبا ، في سترة من الخيش ، وميدعة من النوع ذاته ، ولافتة من نحاس ذات رقوم حول رقبته ، وقد بدا كأنه بعض المعروضات في مجموعة من التحف النـادرة ، وكان هذا هو « ساقى الخيل » ، ومضى يردد قوله : « لبيك يا سيدى ! حالا تأتى المركبة ! » · ولم يكد الساقى يحضر المركبة الاولى ، وكان الحوذى قد ذهب الى المقهى ليدخن قصبته الاولى ، حتى ألقى المستر بكوك وحقيبته في جوفها ·

وقال المستر بكوك : « مفترق جولدن ! »

فصاح الحوذى في غضب مخاطبا صديقه الساقى : « تلك مسافة لا تزيد على شلن يا تومى ! »

وانطلقت العربة مبعدة ·

وأنشأ المستر بكوك يسأل السائق وهو يحك أنفه بالشلن الذى أعده لدفع الاجرة : « كم عمر هذا الحصان يا صديقى ؟ »

وأجاب الحوذى وهو ينظر اليـــه بطرف عينه : « اثنتـان وأربعون »

فصاح المستر بكوك مبهوتا ، وهو يضع يده على « مذكرته » « ماذا تقول ؟ » • فكرر الحوذى جوابه الاول ، وعنـــدئذ أطال المستر بكوك النظر فى وجه الرجل ، ولكن معالم وجهه ظلت جامدة لا تتحرك ، فأكب المســـتر بكوك على « المذكرة » يدون فيها ما سمعه •

وعاد يسأله مستزيدا : « وما مدى الوقت الذى يبقى فيـــه « يعمل » كل مرة ؟ »

فأجاب الرجل : « أسبوعان أو ثلاثة أسابيع » •

قال فى دهشة ، وعاد يخرج المذكرة : « أسابيع ! »

ومضى الحوذى يقول ببرود : « انه يقيم فى « بنتونويل » كلما ذهبنا به الى مسكنه ، ولكننا قلما نأخذه اليـــه بسبب ضعفه » •

وردد المستر بكوك مرتبكا قوله : « بسبب ضعفه »

واستتلى الحوذى يقول : « انه يسقط كلمـــا أخرجناه من المركبة ، ولكنه كلما كان مشدودا اليها ، ممســـوكا بحزم ، مربوطا باحكام ، لا يستطيع الســـقوط ، ولدينـــا زوج من العجلات المتينة فهى تتحرك فى أثره ، اذا هو تحرك فلا حيلة له غير المسير • »

وراح المستر بكوك يدون كل كلمـــة من هذا البيـــان فى مذكرته ، لابلاغها الى النادى ، على أنها مثل فريد لقوة التشبث بالحياة عند الخيل فى ظروف مجهدة ، وما كاد يفرغ من التدوين ، حتى وصلت المركبة الى « مفترق جولدن » فوثب الحوذى من فوق مقعده ونزل المستر بكوك من المركبة ، وتسابق السيد

طبمن ، والمستر سنودجراس والمستر ونكل الى الترحيب به ، وكانوا فى لهفة ينتظرون وصول زعيمهم المجيد .

ومد المستر بكوك يده بالشلن الى الحوذى قائلا : « اليك أجرتك » .

ولشد ما كانت دهشة العالم ، اذ رأى ذلك المخلوق غير المسئول ، يلقى بالشلن على الافريز ويطلب بالكناية والمجاز السماح له بمتعة الدخول معه ــ أى مع المستر بكوك ــ فى عراك ، نظير هذا القدر ، فصاح المستر سنودجراس : « أنت مجنون . »

وقال المستر ونكل : « أو سكران » .

وقال المستر طبمن : « أو كلاهما »

وقال الحوذى مبادرا الى المناوشة : « هيا .. هيا ادخلوا لى أنتم الأربعة كلكم » .

وصرخ بضعة حوذية قائلين : « ذلك أمر عجيب ! هيا يا سام اشتغل » ، وأقبلوا فى فرح بالغ يحيطون بالجمع .

وانبرى سيد فى أكمام سود من البعثة يسأل السائق ما سبب هذه « المعركة » يا سام ؟

قال الحوذى : « عركة ! لماذا يريد ان يدون (رقمى) ؟ »

وقال المستر بكوك فى دهشة : « أنا لم أرد ان أدون (رقمك) . »

فعاد الحوذى يسأله قائلا : « لماذا دونتها اذن ؟ »

وأجاب المستر بكوك بغضب : « أنا لم أدونها • »

وعاد الحوذى يقول مخاطبا النظارة المزدحمين حولهم : « هل يصدق أحد آن « مخبرا » ينتقل فى مركبة انسان ، فلا يدون رقمه فقط ، بل كل كلمة يقولها كذلك ؟ » • وهنـــا لاحت فكرة بخاطر المستر بكوك •• فقد أدرك ان الحوذى يقصـــد « المفكرة »

وانثنى حوذى آخر يسأل : « هل فعل ذلك حقا ؟ »

فأجابه الاول قائلا : « أى والله لقد فعله ، وبعد ان تحرش بى هكذا لمهاجمتى جاء بثلاثة شـــهود هنا للاثبات ، ولـكنى سأعطيها له ولو أخذت فيها ستة أشهر •• هيا •• اقبل على » •• وألقى الرجل قبعته على الارض بلا اكتراث لمتاعه ، وأطار المنظار عن عينى المستر بكوك ، وأتبع ذلك الهجوم بضربة على أنفه ، وأخرى فى صدره ، وثالثة فى عين المستر سنودجراس ، ورابعة على ســبيل التنويع ، فى بطن المستر طبمن ، وانثنى عنهم ليرقص فى وسط الطريق ، ثم يعـــود كرة أخـرى الى الافريز ، وأخيرا يخرج كل ما فى صدر المستر ونكل من الهواء •• كل ذلك فعله فى ست ثوان •

وصاح المستر سنودجراس قائلا : « يا شرطى ! »

واقترح بائع فطير ساخن على الحوذى قائلا : « ضعهم تحت المضخة • »

ولهث المستر بكوك قائلا : « ستلقى على ما فعلت عقابا • »

وصاح النظارة المتألبون عليهم : « مخبرون ! »

وارتفع صوت الحوذى قائلا : وهو يلف ويدور بغير انقطاع: « هيا •• ادنوا منى •• »

وكان الغوغاء قد لبثوا الى تلك اللحظة يشـــاهدون هـــذا المشهد ، غير مشتركين فيه ، ولكن ما كادت كلمة « مخبرين » تنتشر بينهم ، حتى بدأوا يؤيدون بحماسة بالغة تنفيذ اقتراح بائع الفطـــير ، ولا يعلم الا الله مدى العـــدوان الذى كان من الجائز أن يرتكبوه لولا ان انتهت المعركة على غير انتظار بتدخل قادم جديد ٠

فقد انبرى شاب ناحل يكاد يلوح طويلا ، وهو فى سترة خضراء اللون ، وقد خرج فجأة من فنــــاء المركبات ، يقول : « ما هى القصة ؟ »

فعاد القوم يصيحون : « مخبرين ! »

وعندئذ زأر المستر بكوك بلهجة تحمل معها الاقناع لكل سامع مجرد من الهوى ، : « لسنا كذلك ! »

وقال الشاب ، مخاطبا المستر بكوك : « ألستم كذلك ٠٠ ألستم كذلك ؟ » ٠ ومضى يشق طريقه وسط الزحام ، بتلك الحركة التى لا تخطىء الهدف ، وهى دفعه بالمرفق وجوه كل من لقيه فى طريقه ٠

وأنشأ ذلك العالم فى بضع كلمات عاجلة يشرح له حقيقـــة الموقف ٠

وعندئذ قال الشاب ذو السترة الخضراء ، وهـــو يسحب المستر بكوك فى اثره بالقوة ، ويستمرفى الكلام ، وهو منطلق على هذا النحو : « تعال معى اذن ٠٠ وأنت يا رقم ٩٢٤ خـــذ أجرتك ، واذهب وشأنك ٠٠ هذا سيد محترم ٠٠ وأنا أعرفه حق المعرفة ٠٠ هذا كلام فارغ ٠٠ من هنا ياسيدى ٠٠ أين



مستر بكوك يحيي أعضاء النادي

أصحابك ؟ كل هذا نتيجة خطأ كما أرى ٠٠ لا بأس ٠٠ هذه حوادث تقع كل ساعة ٠٠ لأحسن الأسرات ، وخيار الناس ٠٠ لا عليكم ، ولا يهمكم الامر ٠٠ سوء حظ صادفكم ٠٠ شدوه الى مقعده ٠٠ ضعوا هـــذه فى قصبته ٠٠ ليستطيب مذاقه ٠٠ مجرمون ملاعين ٠٠ »

وبهذا الخيط الطويل من العبارات والجمل المتقطعة ونحوها ، مضى الغريب يطلقها بذلاقة وسرعة غير مألوفة ، مشى فى المقدمة صوب « استراحة » الركاب ، يتبعه المستر بكوك ومريدوه ٠

وصاح الغريب ، وهو يدق الجرس بعنف بالغ : « يا غلام ٠٠ هات دورا من البراندى والماء ، ساخنا ، وقويا ، وحلو المذاق، وموفورا ٠٠ هل أصاب عينك أذى ياســـيدى ؟ ٠٠ يا غلام ! قطعة من لحم العجول نيأة لعين السيد ٠ ليس ثمة علاج أفضل للرضوض من هذا اللحم النيىء ياسيدى ٠٠ ان عمـود النور البارد مفيد جدا ، ولكنه غير مريح ٠٠ لانه يقتضي وقوفك فى الشارع فى العراء نصف ساعة ، لاصـــقا عينك بالعمود ٠٠ مفيد جدا ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ وانثنى الغريب دون أن يتمهـــل لحظة ليملك أنفاسه ، يرتشف فى جرعة واحدة نصف لتر من البراندى والماء القراح ، وتهالك على مقعد بكل بساطة ، كأن شيئا غير مألوف لم يحدث اطلاقا ٠

وبينما كان الأصحاب الثلاثة فى شغل شـــاغل ، بتقديم شكرهم لهذا الرجل الجديد الذى عرفوه ، أتيح للمستر بكوك ان يتأمل لباس الرجل ومظهره ، فبـــدا له انه يكاد يلوح أنه ربعة وان جعلته نحافة جسمه ، واستطالة ساقيه ، يبدو أطول كثيرا مما هو فى الواقع ، وكانت السترة الخضراء لباسا رشيقا فى تلك الأيام ، التى شـــاعت فيهـا الأردية ذوات الأذيال

الشبيهة بأذيال « الحطاطيف » ، ولكن الواقع انهـــا ، فى ذلك العهد ، كانت أليق برجل أقصر من هذا الغريب كثيرا ، لأن أردانها القذرة الناحلة اللون لا تكاد تصـــل الى معصـــميه ، وكانت مزررة عليه الى ذقنه تزريرا شديدا ، حتى ليخشى أن تتفتق من الظهر ، وقد زان رقبته بلفافة قديمة ، فلا أثر عليه لبنيقة من قميص ، وقد بدت فى مواضع متفرقة من سراويله القصيرة السود رقعات براقة تتحدث عن طول العهد بالابتذال، وهى مشدودة باحكام الى حذاء مرقع ، كأنما أريد بهـــا اخفاء الجورب الابيض المتسخ ، وان ظهر مع ذلك واضحا للعيان ،وقد أفلتت من شعره الاسود المستطيل موجات مهملة من تحت كل جانب من جوانب قبعته المرقعة ، كما كانت تلوح لمحـات من معصميه العاريين بين أعالى قفازيه وأردان سترته ، وكان وجهه ناحلا شاحبا منهوكا ، وان شاع على الرجل ذاته أثر لا يوصف من جرأة مرحة واعتداد تام بالذات ٠

هذا هو الرجل الذى راح المستر بكوك يطيل النظر اليـه من خـلال منظاره الذى كان لحسن الحظ قد استرده ، وانثنى بعد ان استنفد أصحابه قواهم ، فى التعبير عن شكرهم ، يقدم اليه ، فى عبارات منتقاة ، أصدق الشكر على معونته ٠

ولكن الغريب قاطعه قائلا : « لا بأس ٠٠ كفى ٠٠ ولا مزيد ٠٠ ذلك الحوذى ٠٠ نشيط ٠٠ يحسن استخدام كفه ٠٠ ولو كنت صاحبكم فى هذه المعركة ، فليلعنى الله فى كل كتاب ، اذا أنا لم أكن قد كسرت دماغـــه ٠٠ ليتنى فعلت ٠٠ همس خنزير ٠٠ وبائع الفطير أيضا ٠٠ كلام جد ٠ »

وقطع على الرجل فيض هذا الكلام ، غير الموصول ، دخول

حوذى العربة الحافلة التى ستسافر الى روشيستر . ليعلن ان « الكومادور » على وشك القيام ٠

فلم يكد الغريب يسمع أسم المركبة ، حتى استوى فى دهشة قائمة وهو يقول : « الكومادور » هــذه مركبتى التى حجزت فيها مقعداً لى ، فى خارجها ٠٠ الآن أترككم لتدفعوا ثمن البراندى والماء ٠٠ نريد فكة خمسة ٠٠ نقود فضية رديئة ٠٠ شيء زائف ٠٠ أزرار لا تغنى ٠٠ولا تعنى ٠٠ آه ؟٠

ومضى يهز رأسه هزة الفطن العارف كل شيء وصادف ان المستر بكوك وصحبه الثلاثة كانوا قد انتووا أن يجعلوا « روشيستر » أول محطة ينزلون بها هم أيضا ، فبعد ان أفهموا صاحبهم الجديد ، بلباقة ، انهم مسافرون الى المدينة ذاتها ، اتفقوا على أن يشغلوا المقعد المقام فى ظهر المركبة ، حتى يتسنى لهم جميعا الجلوس معا ٠

وانطلق الغريب يقول للمستر بكوك : « هب ٠٠ اطلع ٠٠ » ومضى يعاونه على الصعود الى السقف فى سرعة بالغة ، حتى لقد كاد يفسد وقار ذلك السيد وجلال سمعته الى حد كبير ٠

وسأل الحوذى الرجل الغريب : « هل معك أمتعة ياسيدى ؟»

فأجاب قائلا : « من ٠٠ أنا ؟ اضمامه فى ورق لف هنا ٠٠ هذا هو كل ما لدى ٠٠ أما الأمتعة الاخرى فقد شحنت في المركب ، صناديق معبأة ، محكمة بالمسامير ٠٠ ضخمة كالبيوت ٠٠ ثقال الوزن ٠٠ فوادح ٠٠ ملعونة ٠٠ » وانثنى ، خلال قوله هذا ، يحشر فى جيبه ما استطاع حشره من الحزمةالملفوفة فى الورق الأسمر ، التى توحى ، فى أغلب الظن ، بأنها تحوى قميصا واحدا ومنديلا ٠

وصاح الغريب الكثير الكلام بأولئك الرفاق محذرا : « احرصوا على رؤوسكم ٠٠ رؤوسكم ! » ٠٠ حين رآهم يجتازون الباب المنخفض الذى كان يقوم فى تلك الايام ويوصل الى فناء المركبات ٠

واسترسل يقول : « موضع بشع ٠٠ بناء خطر ٠٠ منذ أيام ٠٠ خمسة أطفال وأمهم ، سيدة طويلة ، وهى تأكل « الشطائر » ٠٠ فنسيت الباب ٠٠ طاخ ٠٠ الاولاد يتلفتون حولهم ٠٠ واذا برأس الأم ، يطير عن جسدها ، والشطائر فى يدها ٠٠ لم يعد هناك فم تدخل فيه ٠٠ رأس أسرة يطير فى الفضاء ٠٠ منظر بشع ٠٠ بشع ٠٠ ألا تنظر ياسيدى الى هوايتهول ؟٠٠ موضع بديع ٠٠ شرفة صغيرة ٠٠ لقد طار رأس انسان آخر هنا ٠ أليس كذلك ياسيدى ؟٠٠ لأنه هو أيضا لم يحاذر كثيرا ولم ينتبه ٠٠ أليس كذلك يا سيد ؟ »

وقال المستر بكوك : « أننى اللحظة أفكر فى عجيب الصروف والتقلبات التى تتعرض لها شئون الناس وأمورهم ٠

وأجاب الغريب قائلا : « آه ٠٠ قل لى هذا ٠٠ على باب القصر يوما ، ويوما آخر يلقى من الشرفة ٠٠ أفيلسوف أنت ياسيدى ؟ »

قال : « مجرد ملاحظة للطبيعة البشرية وغرائبها ياسيدى »

وأجاب الغريب : « آه ٠٠ وأنا كذلك ، وأكثر الناس هكذا ، هذا شغل من ليس له شغل ٠٠ وأنت ياسيد ٠٠ أشاعر ؟ »

فأجابه المستر بكوك بقوله : « ان لصديقى المستر سنودجراس نزعة قوية الى الشعر »

وقال الغريب ·· وأنا كذلك ·· ولى ملحمة فى عشرة آلاف بيت ، نظمتها فى ثورة يوليو ·· ووضعت أبياتها فى محل الواقعة ·· عطارد نهارا ، وأبوللو ليلا ·· ضرب من مدافع الميدان ·· وشعر غناء وألحان ·· »

وانبرى المستر سنودجراس قائلا : « أكنت حاضرا ذلك المشهد المجيد يا سيد ؟ »

قال : « حاضرا · أحسبنى كذلك (١) ، وأطلقت فيه النار من بندقية ·· وكان اطلاقى عن فكرة ·· ثم اندفعت الى حانة شراب ·· فكتبت القصيدة ·· ثم عدت ·· طاخ ·· طاخ · فكرة أخرى ·· والعودة ثانية الى الحانة ·· الى القلم والدواة ·· عدت كرة أخرى ·· طعن وضرب ·· أيام رائعة ياسيدى »

والتفت فجأة الى المستر ونكل فسأله : « أرياضى أنت ياسيدى ؟ »

فأجاب ذلك السيد بقوله : « قليلا يا سيدى »

قال : « ولوع جميل ياسيدى ·· ولوع جميل ·· أكلاب ياسيدى ؟ »

قال : « ليس الآن »

قال : « آه ·· يجب ان تقتنى كلابا ·· حيوانات جميلة ·· مخلوقات ذكيه .. كان لى يوما كلب .. من نوع « البوينتر(٢) » المؤشر ـ غريزة مدهشة ·· خرجت به يوما للصيد ·· فلقينا فى طريقنا أرضا فضاء مسورة ·· أطلقت له صفيرا ·· فوقف

---

(١) هذا مثل عجيب لقوة النبوءة فى خيال الرجل ·· فان هذا الحوار جرى فى عام ١٨٢٧ والثورة وقعت فى عام ١٨٣٠

(٢) نوع من كلاب الصيد ، تسير وأنوفها الى الارض تشتم الصيد

الكلب عن المسير ·· وعدت أصفر له ·· بونتو لا يريم ·· وقف جامدا لا يتحرك ·· ناديته بونتو ·· بونتو ·· لا يبغى حراكا ·· كأنما قد وخز وخزا ·· وقف يحملق فى لوح ·· تطلعت الى اللوح ·· رأيت هذه العبارة مكتوبة عليه « لدى الحارس أوامر باطلاق النار على كل كلب يدخل هذه الارض المسورة » ·· هذا هو سر وقفته ، لا يريد اجتياز ذلك اللوح ·· انه لكلب عجيب ·· كلب قيم ·· جدا »

قال المستر بكوك : « ظرف غريب هذا ·· أتسمح لى ان أدونه ؟ »

قال : « بلا شك ·· يا سيدى ، بلا شك عشرات أخرى من النوادر والحكايات عن هذا الحيوان ، ان أردت »

واستدار الغريب نحو المستر تراسى طبمن وكان هذا منشغلا بالقاء نظرات منافية للمبادىء البكويكية ، على فتاة فى الطريق فقال : « بنت حلوة ياسيدى ؟ »

فأجاب المستر طبمن : « جداً »

قال : « بنات الانجليز لسن فى مثل جمال بنات الاسبان ·· مخلوقات نبيلات ·· شعر فاحم ·· أعين سود · أجسام محببة ·· مخلوقات حلوة ·· حسان »

فسأله المستر طبمن قائلا : « أزرت أسبانيا يا سيدى ؟ »

قال : « عشت فيها ·· أجيالا »

قال : « أولك فيها غزوات كثيرة ياسيدى ؟ »

قال : « غزوات ·· آلاف ··دون بولارو فزجيج ··جراندى ·· له ابنة وحيدة ·· ألدونا كريستينا ·· انسانة بديعة ·· أحبتنى الى حد الوله ·· الوالد غيور ·· بنت رفيعة النفس··

انجليزى وسيم ·· يتولى اليـأس قلب أندونا كريستينا ·· تتناول حمض « البروسيك » ·· فى حقيبتى جهاز لغسيل المعدة ·· اجراء عملية لها ·· الشيخ بولارو فى فرح بالغ ·· يوافق على الزواج ·· مصافحة وفيض عبرات ·· قصة رائعة ·· جدا ·· »

وعاد المستر طبمن وقد تأثر بوصف مفاتنها بالغ التأثر يسأله : « هل السيدة فى انجلترا الآن ياسيدى ؟ »

قال الغريب : وهو يضع على عينه اليمنى بقية صغيرة من منديل حريرى قديم : « ماتت ياسيدى ·· ماتت ·· لم تشف من غسيل المعدة ·· تحطمت بنيتها ·· راحت ضحية »

فسأله الشاعر سنودجراس : « وأبوها ؟ »

وأجاب الغريب : « ندامة وفجيعة ·· اختفاء فجائى حديث المدينة كلها ·· البحث فى كل مكان ·· بلا جدوى ·· نافورة عامة فى الساحة الكبرى تكف فجأة عن النفث ·· أسابيع تنقضى ·· لا تزال منقطعة عن نفثها ·· يدعى العمال لتنظيفها ·· ينزحون مائها ·· يعثرون على جثة عمى ، محشورة الرأس فى المضخة الرئيسية ·· واعتراف مفصل فى جوف نعله الأيمن ·· أخرجوه ·· عادت النافورة تنفث الماء كما كانت·»

وقال المستر سنودجراس من فرط تأثره : « هل لى انأدون هذه القصة الغرامية الصغيرة ياسيدى ؟ »

قال : « بلا شك ياسيدى ، بلا شك ، وخمسين أخرى اذا شئت لها سماعا ·· غريبة كقصتى ·· رواية غريبة ·· ليست خارقة للمألوف ·· ولكن فريدة »

وعلى هذا النحو مضى الغريب فى الحديث ، بين كؤوس من شراب تتخلله ، كلما وقفت المركبة لتغيير الخيل ، حتى وصلوا الى جسر روشستر ، وكانت مذكرتا المستر بكوك والمستر سنودجراس قد امتلأتا بمختارات من هذه الاحداث كل الامتلاء ٠

وانثنى المستر أجستس سنود جراس يقول بكل الحماسة الشعرية التى امتاز بها ، حين ألموا على الحصن القديم الباذخ فى المدينة : « يا له من طلل عظيم ! » ٠ وكانت الكلمات التى خرجت من فم المستر بكوك وهو يرفع المنظار المعظم الى عينه ٠ « انها لدراسة خليقة بأن يتولاها عالم من علماء الآثار ٠ »

وقال الغريب : « آه ٠٠ موضع بديع ٠٠ بناء مجيد ٠٠ جدران عابسات ٠٠ أبواب متداعية ٠٠ أركان مظلمة ٠٠ مدارج متهاوية ٠٠ كنيسة قديمة أيضا ٠٠ رائحة ترابية ٠٠ أقدام الحجيج أبلت السلم القديم ٠٠ أبواب سكسونية صغيرة ٠٠ كراسى اعتراف كشبابيك تحصيل النقود فى المسارح ٠٠ أولئك الرهبان زبائن غريبو الاطوار ٠٠ باباوات وأمراء خزائن ، وكل صنوف الشيوخ والهرمين ، بوجوههم العراض الحمر وأنوفهم المهشمة ٠٠ يتوافدون فى كل يوم ٠٠ أردية مزردة كذلك ٠٠بنادق ذوات أزندة ٠٠ توابيت موتى٠٠ موضع بديع ٠٠ وأساطير قديمة كذلك ٠٠ وقصص غرائب٠٠ شيء مفتخر ! » ومضى الغريب فى هذه المناجاة حتى وصلوا الى فندق الثور ــ بول ان ــ فى شارع « هاى ستريت » حيث وقفت المركبة عن المسير ٠٠

وسأله المستر نتنايل ونكل : « أنازل هنا يا سيدى ؟ »

قال : « هنا ‥ كلا ولكن لخير لكم ‥ منزل طيب ‥ وسرر ممتعة ‥ أما منزل « رايت » الملاصق ، ففادح الأجر ‥ فادح جدا ‥ ولكنه نصف كراون فى فندق الثور ، اذا أخذت بالك من الخادم بزيادة فى الأجر اذا أنت تغديت عند صديق ، أكثر مما لو تناولت الطعام فى المقهى ‥ أناس عجيبون ‥ جدا »

والتفت المستر ونكل الى المستر بكوك وغمغم ببضع كلمات، وتبادل المستر بكوك والمستر سنودجراس الهمس ، وتهامس المستر سنودجراس والمستر طبمن ، وتبادل القوم هز الرؤوس هزة الموافقة ·

ووجه المستر بكوك الخطاب الى الغريب ·

قال : « لقد أسديت الينا صنيعا كبيرا جدا فى هذا الصباح يا سيدى ، فهل تأذن لنا فى تقديم دليل يسير على عرفاننا لك وشكرنا ، بالتماس حظوة الجلوس اليك على الغداء »

قال : « بكل سرور ‥ لا أقصد ان أفرض شيئا عليكم ‥ ولكن دجاجة مسلوقة وعش الغراب ‥ شىء فاخر ‥ كم الساعة ؟ »

قال المستر بكوك وهو ينظر الى ساعته : « دعنى أنظر ‥ انها الآن تقارب الثالثة ‥ هل نقترح الخامسة مثلا ؟ »

قال : « يوافقنى هذا الموعد كل الموافقة ‥ الخامسة بالضبط ‥ والى أن نلتقى خذوا بالكم من أنفسكم »

ومضى الغريب يرفع القبعة المطبقة بضع بوصات من فوق رأسه ، ثم أعادها باستخفاف الى موضعها ، منحرفة كثيرا الى ناحية ، وانطلق فى خفة يجتاز الفناء ولا يزال نصف الاضبارة

الملفوفة فى الورق الأسمر بارزا من جيبه ، واتجه صوب شارع « هاى ستريت »

وقال المستر بكوك : « الظاهر انه جوابة تنقل فى عدة أقطار ، ودقيق الملاحظة لأمور الناس والاشياء »

قال المستر سنودجراس « : وددت لو اطلعت على قصيدته »
وقال المستر ونكل : « وذدت لو انى شاهدت ذلك الكلب »
أما المستر طبمن فلم يقل شيئا ، وانما ذهب خاطره فى اثر « ألدونا كريستينا » ومغسل المعدة والفوار ، وقد امتلأت عيناه بالعبرات ·

وبعد أن آنتهى الجمع من استئجار حجرة جلوس خاصة ، ومعاينة غرف النوم ، والتوصية بتهيئة الطعام ، خرجوا الى الطريق لمشاهدة معالم المدينة وما يحيط بها ·

ولسنا نجد من مطالعتنا الدقيقة للملاحظات التى دونها المستر بكوك عن آلمدن الأربع ، استراود ، وروشستر وشاتم وبرومتون ، اختلافا يذكر فى مبلغ آثارها فى نفسه عن أى تأثير لها فى نفوس الآخرين من المسافرين الذين زاروا تلك المدائن ، فلا يصعب علينا تلخيص وصفة العلم لها ·

فقد كتب آلمستر بكوك فى مذكراته يقول : « انه ليلوح لى أن أهم ما تنبت هذه المدن جنود وبحارة ويهود ، وطباشير ، وبراغيث بحر ، وضباط وعمال أحواض ، وأما السلع المعروضة للبيع فى الطرقات فهى فى الأغلب الأعم أمتعة بحرية ، وخبز يابس وتفاح ، وسمك موسى ومحار «جندوفلى»، وتبدو الشوارع ملآى بالحياة والحركة ، ومردهما غالبا الى مرح العسكريين ومجونهم ، وانه لبهيج حقا لمن أوتى خاطرا

نزاعا الى حب الخير ان يشهد أولئك الخلائق الأوداء وهم مترنحون من اثر الافراط فى أكل اللحوم وشرب الكحول الشديد ، ولا سيما اذا تذكرنا ان السير فى أثرهم والممازحة معهم كفيلان بلهو رخيص ، ومتعة بريئة للغلمان من أهل المدينة . »

وواصل المستر بكوك قوله فى مذكراته : « ولست أحسب شيئا يمكن ان يفوق خفة روحهم ، فقد حدث فى اليوم السابق لوصولى ان أحدهم أهين أشد الاهانة فى حانة اذ رفضت الساقية بتاتا ان تقدم له شرابا أكثر مما تعاطى ، فما كان منه لمجرد التسلية الا أن أخرج « سونكته » من غمدها وجرح الفتاة فى كتفها ، وكان هذا الفتى البديع أول من قصد الى الحانة فى غداة اليوم التالى وأبدى استعداده للتغاضى عن المسألة ونسيان ما جرى .

ومضى المستر بكوك يقول فى مذكراته : « وأكبر ظنى ان استهلاك التبغ فى هذه المدائن كبير جدا ، وان الرائحة التي تعم الشوارع تتجاوز الحد فى الزياوة والعبق فى أنوف المولعين بالتدخين المفرطين فيه ، وقد ينفر المسافر الذى لا يعنى بغير المسائل السطحية من القذر الذى هو من أخص خواص هذه المدن ، ولكنه يبدو سارا مرضيا لمن يكسبه دليلا على كثرة الحركة فيها ورخائها التجارى ..

وفى تمام الخامسة قدم الغريب ، وأعد الطعام بعد قليل . وكان قد تخلص من اضمامة الورق الأسمر الملففة ، وان لم يحدث تغييرا فى لباسه ، وانقلب أكثر ثرثرة من قبل .

قال وقد رأى الغلام يرفع أحد الأغطية : « ما هذا ؟ »

فأجابه الغلام : « سمك موسى يا سيدى »

ـ سمك موسى ٠٠ آه هـــذا سمك فاخر ٠٠ يأتى كله من لندن ٠٠ ان أصحاب الحــافلات يعـــاونون فى اقامة المآدب السياســـية ٠٠ مركبات ملأى بسمك موسى ٠٠ عشرات من السلال ٠٠ انهن مكرة ٠٠ كأس من النبيذ يا سيدى ٠٠

وقال المستر بكوك : « بكل سرور »

وبدأ الغريب بكأس نبيذ مع المستر بكوك أولا ثم أخرى مع المستر سنودجراس،وثالثة مع المستر طبمن ، ورابعة معالمستر ونكل ، وخامسة مع الجمع كلهم ، فى عجلة تكاد تشبه عجلته فى الكلام ٠

وانثنى الى الغلام فقال : « زحمـــة ملعونة على السلم ٠٠ يا غلام ٠٠ أشباح تصعد ونجارون يهبطون ٠٠ مصـــابيح وأقداح ومعازف ٠٠ ما الخبر ؟ »

فأجاب الغلام : « مرقص يا سيدى »

قال : « اجتماع ؟ »

أجاب : « كلا ياسيدى ليس اجتماعا ٠٠ بل مرقص خيرى يا سيدى » ٠

وهنا انثنى المستر طبمن يسأل باهتمام بالغ : « أفى هذه المدينة نساء حسان كثيرات ؟٠٠ هل تعرف ياسيدى ؟ »

فصاح الغريب : « بديع ٠٠ مفتخر ٠٠ انهـــا « كنت » ياسيدى ٠٠ كل انســـان يعرف « كنت » بشهرة تفاحهـــا وكرزها وحشيشة دينارها ونسائها ، ألك فى كأس من النبيذ يا سيدى ؟ »

فأجاب المستر طبمن : « بكل سرور »

وراح يملأ الكأس ويفرغها

وعاد المستر طبمن الى موضوع «الرقص» فقال « احب كثيرا أن احضره ·· كثيرا جدا »

وعاجله الغلام بقوله « التذاكر عند مكان الشرب يا سيدى·· التذكرة بنصف جنيه يا سيدى »

فعاد المستر طيمن يبدى رغبة صادقة فى حضور السيد المرقص ، ولكنه لم يجد استجابة له فى عين المستر سنوجراس العابسة ، ولا فى نظرة المستر بكوك الذاهلة ، فأقبل باهتمام بالغ على النبيذ والنقل الذى كان قد وضع منذ لحظة فوق المائدة ·

وقفل الغلام راجعا ، وخلا الجمع للاستمتاع بساعتين هنيئتين قضياها فى عشاء موفق ·

وانبرى الغريب عندئذ يقول « عفوا يا سيدى ان الزجاجة واقفة ·· أدرها علينا ·· فى اتجاه الشمس ·· خلسا لا تدع لها من ثمالة ·· وراح يفرغ كأسه وكان قد اترعها شرابا منذ دقيقتين أو نحوهما ، وملأ أخرى ، ملأة رجل عريف بالشراب ، عاف عليه ·

وطاف النبيذ على الجمع ، وطلبوا مزيدا ، وطفق الضيف يتكلم ، والبكويكيون يستمعون ، وكلما مرت لحظة ازداد المستر طبمن ميلا الى حضور المرقص ، وطفح محييا المستر بكوك بشرا وحباللخير العام ،بينماذهبالمستر ونكل ،والمسترسنود جراس فى سبات عميق ·

وانثنى الغريب يقول « لقد بدأوا فى الطبقة العليا مهرجانهم ·· ألا تسمعون أنغام الكمان ·· ها هو ذا المعزف ·· لقد بدأوا ·

وكانت الاصوات والانغام المختلفة التى وجدت طريقها الى الطبقة الدنيا ايذانا بابتداء الرقصة الاولى ·

فعاد المستر طبمن يقول ما أشوقنى الى الذهاب ·

وأجاب الغريب · وأنا كذلك ·· ولكن أمتعتى عليها اللعنة لم تصل بعد ·· الشحنات ثقال ·· ليس عندى ماارتديه لادخل ، أمر غريب · أليس كذلك ؟؟

وكان حب الخير من المعالم البارزة للنظرية البكويكية ، ولم يكن أحد أكثر حماسة ، وأجلى غيرة ، فى مراعات هذا المبدأ ، من المستر تراسى طبمن حتى لا يكاد أمرء يصدق كثرة الشواهد والأمثلة المدونة فى محاضر جلسات النادى ، على ما كان هذا الرجل المتناهى فى حب الخير ، وايتاء البر ، يرسله من الخيرات والصدقات الى بيوت أعضاء آخرين ، أو يتركه من ثياب ، أو يبادر به من معونة مالية

فلا عجب اذا هو انثنى يقول « انى ليسعدنى ان أعيرك حلة من ثياب لهذا الغرض ، ولكنى أراك نحيفا ، وأرانى ·· »

فعاجله الغريب قائلا : « سمينا كياخوس البدين (١) وهو يقطع الأوراق ، ويترجل من فوق القصعة ، فى رداءة مختارة من صوف خشن ·· آه ؟ غير مقطر مرتين ، بل مطحون طحنتين ·· ها ·· ها ·· أدر النبيذ ·· »

---

(١) اله الخمر عند قدماء الاغريق

ولسنا ندرى الى الآن على وجه اليقين، هل أحس المستر طبمن شيئا من الغضب من تلك اللهجة الجدية الآمرة التى طلب بها اليه أن يدير النبيذ الذى طواه الغريب سريعا فى جوفه ، أم أحس انه قد ازرى فعلا به ، وهو العضو الكبير النفوذ فى نادى بكوك ، اذ شبه على هذه الصورة المعيبة بباخوس المترجل عن قصعته ، ولكنه أدار النبيذ ، وسعل سعلتين ، ولبث ينظر الى الرجل عدة ثوان ، بتجهم شديد ، وعبوس ظاهر ، بينما بدا هذا هادئا كل الهدوء ، ساكنا كل السكينة ، تحت نظرته الفاحصة وحدجته القاسية

وخف ما به شيئا فشيئا ، فعاد الى حديث المرقص

قال « لقــد هممت أن أقول لك يا سيدى انه اذا كان ثوبى عليك واسعا مفرط السعة ، فلعل ثوب صديقى المستر ونكل أليق عليك وأصلح سمتا » ..

وانثنى الرجل الغريب يأخذ مقاس المستر ونكل بنظراته ، وما لبث أن تهللت منه الأسارير رضى وارتياحا وهو يقول : « بالضبط » !

ونظر المستر طبمن حوله فتبين له أن النبيذ الذى أحدث تأثير المنوم، الشديد التخدير ،فى كل من المستر سنودجراس والمستر ونكل ، قد دب دبيبه فى حــواس المستر بكوك فان ذلك السيد راح ينتقل رويدا من مختلف المراحل التى تسبق الغيبة ، من تأثير الطعام ومعقباته ، وتحول الى مرحلة الانتقال العادية من ذروة الفرح والمرح الى غور الاكتئاب ، ومن غــور الاكتئاب الى ذروة الفرح والمرح ، وبدا لحظة كمصباح الغاز فى الطريق ساطعا وهاجا ، الى حد غير طبيعى ، ثم هبط حتى كاد نوره يتوارى وبريقه يخبو ، وما هى الافترة قصيرة حتى توهج

مرة أخرى هنية ، ليعود فيرفرف ، ويخفق ،مرسلا ضوءا مترنحا مترقصا ، واذا هو فى النهاية ينطفىء جملة واحدة ، فقد تراخى رأسه على صدره ، ولم يعد من دليل مسموع على وجود ذلك الرجل العظيم غير غطيطه المستمر ، الا من حشرجة عابرة بين الحين والحين

وكان عامل الاغراء بمشاهدة الرقص ، ولتكوين فكرة عن حسان نساء « كنت » قويا فى نفس المستر طبمن ، كما كان كذلك شديدا فى نفس الرجل الغريب ،فقد كان المستر طبمن يجهل هذا الموضع كل الجهل ، ولا يعرف شيئا مطلقا عن أهله وسكانه ، بينما بدا له ان الغريب عليم بهما كل العلم ، كأنه أقام فى تلك الجهة منذ طفولته ٠

وكان المستر ونكل نائما ، وقد أوتى المستر طبمن قدرا كافيا من الخبرة بهذه المسائل ، فلا يخفى عليه أن صاحبه لا يكاد يفتح عينيه ، وينتبه من غفوته ، حتى ينطلق بالطبع متثاقلا الى فراشه

ولكنه لبث مترددا لا يقطع فى الأمر برأى ٠ وسمع الضيف الذى لايكل ولا يمل يقول : «املأ كأسك وأدر الزجاجة ٠ » ففعل ٠٠ وجاء تأثير الكأس الأخيرة ، فأزال بقية ما فى نفسه من التردد ، وحفزه الى الاعتزام ـ فأنشأ يقول « ان غرفة نوم المستر ونكل داخل غرفتى ،ولن يتيسر لى أن أشرح له ما أريد اذا أنا أيقظته الساعة ، ولكنى أعرف أن لديه ثوب سهرة ، قد أودعه جوف حقيبة من قماش ، فأى بأس من ارتدائك اياه لدخول المرقص ، وخلعه عنك عند عودتك ، فأرده الى صفه ، دون حاجة الى ازعاجه بهذا الأمر ونحوه ؟

قال : « انها لفكرة بديعة بحق ٠٠خطة بارعة ٠٠ ! ياله من

موقف لعين ·· أربع عشرة حلة فى الصناديق ·· وأضطر الى ارتداء ثوب رجل آخر ·· فكرة حسنة جدا ·· هذه ·· حسنة جدا · »

وقال المستر طبمن : « لنشتر التذاكر اذن »

قال : « الأمر لايستحق فك جنيه من أجله ·· فلنعمد الى القرعة ،لنرى من الذى يدفع عن نفسه وصاحبه معا ·· سأنادى ·· وأنت تدبر ·· وسأختار أنا المرأة ·· المرأة ·· هيا أيتها المرأة الساحرة !

وهوى الجنيه ثم استقر ، فاذا المرأة هى العليا ·· أو على الأصح « الحية المجنحة » وان سماها الرجل «المرأة» من قبيل الأدب والمجاملة

ودق المستر طبمن الجرس ، فابتاع التذكرتين ، وأمر باحضار شموع

ولم ينقض ربع ساعة ، حتى كان الرجل الغريب قد انتهى من ارتداء ثوب المستر ونكل بكامل طاقمه

وراح المستر طبمن يقول للغريب وهو يتطلع الى شكله بارتياح بالغ فى المرآة : « انه ثوب جديد ، وهو الأول من نوعه الذى فصل تفصيلا وعليه شارة نادينا » ومضى يسترعى نظر صاحبه الى الزرار الكبير المذهب على الصدر ، والذى نقشت فى وسطه صورة نصفية للمستر بكوك ، وعلى جانبيه الحرفان « ن · ب »

وقال الغريب : « ن٠ب ٠٠ صورة عجيبة ٠٠ تامة الشبه بالشيخ ٠٠ ن ٠ ب ٠٠ وماذا تعنى ن ٠ ب هذه ؟

باهرة ٠٠ ؟؟ ايه (١)

فأنشأ المستر طبمن فى غيظ متزايد واعتداد بالغ ، يشرح له المعنى المراد

وانثنى الرجل الغريب يقول : « ألا ترى أنها ضيقة من الخصر نوعا ما ٠٠ أليست كذلك ؟ »

قال هذا وهو يدور حول نفسه ليرى فى المرآة أزرار الخاصرة، وقد بدت فى منتصف الطريق الى أعلى ظهره ، وعاد يقول : «كأنها ثوب مأمور البريد ٠٠هذهسترات غريبة ٠٠ معمولةبعقد، فلا قياس ولا أخذ أبعاد ، ما أغرب تصريف العناية الالهية ٠٠ كل القصار يعطون ثيابا طوالا ٠٠ وكل الطوال يعطون ثيابا قصارا

وعلى هذا النحو انطلق صاحب المستر طبمن ، أو رفيقه الجديد ، فى ثرثرته ، وهو يصلح من ثوبه ، أو على الأصح، من ثوب المستر ونكل ، حتى اذا انتهى ، صحب المستر طبمن وذهبا يصعدان السلم المؤدى الى قاعة الرقص

وقال الرجل الواقف بالباب : « الأسماء ٠٠ من فضلك »

وتقدم المستر طبمن ليعلن عن نفسه ، ولكن الرجل الغريب منعه قائلا : « لا أسماء مطلقا ٠٠ » وأقبل يهمس للمستر طبمن:« انالاسماء لاتجدي ، اذا كانت غير معروفة ٠قد تكون حسنة في ذاتها ٠٠ ولكنها ليست أسماء كبيرة ٠٠ قد تصح الاسماء المعروفة فى حفلة صغيرة ، ولكنها لا تحدث تأثيرا فى

---

(١) ن ٠ ب أى نادى بكوك ٠

الحفلات والاجتماعات العامة ٠٠ فلنتنكر ٠٠ هذا خير وأفضل ٠٠ سيدان من لندن ٠٠ أجنبيان كبيران ٠٠ أى شيء ٠٠ »

وفتح الباب ، ودخل المستر طبمن والغريب قاعة الرقص

وكانت حجرةطويلة،صفت فيها أرائك مكسوة بأغطيةقرمزية اللون ، ونصبت خلالها الشموع فى ثريات زجاجية ، وكان الموسيقيون جلوسا وحدهم فوق منصة عالية ، وقد حوت الحلبة زوجين أو ثلاثة أزواج من الراقصين على أنغام المعازف ، وقد وضعت منضدتان للميسر ، فى غرفة مجاورة خصصت للعب الورق ، وبدأت أربع سيدات متقدمات فى العمر ،ومثل عددهن من الرجال البدنيين ، منهمكين فى المقامرة

وانتهى الرقص ، وانطلق الراقصون يتنقلون فى ارجاء القاعة ، واتخذ المستر طبمن ورفيقه مكانا لهما فى ركن ، ليتفقدا القوم

وقال الغريب : « انتظر لحظة ٠ لا يلبث الفصل البديع ٠٠ أن يبدأ ٠٠ معاشر الوجهاء والسادات لم يحضروا بعد ٠٠ هذا بلد غريب ٠٠ أصحاب الطبقة العليا من أهل أحواض السفن لا يعرفون الطبقة الدنيا ٠٠ وهؤلاء لا يعرفون صغار السادات ٠٠ وصغار السادات لا يعرفون أرباب الحرف والمهن ٠٠ والوكيل لا يعرف أحدا

قال المستر طبمن : « ومن يكون ذلك الغلام الصغير ، ذو الشعر الأشقر والعينين القرنفليتين ، الذى يبدو فى ثوب تنكرى ؟

فأجاب الغريب قائلا : « صه ٠٠ أرجوك ٠٠ العينان القرنفليتان ، والثوب المستعار ٠٠ والغلام الصغير ٠٠ هراء ٠٠

شارة الآلاى السابع والتسعين ٠٠ هذا الشريف ويلموت سنايب ٠٠ أسرة عظيمة ٠٠ آل سنايب ٠٠ عظيمة جدا ٠٠

وفى هذه اللحظة صاح الرجل الواقف بالباب بصوت عال . « السير توماس كلابر والسيدة كلابر والآنسة كلابر » ، واذا ضجة تسرى فى أرجاء القاعة على دخول سيد فارع القد فى ثوب أزرق وأزرار براقة ، وسيدة ضخمة فى ثوب حريرى أزرق ، وشابتان من الوزن عينه فى ثياب مهندمة ، من اللون ذاته

وهنا همس فى أذن المستر طبمن : « الوكيل ٠٠ رئيس الاحواض ٠٠ رجل عظيم ٠٠ رجل عظيم الى حد كبير ٠٠ وكان أعضاء اللجنة الخيرية قد أفسحوا الطريق أمام السير توماس كلابر وأسرته الى صدر القاعة ، وتزاحم الشريف ويلموت اسنايب وغيره من السادات الاعلام ليؤدوا التحيات للآنستين كلابر ، بينما وقف السير توماس كلابر منصوب القامة ، وراح ينظر بجلال من فوق لفافة عنقه السوداء الى المجتمعين من حوله .

ولم تمض لحظة أخرى حتى نادى المنادى : « المستر اسميثى ٠٠ والسيدة اسميثى ٠٠ والآنستان اسميثى ٠٠

فسأل المستر تراسى طبمن رفيقه : « ومن يكون المستر اسمثى ؟ »

قال : « انسان ما فى الاحواض »

وانحنى المستر اسميثى باحترام للسير توماس كلابر ، ورد السير توماس كلابر على التحية بتنازل ظاهر ، وألقت الليدى كلابر نظرة « تلسكوبية » على آل اسميثى ، من خلال منظارها ، وحملقت مسز اسميثى ، بدورها ، البصر فى سيدة أخرى سواها لم يكن زوجها قط فى زمرة أهل الاحواض وأصحابها

وأقبل على أثر هؤلاء آل بولدر ٠٠ الاميرالاى بولدر ومستر بولدر ، ومس بولدر

وأجاب الرجل الغريب على نظرة التساؤل التى بدت فى عين المستر طيمن بقوله « قائد الحامية ٠٠ »

واستقبلت الآنستان كلابر الآنسة بولدر بترحيب حار ، وكان السلام الذى تبودل بين مسز بولدر والليدى كلابر أبلغ ما يكون حرارة ومودة ، بينما تبادل الاميرالاى بولدر والسير توماس كلابر حق « النشوق » ، وبدا كل منهما على حد قول الكسندر سلكيرك فى مطلع القصيدة المعروفة : « أنا الملك على كل ما يقع عليه ناظرى ٠٠ » (١)

وبينما كان سادات الحفل ، آل بولدر ، وكلابر ، واسنايب على هذا النحو محافظين على وقارهم فى صدر القاعة ، كان غيرهم من أهل الطبقات المختلفة فى المجتمع يحاولون الاقتداء بهم ، فى أرجاء أخرى منها ، ومضى ضباط « الآلاى » السابع والتسعين ، ومن هم دون أولئك عراقة وجاها يتوددون لنساء من هم أقل شأنا ، بين موظفى الأحواض وكبار العاملين فيها ، كما انثنت زوجات « الوكلاء » والمحامين ، وزوجة تاجر النبيذ، يرأسن طبقة أخرى (وكانت امرأة تاجر الجعة تزور آل بولدر فى دارهم) والظاهر أن مسز توملينسن، زوجة وكيل البريد قد وقع عليها الاختيار بالاجماع رئيسة لطبقة التجار وأرباب المهن ٠

وكان من أبرز الشخصيات فى دائرته وأرمقها مكانة ، رجل

---

(١) مطلع قصيدة « الكسندر سلكيرك » للشاعر وكيم كوبر ٠

قصير القامة بدين ، له حلقة من الشعر الاسود ، ملتفة حول رأسه ، وصلعة مستديرة جرداء على أم ناصيته · ويدعى الدكتور « سلامر » الطبيب فى الآلاى السابع والتسعين وقد مضى يتبادل النشوق مع كل انسان ، ويتحدث الى كل انسان ويضحك ويرقص ، وينكت ، ويلعب الميسر ، ويفعل كل شىء، ويتراءى فى كل مكان ، وقد جمع هذا الطبيب القصير كل هذه « الفعال » على كثرتها ، فعلة أخرى أهم منها جميعا وأكبر شأنا ·· وهى الالحاح فى غير كلال على تقديم أوفر نصيب ، وأغزر قسط لا ينفذ ، من الرعاية والاحتفال ، الى أرملة عجوز قصيرة ينم ثوبها النفيس ، ويشف افراطها فى الزينة والحلى ، عنها كأشهى غنيمة لذى دخل محدود ·

وظل نظر المستر تراسى طبمن ،وصاحبه ، فترة من الوقت ، يستقر على الطبيب والارملة ، ولم يلبث الرجل الغريب فجأة أن بدد الصمت بقوله : « مال وفير ·· هذه العجوز ·· هذا الطبيب الفخور المتباهى ·· فكـرة لا بأس بها ·· لعبة طيبة ··

ونظر المستر طبمن الى الغريب ، وهو منطلق فى هذه العبارات الغامضة ، نظرة المستفسر المتسائل · فقال هذا : « سأرقص مع هذه الأرملة »

قال : « ومن تكون ؟ »

قال : « لا أدرى ·· مارأيتها من قبل فى حياتى ·هذا الطبيب لعنه الله ·· ها هو ذا ينصرف »

واجتاز الغريب القاعة مسرعا ، فاستند الى رف موقد وراح يطيل النظر فى اعجاب موقر حزين الى وجه تلك السيدة

القصيرة العجوز ، ولبث المستر طبمن يشاهد هذا المنظر ، فى دهشة صامتة

وتقدم الغريب فى سبيل تحقيق مآربه بخطوات سراع ،فقد كان الطبيب فى تلك اللحظة يراقص سيدة أخرى ، وسقطت المروحة ، من يد الأرملة ، فأسرع الغريب فى التقاطها ، وقدمها اليها ، فكان الابتسام ، فانحناء ، فتحية ، فكلام • ومضى الغريب بجرأة الى رئيس الاحتفال ، وعاد به ، وتلا ذلك تعارف صامت ، واذا الغريب ومسز بادجر يأخذان مكانهما فى دور رقص •

وكانت دهشة الطبيب تتجاوز ، الى حد لا يوصف ، دهشة المستر طبمن ، من هذا التصرف السريع ، على شدة هذه الدهشة نفسها ، فقد كان الغريب شابا فى نضارة العمر ، فلا عجب اذا بدأت الأرملة مزهوة فرحة به • فلم تعد تأبه بتلطف الطبيب وتحببه اليها ، ولم يجد غضبه مطلقا على مزاحمه البادىء الذى لبث ساكنا لا يعبأ بتاتا •• فقد وقف الطبيب جامدا فى مكانه كأنما أصابه الشلل •• أفمثله وهو الدكتورسلامر، طبيب الآلاى السابع والتسعين، ينطفىءنوره فى لحظة ويخبو ضرامه ، من رجل لم يره من قبل أحد ولايعرفه أحد حتى الآن ؟ ! الدكتور سلامر •• الدكتور سلامر من الآلاى السابع والتسعين يلفظ وينبذ على هذه الصورة ! •• مستحيل •• ولا يمكن أن يحدث •• ولكنه مع ذلك حدث ، بل هو حادث فعلا •• وها هما هذان واقفان معا •• ماهذا •• يقدم صديقه اليها للتعارف •• أيمكن أن يصدق عينيه ؟ •• وعاد ينظر مرة أخرى •• وآلمه أن يعترف كارها بأن عينيه صدقتاه •• وها هى ذى مسز بادجر تراقص المستر تراسى

طبمن ٠٠ تلك حقيقة واقعة لا ينفع فيها تخطئة ، ولا تكذيب ٠٠ وها هى ذى السيدة أمامه ، يتوثب جسدها ويقفز من هاهنا وهاهنا ، بقوة لم تؤلف منها ، وها هو ذا المستر تراسى طبمن يحجل فى كل ناحية ، وينم وجهه عن أشد الجد ، وأبلغ الوقار ، وانه ليرقص ـ كما يفعل خلق كثير من الناس ـ كأن الرقص على الانغام ليس شيئا يبعث الضحك ، ويدعو الى المرح ، بل تجربة قاسية للمشاعر ، تقتضى مواجهتها عزما قويا لا يلين ٠

واحتمل الطبيب هذا كله بصبر وصمت ، وتجلد لكل ما تلاه من تقديم شراب وارتقاب كؤوس ، ومسارعة الى « بقسماط » وغزل ، ولكن لم تكد تنقضى بضع ثوان على اختفاء الغريب ليرافق السيدة بادجر الى مركبتها ، حتى اندفع الطبيب مسرعا من القاعة كالسهم وقد فارت كل ذرة من غضبه المكظوم ، وبدت فورتها على كل ناحية من وجهه ، عرقا متصببا من شدة الحنق ٠٠

وبينما كان الغريب عائدا ، والمستر طبمن بجانبه ، راح يتحدث اليه فى همس ضاحكا ، فقال : « ان الطبيب القصير ظمآن ، يريد أن يشرب من دمه ٠٠ »

وكان الغريب فى فرح بالغ ٠٠ لأنه المنتصر

وتقدم الطبيب نحوه ، فقال بصوت مرعب ، وهو يقدم اليه بطاقته ، وينزوى به فى ركن من « الدهليز » سيدى ! ٠٠ ان اسمى سلامر ، الدكتور سلامر، ياسيدى ٠٠ من الآلاى السابع والتسعين ٠٠ ثكنات شاتام ٠٠ وها هى ذى بطاقتى ياسيدى

وكان يريد أن يسترسل ٠ ولكن الغيظ خنق أنفاسه

وأجاب الغريب ببرود . آه .. سلامر .. متشكر جدا .. رعاية جميلة منك .. لست فى هذه الساعة مريضا يا سلامر .. ولكنى سأطرق بابك اذا مرضت

وزفر الطبيب من فرط الغضب وتقطعت أنفاسه ، وانثنى يقول : أنت تصاب يا سيدى .. نذل .. جبان .. كذاب الا شىء يمكن أن يحملك على اعطائى بطاقتك يا سيدى ؟

فأجاب الغريب ـ وهو يكاد يخاطب نفسه ـ آه .. فهمت .. الخمر هنا باطشة .. وصاحب الفندق سيد سمح كريم .. الأمر سخيف جـــدا .. شراب الليمون أفضل كثيرا .. والحجرات حارة ، والخمر فى الصباح أليمة .. للسادة المسنين .. قاسية .. شديدة ..

وتحرك خطوة أو خطوتين ..

وقال الرجل القصير الغضوب ، أنت نازل فى هذا الفندق يا سيدى .. وأنت سكران الآن طافح،ياسيدى ..وستسمع عنى صباح غد يا سيدى .. سأعرف من أنت يا سيدى .. أنا غدا واجدك ...

وأجاب الغريب ، وهو جامد لا يتحرك « انى لأفضـــل أن تجدنى خارج الفندق على أن تجدنى فى داخله ..

وبدا الدكتور سلامر فى صورة افتراس مكبوت ، عاجز عن الافصاح ، وهو يثبت قبعته فوق رأسه بحركة انفعال

وراح الغريب والمستر طبمن يهبطان السلم الى غرفة النوم ليعيدا الثياب المستعارة الى صاحبها ، وونكل النائم لا يدرى مما حدث شيئا ..

وكان المستر ونكل فى سبات عميق ، فلم يلبثا ان انتهيامن اعادة الثياب الى مكانها بسلام ، وكان الغريب فى حالة مجون متناهية ، بينما راح المستر طبمن فى ذهوله من أثر النبيذ الذى تناوله على الطعام ، والخمر التى شربها فى المرقص ، وسطع الانوار ، وكثرة الغيد ، يحسب الامر كله « نكتة » بديعة .

وما كاد صاحبه ينصرف ، حتى أخذ يحاول فى شيء من الجهد الاهتداء الى الشق الذى كان قد وضع فيه « قلنسوة النوم » حتى لقد قلب المائلة وهو يحاول وضع القلنسوة بعد العثور عليها فوق رأسه ، ولم يتيسر له الوصول الى فراشه الا بعد سلسلة من الترنحات والفترات ، ولكنه لم يلبث أن راح فى سبات عميق .

وما كادت الساعة تكف عن دق السابعة من صباح اليوم التالى حتى تنبه ذهن المستر بكوك ، الجامع ، المدرك ، الواعى، من الغيبوبة التى هبط فيها من أثر النوم ، على دقات عنيفة تطرق باب مخدعه .

فاستوى فى فراشه وهو يقول : « من الطارق ؟ »

قال الطارق : « بوتس ، يا سيدى ! »

قال : ماذا تريد ؟

أجاب : هل تتفضل ياسيدى فتنبيء من فيكم يرتدى سترة زرقاء فاتحة ، وعليها زرار مذهب نقش عليه الحرفان «ن٠ب»؟

فخطر للمستر بكوك ان السترة قد أعطيت اليه لتنفيضها وأن الرجل نسى لمن هى .. فصاح قائلا : « المستر ونكل .. وهو فى الغرفة التى بعد هذه بغرفتين الى اليمين .. »

قال بوتس : « شكرا لك ياسيدى » ٠٠ وانصرف

وصاح المستر طبمن ، حين سمع دقا شديدا ببابه: « أيقظه من سباته العميق ، ما الخطب ؟ »

فأجابه بوتس من الخارج : « هل أستطيع أن أكلم المستر ونكل يا سيدى ؟ »

فنادى المستر طبمن صاحبه النائم فى الغرفة الداخلية : « ونكل ٠٠ ونكل ! »

وسمع صوتا خافتا يرد عليه من تحت الغطاء : « هالو ٠٠ ماذا تريد ٠٠ ؟ »

قال : «أنت مطلوب ٠٠ أحد الناس واقف بالباب يطلبك ٠٠

وما أن تمكن المستر طبمن من النطق بهذه الكلمات ، بعد جهد جهيد ، حتى استدار فى فراشه ، وعاد يغط فى نوم عميق

وقال المستر ونكل لنفسه : « أنا مطلوب ! وأسرع فى القفز من فراشه وألقى على جسده شيئا من ثيـــاب وهو يقول : « مطلوب وأنا على هذه المبعدة من المدينة ٠٠ ؟ ومن ترى هذا الذى يطلبنى ؟ »

وفتح الباب ، فوجد بوتس أمامه ٠٠

قال هذا حين رآه ٠ ان سيدا فى قاعة القهوة يطلب لقاءك ويقول انه لن يستغرق غير لحظـــة من وقتك ، ولا يقبـــل اعتذارا

قال المستر ونكل « أمر غريب جدا ٠٠ سأنزل حالا »

وبادر الى الاشتمال « بلفافة » سفر وجلباب نوم ، وانطلق

يهبط الدرج ، فوجد عجوزا وبعض الخدم ينظفون قاعة القهوة. وضابطا فى ثوب عسكرى ، غير ثوب السهرة مطلا من النافذة

والتفت الضابط عند دخول المستر ونكل وأحنى رأسه انحناءة جامدة ، وبعد أن أمر الخدم بالانصراف وأغلق الباب بكل عناية ، انثنى بقول : « المستر ونكل ٠٠ أظن ذلك ؟ »

قال هذا : « نعم ٠ أنا ونكل يا سيدى »

قال : « لن يدهشك ياسيدى أن أنبئك أننى قدمت الى هنا فى هذا الصباح موفدا من قبل صديقى الدكتور سلامر من الآلاى السابع والتسعين ٠٠

قال : الدكتور سلامر !

قال : نعم ٠ الدكتور سلامر ، وقد طلب الى أن أبلغك رأيه فى تصرفك الليلة البارحة ، وهو انه تصرف لا يمكن أن يحتمله سيد مهذب ، وقد أضاف قوله انه تصرف لا يتصرفه سيد فى حق سيد آخر ٠٠

وكانت دهشة المستر ونكل أصدق وأجلى من أن تفوت صديق الدكتور سلامر ، ولهذا واصل حديثه قائلا : « لقد طلب الى صديقى الدكتور سلامر أن أضيف أيضا انه يعتقد اعتقادا جازما ، انك كنت ثملا فى فترة من الليل ، ولعلك لم تع مدى الاهانة التى اقترفتها ، وقد عهد الى أن أقول لك انه اذا كان ذلك عذرا تلتمسه لتصرفك ، فلا مانع لديه من قبول اعتذار مكتوب بخطك واملائى اياه عليك ٠٠

فراح المستر ونكل يردد القول فى أبلغ لهجة ممكنة تنم عن الدهشة « اعتذار مكتوب ! »

فأجابه الزائر ببرود : « انك بالطبع تعرف الوجه الآخر من الموقف اذا لم تفعل »

قال المستر ونكل ، وقد ارتبك ذهنه كل الارتباك من هذا الحديث غير المألوف « هل كلفت حمل هذه الرسالة الى بالاسم ؟ »

قال « لم أكن شخصيا حاضرا ، وانما كلفت بعد أن رفضت رفضا قاطعا أن تقدم بطاقتك الى الطبيب أن أتحقق من قبل ذلك السيد من شخصية الرجل الذى كان مرتديا سترة غير مألوفة ، ذات لون أزرق خفيف وزرار مذهب عليه صورة نصفية وحرفان ، وهما : « ن.ب »

واضطرب ونكل من الدهشة وهو يسمع هذا الوصف الدقيق لثوبه

واسترسل صديق الدكتور سلامر يقول : « وقد اقتنعت من التحقيق الذى أجريته اللحظة فى مكان الشراب ، أن صاحب ذلك الثوب وصل الى هنا ، مع ثلاثة من السادات ، أصيل أمس ، فأوفدت فى الحال رسولا الى الرجل الذى وصف لى بأنه رئيس الجماعة ، فأحالنى فى التو واللحظة اليك .. »

ولو أن البرج الأكبر ، فى حصن روشستر ، زايل فجأة مكانه ، وهوى قبالة نافذة قاعة القهوة ، لما كانت دهشة المستر ونكل شيئا يصح أن يقارن بدهشته البالغة التى سمع بها ذلك الحديث . وكان أول خاطر قام فى نفسه أن الثوب قد سرق ، فلم يسعه الا أن يقول للزائر : « هل تأذن لى فى احتجازك لحظة واحدة . »

فأجابه الزائر الثقيل غير المرحب به « بلا شك »

وجرى المستر ونكل مسرعا الى الطبقة العليا وفتح الحقيبة

بيد راجفة فوجد الثوب كما هو ، فيموضعه المألوف ، ولكنه بعد تحقيقدقيق،تبينأنعليه آثارا ظاهرة توحى بأنه قد لبس فى اللّيلة الماضية

قال وهو يدع الثوب يسقط من يديه : « لابد من أن يكون الأمر كذلك ٠٠ فقد أفرطت فى النبيذ بعد الغداء ،ويخيل الى اننى ذهبت أطوف الشوارع وأدخن « سيجارا » بعد ذلك ٠٠ الواقع اننى كنت سكران ٠٠ ولابد من اننى غـيرت ثيابى ، وذهبت الى مكان ما وأهنت أحد الناس ٠٠ لاشـــك فى ذلك عندى ، وهذه الرسالة هى العاقبة الوخيمة ٠٠

وعاد المستر ونكل أدراجه الى قاعة القهوةمعتزما عزمةأليمة مرعبة ، وهى أن يقبل الدعوة التى وجهها اليه الدكتور سلامر لمبارزته ، وليكن من الشر ما يكون

وقد دفعته الى اتخاذ هذا السبيل عدة اعتبارات ٠٠ أولهـا سمعته فى النادى ، فقد كان منظورا اليه أبدا على أنه حجة عالى الكعب فى كل الشئون المتصـــلة بالتسلية والبراعـــة الرياضية ، سواء الهجومية منها والدفاعية والبريئة ، فاذا هو انزوى وتراجع فى أول مناسبة ، يوضع فيها موضع التجربة، أضاع سمعته ، وفقد مكانته ، فى غير رجعة ٠ وثانيا ، أنه تذكر أنه كثيرا ما سمع ،منالمجربينالخبراء بهذه المسائل ونحوها،أن هناك تفاهما بينالشهود ،علىأن المسدسات فى هذه الأحوال قلما تكون محشوة رصاصا ، وخطر له أيضا انه اذا طلب الى المستر سنودجراس ان يكون شاهده ، فقد ينبىء هذا السـيد الخبر الىعلم المستر بكوك ، وهذا بلا شك لن يضيع وقتا فى ابلاغه الى السلطات المحليـة ، ليحول دون مصرع مريده ، أو اصابته بعاهة دائمة ، أو جرح بالغ ٠٠

تلك هى الخواطر التى جالت فى ذهنه ، حين عاد الى المقهى ، وأفضى بعزمه على قبول الدعوة التى وجهها اليه الدكتور سلامر الى المبارزة

وقال الضابط الموفد من قبله : « هلا أحلتنى الى صديق لك ، لكى نتفق معا على موعد اللقاء ومكانه ؟ »

فأجاب المستر ونكل « لا ضرورة تدعو لذلك ٠٠ عين أنت الزمان والمكان ، وأنا أتولى احضار صديق بعد ذلك »

قال الضابط في لهجة مستخفة « أتقولُ ٠٠ بعد غروب شمس هذا النهار ؟ »

قال « حسن جدا » وان كان فى أعماق قلبه يراه سيئا جدا٠

قال : أتعرف حصن بت ؟

أجاب نعم ٠٠ رأيته أمس

قال اذا تكرمت وعرجت على الساحة التى تتاخم الخندق ، وأخذت الدرب الممتد عن الشمال ، حتى تصل الى زاوية من الحصن ، وانطلقت فى وجهك ، فسوف ترانى ، لكى أذهب بك إلى موضع منعزل ، ننهى فيه هذه المسألة ، دون خشية من قدوم أحد يعوقنا أو يقطع علينا أمرنا

فقال المستر ونكل فى نفسه:« خشية من قدوم أحد يعوقنا،

وقال الضابط : « أظن أن لا شيء آخر يقتضى التدبير »

وأجاب المستر ونكل:« لست أعرف أن هناك شيئا آخر٠ طاب صباحك »

قال « طاب صباحك ٠ » ، وانطلق يرسل صفيرا مرحا ٠٠

وانقضى الافطار ثقيلا غير شهى ، وكان المستر طبمن فى حال لا تمكنه من مغادرة غرفته بعد ذلك الافراط فى الشراب، على غير عادته فى الليلة البارحة ، وبدا المستر سنود جراس كأنما يعانى انقباضا وهبوطا نفسيا ، وركودا شعريا ، بل راح المستر بكوك نفسه يبدى نزوعا غير مألوف الى ملازمة الصمت والاقبال على « ماء الصودا » ، بينما لبث المستر ونكل يرقب الفرصة المواتية ، ولكن انتظاره لسنوحها لم يطل ، فقد ذهب المستر سنودجراس يقترح الخـــروج لزيارة الحصن ، ولم يكن أحد من الجميع ميالا الى الخروج غير المستر ونكل ، فانطلقا معا اليه ٠

وما كادا يبتعدان من الطريق العام ، حتى راح المسترونكل يقول « أى سنودجراس يا صديقى العزيز ٠٠ سنودجراس »

قال ذلك ، وهو يرجو مخلصا صادقا ، أن يرد قائلا : ان ذلك ليس فى امكانه ٠٠

«هل فى امكانى أن أعتمد عليك فى أمر يستوجب الكتمان؟»

ولكنه أجاب بقوله « لك ذلك ٠٠ هل تريد أن أقسم لك ٠٠ انى ٠٠ » ٠٠ قال مقاطعا ، وقد روعته فكرة اقدام صاحبه ، قبل أن يعلم جلية الخبر، على التعهد بكتمان السر ٠٠ وعاد يقول : « كلا ٠٠ لا تقسم ٠٠ لا تقسم ، فليس ثمة ضرورة »

وعندئذ أرخى المستر سنودجراس اليـد التى كان ، بدافع الروح الشعرية ، قد رفعها الى السماء ، وهو يهم بأن يقسم ، واتخذ سيماء الترقب والانصات ٠

وواصل المستر ونكل حديثه قائلا : « أريد عونك ياصديقى العزيز ، فى مسألة تتصل بالشرف »

قال ، وهو يشد يد صاحبه : « حبا وكرامة » ٠٠

فمضى المستر ونكل يقول،وقد أراد أن يجعل المسألة تبدو رهيبة ما أمكن « ان الامر يتعلق بواقعة حال مع طبيب ٠٠مع الدكتور سلامر ، من الآلاى السابع والتسعين ٠٠ واقعة مع ضابط ، دعوة الى المبارزة ، سيحضر فيها ضابط آخر شاهدا، عند غروب الشمس ، هـذا النهار فى موضع منعزل ، خلف حصن « بت » ٠٠

وقال المستر سنودجراس : « سأحضر معك »

وقد تولته الدهشة مما عرفه ، ولكنه لم يرع مطلقـا ، والمشاهد فى هذه المسائل ، ان الذين لا يعنيهم الأمر فيهـا يبدون أقل انفعالا ، الى حد غير مألوف ، وأكثـر هدوءا من الشخص المقدم عليه ، وكان المستر ونكل قد نسى ذلك وغاب عنه ، وراح يقيس شعور صاحبه بشعوره ٠٠

ومضى يقول : « قد تكون العاقبة مروعة » ٠

قال : « أعتقد أن الدكتور سلامر يجيد الرماية الى حدبالغ»

وعاد المستر سنودجراس يجيب بهـدوء : « أكثر هؤلاء العسكريين هم كذلك ٠٠ ولكنك لا تقل عنهم فى هذا الشىء كذلك ؟ »

وأمن المستر ونكل على قوله ، وأدرك انه لم يستطع تخويف صديقه الى الحد الكافى ، فانتقل بالحديث الى موضوع آخر

قال بصوت مفعم بالانفعال « سنودجراس ٠٠ اذا سقطت فى هذا القتال ، فسوف تجد رسالة منى الى أبى ، داخـل رزمة سأضعها بين يديك »

ولكن هذا الهجوم لم ينجح كذلك .. نعم لقد تأثر المستر سنودجراس ، ولكنه تعهد بحمل الرسالة وتسليمها باستعداد ورضى ، كأنه ساعى بريد يحمل كتبا ورسالات الى الناس

واستولى المستر ونكل يقول : « اذا سقطت أو اذا سقط الطبيب ، فسوف تحاكم ،ياصديقي العزيز ، لاشتراكك في الامر ومساعدتك على تنفيذه .. فهل تراني مورطا صديقي في هذه المسألة .. وقد أعرض حياته للخطر ؟ »

وغمز المستر سنودجراس بعينه لسماع هـذا القول ولكن بطولته كانت غلابة قاهرة ، فصاح بحماسة قائلا : « في سبيل الصداقة لأواجهن كل المخاطر .. »

ولشد ما سب المستر ونكل ولعن في أعماقه صداقة صاحبه وتفانيه ، وهما منطلقان في صمت ، جنبا الى جنب ، بضـع لحظات ، وكل منهما غارق في لجج أفكاره

وبدأ الصباح ينقضي ، فازداد المستر ونكل يأسا من صاحبه وتململا، فوقف فجأة عن المسير وانثنى يقول له «أى سنودجراس لا تحل بيني وبين هـذا الأمر ، ولا تبلغ السلطات المحليـة عنه .. ولا تستعن برجال الأمن عـلى احتجازى ، أو احتجاز الدكتور سـلامر من الآلاى السابع والتسعين ، لمنع هـذه المبارزة .. أقول لا تفعل ذلك . »

فتناول المستر سنودجراس يد صديقه بحرارة ، وهو يجيب بحماسة قائلا « أبدا .. ولو وهبت الدنيا وهبا »

وسرت رعدة في كيان المستر ونكل ،حين اقتنع بأن لا أمل له في اثارة المخاوف في نفس صديقه ، وحين استولت عليـه قوة اليقين بأنه قد قدر عليه أن يكون هدفا ماثلا للرصاص

وبعد أن شرح الواقعة للمستر سنودجراس ، واستؤجرت المسدسات ولوازمها من البارود والرصاص والكبسول ، من تاجر فى روشستر ، عاد الصديقان الى الفندق ، وخلا المستر ونكل للتفكير فى المعركة المنتظرة ، وعمد المستر سنود جراس الى تدبير أسلحتها وترتيبها ، استعدادا لاستخدامها فى الحال

وكان الأصيل بليدا سقيما ، حين انطلقا مرة أخرى فى هذه « الرحلة » الغريبة ، وكان المستر ونكل قد تزمل برداء فضفاض سابغ ، حتى لا يراه أحد ، بينما حمل المستر سنودجراس تحت معطفه أسلحة القتال وآلات والموت ٠

قال المستر ونكل بلهجة مضطربة « هل أعددت كل شيء ؟ »

وأجاب المستر سنودجراس : « كل شيء ٠٠ وقدرا موفورا من الذخيرة ، اذا لم تحدث الطلقات تأثيرا ، وفى الصندوق أيضا ربع رطل من البارود ، وفى جيبى جريدتان للتعمير »

وكانت هذه الشواهد أمثلة على صدق المودة التى لا غرابة فى شعور المرء فيها ، بأبلغ العرفان لصديقه ، ولكن القرائن توحى بأن عرفان المستر ونكل لصنيع صديقه كان أبلغ وأقوى من أن يجد كلاما يقال ، أو تعبيرا لفظيا يصوره ، فلا عجب اذا هو أخلد الى الصمت ، وظل سائرا فى طريقه بخطوات أدنى الى البطء

وراح المستر سنودجراس يقول ، وهما يتسلقان سياج الساحة الأولى : « لقد جئنا فى الموعد ، فان الشمس منحدرة الى المغرب » ٠٠

فتطلع المستر ونكل الى قرصها المتوارى ، وتملكه عندئذ

خاطر أليم ،وهو لعله هو أيضا موشك على « الانحـــدار » والمغيب

وبعد أن سار الصديقان بضع دقائق ، صاح المستر ونكل قائلا : ها هو ذا الضابط ٠

قال « أين ٠٠ ؟ »

أجاب : « هناك٠ذلك السيد المتزمل بقباء أزرق ٠٠ فنظر المستر سنودجراس صوب الموضع الذى أشار اليه صـــديقه بسبابته ، فلمح شخصا مزملا كما وصفه ، وأبدى الضابط انتباهه الى وجودهما باشارةخفيفة من يده ،فتبعه الصديقان على قيد خطوات منه . وهو يبتعد منصرفا ٠

وجعل المساء يزداد فى كل لحظة بلادة واعتاما ، وهبت ريح حزينة على تلك المساحات المهجورة صافرة ، كأنها صفير عملاق جبار من بعيد لكلب بيته ، كما أضافت كآبة الموضع أثـــرا من اكتئاب على مشاعر المستر ونكل ، فأحس رجفة ، وهمـــا يجتازان زاوية الخندق فقد بدت له أشبه بقبر ضخم رهيب

ومالبث الضابط أن تحول فجأة عن الدرب، وبعد أن تسلق سياجا ، واجتاز سورا من عوسج ، دخل ساحة منعزلة ، فاذا سيدان في انتظاره ، أحدهما قصير القامة بدين أسود الشعر، والآخر سيد وجيه فى معطف سابغ مزركش ، وقد جلس فى هدوء تام فوق مقعد من مقاعد المعسكرات

وقال المستر سنودجراس : « أحسبهما الخصم والطبيب٠٠ هلا تناولت قطرة من « البراندى ؟ » ٠ فتناول المستر ونكل الزجاجة من كف صاحبـــه ، وتنـــاول رشفة مستطيلة من

الشراب المنعش الذى احتوته ·

و أنشأ المستر ونكل يقول ، عندما اقترب الضابط منهما: « هذا صديقى المستر سنودجراس ، يا سيدى ·· » فانحنى صديق الدكتور سلامر،وأخرج حقيبة مماثلة للحقيبة التى كان المستر سنودجراس يحملها ·

وانثنى الضـــابط يقول ببرود ، وهو يفتح الحقيبة : أظن يا سيدى أن لا شىء آخر يمكن أن تقوله ، بعد أن رفض تقديم الاعتذار رفضا قاطعا ··

وأجاب المستر سنودجراس ، وقد بدأ هو الآخـــر يشعر بشىء من الانزعاج : « لا شىء يا سيدى » ··

وعاد الضابط يقول « هلا تقدمت خطوة ؟ »

قال « بكل تأكيد ··· »

وقيست المسافة ، وتمت التدابير الأولية

وقال الشاهد الآخر ، وهو يخرج المسدسات : « ستجد هذه أفضل من مسدساتك ·· لقد رأيتنى وأنا أحشوها ·· فهل لديك مانع من استخدامها ؟ »

وأجاب المستر سنود جراس : « كلا · بلا شك »

وقد أحس أن الضابط قد أراحه من ارتباك شديد ، لأن حشو المسدس لم يكن شيئا هو به العارف الخبير

ومضى الضابط يقول، باستخفاف شديد ، كأن المبارزين قطع من الشطرنج ، وكأن الشاهدين من اللاعبين : « يصح لنا اذن أن نوقفهما فى مكانهما · »

وأجاب المستر سنودجراس بالموافقة ، وكان يسعه أن يوافق على أي شيء يقترح عليه ، لأنه كان بكل شيء من هذا الأمر جاهلا

وعندئذ تقدم الضابط الى الدكتور سلامر ، ومشى المستر سنودجراس الى المستر ونكل

قال ، وهو يقدم المسدس اليه : « كل شيء قـــد أعد .. هات قباءك » ..

قال « تماما .. والآن ثباتا .. واجنح له ! »

وقال المستر ونكل المسكين « لقد سلمتك الرسالة ياصديقى العزيز »

وخطر للمستر ونكل أن هذه النصيحة أشبه بما ينصح به النظارة أصغر غلام فى معركة تقوم بين الصبية فى الشارع ، وهى قولهم « أدخل عليه واغلبه ! » كلام جميل ، ونصيحـــة بديعة ، لو كنت تعرف حقا كيف يكون الدخـــول والغلب ، ولكنه حسر عنه قباءه فى صمت، وكان خلع ذلك القباء يستغرق عادة وقتا طويلا ، وتناول المسدس ، وتراجع الشاهدان ، كما تراجع السيد الجالس فوق مقعد المعسكر ، وراح كل غريم يدنو من غريمه

وكان المستر ونكل معروفا بالتناهى فى انسانيته ، وقد قيل أن نفوره من ايذاء آدمى مثله، عمدا وقصدا، هو الذى جعله يغمض عينيه عندما وصل الى البقعة الرهيبة المعينة له ، وان اغماضه حال بينه وبين رؤية سحنة الدكتور سلامر الغريبة ، ووجهه العجيب ، ونظراته الغامضة فقد لبث هذا السيد يحملق مليا، ثم اذا هو يرتد خطوات ، ويفرك عينيه، ثم يعود فيحملق ،واذا هو أخيرا يصيح قائلا : « قف . قف ! »

وانشأ يوجه القول الى صديقه والى المستر سنود جراس حين خفا اليه : « ماهذا كله ؟٠٠ ليس هـــذا هو الشـــخص المقصود »

وقال صديق الدكتور سلامر : « ليس هذا بلاشك ٠٠ ليس هذا بالرجل الذى أهاننى الليلة البارحة »

وصاح الضابط « هذا شيء عجاب »

وانثنى حامل المقعد قائلا : « حقا ٠٠ ان المسألة اذن هى : هل ينبغى ألا نعد السيد الماثل أمامنا ، من الوجهـــة الشكلية ، الشخص الذى أهان صديقنا الدكتور سلامر ليلة أمس ، وهل هو حقيقة أو ليس هو ؟ »

وما كاد يدلى بهذا الاقتراح « بلهجة الحكيم ، الفطين ، حتى تناول نشقة من حق عطوسه ، ومضى يدير عينه فيمن حوله ، فى صورة الحجة الثبت فى هذه المسائل

وكان المستر ونكل قد فتح عينيه ، وأذنيه أيضا ، حين سمع خصمه ينادى بوقف القتال ، وتبين ـ كما قال فيما بعد ـ أن هناك خطأ وقع فى الأمر ، بلا أدنى شك ، فلم يلبث أن أدرك ما هو حتما ظافر به من الشهرة وحسن الصيت ، اذا هو أخفى حقيقة الدافع الذى حفزه الى القدوم ، ولهذا تقدم بجرأة فقال: « لست أنا الرجل المقصود ٠٠ وأنا أعرف ذلك »

وهنا قال السيد صاحب المقعد : « اذن هذه اهانة فى حق الدكتور سلامر وسبب كاف للأخذ فى الاجراءات حالا »

ولكن الضابط الشاهد انبرى له قائلا أرجوك : « يابين »أن تلتزم الهدوء ، ودعنى أسألك يا سيدى لماذا لم تفهمنى بهـــذه الحقيقة صباح اليوم ؟

وعاد السيد صاحب المقعد يقول، غاضبا: «مؤكد ٠٠ مؤكد»

وقال الآخر ٠ أرجوك أن تسكت يا « بين » ٠٠ هل تسمح يا سيدى بأن أعيد عليك سؤالى ؟ »

فأجاب المستر ونكل، وقد وجد فسحة من الوقت للتفكير فيما عسى أن يكون جوابه : «لانك ٠٠ يا سيدى ٠٠ لانك وصفت رجلا ثملا غير مهذب يلبس سترة أتشرف بارتدائها ، بل لى الشرف بابتكار تفصيلها ٠٠ وهى الشعار الذى اقترحته ، يا سيدى ، لأعضاء نادى بكوك فى لندن ، وانى على شرف هذا الثوب لحفيظ ، ولهذا قبلت على الفور ، بغير تحقيق ولا سؤال ، الدعوة التى وجهتها الى ٠٠ »

وهنا قال الطبيب القصير المرح ، وهو يتقدم اليه باسطا يده : « اننى ياسيدى العزيز مكبر شهامتك ٠ بل اسمح لى يا سيدى ، أن أبدى لك شديد اعجابى بمسلكك وبالغ أسفى لما أحدثه هذا اللقاء لك من ازعاج بغير موجب »

فأجاب المستر ونكل : « أرجوك ياسيدى أن لا تذكر ذلك ،

قال « اننى بمعرفتك يا سيدى فخور »

وقال المستر ونكل : « ان معرفتك ياسيدى تتيح لى أبلغ السرور »

وتصافحا ، ثم تصافح المستر ونكل والملازم تابلتون ، شاهد الطبيب ، ثم تبادل ونكل التحية والرجل صاحب المقعد ، وأخيرا تصافح المستر ونكل والمستر سنودجراس ، وكانت مصافحة السيد الأخير مقترنة باعجاب مفرط ، بذلك التصرف النبيل الذى بدر من صديقه الشهم الكريم

وقال الملازم تابلتون : « أظن انه يصح أن نؤجل الاجتماع »
وأضاف الطبيب : « بلا ريب »

وتدخل الرجل الذى كان جالسا على المقعد قائلا : « ألا اذا كان المستر ونكل يشعر بأنه قد غض من قدره بهذه الدعوة ، وفى هذه الحالة أسلم بأنه له الحق فى الترضية . »

ومضى الرجل يقول : « أو ربما كان السيد الشاهد شعر بشيء من الغضاضة من بعض الملاحظات التى بدت منى فى بداية هذا الاجتماع ، فاذا كان الأمر كذلك ، فانى ليسعدنى أن أقدم اليه الترضية فى الحال ..

فأسرع المستر سنود جراس فى ابداء شكره البالغ للسيد الذى تكلم أخيرا على ما قدم من عرض كريم ، وقال انه لايسعه الا أن يرفضه ، لأنه فى أتم الرضى عن كل ما حدث

وأقبل الشاهدان ينظمان حقيبتيهما ، وغادر الجمع المكان ، وهم أصفى أمزجة مما كانوا عند التوافى اليه

وسأل الدكتور سلامر المستر ونكل ، وهما يسيران جنبا الى جنب ، فى أبلغ صور المودة : « أباق هنا طويلا ؟ »

فكان جوابه : « أظن أننا سنغادر المدينة بعد غد .. »

وقال الدكتور .. أرجو أن أحظى بلقائك أنت وصديقك فى النزل الذى أقيم فيه وقضاء مساء لطيف معكما بعد هذا الخطأ العجيب .. فهل أنت حر الليلة ، غير مرتبط بمواعيد ؟

وأجاب المستر ونكل قائلا : « ان لنا بعض الصحاب هنا ، ولست أود أن أتركهم الليلة ، فلم لاتوافينا أنت وصديقك فى الفندق ؟ »

قال « لا بأس مطلقا يا سيدى العزيز ، وسوف يسعدنى السعادة كلها أن أقدمكما الى صديقى المستر بكوك والمستر طبمن »

وأجاب الدكتور قائلا : « سيسرنى لقاؤهما أشد السرور ، ولم يدر من عسى أن يكون المستر طبمن

وقال المستر سنودجراس « ستأتيان بلا شك »

قال : « طبعا ·· بلا شك ·· »

وكان القوم قد وصلوا عندئذ الى بداية الطريق فتبادلوا السلام ، وتفرقوا ، فعاد الدكتور سلامر وصديقاه الى الثكنات ، وقفل المستر ونكل مع صديقه المستر سنودجراس عائدين الى الفندق ·

الفصل الثالث

تعارف جديد ـ قصة الممثل المتجول ـ ازعاج غير مستحب .. ولقاء ثقيل الظل

شعر المستر بكويك بشيء من القلق لغياب صديقيه على غير المألوف منهما ، ولم يكن تصرفهما الغريب خلال الصباح كله مخففا من مخاوفه ، فلا غرو اذا هو قد نهض بسرور غير عادى لاستقبالهما حين عادا يدخلان عليه ، وأنشأ بشوق أكثر من المألوف يسألهما عما جرى ، ويستفسرهما سر غيابهما . وهم المستر سنودجراس للرد على هذه الاسئلة، بأن يدلى ببيان تاريخى عن الظروف التى قصصناها الآن عليك ، ولكنه أمسك فجأة ، اذ لاحظ أن هناك بجانب المستر طبمن ، ورفيقهم فى الحافلة أمس ، غريبا آخر ، لايقل مظهره عنهما غرابة ـ رجلا تبدو الهموم عليه، ويلوح وجهه الشاحب ،وعيناه الغائرتان، أغرب وأعجب مما صنعتهما الطبيعة ، بشعره الاسود المعتدل المنحدر فى اضطراب وتلبد نصف الطريق الى وجهه ، وكانت عيناه براقتين نفاذتين الى حد يكاد يكون غير طبيعى ، وعظما خديه ناتئين مرتفعين ، وفكاه من فرط طولهما وتحولهما ،حتى ليظن الرائى انه يسحب لحم وجهه الى الداخل ، لحظة تقليص عضلاته ،لو لم يعلن فمه المفتوح نصف فتحة ، وتقاطيع سحنته الثابتة الجامدة ، أن الامر

طبيعي لا اصطناع فيه ، وقد أحاط عنقه بلفاعة خضراء تدلت أطرافها الواسعة متراخية فوق صـــدره ، وبادية من لحظة الى أخرى تحت عرى صداره القديم ، وكان الجزء الاعلى من ثوبه سترة طويلة سوداء سابغة ، وقد ارتدى من تحتها سراويل فضفاضة وانتعل حذاء كبيرا يسارع الى البلى ٠

وما لبثت عين المستر ونكل أن استقرت على هـــذا الرجل الاشعث الاغبر ، بينما مد المستر بكوك يده نحوه وهو يقول : « صديق لصديقنا الذى معنا هنا ،وقد عرفنا ،صباح اليوم ،أن لصديقنا علاقة بالمسرح في هذه المدينة ،وان كان لايحب أن يعرف ذلك عنه ، وان هذا السيد أحد الزملاء فى المهنة ، وكان يهم بأن يطرفنا بحكاية قصيرة تتصل بها حين دخلت ٠٠

وقال الغريب ذو السترة الخضراء الذى لقيه الجمع فى اليوم السابق، وهو يتقدم الى المستر ونكل ويتحدث بصوت منخفض، كأنه يكاشفه بسر من الاسرار ، بل بحكايات وحكايات : «رجل مدهش ٠٠ يؤدى عملا شاقا ٠٠ فى هذه المهنة ٠٠ ليس ممثلا ٠٠ رجل غريب ٠٠ عرك مختلف المهن والخطـــوب ٠٠ ونحن ندعوه فى نادينا جيمى التعس »

وحيّـــا المستر ونكل والمستر سنودجراس الرجل الملقب « بالتعس » فى أدب ، وطلبا شرابا من البراندى والماء ، وانثنيا يقتديان بالآخرين ، فجلسا الى المنضدة ٠

وقال المستر بكوك : « والآن ياسيدى هلا تكرمت علينـــا بقص ما كنت تهم بأن ترويه لنا ؟ »

وعندئذ أخرج الرجل « التعس » من جيبـــه لفة قذرة من الاوراق واستدار نحو المستر سنودجراس ، وكان هذا قدأخرج

« كناشته » ، فقال بصوت أجوف يلائم مظهره كل الملاءمة : هل أنت الشاعر ؟ »

فأجاب المستر سنودجراس ، مأخوذا الى حد ما بهذا السؤال المباغت : « انني أقوم بشيء يسير في هذا الباب ٠ »

قال : آه ٠٠ ان الشعر يصنع بالحياة ما تصنع الاضـــواء والانغام بالمسرح ، فان انت جردت احدهما من بهارجه ومحسناته وأزلت من الآخر الاوهام والخدع المحيطة به ، فما الذى يبقى حقها فيهما يستحق ان يحيا المرء له أو يعنى به ؟

وأجاب المستر سنودجراس : «هذا حق وصدق ياسيدى »

واستطرد الرجل التعس حديثه قائلا : « ان الوقوف أمام الاضواء الاماميـــة على المسرح هو كالجلوس فى بلاط عظيم ، ومعرض بديع ، والاعجاب بالثيـــاب الحريرية التى يرتديهـا السادات فيه والغيد ، أما المجلس من تحتهم فذلك مكان الشعب الذى صنع ذلك الرواء ، وأحدث ذلك البهاء ، ولكنه ترك مهملا مجهولا ، لا يعنى أحد به ، ولا يأبه انسان بمعرفته ٠٠ ترك ليغرق أو يعدم ، ليهلك جوعا أو يحيا ، كما تشاء الحظوظ ، وتريد المقادير ٠٠

وهنا قال المستر سنودجراس ، وكانت عين الرجل التعس مستقرة عليه فلم يكن بد من أن يقول شيئا : « بلا شك » ٠

وقال السائل الاسبانى: «امضى فى حديثك ياجيمى كسوزان السوداء العين ٠٠ الكل فى البـــادية ٠٠ لا نقيق ٠٠ تكلم بوضوح ، وتهلل ، وابد مرحا »

وقال المستر بكوك : « هل لك فى كأس أخرى قبل أن تبدأ القصص ياسيدى ؟ »

فما كان من الرجل التعس الا أن قبل هذا العرض ، ومزج لنفسه كأسا من البراندى بالماء واجترع فى رفق نصفها ، ونشر الاوراق الملففة بين يديه ، وبدأ يقص القصص ، بين تلاوة من الاوراق ، وسرد من غير أوراق ٠

وكانت القصة التالية هى قصته ، كما سجلت فى محاضر النادى بعنوان « قصة الممثل المتجول » ٠

قصة الممثل المتجول

ليس فيما أنا قاصه عليكم شيء عجاب ، ولا أمر غير مألوف ، فان الحاجة والمرض ليسا غريبين فى كثير من شئون الحياة ، غرابة تستحق من التنويه أكثر مما تستحقه عادة تقلبات الطبيعة البشرية وتغيراتها المألوفة ، وقد جمعت هذه الملاحظات معا فى ورق مكتوب لانى عرفت المرء الذى تتصل به حق المعرفة منذ عدة سنين ، وجعلت أتابع شقاءه ، خطوة خطوة ، وهو يهوى ، حتى بلغ فى النهاية حدا متناهيا من العوز والادقاع ، لاقيام له الى الابد منهما ٠

كان الرجل ، الذى أتحدث عنه ، ممثلا فقيرا من ممثلى المسرحيات الايمائية الصامتة ، وكان كخلق كثير ممن هم فى مركزه وطبقته ، سكيرا مدمنا ، وكان فى أيامه النضرات قبل أن يوهن منه الاسراف فى الملذات ، ويحط السقام عليه ، يتقاضى مرتبا حسنا ، لو أنه انتهج سبيل الحرص والحكمة والقصد ، لظل يتقاضاه بضع سنوات ، ولكنها ليست سنوات كثيرة على أية حال ، لان أمثاله يموتون فى نضارة العمر ، أو يفقدون قبل الاوان ، باستنفاد قواهم الجسدية ٠ استنفادا غير طبيعى ، الملكة الوحيدة التى يعتمدون عليها فى كسب أقواتهم ، وسداد أرماقهم ، وقد أسرف على نفسه ، وأمعن فى آثامه ،

حتى أصبح من المحال أن يستعان به فى الاعمال التى كان فيها نافعا فعلا للمسرح ، فقد كان للحانة جاذبية لم يستطع مغالبتها ، وكان المرض الذى يسوقه الاهمال ، والفقر الذى لا أمل فى النجاة منه ، نصيبه المحقق كالموت ذاته اذا هو استمر ، ولم ينته ، وثابر ، ولم يرعو ، وقد استمر وثابر فعلا ، فكانت النتيجة معروفة ، وهى العجز عن الظفر بعمل ، وهو يطلب القوت ويحتاج الى الخبز ·

ولايجهل أحد ممن عرفوا المسرح وكل مايتصل به ، كثرة الذين يترددون عليه،من الفقراء والكدورين ،والبادين فى الثياب الناحلة الالوان ، وماهم بممثلين يعملون فيه بانتظام ، ولكنهم يشتركون فى المراقص أو المواكب التى تشاهد فى بعض الروايات أو البهلوانات،والمهرجين ومن اليهم ممن يستعان بهم فى اخراج مسرحية « صامتة » أو قطعة بمناسبة عيد الفصح ، ثم يفصلون حين تنقطع الحاجة اليهم ، وريثما يستوجب اخراج مشاهد حافلة،وروايات ضخمة ،العودة الى استئجارهم ،والى هذا الاسلوب من العيش اضطر الرجل الى الالتجاء ، وكان يجلس كل ليلة مجلس الرياسة ، ببعض دور التمثيل الصغيرة ، فيصيب منها بضعة شلنات أخرى فى الاسبوع ، تيسر له ارواء غلته ، ومعاودة كؤوسه ، ولكن هذا المورد أيضا لم يلبث أن انقطع ، فقد كثرت تصرفاته الشاذة ، الى حد لم يعد معه فى الامكان أن يصيب الاجر الزهيد ، الذى كان ممكنا أن يصيبه ، حتى بلغ فعلا حدود الجوع ، ولم يعد يظفر بغير قدر تافه من المال أحيانا يستعيره من زميل قديم ، أو يأتيه من الظهور على المسرح فى أحقر دور التمثيل ، فاذا أصاب شيئا ، أنفقه فى الخمر ديدنه القديم·

وفى ذلك العهد أو قرابته ، حين لم يكن أحد يدرى كيف

كان يعيش أكثر من عام ، كنت قد ظفرت بعمل قصير الامد ، فى أحد المسارح ، فى هذه الضفة من النهر ، فرأيت ذلك الرجل الذى كان قد غاب عن عينى فترة من الزمن ، لانى كنت أتجول فى الاقاليم ، وكان هو يتسكع فى أزقة لندن ودروبها الضيقة ، وفيما كنت أرتدى ثيابى للانصراف من الملعب ، واجتاز المسرح الى الباب ، اذ راح يربت بيده على كتفى ، وان أنسى لا أنس ذلك المشهد المنفر الذى أخذ عينى حين استدرت لأرى من الرابت ، فقد بدا فى ثوب من ثياب التمثيل الصامت ، توافرت فيه كل غرائب رداءة « المضحك » ولبسة « المهذار » ، فما أحسب صور الاشباح فى « رقصة الموت » ولا أقبح الاشكال وأشدها ترويعا مما يخرج من ريشة أقدر الرسامين على الرسم ، وأبرعهم فى صنعة التصوير ، الا بادية دونها قبحا ، وأقل منها نكرا ، فان بدنه المتورم ، وساقيه الضامرتين اللتين زادهما ثوبه الغريب شناعة على شناعة ، وعينيه الزجاجيتين المتناقضتين الى حد مرعب وكثافة الطلاء الذى لطخ به وجهه ، ورأسه المزدان بأغرب الزينة الراعش من أثر الفالج ، ويديه الطويلتين الضامرتين المدهونتين بالطباشير — كل أولئك جعله يبدو مشوه الصـــورة متكور الشكل ، ليس فى وسع الواصف أن يعطيك عنه فكرة كافية ، حتى لتعرونى ، الى الساعة ، رجفة كلما خطر ببالى ، وكان صوته أجوف راعشا ، حين انتحى بى ناحية ، وانثنى بعبارات متقطعة يقص على قصة ، ويعدد لى صنوفا من العلل وألوانا من الحرمان التى يعانيها ، وانتهى الى النتيجة المعروفة طبعا ، والمتكررة فى هذه الحالات ، وهى طلب قرض عاجل يسير ، فدسست فى كفه بضعة شلنات ، وماكدت أتولى عنه ، حتى سمعت ضحكات عالية ، كتلك الضحكات التى تلت أول مرة ظهر فيها على المسرح .

وجاءنى بعد بضع ليال غلام ، فألقى فى يدى قصاصة قذرة من

الورق، كتبت عليها بضع كلمات بالقلم الرصاص، يقول الرجل فيها أنه مريض ، فى حالة خطرة ، ويرجونى بعد التمثيل أن أراه فى مسكنه ، بشارع نسيت اسمه الآن ، ولكنه غير بعيد من المسرح ، فوعدته انى فاعل بمجرد فراغى عن العمل ، وانطلقت عقب انسدال الستار ، لكى أؤدى هذه المهمة المحزنة .

« وكان الوقت متأخرا ، لان دورى كان فى المسرحية الاخيرة ، وكان ايراد الليلة مخصصا لبعض أفراد الفرقة ، فطال التمثيل فيها، الى حد غير مألوف، وكان الليل حالكا مقرورا ، والريح رطبة قاصفة ، جعلت المطر يسقط غزيرا على الشرفات وواجهات الدور، وقد اجتمعت منه برك من الماء، فى الشوارع الضيقة التى قلما يختلف اليها الناس ، واطفأت شدة الرياح المصابيح القليلة المتناثرة فى بعض نواحيها ، فلم يكن المسير مزعجا فحسب بل أشد ما يكون اخطارا كذلك ، ولكنى لحسن الحظ اتخذت الطريق السوى واستطعت بعد جهد قليل أن أهتدى الى البيت الذى وصف لى فاذا هو سقيفة فحم تعلوها طبقة واحدة ، وجدت فى الغرفة الخلفية منها ضالتى المنشودة ، واستقبلتنى عند السلم زوجته ، وهى امرأة مسكينة ، فنبأتنى أنه قد أغفى منذ لحظة واقتادتنى بخطى رفيقة الى الحجرة ووضعت كرسيا لى بجانب فراشه ، ورأيت الرجل راقدا وقد ولى وجهه الى الجدار ، ولم يبد اكتراثا بمحضرى ، فاتسع لى الوقت لادير عينى فى المكان الذى احتوانى ، فاذا هو على سرير قديم جيء به خلال النهار ، وقد اسدلت بقايا ستار مهلهل حول رأس السرير ، وقاية من الريح ، وان كانت الريح وجدت طريقها الى الحجرة المتعبة من كثرة الثقوب والشقوق فى الباب ، وجعلت تهب على الستار وتهزه هزا فى كل لحظة ، ورأيت نارا خابية من فحم رجوع فى موقدة صدئة ، مفككة غير مستقرة، ومنضدة قديمة ملطخة، ذات

ثلاثة أركان ، قد صفت عليها بعض رجاجات من أدوية ، ومرآة مكسورة ، وبضعة أشياء أخرى،ممايشاهد في البيوت ، وطفلا صغيرا نائما على فراش أعد له مؤقتا ، فوق أديم الحجرة ، وقد جلست المرأة على كرسى بجانبه ، وشهدت هنالك رفين من الرفوف وبضع صحاف وأقداح وأطباق ، وحذاء من أحذية المسارح ، وسيفين من أسيافها معلقين تحت الرف ، وكانت تلك الاشياء هى كل ما حوته الحجرة ، الى جانب أكوام صغيرة من الخرق البالية والرزم ، ألقيت فى زواياها بغير عناية ولا اهتمام ٠

وكذلك اتسع الوقت أمامى لملاحظة هذه الدقائق القليلة ، وتأمل تنفس المريض ولهثه ، ورجفات الحمى التى كانت تهزه ، قبل أن ينتبه الى وجودى ، وحاول جاهدا أن يجـــد مستقرا لرأسه ، فلم يستطع ، فأخرج يده من تحت غطائه فسقطت فوق كفى ، فانتبه فجأة وراح يحملق البصر بلهفة فى وجهى ٠

وعندئذ قالت زوجة المستر هطلى : «ياجون ٠٠ المستر هطلى الذى بعثت فى طلبه الليلة كما تعلم »

فقال المريض ، وهو يمر بكفه على جبينه : «آه ٠٠ هطلى ٠٠ هطلى ٠٠ أين هو ؟» وخيل الى أنه يحاول أن يجمع شتات أفكاره بضع لحظات ، ثم أمسك بمعصمى امساكة التشبث،وراح يقول: « لا تتركنى ٠٠ لاتتركنى ٠٠ ألا تعرفنى ؟ »

قلت موجها خطابى الى زوجه الباكية : « أهو هكذا من وقت طويل ٠٠؟ »

قالت : منذ الليـــــلة البارحة ٠٠ جون ٠٠ جون ٠٠ ألا تعرفنى ؟ »

وقال وهو يرجف حين انحنت فوقه : « لاتدعها تقترب منى

·· ابعدها ·· لست أطيق قلابها منى » ·

وانثنى ينظر اليها نظرات موحشة ، يبدو خلالهـــا رعب شديد ، وخوف مميت ، وهمس فى أذنى قائلا : لقد ضربتها يا جم ·· ضربتها أمس ، وضربتها مرارا قبل ذلك ·· لقـد أجعتها هى والطفل كذلك ، والآن بت واهنا يائسا لا حـول لى ولا قوة ، وستقتلنى جزاء ما فعلت بها ·· أنا عارف انها قاتلتى ، ولو شهدتها وهى تبكى ، كما شهدتها أنا ، لعرفت أنت أيضا ·· ابعدها عنى ·· »

وأرخى امساكته بمعصمى ، وانقلب على وسادته ، منهوكا مجهدا ··

وكنت أعرف حق المعرفة المراد من ذلك كله ، واذا كان شيء من الشك قد خامرنى لحظة ، فان نظرة واحدة الى وجه المرأة الشاحب وبدنها الذاوى كانت كافية لشرح حقيقة الامر وكشف خافيته ·

فقلت للمرأة المسكينة : « يحسن أن تنتبذى من الحجرة مكانا قصيا ·· فانك لن تستطيعى له خيرا ، ولعله سيهدأ اذا لم يرك · »

فتوارت عنه ، وعاد الرجل بعد بضع لحظات يفتح عينيه ويدير بصره فيما حوله ، قلقا موجسا ··

قال فى لهفة : « هل ذهبت ؟ »

قلت : « نعم ·· نعم ·· انها لن تمسك بأذى »

قال ، وهو يغض من صوته : سأقول لك شيئا ياجم ·· انها تؤذينى فعلا ·· ان فى عينيها شيئا يلقى فى قلبى رعبا يذهب

بلبى ، فقد قضت الليلة البارحة كلها وعيناها الواسعتان المحملقتان ووجهها الشاحب بقرب عينى ووجهى ، كلما تحولت تحولت ، وكلما أجفلت من نومى وجدتها بجانب فراشى تنظر الى ..

ومضى يدنينى منه ، ويقول فى همس عميق مروع ، هى حتما روح شرير .. صه .. اننى أعرف أنها كذلك .. ولو كانت مخلوقة آدمية لماتت من عهد طويل .. فليس فى البشر امرأة تتحمل ما تحملت .

وأحسست ألما بالغا فى نفسى حين تخيلت صنوف القسوة وألوان العذاب ، والآلام والاهمال التى لا بد أن تكون قد اصطلحت على احداث هذا الاثر المخيف فى نفس هذا الرجل ومشاعره ، ولم أجد جوابا أجيب به ، ومن الذى يستطيع أن يجدد الامل ، أو يعرض العزاء ، أو يهب السلوى ، لهذا المخلوق المنكر الذى يرقد أمامى ..؟

وقضيت فى مجلسى ذاك أكثر من ساعتين ، لبث خلالها يتقلب فى مرقده ويلقى بذراعيه متململا ها هنا ، وها هنا ، وينكفىء على هذا الجانب ، ثم ينقلب على الآخر ، حتى هبط أخيرا الى حال من الغيبوبة يطوف فيها العقل المكدود من مشهد الى مشهد ، وينتقل من موضع الى موضع ، دون رقابة عليه من الفكر ، وان ظل مع ذلك عاجزا عن التخلص من احساس غامض مما هو فيه من عذاب ، وما يشعر به من ألم ، ولما تبين لى من هذا الهذيان المنقطع ، والتخريف المجرد من كل صلة أو تماسك ان هذه هى حقيقة حاله ، وأدركت أن الحمى على أكبر الظن سوف لا تزداد سوءا فى الحال ، تركته واعدا زوجته المسكينة اننى سأكرر زيارتى مساء اليوم التالى ، وانى ، اذا اقتضى الامر ، ماكث مع المريض الليل كله .

وانجزت موعدى ، وبدا لى أن الساعات الاربع والعشرين الماضية أحدثت تغييرا مروعا ، فقد رأيت العينين ، وان لبثتا غائرتين كثيرا فى محجريهما ، ثقيلتين مهمومتين ، تلتمعان ، وترسلان بريقا مخيفا ،يشفق المرء من التطلع اليه ، وكانت الشفتان قدارتدتا يابستين، محترقتين، مشققتين، فىعدة أجزاء منهما ، وشهدت البشرة الجافة الصلبة تتأجج من شدة الحرارة المحرقة ، وبدا لى أن فى وجهالرجلامارات قلق موحش، لايكاد يشبه شىء فى هذه الارض ، وعلامات هياج نفسىرهيب ، يدل دلالة بالغة على مدى فتكات المرض ، ومبلغ تلفه ،وكانت الحمى قد بلغت أشدها .

واتخذت المجلس الذى شغلته فى الليلةالماضية، ولبثت فيه ساعات ، مصغيا الى أصوات تزلزل قلب أشد المخلوقات الادمية قسوة وجمودا .. أصوات رجل فى سكرات الموت ، مشرف على التلف .

وعرفت مما سمعته عن رأى الطبيب أن لا أمل فى حياته ، وبدا لى اننى جالس بجانب فراش رجل محتضر ، وشهدت الاطراف الذاوية التى كانت الى ساعات قليلة تتشوه وتتنكر لتسلية النظارة فى الملهى ، قد عادت تتلوى من عذاب الحريق ، وشدة الحمى .. وسمعت ضحكة المهرج المدوية ، مختلطة بأنين المحتضر .

وانه لمن الفاجع للنفس أن يسمع المرء العقل وهو يعود الى ماكان يألفه من عملأو حرفة وهو سليم موفورالعافية ، فترى البدن الراقد حيالك،واهيا ذابلا، لاحراك به ،ولكن حين يكون ذلك العمل، مننوعيتعارض أشد التعارض ، مع التفكير الجدى، أو الحرفة الرزينة ، نجد الاثر الذى يحدث للمريض قويا بالغا .

فلا عجب اذا كان الملهى والالحان هما الغالبين على كل ما عداهما من المشاهد والموضوعات التى جعل الرجل يتحدث عنها فى غشيته ، ويرددها فى غيبوبته، فقد خيل اليه أن الوقت مساء، وان عليه دورا يمثله فى تلك الليلة ، وانه قد تأخر عن الموعد ولا بد له من مغادرة البيت فى الحال ، ولكن لماذا يحتجزونه ويمنعونه من الذهاب ٠٠ سيخسر الاجر اذا لم يذهب ٠٠ فليذهب حتما ٠٠ ولا يتخلف ٠٠ ولكن كلا ٠٠ انهم لا يريدون أن يتركوه ٠٠ وراح يدفن وجهه فى يديه المحترقتين ، ويئن أنين المتوجع من ضعفه وقسوة معذبيه ٠٠ ثم يسكن لحظة ، ويعود فيطلق بضعة ألحان رخيصة ٠٠ كانت هى آخر ما حفظه ٠٠ ونهض من فراشه ، ونشر ذراعيه الذابلتين ، وانثنى يتقلب فوق سريره القذر ، وأخذ يمثل ٠٠ فقد توهم انه على المسرح ، وبعد سكون قصير أنشأ يغمغم بأنغام أغنية صاخبة ، وعاد الى بيته القديم بعد التمثيل ٠٠ ما أشد الحر فى الحجرة ٠٠ لقد كان مريضا مدنفا ، ولكنه الآن سليم وسعيد ٠٠ املأ الكأس ٠٠ وانزع القدح ٠٠! من هذا الذى أبعده من شفتيه ٠٠ انه ذلك المضطهد المتعقب عينه ، الذى كان من قبل يطارده ٠٠ وعاد يتقلب فوق الوسادة ويئن أنينا عاليا ٠٠ ثم تلت الانين فترة غياب ونسيان مطلق ، واذا هو يهذى وينطلق فى تيه متشعب من الحجرات الخفيضة السقوف ٠٠ حتى ليضطر أحيانا الى الزحف على يديه وركبتيه ليمضى فى طريقه ٠٠ وكان الطريق ضيقا ومظلما ، وكلما دار منحرفا عنه ، حال حائل بينه وبين التقدم فى مسيره ٠٠ ووجد حشرات زواحف مخيفة ، ذوات أعين تحملق فيه ، وتملأ الهواء من حوله ، وتبرق بريقا بشعا فى وسط الظلام الكثيف ، الذى يغمر الموضع ، كما كانت الجدران والسقف ملأى بالحيات والافاعى ومختلف الزواحف ، والسقف المقبوب

يتسع شيئا فشيئا ، حتى يبلغ حجما ضخما ٠٠ واذا أشباح مرعبة تروح وتغدو من حوله ، وقد رأى وجوها يعرفها ، قد ارتدت قبيحة منكورة تمط شفاها له سخرية وتلعب حواجبها هزءا به وتهكما ، واذا أصحابها يتقدمون نحوه ،فيكوونه بقطع من حديد محمى ، ويربطون رأسه بالحبال حتى ينحبس الدم منه ، وهو يصارع فى سبيل الحياة ، صراع مجنون هائج ٠

وفى نهاية احدى تلك النوبات ، وقد وجدت مشقة بالغة خلالها،فى احتجازه فى فراشه ،رأيته يهبط فيما يشبه النوم ، وكان طول المراقبة ، وكثرة الاجهاد ، قد تغلبـــا على قواى ، فأغمضت عينى بضع دقائق ، ولكنى لم ألبث أن شعرت بقبضة قوية خشنة تمسك بكتفى فاستيقظت فى الحال ، فاذا أنا أراه قد تحامل فى فراشه واستوى فى مرقده ، وعرا وجهه تغـير مروع ، ولكنه أفاق من الغشية ، اذ تبين لى أنه قد عرفنى ورأيت الطفل الذى كان قد انزعج من وقت طويل واضطرب من شدة هذيانه ، ينهض من فراشه الصغير ، ويجرى نحو أبيه صارخا من شدة الخوف ، غير أن أمه عاجلته ، فتناولته بين ذراعيها ، مخافة أن يؤذيه وهو فى عنفوان جنونه ، ولكنها حين أبصرت التحول البادى ، على قسمات وجهه ،وقفت مروعة جامدة بجانب سريره ، وتناول كتفى فى يد متشنجة راعشة ، وباليد الاخرى ضرب صدره ، وحاول جاهدا أن ينطق ٠٠ ولكنه لم يستطع ٠٠ فبسط ذراعيه نحوهما ، وعاد يحاول مرة أخرى ٠٠ ولكن حشرجة قامت فى حنجرته ٠٠ وخطف بريق على عينيه ٠٠ وانبعثت منه أنة قصيرة مختنقة ٠٠ وارتد الى الوراء ٠٠ ميتا ٠

وكان يسعدنا أشد الاسعاد أن ندون رأى المستر بكوك فى هذه القصة ، التى أسلفناها عليك ، ولسنا نشك فى أننا كنا

نوافيك به ، لولا وقوع حادث حال لسوء الحظ بيننا وبين ايراده .

وكان المستر بكوك قد أعاد الى المنضدة الكأس التى لبثت خلال العبارات الاخيرة من القصة مرفوعة بيده ، وهم بالكلام ـ استنادا الى ما ورد فعلا فى كناشته ، من أنه هم فعلا بأن يفتح فمه ليقول شيئا ـ لولا أن دخل غلام الفندق فى تلك اللحظة فقال له : « بعض السادات يا سيدى ! »

وقد ذهبت الظنون الى القول بأن المستر بكوك كان على وشك القاء بعض ملاحظات من شأنها أن تنير العالم كله ، ان لم يقتصر نورها على المدينة القائمة على ضفاف « التايمز »، لولا هذه المقاطعة ، فقد راح يطيل النظر عابسا فى وجه الغلام ، ثم أدار عينه فى وجوه الجمع عامة ، كأنما يطلب منهم خبرا يتصل بأمر أولئك الزائرين .

وعندئذ نهض المستر ونكل من مجلسه فقال: « آه .. بعض صحاب لى . دعهم يتفضلوا بالدخول » ، وأردف يقول ، عقب انصراف الخادم : « انهم اناس لطاف جدا . ضباط من الآلاى السابع والتسعين ، عرفتهم مصادفة فى هـــذا الصـــباح . وسنأنس اليهم كثيرا .

فاستعاد المستر بكوك طمأنينته فى الحال ، وما لبث الغلام أن عاد معلنا دخول ثلاثة سادات الى الحجرة

وتولى المستر ونكل مهمة التعريف فقال : الملازم تابلتون .. المستر بكوك . الدكتور بين .. المستر بكـــوك .. المستر سنودجراس ، الذى رأيته من قبل .. صديقى المستر طبمن الدكتور بين . الدكتور ســــلامر ، المستر بكوك .. المستر طبمن الدكتور سلامر ...

وهنا وقف المستر ونكل فجأة عن الكلام ، اذ رأى أمارات الانفعال الشديد جلية على وجه كل من المستر طبمن والطبيب

وقال هذا بلهجة توكيد ظاهر : لقد التقيت بهذا « السيد » من قبل ..

وقال المستر ونكل فى دهشة : أحقا ؟؟

ومضى الدكتور سلامر يقول : وهذا .. الشخص أيضا ، اذا لم أكن مخطئا .. وراح يلقى نظرة متفحصة على الرجل الغريب ذى الثوب الاخضر ، وتابع الكلام قائلا : أعتقد اننى وجهت الى هذا الشخص دعوة ملحة فى الليلة الماضية ، فرأى من الواجب أن يرفضها ..

وما أن أتم هذا القول ، حتى نظر الى الغريب نظرة متعاظمة مترفعة ، وهمس لصديقه الملازم تابلتون .

فقال هذا السيد ، حين سمع قوله : « لا تقل هذا »

قال : « بل أقوله .. لانه الواقع »

وغمغم الآخر ، صاحب المقعد المألوف فى الثكنات ،باهتمام شديد : « من واجبك أن تركله بقدمك فى الحال . »

وتدخل الملازم قائلا : أسكت من فضلك يا « بين » وتقدم صوب المستر بكوك فقال : « هل تسمح يا سيدى أن أسألك: هل ينتمى هذا الشخص الى جمعكم ؟ »

وكان المستر بكوك يبدو مبهوتا الى حد كبيرمن هذا المسلك المجافى للادب .

ولكنه أجاب قائلا : كلا يا سيدى .. انه ضيفنا ، وعاد

الملازم يسأل : وهل هو عضو فى ناديكم ، أو أنا مخطىء ؟

وأجاب المستر بكوك : كلا ٠٠ بلا شك ٠

وعاد الملازم يسأل : « ألم يضع يوما شارة النادى على ثوبه؟»

فازدادت دهشة المستر بكوك ، وقال : « كلا٠٠مطلقا »

وعندئذ التفت الضابط الى صديقه الدكتور سلامر ، رافعا كتفيه فى هزة لا تكاد ترى ، كأنما يشك فى صدق ذاكرته ، وبدا الدكتور سلامر غضوبا مغيظا ، وان ظل مبهوتا حائرا ، ولبث المستر « بين » ينظر نظرة موحشة مفترسة الى وجه المستر بكوك المشرق ، الحائر ، لا يفهم مما سمع شيئا ٠

وانثنى الطبيب فجأة ، يوجه الكلام الى المستر طبمن ،بلهجة جعلته يجفل اجفالة ظاهرة، كأن دبوسا غرز بمكر،فى مشط قدمه، قائلا : « لقد كنت فى المرقص الذى أقيم هنا فى الليلة الماضية»

وشهق المستر طبمن،شهقة خافتة ،مؤمنا بها على قوله ، وهو ينظر طيلة الوقت الى المستر بكوك

وعاد الطبيب يقول، وهو يشير الى الغريب ، وقد ظل هذا جامدا لا يتحرك ولا ينبس : «وكان هذا الشخص رفيقك ؟ »

وأقر المستر طبمن الحقيقة ٠

وانثنى الطبيب الى الغريب، فقال: والان ياسيدى، اننى أكرر عليك ، بحضور هؤلاء السادات ،سؤالى القديم : هل تريد أن تقدم الى بطاقتك ، فتلقى منى المعاملة الخليقة بسيد مهذب ، أو ستضطرنى الى معاقبتك فى التو واللحظة ؟

وهنا قال المستر بكوك :«مهلا أيها السيد ٠ اننى فى الواقع

لا يمكنني أن أسمح بأن يمضى الامر على هذا النحو قبل أن أسمع شرحا ٠٠ طبمن ٠٠ اقصص علينا الخبر »

وعندئذ امتثل المستر طبمن للامر ، فشرح الحادث فى بضع عبارات ، ولم يمس مسألة استعارة الثوب الا مسة عابرة ، وانما أطال فى محاولة تبرير ما جرى بأنه حدث « بعد الغداء » ، وانتهى من شرحه بقول يسير ، يعلن فيه ندامته وأسفه فيما يتعلق بشخصه ، وترك للغريب تبرئة نفسه أو الدفاع عن مسلكه ، كما يشاء ٠

وهم الغريب أن يفعل، لولا أن عاجله الملازم تابلتون ، وكان يتبعه بعينيه فى فضول شديد ، قائلا ، فى سخرية بالغة ، واحتقار شديد: «ألم أرك قبل الآن فى دار التمثيل ياسيدى ؟»

قال ، بلاحياء : « بلا شك »

ومضى الملازم يقول باحتقار ، وهو يلتفت الى الدكتور سلامر: انه ممثل متجول ٠٠ وهو يقوم بأحد الادوار فى المسرحية التى سيخرجها ضباط الآلاى الثانى والخمسين، على مسرح روشستر ليلة غد ٠٠ لا تستطيع اجراء شيء فى هذه المسألة ٠٠ مستحيل

وقال « بين » المتعاظم المترفع : « تماما »

وانثنى الملازم تابلتون ، موجها الخطاب الى المستر بكوك : آسف لوضعك فى هذا الموقف الاليم ٠ اسمح لى أن أقترح عليك الوسيلة المثلى لاجتناب تكرار أمثال هذه الحوادث فى المستقبل، وهى أن تكون حريصا فى انتقاء رفقائك ٠

وأضاف يقول ، وهو يخرج مسرعا من الحجرة : طاب صباحك يا سيدى ٠ »

وتبعه الدكتور « بين » السريع الغضب فقال : « واسمح لى انا أيضا يا سيدى بأن أقول اننى لو كنت فى مركز تابلتون أو سلامر ، لجدعت أنفك ياسيدى وأنف كل رجل فى جماعتك ٠٠ أى والله ، لما ترددت فى جدع أنوفكم جميعا ، اننى ادعى « بين » يا سيدى ٠٠ الدكتور « بين » فى « الآلاى » الثالث والاربعين ٠ طاب مساؤك يا سيدى ٠ »

وما كاد يختم هذا القول بالكلمات الثلاث الاخيرة بصوت جهير ، حتى تسلل مزهوا متعاظما فى اثر صديقه وتبعهما على الاثر الدكتور سلامر ، دون أن يقول شيئا وانما قنع بالقاء نظرة ساخرة على القوم جميعا ٠

وكان الغضب المتزايد والدهشة المتناهية ،قدهاجا فىصدر المستر بكوك، وأثارا عاطفة النبل فىجوانحه ، حتى كاد صداره ينشق،عندسماعه ذلك التحدى السافر، فوقف مسمرا جامدا فى مكانه ، ينظر نظرات فارغة ، ولكنصوتانغلاق الباب أثابه الى رشده ، فانطلق وسورة الغضب بادية فى عينيه ، والنار متأججة فى ناظريه ، ويده على أكرة الباب، وكانت فى اللحظة التالية ستمسك بعنق الدكتر « بين » طبيب الآلاى الثالث والاربعين ، لولا أن جرى المستر سنودجراس وراءه ، فأمسك رئيسه الموقر ، من ذيل ردائه ، وراح يجره جرا

وصاح المستر سنودجراس بصاحبه قائلا : « امسكاه » يا ونكل وطبمن ، فلا يصح أن يعرض للخطر حياته الغالية فى أمر كهذا ٠ »

وقال المستر بكوك : « دعونى أذهب ٠ »

وعاد المستر سنودجراس يصيح بهما قائلا : « شددا الامساك به ٠ »

وهكذا تعاون القوم جميعا ، على ارغام المستر بكوك على التهالك فى مقعد وثير

وقال الغريب ، ذو الثوب الاخضر : « دعوه وخلوا عنه ٠٠ بكأس من البراندى والماء ٠٠ يا له من شـــيخ بديع ٠ ممتلىء شجاعة واقداما ٠٠ اشرب هـــذا الكأس ٠٠ هم ، انه شراب مفتخر ٠ »

وكان من قبل قد ذاق حلاوتها، بعد أن تولى الرجل التعس « شعشعتها » وتقدم الغريب بالكأس،فقربها من شفتى المستر بكوك : فلم تلبث بقاياها ان توارت فى جوفه

وساد السكون لحظة ، وفعلت كأس البراندى فعلها ، فعـاد وجه المستر بكوك ينطلق ، واسترد تهلله المألوف

وقال الرجل «التعس» : « انهم لا يستحقون منك التفاتا »

وأجاب المستر بكوك قائلا : آنت على حق يا سيدى ٠٠ فهم لا يستحقونه ، وانى لخجلان من أننى استسلمت لهذا الغضب الذى بدر منى ٠٠ هلا قربت كرسيك من المنضدة ، ياسيدى فامتثل الرجل التعس فى الحـال لآمره وانتظم القوم حـلقة حول الخوان ، وعاد الوئام يسود القوموان بدا علىالمسترونكل شيء من القلق قد ظل مخامرا صدره ، ولعل مرجعه الى انتزاع ثوبه من الحقيبة وغيابه عنها الى حين ، وان لميكن من المعقول ان نظن أن حادثا يسيرا كهذا يمكن أن يثير غضـــبا ــ ولو عابرا ، فى صدر رجل من معاشر « البكويكيين »

وفيما عدا هذا ، عاد القوم الى مرحهم ــ واستردوا صـــفو مزاجهم ، وانتهى المساء بالروح المرحة التى بدأ بها

الفصل الرابع

يوم ميدان ومبيت فى الخيام
أصدقاء جدد آخرون ، دعوة الى زيارة الريف

نرى خلقا كثيرا من المؤلفين يقيمون اعتراضا سخيفا ، بل فى الواقع اعتراضا غير صادق على الاعتراف بالموارد التى استقوا منها معلوماتهم النفسية ورواياتهم القيمة،ولكننا لانرى هذا الرأى ، وانما نحاول أن نؤدى على أكمل وجه واجبنا بوصفنا ناشرين ، ومهما يصح أن نحمله فى هذه الظروف ،من الطموح أو الرغبة ، فى ادعاء تأليف هذه القصة ، فان احترام الحقيقة يمنعنا أن نفعل ذلك ، بل يقتضينا ألا نعزو من الفضل أكثر من جهد التنسيق الحكيم ، والسردالنزيه · جاعلين مذكرات « بكوك » بمثابة منبع النهر الجديد ، ونحن ازاءها أشبه بشركة هذا النهر ومؤسسته ، فان جهد غيرنا هو الذى هيأ لنا معينا عظيما من الوقائع الخطيرة ، وكل مهمتنا أن نبسطها ونسوقها فى « فيض » « رقراق » أو « غدير » رقيق ، فى هذه الفصول المتتابعة ، الى العالم « المتعطش لمعرفة البكويكيين ،

وعملا بهذا المبدأ ، وتنفيذا صادقا لعزمنا على الوفاء ، بحق والمراجع التى استأنسنا بها ، نقول بصراحة ، أننا

مدينون « لكناشة » المستر سنودجراس بما أوردناه من الحوادث فى هذا الفصل والذى سيليه ، والآن وقد أرضينا ضميرنا ، نمضى فى السياق • بغير تعليق آخر •

نهض أهل روشستر جميعا ، وسكان المدن المجاورة ، من مراقدهم ، فى ساعة باكرة من صباح اليوم التالى ، وهم فى قلق بالغ ، وحماسة ظاهرة ، لان عرضا عسكريا كبيرا سيجرى فىالميدان ، وان القائد العام سيتفقد ، بعين النصر ، مناورات ستة ألايات ستشترك فيه ، وقد أقيمت استحكامات موقوتة لهذا الغرض ، ووضعت التصميمات لمهاجمة القلعة والاستيلاء عليها وتفجير الالغام •

وكان المستر بكوك من أشد المعجبين بالجيش ، ولعل قرائنا قد أدركوا ذلك فى النبذة اليسيرة التى أوردناها عن وصفه « لشاتام » فلم يكن ثمة شىء أشد امتاعا له ، ولا أكثر انسجاما ، مع احساس كل رفيق من رفقائه ، من هذا المشهد المرتقب ، فلا غرو اذا هم بادروا الى المسير نحو أرض العرض ،وكانالناس قد استفاضوا اليه قبلهم ،منمختلف الاحياء • وعديد الدروب •

وكان الاستعداد فى الميدان يوحى بأن الاحتفال المنتظر سيكون على أعظم جانب من الخطورة والروعة ، والجلال ، فقد أقيم الحراس حوله حتى تظل أرضه الفضاء مخصصة للجنود ، ومضى الخدم فى المدفعية يحجزون أماكن للسيدات ، والجاويشية يروحون ويغدون مسرعين ، وقد حملوا كتبا مجلدة بالقماش ، تحت اباطهم ، وبدا الاميرالاى بولدر فى نوبة العسكرى الكامل ، ممتطيا صهوة جواده وهو يعدو به من موضع الى آخر ويدخل به فى غمار

الجماهير ، أو يتمخطر فوقه ويصيح بأعلى صوته حتى يبح من كثرة الصياح ، ويحمر وجهه أشد الاحمرار ، لغير ما سبب ظاهر أو باعث معقول ، والضـــباط يجرون الى الامام ، والى الخلف ويتحدثون أولا الى الاميرالاى بولدر ، ثم يصدرون الاوامر الى الجاويشية ، ثم يعدون جميعا مبتعدين ، وكانت وجـــوه الجنـــود أنفسهم وهم فى أحذيتهم اللامعـــــة وأطقمهم البراقة ، تبدو عليها خطفة من هيبة وجلال تكفى للدلالة على ما لهذا الاحتفال من شأن خاص ٠

ووقف المستر بكوك ورفقائه الثـــلاثة فى الصف الأول من صفوف الجماهير ، ولبثوا فى لهفة ، يرتقبـــون ابتـــداء العرض العام ، وكان الزحام يشتد بين لحظـــة وأخـــرى ، فشغلهم الجهد الذى اضطروا الى بذله للعرض على المكان الذى وقفوا فيه ، عن كل شيء سواه ، ساعتين كاملتين ، وأحســـوا ضغطا شديدا فى فترة ما من خلفهم ، واذا بالمســـتر بكوك يدفع فجأة الى الامام دفعا عدة ياردات ، بسرعة ورجرجة ، لا تتفقان مطلقا مع وقاره وهيبته ، وفى لحظة أخرى سمع صيحات تأمره بالتراجع عن الخط ، وأحس مؤخر بندقية يســــــقط فوق أصابع رجله لتنبيهه باطاعة الامر ، أو فى صـــدره ، للتحقق من امتثاله اليه ، واذا بعض الماجنين عن شـــماله ، يضغطون من هـــذا الجانب بجمعهم عليـــه ، ويحشرون سنودجراس حشرة أليمة متناهية فى الايلام ، صائحين به :

الى أين أنت ذاهب ؟ » وما كاد ونكل يفرغ من ابداء غضبه المتناهى من مشهد هذا الهجوم عليهم بغير داع ، حتى عمـــد أحدهم من خلفه ، الى ارخاء قبعته على عينيه ، ومطالبته بأن يتكرم فيضع رأسه فى جيبه ، فكانت هذه المداعبات ، بجانب الدعابات الأخـــرى ، ثم اختفـــاء السيد طبمن فجـأة بلا

سبب . وحيرة أصحابه في الاهتداء اليه ، مما جعل الموقف يبدو ، في الجملة ، مزعجا أكثر منه سارا أو مرغوبا فيه

وأخيرا ارتفع في الفضاء زئير اصوات كثيرة في صفوف النظارة ، ايذانا بوصول من كانوا طيلة الوقت في انتظاره ، فاتجهت الابصار جميعا ، نحو نقطة الابتداء ، ولم تنقض بضع لحظات في لهفة شديدة ، وارتقاب بالغ ، حتى شـــوهدت الأعلام خفاقة في الفضاء . والأسلحة وهاجة في ضياء الشمس. وجاء الجنود ، صفا صفا ، يمشون الى الساحة بانتظام ، ثم وقفوا فاصطفوا ، وتعالت كلمات الأمر من أفواه القــواد ، فارتفعت البنادق والأسلحة ، مؤدية وقفة السلام ، وجاء القائد العام ، يمشي الى جانبه الاميرالاي بولدر ، وعدد كبير من الضـــباط . يتفقد العرض ، وعزفت الموسيقات كلها عزفة واحدة ووقفت الخيل على ساقين ، وتراجعت الى الخلف ، وهزت أذيالهـــا في كل مكان ، ونبحث الكلاب ، وارتفع الهتـــاف من أفـــواه الحاشدين . وانطلقت الكتائب في سير عام مبتعدة . فلـــم تجد العين تشهد على الجانبين والى نهاية مدى البصر ، غير ظل مستطيل في أردية حمر وسراويل بيض ، وهي مستقرة جامدة بلا حراك .

وكان المستر بكوك مشغولا طيلة الوقت بالتعثر والسقوط ، وتخليص نفسه بأعجوبة ، من بين سيقان الخيل . فلم يستمتع بمشاهدة المنظر استمتاعا كافيا ، حتى اتخذ الصـــورة التي وصفناها ، فتمكن عندئذ من الوقوف مستويا على ســـاقيه ، ولم يلبث سروره وابتهاجه ان جاوزا الحدود

فأقبل على صاحبه المستر ونكل يقول : « هل يمكن أن يكون في الدنيا شيء أبدع من هذا وأكثر متعة للنفس ؟ »

فأجاب هذا قائلا : « لا يمكن »

وكان رجل قصير القامة قد لبث ربع ساعة واقفا علـــى قدميه يدوسهما بكل ثقله · وهو صابر لا يشكو

وهاجت في صدر المستر سنودجراس وقدة الشاعرية، وكادت تبعث متأججة منه · فذهب يقول انه حقا لمشهد رفيع باهر، ان تلم عينك بحماة وطنك البواسل، وهم مصطفون في ثيابهم البراقة، أمام مواطنيهم الامنين ، مشرقو الوجوه ، لا بوحشية الحرب ، بل بلطف الحضارة ، ملتمعو الأعين ، لا بنار الرغبة فى النهب والسلب وحب الانتقام ، بل بضياء الانسانية ، وبريق الفهم والذكاء ··

واندمج المستر بكوك بكل مشاعره ، فى روح هـذا المديح ومعانيه ، ولكنه لم يستطع ترديد اصدائه وتكرار الفاظـــه بالذات ·

وتلفت حوله وأنشأ يقول : « نحن الآن فى موقف بديع » فقد بدأ الناس يتفرقون من مواقفهم القريبة منهم · حتى كادوا يخلون لانفسهم حيث وقفوا

وانثنى المستر سنودجراس والمستر ونكل يرددان قـول صاحبهما : « بديع ! »

ووضع المستر بكوك منظاره فوق عينيه ، وقال : « ما تراهم يفعلون الساعة ؟ »

وقال المســـتر ونكل وقـد بدأ لونه يتغير : أظنهم ·· احسبهم يهمون باطلاق النار

ولكن المستر بكوك قال فى عجلة : هذا كلام فارغ !

وقال المستر سنودجراس فى شىء من الفزع : اعتقد انهم سيفعلون ٠٠

فأجاب المستر بكوك : مستحيل ، ولم يكد يفوه بهذه الكلمة حتى صوب جنود الآلايات الستة فى حركة واحدة فوهات بنادقهم ، كأنما يوشكون ان يسددوها الى هدف واحد مشترك ٠ وهذا الهدف هو معاشر البكويكيين، واذا دوى مروع يدوى ، فيرج الارض رجا ، ويهزها من نقطة ارتكازها هذا كما يهز سيدا كبيرا ويقتلعه من مكانه اقتلاعا ٠

وفى ذلك الموقف العصيب ٠ موقف التعرض للنيران المروعة من الذخيرة « الرش » والمضايقة من حركات القوات العسكرية، وقد أخذ قسم منها يصطف فى الجبهة المقابلة ، راح المستر بكوك يبدى من السكينة التامة ورباطة الجأش ، ما يلازم صفات الرجل الكبير العقل ويقترن عادة بسجاياه وخلاله ٠ فقد أمسك المستر ونكل من ذراعه ، واتخذ موقفه بين هذا والمستر سنودجراس ، راجيا بجد منهما ان يذكرا ان ليس ثمة خطر مباشر ، يدعو الى الخوف من اطلاق النار ، الا ما قد يحتمل من الاصابة بالصم من شدة الدوى وقصفه

وهنا اعترض المستر ونكل، وقد اصفر وجههمن الافتراض الذى كان هو الذى أثاره بقوله : « ولكن افرض ان بعض الجنود قد وضع خطأ رصاصا حيا فى « ظروفه » وخراطيشه ، فقد سمعت شيئا يصفر فى الفضاء اللحظة ،وقد مرق الصوت الصافر بقرب أذنى »

وقال المستر سنودجراس : « لخير لنا أن ننبطح على وجوهنا

أليس ذلك أحجى وأحكم ؟ »

وقال المستر بكوك : «لا ٠٠ لا ٠٠ لقد انتهى كل شيء الآن ٠»

وقد بدت شفتاه ترجفان ، وصفحة وجهه تبيض وتشحب ولكن شفتيه لم تنفرجا عن أى تغيير من خوف أو جزع ، شأن الرجل الخالد الذى لا يخشى الموت

وكان المستر بكوك على حق ٠٠ فقد انقطع اطلاق النيران ولكن لم يكد يتسع الوقت له ليهنيء نفسه بصواب رأيه ، حتى شوهدت فى الميدان حركة واسعة ، وسرت فى الصفوف أوامر عاجلة ، وقبل ان يتمكن الرفقاء الثلاثة من تـــكوين رأى فى معنى هذه الحركات الجديدة ، أقبلت الالايات الست بأجمعها شاهرات الاسنة ، متقدمات بخطوة سريعة ، نحو البقعة التى كان السيد بكوك وصاحباه واقفين فيها

ان الانسان معرض للموت فى كل لحظة ٠ وان هناك حدا للشجاعة البشرية ، لا تستطيع تجـــاوزه ، فلا غرو اذا كان المستر بكوك ، بعد نظرة سريعة من خلال منظاره ، الى هذه الكتل الزاحفة ، قد ولى ظهره لها ولذا نقول : لاذ بأذيال الفرار ٠٠ لانه أولا تعبير محبب ٠ وثانيـــا ان شــــكل المستر بكوك لا يتفق مع هذا الاسلوب من التقهقر ، ولكنا نقول انه انطلق « خببا » على قدر ما استطاعت ساقاه أن تحملاه ، أى نعم انطلق بسرعة بالغة ، لم يفطن معها الى غرابة موقفه كل الفطنة ، الا بعد حين

وكانت القوات التى اصطفت قبالة المستر بكوك من قبل ، وحار فى ادراك المراد من اصطفافها بضع ثوان على هذه الصورة، قد وقفت هكذا لصد هجمة تمثيلية من الجنود المحاصرين للقلعة، على سبيل التمثيل ٠ واذا بالمستر بكوك ورفيقاه قد وجــدوا

انفسهم فجأة محصورين بين صفين من القوات الـــكبيرة ، أحدهما يزحف بخطى سريعة ، والآخر ثابت الاشتباك فى قتال وطعان

وصاح الضباط فى الجيش الزاحف : « هو ··· »

وصرخ الضباط فى الجيش الواقف : « ابتعدوا عن الطريق، أفسحوا السبيل ·· »

وصاح البكويكيون الثلاثة مروعين : « الى أين نذهب ··؟ »

فكان الجواب الوحيد · هو · ·هو ·· هو ··

وتلت هذا الموقف حيرة بالغة ، وذهول شديد ، ووقـــع أقدام ثقال · ورجةعنيفة ، وضحكة مكبوتة ، وكانت الآلايات الستة على قيد خمسمائة ياردة ، ولكن حذاء المستر بكويك بدا طائرا فى الفضـــاء ، واما المستر سنودجراس والمستر ونكل فقد اضطرا الى الانقلاب ظهرا لبطن فى خفة ظاهرة ، وكان أول شيء وقعت عين المستر ونكل عليه حين حط على الارض ، بعد ذلك الانقلاب فى الفضاء ، وهو يمسح بمنديل حريرى أصفر « نهر الحياة » الذى نزف من أنفه ، مشـــهد زعيمه الموقر على قيد خطوات منه · وهو يعدو فى أثر قبعته وهى تصفر لاهية ذاهبة مع الهواء كل مذهب

وقلما تعرض للمرء فى حياته لحظات يواجه فيها محنـــــة تثير الضحك · ولا تبعث كثيرا من الاشفاق عليه · والرثـــاء لحاله · كاللحظة التى يجرى فيها مطاردا قبعته · وان القبض عليها ليقتضى قدرا كبيرا من الهدوء ، وحدا بالغا من الاتزان ، فلا ينبغى للمرء ان يتعجل الهجوم عليها · والا داسها بقدميه أو استبقها فى عدوه ، كما لا يصح له الغلو فى الهدوء · والا

فقدها الى الابد . وانما الطريقة المثلى هى التلطف للطريدة . والاخذ بالحذر والحيطة . وترقب الفرصة المواتية . والتقدم شيئا فشيئا أمامها ، ثم الانقضاض العاجل عليها . والامساك بها من قمتها ، وحشرها فى رأسك حشرا لافكاك لها منه . وانت فى ذلك كله باسم بسعة الرضى ، كأنك تعتقد انها منظر مضحك لك ، كما هو مضحك لسواك من الناس .

وكان الريح رخاء ، فراح المستر بكوك يتدحرج أمامها مداعبا ، ثم هبت الريح ، فهب المستر بكوك مثلها ، فانطلقت القبعة متدحرجة دحرجة مرح ودعاية كأنها سمكة حية فى موج شديد ، وكان من الجائز أن تظل متدحرجة على هذا النحو حتى تعز على منال المستر بكوك ، لولا ان وقف فجأة فى طريقها حائل ساقته الاقدار . فى اللحظة التى أوشك ذلك السيد ان يدعها الى مصيرها المحتوم

نقول ان المستر بكوك أحس باعياء تام ، وكاد ينثنى عن المطاردة ، فى اللحظة التى اندفعت فيها القبعة بعنف فاصطدمت بعجلة مركبة كانت واقفة فى صف مستطيل من بضع مركبات أخرى فى البقعة التى ساقته اليها خطاه ، وأدرك المستر بكوك أن الظرف فى مصلحته فاندفع بخفة الى الامام فاسترد قبعته . ووضعها فوق هامته . وتمهل ليملك أنفاسه اللاهثة ، ولكنه ما كاد يقف فى مكانه نصف دقيقة ، حتى سمع صوتا ينادى باسمه فى لهفة ، وتبين فى الحال انه صوت المستر طبمن . فرفع بصره ليرى اين هو . فشهد منظرا ملأ خاطره دهشة وحبورا .

رأى فى مركبة مفتوحة ، انتزعت جيادها منها ، مراعاة لشدة الزحام ، شيخا بدينا ، فى ثوب أزرق ، وأزرار براقة ، وسراويل

من المخمل ، وحذاء طويل ، وبجانبه شابتين فى ثيـاب هفافة وريش ، وفتى فى نضارة العمر ، يبدو عليه انه يحب الغادتين ، وسيدة لا يستطيع المرء ان يقدر سنها • وأكبر الظن انهـــا خالتهما ، ومعهم المستر طبمن ، وهو مطمئن مرتاح ، كأنه يمت الى الاسرة بنسب منذ طفولته • وقد ربطت بمؤخر المركبـة سلة كبيرة من تلك الســـلال التى تثير فى الخاطر القـــوى الخيال صور الدجاج البارد واللسان وزجاجات النبيذ • وفى مقعد السائق جلس غلام بدين محمر الوجه • وهو يهوم فى مجلسه تهويما ، لا يكاد الدانى المتأمل يبصره على هذه الصورة حتى يعتقد انه سوف يكون الساعى على القوم بما حوته تلك السلة من أطياب • عندما يحين الوقت المناسب لتناولها

وألقى المستر بكوك نظرة عجلى على هذه المشاهدة الممتعة • واذا هو يتلقى تحية أخرى من مريده الامين • فقد صاح المستر طبمن به قائلا : بكوك •• بكوك •• اقبل •• اسرع الينـــا

وتلاه الشيخ البدين مناديا : « تعال ياسيدى • أرجوك أن نأتى • ياجو ؟ •• لعنة الله على هذا الغلام • لقد عاد الى النوم •• أى جو •• انزل السلم ! »

فنزل الغلام من فوق مقعده ببطء وأنزل سلم المركبة وأمسك ببابها مفتوحا أمام المستر بكوك ليدخل ، وفى هـذه اللحظة أقبل المستر سنودجراس والسيد ونكل

وصاح الرجل البدين : « ان فى المركبة متسعا لكم جميعا أيها السادة •• اثنان فى جوفها • والآخر خارجها •• ياجو •• هيىء مكانا لأحدهم فوق المقعد ، والآن ياســـيدى هلم » وراح يمـــــد ذراعه ويجـذب المســتر بكوك أولا ثم المستر سنودجراس بعده ، الى الدخول بالقوة • وصعد المستر ونكل

الى المقعد وفى أثره الغلام النوام ، ولم يكد يستقر فى مجلسه حتى ذهب فى النعاس

وأنشأ الرجل البدين يقول : « أهلا بكم أيها السادة ٠٠انى لفرح بلقائكم ، وانا عليم بكم حق العلم ٠ وان كان من المحتمل أنكم لا تذكروننى ، فقد قضيت بضع أمسيات فى ناديكم خلال الشتاء الماضى ، والتقيت مصادفة بالمستر سنودجراس فى هذا الصباح ، وسرنى لقاؤه السرور كله ٠ والآن كيف أنت ياسيدى ؟ انك لتبدو فى خير وعافية ، أكثر من أى وقت آخر ٠ »

فشكر المستر بكوك له هذه التحية ، وصافحه بمودة وتلطف ٠

ودار الرجل البدين بعينه الى المستر سنودجراس ، فى حنان أبوى ، فقال : « والآن ٠٠كيف حالك ياسيدى ؟ بديع ؟ أليس كذلك ؟ حسنا ؟٠٠ هذا جميل ٠٠ هذا جميل ٠٠ وانثنى الى المستر ونكل ، فمضى يقول : « وكيف أنت ياسيدى ؟ حسنا٠٠ اننى لسعيد أن أسمعك تقول انك بخير ٠ حقا اننى لسعيد ٠٠ هاتان ابنتاى يا سادة ٠٠ وهذه أختى مس راشل واردل ، هى آنسة ، ومع ذلك ليست آنسة ، ايه ياسيدى ٠٠ ايه ! ومضى يضع مرفقه مداعبا بين أضلاع المستر بكوك ، ويضحك من أعماق قلبه ٠

وقالت مس واردل بابتسامة متعبة : « ما هذا يا أخى ؟٠٠ ويحك ! »

قال : « حقا ٠٠ حقا ٠٠ وهل ينكر أحد ذلك أيها السادة ؟ أستميحكم المعذرة ٠ هذا صديقى المستر « تراندل » والان قد

تعارفتم جميعا ، فلنطمئن، ولنسعد ، ولنر ماذا نحن صانعون بعد ذلك .. هذا هو ما أقوله »

ووضع الرجل البدين منظاره على عينيه . وأخرج المستر بكوك أيضا منظاره . ووقف الجميع فى المركبة وراح كل منهم ينظر من فوق كتف الآخر الى تدريبات الجنود وحركاتهم

وكانت حركاتهم مثار دهشة بالغة . فقد مضى صف منهم يطلق النار من فوق هامات الصف الآخر ، ثم يعدو مبتعدا ، وراح هذا يفعل ما فعله الاولون ، ثم يسرع مبتعدا كذلك . ثم يؤلف الجمع مربعات منهم ، بحيث يقف الضباط فى وسطها ثم ينزلون الخندق من جانب واحد بمدارج خشبية ، ثم يصعدون من الجانب الاخر بالوسيلة عينها . ويتقدمون الى متاريس من السلال فيقلبونها من مواضعها ، وهم فى ذلك كله يبدون من الشجاعة والاقدام أروع الامثلة ، وتلا ذلك من اطلاق المدافع الضخمة ، وافراغ كل ما فى جوفها ، لمسح العدو مسحا . ومن الدوى الرهيب قبل اصدار الامر الى القوات بالمسير ، ما جعل الفضاء يردد أصدية الصرخات المنبعثة من أفواه النساء ، حتى لقد بلغ الرعب من الآنستين « واردل » حدا اضطر المستر تراندل الى اسناد احداهما فى المركبة حتى لا تسقط من موضعها هلعا ، بينما بادر المستر سنودجراس الى اسناد الاخرى ، واستولى الفزع على أخت المستر واردل ، الى حد مروع ، حمل المستر طبمن على تطويق خصرها بذراعه ، ليكلا تسقط فى جوف المركبة . وكان الاضطراب قد ساد الجمع . ما خلا الغلام البدين ، فقد لبث فى نومه هادئا كل الهدوء ، كأن قصف المدافع النغمة المألوفة التى اعتاد أن ينام عليها

وصاح الرجل البدين مناديا : « جو ·· جو » حين اقتحمت القلعة ، وجلس المنتصرون والمحاصرون لتناول الطعام وطفق يقول : لعنة الله على هذا الغلام ، لقد ذهب فى النوم مرة أخرى ·· تكرم يا سيدى واعركه فى ساقه من فضلك ، فلا شيء غير العرك يوقظه ·· شكرا لك ·· والآن علينا بالسلة يا جو »

وعندئذ استيقظ الغلام ، وما أيقظه حقا غير الشعور بجزء من ساقه منضغطا بين اصبعى المستر ونكل ، وراح يثب من فوق المقعد ، وأخذ فى فك أربطة السلة ، بسرعة لم تكن منتظرة منه ، بعد جموده واستيلاء النعاس عليه ·

وقال الرجل البدين : « الآن فلنجلس متقاربين »

وبعد أن تناول القوم عدة نكات وأمازيح عن حشر أكمام السيدات · واصطبغت الخدود بحمرة الحياء من عدة مقترحات مضحكة ، كقول قائل منهم يحسن أن تجلس السيدات فى حجور الرجال ، انتظمتهم جميعا حلقة فى المركبة ، وبدأ الرجل البدين يتسلم الاطعمة من الغلام · وكان هذا قد صعد خلف المركبة لهذا الغرض ·

وصاح السيد البدين : « الآن يا جو ·· علينا بالسكاكين والشوك » ، فناوله الغلام اياها ، فوزعت على السيدات والسادة فى جوف المركبة ، وأوتى المستر ونكل ، القائم فوق مقعد السائق نصيبه من هذه القواطع النافعة

وعاد السيد البدين يصيح : « جو ·· الاطباق ! »

وتم توزيع الصحاف بالطريقة ذاتها ··

وصاح السيد البدين : « جو ·· الدجاج ! لعنة الله على هذا الغلام ·· لقد ذهب فى النوم مرة أخرى ·· جو ·· جو ! »

وراح يدق رأس الغلام دقات متوالية بعصـــا حتى انتبه بمشقة من نعاسه ، فصاح السيد به : هات الطعام !

وكان في صوته ، وهو يقول الكلمة الاخيرة ، شيء أيقظ الغلام الشحيم اللحيم بعنف ، فقفز ، وراحت عيناه المتثاقلتان من سلطان النعاس عليهما تبرقان ، خلف خديه الضخمين ، فطفق يبتسم ابتساما بشعا للطعام وهو يخرجه من جوف السلة .

وصاح المستر واردل به قائلا : هيا .. اسرع ، حين شهد الغلام متشبثا في سرور ولذة بدجاجة محمرة لا يستطيع لها، فراقا ، ولا يبغي لها تركا ، فزفر زفرة عميقة وألقى نظـــرة متشهية على لحمها اللدن ، وسمنها الظاهر ، ثم تقدم على كره منه بها الى سيده ..

وقال هذا : هذا حسن .. انتبه .. والآن هات اللسان .. والحمام ، وانتبه لهذا اللحم الكندوس .. ولحم الخنزير .. ولا تنس الـكبوريا .. وأخرج « السـلاطة » من الغطـاء .. واعطني المفرش ! »

وكانت هذه الاوامر العاجلة تخرج من شفتي المستر واردل ، وهو يحمل المآكل المختلفة التي أسلفنا ذكرها ، ويضع الصحاف في أيدي القوم ، وعلى ركبهم ، وهي كثيرة لا تنتهي .

وعندما بدأت عملية الانقضاض على الطعام ، أنشأ ذلك السيد المزاح يقول : « والآن أليس هذا بديعا .. ؟ »

وأجاب المستر ونكل ، وهو يقطع أوصال دجاجة فوق مقعد السائق : « مفتخر ! »

وسأل المستر واردل : « ألك في كأس من النبيذ ؟ »

قال : « بكل سرور »

وأجاب المستر واردل : « خير لك أن تأخذ زجاجة بأكملها لنفسك وأنت فى مكانك هذا ٠٠ ألا تقر هذا الرأى ؟ »

قال : « انك لكريم ! »

وعاد الرجل البدين ينادى الغلام :« يا جو ! »

وأجاب هذا : نعم يا سيدى ٠ ولم يكن فى هذه المرة نائما فقد ظفر لنفسه بفطيرة محشوة لحما ٠٠

قال : « زجاجة نبيذ للسيد ٠٠ انى لسعيد برؤيتك يا سيدى ٠٠

وأجاب المستر ونكل : « شكرا » وقد أفرغ الكأس فى جوفه ووضع الزجاجة بجانبه فوق المقعد ٠

وقال المستر ترانڈل مخاطبا المستر ونكل : هل تسمح لى بمتعة الشراب معك يا سيدى ؟

قال : حبا وكرامة ٠

وتناول السيدان كأسا من النبيذ ،ثم انطلقا يشربان أخرى مع القوم جميعا ، سيدات ورجالا ٠٠

وهمست العمة العانس بتلك الغيرة الصادقة التى تحسها العمات العوانس ، لاخيها السيد واردل : « أنظر كيف تعاكس اميلى العزيزة بالغزل ذلك السيد الغريب ؟! »

فأجابها السيد الشيخ المرح : أوه ٠٠ لا أعرف ٠٠ كل هذا طبيعى ٠٠ بل أقول انه شىء مألوف يا مستر بكوك ، هل لك فى نبيذ ؟

فاستجاب المستر بكوك للدعوة على الفور ، وكان فى تلك اللحظة منهمكا فى البحث عما عسى أن يكون الحشو فى جوف اللحم المحمر ··

وقالت العمة العانس فى لهجة الولية الراعية : « يا عزيزتى املى ·· لا تتكلمى بصوت مرتفع ، ياحبيبتى · فأجابتها هذه بقولها : ياسلام ·· يا عمتى ! »

وهنا همست مس ايزابللا واردل لاختها املى قائلة « أظن أن عمتى والشيخ الكبير يريدان أن يستأثرا بكل شىء لنفسيهما · »

وضحكت الفتاتان من أعماق قلبيهما ، غير أن العجوز حاولت أن تبدو متلطفة راضية ، ولكنها لم تستطع ·

وأقبلت على المستر طبمن تقول بلهجة رثاء رقيق : « ان للبنات أرواحا أى أرواح ! كأن الارواح الحية المرحة ممنوعة ، وامتلاكها بغير رخصة جريمة نكراء ·

وأجاب المستر طبمن جوابا لم تكن تنتظره منه ، فقد ذهب يقول : « أى نعم · ان لهن ما وصفت ·· وهو شىء يبهج ويبعث السرور »

وقالت مس واردل متشككة : « هيم ·· ! » ·

وعاد المستر طبمن يقول مجاملا ، وهو يلمس معصم راشل الفاتن باحدى يديه ، ويرفع الزجاجة فى رفق بالاخرى : « هل تسمحين لى ·· ؟ »

قالت : « أوه ·· يا سيدى » ··

وبدا المستر طبمن شديد الاغراء ، وأبدت راشل خوفها

من أن يعود الدافع الى اطلاق النار فتحتاج طبعا الى من يسندها مرة أخرى ٠٠

وهمست عمة الفتاتين الودود فى ألان المستر طبمن : « هل تعتقد أن ابنتى أخى مليحتان ؟ »

فقال هذا البكويكى على الفور ، وفى عينيه نظرة شيقة : « أعتقد ذلك ، اذا لم تكن عمتهما حاضرة »

قالت : « يا لك من رجل « شقى » ولكن قل لى حقا ٠٠ لو كانت قسماتهما أحسن ٠٠ قليلا ٠٠ ألست ترى أنهما ستبدوان عندئذ فتاتين مليحتين على ضوء الشموع ؟ »

قال بلهجة استخفاف : « أعتقد أنهما كانتا ستبدوان كذلك »

قالت : « أوه ٠٠ انك لماجن ٠٠ أعرف ماذا كنت موشكا أن تقوله »

وهنا قال المستر طبمن : « ماذا ؟ » لانه فى الواقع لم يكن فكر فعلا فى أن يقول شيئا اطلاقا ٠٠

قالت : « أعرف أنك هممت بأن تقول ان « ايزابيللا « محنية » أعرف أنك كنت قائلا ذلك ٠٠ انكم معاشر الرجال أقوياء الملاحظة ٠ والواقع أنها كذلك ، فلا نفى ولا انكار ، وفى الحق ، اذا كان ثمة شىء أكثر اظهارا لقبح الفتاة من كل ما عداه فهو الانحناء ، وكثيرا ما قلت لها انها ستبقى منحنية الشكل ، حين تتقدم قليلا فى العمر ٠٠ حقا انك لماجن » ٠

ولم يكن لدى المستر طبمن مانع من أن يكسب هذه

الشهرة بثمن بخس كهذا ،وتراءى كأنه العريف العليموابتسم ابتسامة غريبة ٠٠

وهنا قالت راشل المعجبة به : « يا لها من ابتسامة ساخرة ٠٠ اننى أصارحك اننى منك جد خائفة »

قال : « أخائفة منى أنا ؟ »

قالت : « أوه ٠٠ انك لا تستطيع أن تخفى شيئا عنى ٠٠ اننى أعرف معنى ابتسامتك هذه حق المعرفة »

قال ولم يكن يدرى بتاتا المراد : « ماذا تقولين ؟ »

وهنا قالت العمة المعجبة ، وهى تخفض كثيرا من صوتها : انك تعنى بها أنك لا تعتقد أن انحناءة ايزابيللا رديئة كجرأة املى ٠٠ ولك الحق ٠٠ انها لجريئة ، ولا يمكنك أن تتصور مبلغ ألمى أحيانا من جرأتها ، بل لكثيرا ما بكيت منها الساعات الطوال ٠٠ ان أخى العزيز طيب القلب غاية الطيبة ، سليم النية كل السلامة ، فلا يفطن اليها أبدا ، ولو فطن فلا أشك فى أن قلبه سينفطر ألما ٠٠ لوددت لو استطعت أن أحسب جرأتها مجرد اصطناع وتكلف ٠٠ أرجو أن تكون كذلك ٠٠ وهنا أرسلت هذه العمة الودود زفرة عميقة وهزت رأسها هزة اليائس المحزون ٠

وهمست مس املى واردل لأختها : « انى واثقة من أن عمتى تتحدث عنا ٠٠ انى واثقة من ذلك كل الثقة ٠٠ ان الرغبة فى الاذى والخبث بادية على وجهها » ٠٠

وأجابت ايزابيللا قائلة : « أكذلك ٠٠ هيم ٠٠ أى عمتى العزيزة ! »

فقالت عمتها : « نعم يا حبيبتى الغالية ! »

وأجابت ايزابيللا : « اننى أخشى كثيرا أن يمسك برد يا عمتى ·· خذى منديلا من حرير فاربطيه حول رأسك الكبير الغالى ·· يجب فى الواقع أن تحرصى على صحتك ، وتراعى سنك »

وكانت هذه العبارة التى أطلقتها الفتاة ردا على ما قالته عمتها فى حقها ، كلاما فى محله ، وكانت صحتها تستحقه فعلا ، ولكنه بلغ من الحقد حدا لم يكن يحسن الالتجاء اليه ، ولسنا نستطيع أن نتكهن بما كانت عمتها فى غضبها مجيبة لو لم يغير المستر واردل موضوع الحديث وهو لا يدرى ، بترديد ندائه على الغلام : « جو »

وقال هذا السيد الشيخ : « لعنة الله على هذا الولد ·· لقد عاد الى النوم ! »

وانثنى المستر بكوك يقول : هذا غلام شاذ حقا ·· أينام دائما على هذا النحو ؟

وقال الشيخ بتأن ! : « انه « نائم » على الدوام · وإنه ليذهب ليؤدى أعماله وهو مستغرق فى النوم ويغط وهو يخدمنا على المائدة »

قال المستر بكوك : ما أعجب وما أغرب !

وردد الشيخ قوله : « حقا ما أعجب وما أغرب ·· انى بهذا الغلام لفخور ·· ولن أدعه يفارقنى لاى سبب من الاسباب ، انه لأعجوبة من أعاجيب الطبيعة ·· جو ·· جو ·· ارفع هذه الاشياء وافتح زجاجة أخرى ·· أأنت سامع ؟»

ونهض الغلام الشحيم اللحيم وفتح عينيه ، وازدرد الفطيرة الضخمة التى كان منشغلا بمضغها ، حين استولى النعاس عليه آخر مرة ، وراح فى بطء ينفـذ أوامر سيده ، محدقا البصر فى استرخاء فى بقايا المائدة ، وهو يرفع الصحاف ويودعها جوف « السفط »

وأحضرت الزجاجة الجديدة ، وما لبثت أن أفرغت ، ثم ربط السـلة فى موضعها القـديم ، وعاد الغـلام السمين يصعد الى المقعد . ووضعت المناظر والمجاهير مرة أخرى فوق الابصـار ، واسـتؤنفت الحركات العسكرية أمام النظارة ، واشتد قصف المدافع ، وعادت السيدات الى الاجفـال من الخوف ، واذا بنزك ينبعث فى الفضاء ، فيتلقاه الناس بالفرح والاغتباط ، وما كاد ينطفىء ويتوارى ، حتى حذا الجنـود والجماعة التى أسلفنا عليك وصفها حذوه ، فتواروا هم كذلك منصرفين

وانثنى الشيخ يقول ، وهو يهز يد المستر بكوك ، عقب حديث جرى متقطعا على فترات ، خلال ختام العرض : « والان تذكر اننا سنراكم جميعا غدا .. »

وأجاب المستر بكوك : « بكل تأكيد »

قال : ولديك عنواننا

وأجاب المستر بكوك ، وهو يستوحى كناشته : « نعم .. عزبة مانور .. فى دنجلى ديل »

قال : بالضبط .. وتذكـر اننى لن أتركك حتى تقيم لدينا أسبوعا على الاقل، وأؤكد لك أنكستشهد كل ما يستحق المشاهدة ، واذا رغبت فى الاستمتاع بالحيـاة فى الريف ،

فتعال أشهدك منها ألوانا وأسرحك فيه سراحا جميـــلا ..
يا جو .. لعنة الله على هذا الغلام .. لقد عاد الى النـــوم
ثانية .. جو .. ساعد « توم » على اسراج الجياد

وأسرجت الخيل ، وصعد السائق ، ووثب الغلام الى مجلسه بجانبه ، وتبودلت عبارات الوداع ، وانطلقت المركبـــة وجراجة ، وفيما كان البكويكيون يديرون أعينهم لتعليتهـا بآخر لمحة منها ، أرسلت الشمس الهائلة الى المغيب ضـــياء باهرا من حمرة اللحيم على وجوه مضيفهم ، كما سقط الضياء على الغلام الشحيم اللحوم . فاذا رأسه ينحدر فوق صدره ، وقد عاوده النعاس ..

الفصل الخامس

فصل قصير ، يصف فيما يصف ، كيف تولى المستر بكوك قيادة المركبة وكيف ركب المستر ونكل حصـــانا ، وكيف تصرفا فى هذه المسألة ٠٠

كانت السماء صافية ممتعة ، والهواء عليـلا ، وكل شيء فى الفضاء الرحيب جميلا ،حين أطل المســتر بكوك من فوق سياج « جسر روشستر » يتأمل الطبيعة ، وينتظر طعـــام الفطور

وكان المشهد فى الحق أدعى الى الاســـتحواذ على من كان أقل من المستر بكوك عقلا لماحا ، أو دونه خاطرا مصـــقولا ، فمن شماله ينهض الجدار الاثرى المتداعى ، من عدة نواحيه ، والمطل من بعضها الاخر على الشاطىء الرملى المترامى كثبانا متعرجة ، وربوات عالية ، وقد نما وتكاثر عشب البحر ، فبدا عقدا ضخمة فوق الاحجـــار المتثلمة الجـــوانب ، المحددة الاسنان ، والعشب يهتز مع كل هبة من أنفـــاس الريح ، بينما راح اللبـــلاب الاخضر يتشبث ، فى حزن واكتئاب ، بالشرفات القواتم الخربة ، ومن ورائه يقوم الحصن القديم ، أبراجا بلا سقوف ، وجدرانا ضخمة مهدمة ، وان حدثنـــا حديث الزهو والفخار عن بأسه القديم ، وقوته الغـــابرة ،

يوم كان منذ سبعمائة عام ، يضج بصليل السيوف ، واشتباك السلاح ، وتتردد فى نواحيه أصدية المآدب والولائم وضوضاء اللهو والقصف ، وقد ترامت على ضفتى نهر المدواى ، حقول من القمح ، ومروج ناضرة ، تلوح خلالها طاحونة هواء ، أو كنيسة منعزلة ، وتبدو مترامية الى أقصى حدود البصر ، فى مشهد جميل ، مختلف الالوان ، تزيده جمالا الظلال المارقة التى تخترقه ، كلما توارت السحب القلائل المتناثرة فى ضياء الصباح ، والنهر يعكس على صفحته زرقة السماء الصافية ، ويلتمع ويبرق ويشع ، وهو مستفيض فى رفق ، منطلق فى سكون ، ومجاديف الصيادين مغيبة فى جوف أمواجه ، محدثة صوتا جليا صائلا ، والزوارق الثقال ، وان بدت جميلة الصور تنساب فى بطء على صفحته

وما لبث المستر بكوك أن انتبه من هذه « الفجوة » التى اجتذبته اليها تلك المشاهد البادية أمامه ، على زفرة عميقة ، ولمسة رفيقة ، فوق كتفه فاستدار ، ليرى من هذا المباغت ،

قال : « أتتأمل هذا المشهد ؟ »

فوجد « الرجل التعس » واقفا بجانبه

قال : نعم ٠٠ كنت أفعل

فعاد الرجل التعس يقول :« وتهنىء نفسك باليقظة باكرا هذا البكور ؟ »

فأومأ المستر بكوك ايماءة الايجاب

وواصل الرجل حديثه يقول : « ما أحوج الناس الى النهوض من فراشه باكرين، ليشهدوا الشمس فى روعتها التامة وكل جلالها ، اذ قلما يمكث بهاؤها النهار كله ، فما أقرب

تبه بين صباح اليوم وصباح الحياة »

وقال المستر بكوك : « لقد قلت حقا يا سيدى »

واسترسل الرجل التعس : « وقد صدق القول السائر أن الصباح لأبدع وأجمل من أن يدوم » وما أولى بهذا القول ان ينطبق على حياتنا اليومية ·· يا الهى ·· بأى ثمن أود لو استعدت أيام طفولتى ، أو استطعت أن أنساها الى الابد · »

وقال المستر بكوك باشفاق ورثاء : « لقد قاسيت كثيرا فى حياتك يا سيدى · »

وأجاب الرجل التعس فى عجلة : « نعم ، لقد قاسيت أكثر مما يستطيع الذين يروننى اليوم أن يصدقوا جوازه أو يعتقدوا احتماله · »

وتمهل لحظة ثم عاد يقول فجأة : « ألم يخطر يوما ببالك ، فى ذات صبح كهذا ، ان فى الموت غرقا هناءة وراحة وسلاما ؟ »

وأجاب المستر بكوك قائلا : « يا لله ·· كلا !· » وانثنى قليلا عن سياج الجسر ، اذ تصور ، على الرغم منه ، أن الرجل قد يدفعه من فوقه ، ولو على سبيل التجربة ·

ومضى هذا فى حديثه يقول ، دون أن يفطن الى الحركة التى بدرت منه : « ولكننى فكرت فى ذلك أحيانا كثيرة ، ويلوح لى أن الماء الهادىء البارد انما يغمغم بدعوتى الى الراحة والسكون، فما هى الا قفزة، فرشاش، فمغالبة قصيرة، فدوامة عابرة، ثم تستحيل شيئا فشيئا الى موجة خفيفة رقيقة ، وقد أطبق الموج عليك ، وانفلق الماء فوق رأسك ، فاذا الدنيا قد أغلقت

دونك أبواب متاعبك وخطوبك الى الابد ٠

وكانت عينه الغائرة تشع كالشهاب ، وهو يمضى فى هذا القول ، ولكن هــــذه الحماســة الخاطفة ما لبثت أن رسبت ، فأشاح بوجهه فى هدوء ومضى يقول : « ولكن حسبنا هذا ودعنا منه ٠٠ اننى أريد أن أراك لأمر آخر ٠٠ لقد دعوتنى الى قراءة تلك الاوراق عليك فى الليلة السابقة للبارحة وأصغيت الى وأنا أتلوها على سمعك ٠ »

قال : « حقا ٠٠ وكان رأيى بلا شك أن ٠٠٠ »
ولكن الرجل التعس قاطعه قائلا : « لم أســـألك رأيك ، ولست أريد الآن أن أسألك ٠٠ انك مسافر جوالة للتسلية والمعرفة معا ، فما قولك اذا أنا بعثت اليك بمخطوط غريب ٠ أقول « غريب » لا لأنه غير معقول أو غـــير مرجح ، بل انه لغريب ، كصفحة من صفحات قصة الحياة الحقيقية ، فهل أنت مبلغها الى ناديكم الذى حدثتنى كثيرا عنه ؟ »

قال : « بلا شك اذا شئت » وسوف تدون فى محاضره »

وأجاب الرجل التعس : سأوافيك بها ٠ فعلى بعنوانك » ولما أنبأه المستر بكوك بالموضـــع الذى يرجح أن ينزل به ، أقبل الرجل يكتبه بعنــاية فى « دفتر جيب » ملطخ ببقع من الدهن ، واعتذر من الحاح المستر بكوك عليـــه فى دعوته الى الافطار ، وتركه عند الفندق ، وانصرف بخطى وئيدة ٠

ووجد المستر بكوك صحبه الثلاثة قد نهضوا من فراشهم ، ولبثوا فى انتظار وصوله ، ليشرعوا فى تناول الفطور ، وكان قد أعد فوق المائدة ، وبدا منظره شهيا مغريا ، فجلسوا اليه ، وبدأ لحم الخنزير المحمر والبيض والشاى والقهوة وأصـــناف

أخرى من الطعام تتوارى، فى سرعة ظاهرة، تشهد بجودة المأكل فى ذاتها وحدة شهية الآكلين ·

وانثنى المستر بكوك يقول : « والآن لنتحدث عن رحلتنا الى « ضيعة مانور ·· كيف يتواتى لنا السير اليها ؟ »

وقال المستر طبمن : «لعله من الخير أن تستشير غلام الفندق ·»

ودعى الغلام للاستشارة ·

وقال حين سئل : « دنجل ديل » أيها السادة ·· تبعد منا خمسة عشر ميلا أيها السادة ·· عند مفرق الطريق ·· أتريدون مركبة سفر ؟ »

وقال المستر بكوك : « ان مركبة السفر لا تتسع لأكثر من راكبين اثنين »

وقال الغلام : « هذا صحيح ياسيدى ·· أستميحك معذرة· مركبة ذات أربع عجلات تبدو بديعة جدا ، يا سيدى ، ·· ولها مقعد خلفى يتسع لاثنين ، وآخر للسيد الذى سيسوق ·· آه ·· استمحيك عفوا يا سيدى ·· انها لن تتسع الا لثلاثة ركاب » ·

وهنا قال المستر سنودجراس : « وما العمل اذن ؟ »

قال الغلام وهو ينظر الى المستر ونكل : « لعل أحد السادة يحب أن يركب حصانا يا سيدى ·· ان لدينا جيادا حسنة للركوب يا سيدى ·· وفى امكان أى واحد من خدم المستر واردل يتفق قدومه الى روشستر ، أن يعود به يا سيدى ·· »

وقال المستر بكوك : « هذا هو الحل المطلوب ·· فما رأيك يا ونكل ، هل تركب حصانا ؟ »

والواقع أن المستر ونكل شعر بمخاوف بالغة وتشاؤم شديد ، في أعماق قلبه ، من ناحية مدى خبرته بركوب الخيل ، ولكنه لم يشأ أن يفطن أحد الى تلك المخاوف التى تساوره ، فأجاب على الفور ، وبجرأة بالغة بلا شك : « هذه متعة لى ، لا يدانيها شىء . »

وهكذا اندفع المستر ونكل نحو القدر المقدور له ، وسلم مسرعا لمصيره ، فليس له عنه رجوع ، ولا منه مرد .

وقال المستر بكوك للغلام : « لتكن المركبة والحصان عند الباب فى الحادية عشرة .. »

وأجاب الغلام : « سمعا وطاعة يا سيدى »
وانصرف الخادم ، وانتهى الافطار ، وصعد السفر الى مخادعهم ليعدوا الثياب التى سيأخذونها فى رحلتهم الدانية .

وفرغ المستر بكوك من المعدات التمهيدية ووقف يطل من خلال أستار غرفة القهوة على السابلة ، الغادين والرائحين فى الطريق ، فدخل الغلام عليه وأنبأه أن العجلة على الاهبة ، وما لبثت العجلة ذاتها أن كدت النبأ ، بظهورها فى اللحظة ذاتها لعين المستر بكوك من خلال الستار .

وكانت العربة صندوقا صغيرا ، غريب الشكل، أخضر اللون قائما على أربع عجلات ، ولها موضع منخفض من خلفها أشبه شىء بصندوق نبيذ ، يتسع لجلوس رجلين ، ومجلس مرتفع لثالث فى المقدمة ،ويجرها حصان أسمر ضخم ، يبدو متناسق العظام ، وقد وقف بقربه سائس ، ممسكا بعنان حصان آخر ضخم ، يبدو كأنه قريب للحصان المشدود الى العجلة ، وهو مسرج مهيأ لركبة السيد ونكل .

وانثنى المستر بكوك يقول ، وهم وقوف على الافريز ، ريثما توضع الثياب فى العربة : « يا الهى ! ومن الذى سيسوقها، ما خطر ذلك يوما ببالى »

وقال المستر طبمن : « أوه ·· أنت طبعا » ··

وردد المستر سنودجراس القول : « طبعا » ··

فصاح المستر بكوك مدهوشا : « أنا ! »

وتدخل السائس فقال : « لا خوف مطلقا يا سيدى ··انى أؤكد لك أنه حصان هادىء ، يا سيدى ، حتى ليستطيع طفل فى المهد أن يسوقه »

قال مستفسرا : « أهو شرود مجفل ؟ »

وأجاب السائس : « شرود يا سيدى ؟ انه لن يشرد ولن يجفل ، حتى ولو لقى فى طريقه مركبة ملأى بقردة اشتعلت النار فى أذنابها »

وكانت هذه التوصية لا تقبل الجدل ، فدخل المستر طبمن والمستر سنودجراس فى « السحارة » ـ مقعد السائق ـ وصعد المستر بكوك الكرسى القائم فى المقدم وأسند قدميه الى رف مقام لهذا الغرض ·

وقال السائس لصبيه : « هيا يا وليم «المؤتلق» · «اعط السيد اللجام » ··

وتقدم وليم « المؤتلق » ، وأكبر الظن أنه سمى بهذا اللقب ، لشعره الناعم وسحنته « الزيتية » · فوضع الزمام فى يسرى المستر بكوك ، بينما دس السائس الكبير سوطا فى يمناه ··

وصاح المستر بكوك : « أوه ٠٠ ! » ، وقد رأى الحصان الطويل يبدى ميلا ظاهرا نحو الارتداد الى شرفة غرفة القهوة

وردد كل من المستر طبمن والمستر سنودجراس آهته وهما فى مقعد السائق ٠

وانثنى السائس الكبير يقول مشجعا : « هذه مداعبة منه أيها السادة ٠٠ امسكه يا وليم ٠ فتقدم هذا الى الحصان فرده عن حدته ، بينما جرى السائس الكبير ليعين المستر ونكل على الامتطاء ٠

وقال : « من الجانب الآخر ، يا سيدى ، اذا تكرمت »

وقال غلام فى خدمة الخيل ، وهو يبتسم هامسا لغلام الفندق، وهو يكتم ضحكة : « أراهن أن السيد كان سيركب من الجانب الخاطىء »

وتلقى المستر ونكل هذا الدرس وامتثل له ، فصعد الى السرج ، بمشقة بالغة ، لا تقل عن مشقة الصعود الى بارجة من الطراز الاول ٠

وسأل المستر بكوك صحابه : « هل كل شىء تام ؟ » وهو فى أعماق صدره يشعر بأن كل شىء ٠٠ ليس تاما ٠٠

وصاح السائس : « دعه ينطلق ٠٠ امسك به ياسيدى »٠

وانطلقت العجلة والحصان المسرج ، وعلى المقعد الاعلى من الاولى جلس المستر بكوك واستوى المستر ونكل فوق صهوة الآخر ، وكل من فى فناء الفندق ينظرون فرحين ضاحكين ٠

وانشأ المستر سنودجراس ، وهو على مقعد السائق يقول

للمستر ونكل ، وهو فوق السرج : « وما الذى يجعلـه يمشى هكذا مجانبا ٠ ؟ »

وأجاب المستر ونكل : « لا أدرى ٠ »

وكان حصانه قد انطلق فى الطريق بشـكل غريب كل الغرابة ٠٠ مندفعا أولا بجنبه ، ورأسه متجه صوب جانب من الطريق ، وذيله نحو الجانب الاخر ٠

ولم يؤت بكوك الفرصة لملاحظة ذلك ، أو مشـاهدة شىء سواه ، فقد كانت كل قواه محصورة فى مراقبـة حركات الحصان المشدود الى العجلة ، فقد راح يبدى من الغـرائب والعجائب ما يجتذب أى ـ مشاهد ـ ويسره ، ولكنه لا يسر ولا يجتذب الجالس من خلفه ، بل لقد لبث يرفع رأسـه بشكل متعب مزعج ، ويشد اللجام الى حد جعل من المشقة البالغة على المستر بكوك الامساك به ، وكانت للحصان نزعـة عجيبة ، الى الاندفاع فجأة بين لحظة وأخرى نحو جانبالطريق ثم الوقوف بغتة ، ثم الانطلاق بضع دقائقبسرعة ، من العسير مراقبتها ٠

وانثنى المستر سنودجراس يقول ، حين رأى الحصان يفعل ذلك للمرة العشرين : « ماذا تراه يقصد من هذا ؟ » فأجابه المستر طبمن قائلا : « لست أدرى ٠٠ ولكن أليس هذا أشبـه شىء بالشرود والاجفال ؟ »

وهم المستر سنودجراس بالجـواب ، لولا ان أسـكتته صرخة منبعثة من المستر بكوك وهو يقـول : ويحى ٠٠ لقـد سقط السوط من يد ى٠٠

فنادى المستر سنودجراس قائلا : « يا ونكل »

وجاء هذا « الفارس » يتخطر فوق فرسه الطويلة ، وقد هبطت قبعته ، حتى غطت أذنيه ، وهو يرعش من جميع جهاته، كأنما يوشك أن يتنافر بددا في كل ناحية ، من فرط الجهد الذي كان يبذله

ومضى المستر سنودجراس يناشده : « التقط السوط أيها الشهم الكريم . »

فراح المستر ونكل يشد عنان الفرس الطويلة حتى امتقع من الجد وجهه ، واستطاع بعد لأي وقفها عن المسير ، وعندئذ ترجل ، وسلم السوط الى المستر بكوك ، وتناول اللجـــام واستعد للوثوب فوق الصهوة

ولسنا ندري أكانت تلك الفرس العالية ، من ناحية روح اللعب المستمكنة منها ، تريد أن تلهو لهوا بريئا مع المستر ونكل ، أم خطر لها أن تقطع الرحلة على هواها ، بغير راكب يعلو صهوتها ، فان ذلك أمر لانستطيع أن نقطع فيه برأي حاسم ، ومهما يكن الباعث الذي بعث الفرس على هذا المسلك ، فلاريب في أن المستر ونكل لم يكد يلمس اللجـــام ، حتى بادرت الفرس الى التطويح به من فوق رأسها ، واندفعت الى الخلف تجره في أثرها جرا الى نهاية طرفيه

ومضى المستر ونكل يقول متلطفا لها ، مواسيا : « مسكينة مسكينة .. يا لك من فرس كريمة سمحة ! » ولكن الفرس « الكريمة السمحة » كانت في منـــاعة من الملق ، أبية على المديح ، فجعلت كلما حاول المستر ونكل الدنو منها ، تتثنى مبتعدة ، ورغم كل صنوف التلطف ، والمداراة ، والممانعة ، راح هو وهي يدوران .. ويلفان ، زهاء عشر دقائق ولايزال كل منهما مبتعدا عن الآخر » المسافة ذاتها التي كانت بينهما

من البداية ، وهو أمر مجهد ، فى الظروف المألوفة ، ولكنه أجهد وأشق خاصة على طريق منعزل ، يعز فيه الظفر بمعين أو نصير

وصاح المستر ونكل ، بعد أن طال الأمد على هذه المراوغة « ماذا ترانى أصنع •• وليس فى امكانى التغلب عليها •• »

وأجابه المستر بكوك من فوق المركبة قائلا : « يحسن بك أن تقودها حتى تبلغ بابا من أبواب المكوس • »

وعاد المستر ونكل يصيح قائلا : « ولكنها لا تريد ان تسير• هلا جئت فأمسكت بها ؟ »

وكان المستر بكوك المثل المجسم للـــرفق والانســانية ، فلا عجب اذا هو ألقى باللجام على ظهر الحصان ، وهبط من مقعده ، وجر العجلة بعناية الى ناحية السياج ، مخـافة أن يأتى شىء ما على الطريق ، وعاد ليعاون صاحبه فى محنتــه ، تاركا صاحبيه الاخرين فى المركبة

ولكن ما كادت الفرس تشهد المستر بكوك يتقدم نحوهـا والسوط فى يده ، حتى استعاضت عن الدوران الذى كانت ممعنة فيه ، بحـركة تراجع حاسم شـــديد ، لم تلبث أن اجتذبت بها المستر ونكل ، وهو لايزال ممســكا بالطرف الاخر من العنان ، جذبة أسرع من الجرى العاجل ، فى الاتجاه الذى جاءوا منه

وجرى المستر بكوك لنجدته ، ولكنه كلما أسرع فى جريه ، أسرعت فى ارتدادها ، واشتد احتكاك الأقـــدام ، والركـل بالأرجل ، حتى تعالى الغبار ، وتطاير العثير ، وعندئذ شــعر

المستر ونكل بذراعيه تكادان تنخلعان من كتفيــه ، فترك العنان ينفلت منه

ووقفت الفرس ساكنة ، ثم حملقت ، ثم هزت رأسها ، وتولت بظهرها ، وبكل رفق وهدوء انطلقت خببا عائدة الى روشستر ، تاركة المستر ونكل والمستر بكوك يتبادلان النظرات، في ذهول واكتئاب ، ولكن لم يلبث أن طرق سمعهما صوت جرجرة من مكان قريب ، فرفعا البصر ليريا ماذا جرى

وفي الحال صرخ المستر بكوك صرخة المبهور المعذب :« ويلنا .. ان الحصان الآخر يريد الفرار . »

وكان ذلك هو الواقع ، فقد أجفل الحصان من ذلك الصوت وأحس بالأعنة فوق ظهره ، فكانت النتيجة معروفة ، وهي انه انطلق في وجهه ، والمركبــة ذات العجلات الاربع من خلفه والمستر سنودجراس والمستر طبمن في جوفهــا ، وكانت الفرصة قصيرة ، والوقت ضيقا ، فألقى المستر طبمن بنفسه فوق السياج ، وحذا المستر سنودجراس حــذوه ، واندفع الحصان بالمركبة ذات العجلات الاربع نحو قنطرة خشبية ، ففصل العجلات عن الهيكل ، ومقعد السائق عن المقعد الامامي، ووقف أخيرا جامدا ، ينظر الى الدمار الذي أحدثه

وكان كل هم الصديقين ، اللذين لم يسقطا من المركبة ، أن يستخلصا صاحبيهما المنكودين من وسط الشوك والحسك اللذين سقطا فيهما ، وهي عملية انتهت بارتياح لا يوصف ، لانهما تبينا انهما لم يصــابا بأذى غير مزق في ثيابهمــا ، وخدوش في وجهيهما من الشــوك الذي أصــابهما ، وكان العمل الثاني الذي ينتظر منهما ، أن يفكا الحصان من المركبة المهشمة ، وماكادا يفعــلان هــذا حتى انطلق الجميع يمشون

فى بطء ، وهم يجرون الحصان بينهم ، تاركين العجلة لمصيرها

ووصلوا بعد مسيرة ساعة كاملـة على جانب الطريق الى حانة صغيرة ، ذات شجرتين من أشـجار الدردار ومسقى للخيل ، وأمامها صـوة لهداية النـاس الى الطريق ، ومن خلفها جرن للدرس أو جرنان غير منسقين وعن أحد جانبيها حديقة مطبخ وسقائف عفنة وأكواخ من المدر متناثرة بغـير نظام حولها ، ورأوا رجلا أحمر الشعر يعمل فى الحديقة ، فبادر المستر بكوك الى مناداته صائحا : « يا هذا ! »

فرفع الرجل ذو الشعر الاحمر بدنه ، وظلل عينيه بيـده ووقف يحملق البصر مليا فى وجه المستر بكوك وصحبه .

وأعاد المستر بكوك النداء قائلا : « يا هذا ! »

فكان جواب الرجل ذى الشعر الاحمر ترديدا لذلك القول

قال : « كم تبعد دنجلى ديل من هذا الموضع ؟»

قال : « سبعة أميال على الأقل . »

فعاد يسأله : « وهل الطريق معبد ؟ »

قال : « كلا . » ولم يكد يفوه بهذا الجـواب المقتضب ، ويحاول الاطمئنان ، فى الظاهر ، بالقاء نظرة فاحصـة أخرى ، حتى أكب على العمل من جديد

وقال المستر بكوك : « اننا نريد ابقاء هذا الحصـان هنـا أظن أننا مستطيعون .. ألا نستطيع ؟ »

وكرر الرجل الاحمر الرأس السؤال قائلا ، وهو معتمـد بفأسه : « تريدون ابقاء هذا الحصان هنا ؟ »

وأجاب المستر بكوك ، وكان قد تقدم عندئذ ، وهو ممسك

بالحصان ، الى سور الحديقة : « بالطبع . »

وخرج الرجل من الحديقة ، ونظر طويلا الى الحصان ، وصاح مناديا : « يا سيدة .. يا سيدة .. »

وجاءت على النداء امرأة طويلة معروفة ، بادية العظام من رأسها الى قدمها ، وهى في « ازار » أزرق خشن ، وقد هبط صدرها قدر بوصة أو بوصتين الى ما يلى ابطيها

وتقدم المستر طبمن اليها ، وراح يقول فى أرق صوت ممكن ، وألطف اغراء : « هل تسمحين لنا ، أيتها السيدة الكريمة ، أن نبقى هذا الحصان هنا ؟ »

ووقفت المرأة تحدجهم بنظرة قاسية ، وأقبل الرجل ذو الرأس الأحمر ، فهمس لها فى أذنها كلاما

وانثنت المرأة تقول بعد تفكير قصير : « كلا .. أخشى ألا يتسنى ذلك . »

وهنا صاح المستر بكوك قائلا : « تخشين ! .. مم تخشى هذه المرأة ؟ . »

قالت ، وهى متكئة الى الدار : « لقد وقعنا فى محرجة آخر مرة .. ليس عندى ما أقوله لك . »

وقال المستر بكوك وهو فى دهشة : « هـذا أغرب شيء لقيته فى حياتى كلها . »

وهمس المستر ونكل فى أذنه ، وقد أحاط به أصحابه : « أعتقد أنهما يظنان اننا جئنا بهذا الحصان ، من طريق غير شريف . »

فصاح المستر بكوك فى سورة غضب : « ماذا تقول ؟ »

فأعاد المستر ونكل قوله السابق على استحياء

وانثنى المستر بكوك ينادى الرجل قائلا : « أيها الرجل ٠٠ هل تظن اننا لهذا الحصان سارقون ؟ »

وأجاب الرجل ذو الشعر الاحمر : « بل أنا على يقين ٠ » وراح يرسل ابتسامة عريضة غمرت وجهه كله من احدى أذنيه الى الاخرى ، وتولى عنهم الى الدار وأغلق الباب بعنف فى اثره

ووقف المستر بكوك مذهولا يقول : « آنه لأشبه بحلم ٠٠ حلم قبيح ٠٠ كيف يتصور الخاطر انسانا يمشى اليوم كله بحصان مخيف لا يستطيع الخلاص منه ؟ »

وانطلق « البكوكيون » المحزونون ساهمين واجمين ، وذلك الحصان الطويل يتبعهم فى رفق ، وقد أحسوا جميعا بأشد الاشمئزاز منه

وكان الأصيل قد آذن بمغيب حين عرج الأصدقاء الأربعة ورفيقهم ذو الاربع ، على الدرب المؤدى الى « ضيعة مانور » وكان السرور لقربهم من الموضع المنشود ، أقل كثيرا من الفرح الذى كانوا سيشعرون به ، لو لم يقع ذلك الحادث لهم، فقد بدت لهم غرابة مظهرهم ، ونكر ما هم فيه ٠٠ ثياب ممزقة ، ووجوه مخدوشة ، وأحذية علاها الغبار ، وأعراض الاعياء بادية عليهم ٠٠ وأكثر من هذا كله ٠٠ الحصان

ولكن راح المستر بكوك يلعن ذلك الحصان ، وقد لبث يحدق فى ذلك الحيوان الكريم بعينه ، بين لحظة وأخرى ،

ويحدجه بنظرات حقد وجدة ، وكان قد حسب فى خـاطره ، أكثر من مرة ، مبلغ الخسارة التى سوف يتكبدها اذا هو قطع رقبته ، ولكن فكرة ايراده موارد التلف ، أو اطلاق سراحه ، فى هذا العالم الفسيح ، يصنع فيه ما يشاء ، عادت الآن تستبد بخاطره ، عشرة أضعاف رغبته الأولى ، واذا هو ينتبـــه من التفكير فى هذه التصورات ونحوها ، على ظهور شبحين فجأة ، عند منعطف زقاق ، وما لبث أن تبين أنهما المستر « واردل » وتابعه الأمين ٠٠ الغلام البدين

وابتدره الشيخ المضياف الكريم قائـــلا ماذا أرى ؟ أين كنتم ؟ لقد ظللت طيلة النهار أرتقبكم ٠٠ يا عجبا ٠ ما بالى أراكم مجهدين حقا ؟٠٠ وما هذا ؟٠٠ أخدوشــا أرى ٠٠ أرجـو ألا تكون جروحا ٠٠ انه ليســعدنى ان أســمع ان لا أذى ولا ضير ٠٠ يسعدنى كل السعادة أن أسمع ذلك ٠٠

أكذا انكسرت بكم العجلة ؟ لا بأس ٠٠ ذلــكم حـــادث مألوف فى هذه الانحاء ٠٠ ياجو ٠٠ أراه قد عاد الى النوم جو ٠٠ خذ هذا الحصان من السيد وقده الى الاسطبل ٠»

ومضى الغلام البدين يمشى متثاقل الخطى خلفهم ، وهو يجر الحصان ، وأما السيد الكبير ، فقد راح يواسى أضيافه بكـــلام رقيق فيما رأوا من اللباقة أن يحدثره به من أحـــداث يومهم هذا ، وانطلق بهم الى المطهى وهو يقول : لابد من اصـــلاح ما أفسده الحادث من ثيابكم هنا ، ثم أتقدم بكم للتعـــارف بالقوم المجتمعين فى قاعة الاستقبال ٠٠ يا « اما » هاتى نقيع الكرز الآن ٠٠ وانت يا جان هاتى ابرة وخيطا فى الحـــال ، وأنت يا مارى ـ فوطا وماء ٠٠ هيا يا بنات أسرعن

وتفرقت ثلاث فتيات بضات أو أربع سراعا لاحضــــار

الأشياء التى طلبها السيد الكريم ، بينما نهض خـادمان ذو رأسين ضخمين ووجهين مستديرين ، من مقعديهما فى ركن المطبخ عند المدخنة ، فقد كانا يجلسان بجوار النار المشبوبة : كأنهما يصطليان ، فى متعة محببة يوم عيد الميلاد ، وان كان الوقت مساء أحد الايام فى شـهر مايو ، والموسم الربيـع ، وانطلقا يغوصـان فى بعض الزوايا المظلمـة ، وما لبثا أن أطلعا منه « حقا » من الطلاء الأسود وبضع فرش لمسـح الأحذية ..

وعاد الشيخ الكبير ينادى : « قليلا من السرعة .. هيا .. تحركوا ! » ولكن هذه النصـيحة لم تكن ضرورية اطلاقا ، فقد جاءت احدى البنـات فملأت الأقداح شرابا ، وأقبلت أخرى بالفوط والمناشف ، وتناول أحد الخادمين فجأة قـدم المستر بكوك حتى لقد خيف على الرجل أن يفقـد توازنه ، وانطلق الخادم ينفض الغبـار عن حـذائه حتى أحس بأن أصابع قدمه قد التهبت نارا ، بينما عكف الاخر على مسح ثوب المستر ونكل ، بفرشاة كثيفة من قماش ، وهو لا يفتـأ خلال ذلك يرسل ذلك الصوت المخيف الذى اعتاد سـائقو الخيل أن يرسلوه ، وهم عاكفون على تطميرها

وأما المستر سنودجراس فما أن فرغ من الغسل والتنظيف والتجميل ، حتى ألقى نظرة عامة على المكان ، وهو يولى ظهره الى النار ، ورشف شراب « الكرز » فى ارتياح ومتعة ، وقد وصف المكان فى كناشته ، بقوله انه حجرة رحيبة الجنبات ، رصف أرضها بالاجر الأحمر ، وازدان سقفها بأفخاذ الخنازير وأجنابها ، وتدلت منها حبال من البصـل وعقود ، بينمـا تجملت جدرانها بعدة سياط ، مما يستخدم فى الصيد والقنص وبرذعتين أو ثلاث براذع ، وسرج وبندقية قديمة صـدئة

كتب تحتها ما يفهم منه أنها محشوة ·· كما كانت ، والعهدة على الراوى ، منذ نصف قرن على أقل تقدير ، وساعة جدار قديمة ، تبدو موحشة الصورة ،رزينة الشكل ، لاتقل قدما عن تلك البندقية ، وهى تتدلى من أحد الخطاطيف الكثيرة ، التى تزين خزانة أدوات المائدة

وقال الشيخ الكريم : « على استعداد ؟ » حين فرغ أضيافه من الاغتسال واصلاح الهندام وتنفيض الثياب ، والتطمير فأجاب المستر بكوك قائلا : « على أتم الاستعداد · »

قال : هلموا بنا اذن !

وبعد أن اجتاز الجمع عدة دهاليز مظلمة ، ووافاهم المستر طبمن ، وكان قد تخلف قليـــلا ، لينتزع قبلة من خد الجارية « اما » ، وكان جزاؤه عليها ما يستحق من لكمات وخدشات ، وصلوا الى باب القاعة ، فانثنى مضيفهم الكريم يقول ،وهو يفتح الباب ، ويتقدم لاعلان قدومهم : « مرحبـــا بكم أيها الســادة فى ضيعة مانور · »

الفصل السادس

« جماعة » قديمة الطراز تلعب الورق ٠٠ أشعار القسيس وأبياته ٠٠ قصة « عودة السجين » ٠٠

ونهض عدة أضياف من مجالسهم فى تلك القاعة القديمة ، لتحية المستر بكوك وأصحابه عند دخولهم ، وتوانى المستر بكوك خلال فترة التقديم والتعارف ومراسيمها المرعية ، ليتأمل القوم الذين أحاطوا به ، ويلاحظ أشكالهم ، ويفكر فيما عسى أن تكون شخصياتهم وصناعاتهم ، وهى عادة كان يحرص على مراعاتها عادة ، كدأب الكثير من العظماء أمثاله

وكانت فى مجلس الصدارة من الجمع سيدة عجوز ، غطت رأسها بقبعة عالية وارتدت « ثوبا » من حرير ناصع اللون وتبين انها لم تكن سوى والدة المستر « واردل » ، بجلالة قدرها ، وكان مجلسها فى الجانب الأيمن من المدفأة بينما ازدانت الجدران بصور مختلفة ، نواطق بأنها نشأت النشأة الواجبة لها فى شبابها ، ثم لم تفارقها أو تنحرف عنها فى مشيبها ، وهى صور شتى ٠٠ قديمة التواريخ ، الى جانب مناظر طبيعية ، لا تقل عنها قدما ، ومقابض قرمزية حريرية لاباريق شاى احدث عهدا ، وكانت العمة والفتاتان والمستر واردل يتنافسون فى ابداء العناية البالغة ، والرعاية المستمرة للسيدة الكريمة ، وهم مزدحمون حول مقعدها الرحيب ،

بين ممسكة بمسمعتها ، ومتقدمة ببرتقالة فى يدها ، وأخرى بزجاجة رائعة لمعطسها ، ورابعة منهمكة فى توطئة الوسادات المرفوعة سنادا لها ، بينما جاس قبالتها سيد عجوز أصلع ، يبدو المزاج الرافق والطيبة على وجهه ، وهو قسيس دنجلى ديل . واتخذت زوجته مجلسها بجانبه ، وهى سيدة متقدمة فى العمر ، بدينة متفتحة كأكمام الزهر ، تبدو كأنها لم تبرع فى فن صنع الأشربة المنزلية والمرطبات وأسرار تخميرها واجادتها ، الى الحد البالغ الذى يرضى شاربها ، فحسب ، بل برعت فى مذاقها أحيانا ، لارضاء نفسها كذلك ، وكان فى القاعة أيضا رجل صغير الجثة ، شديد المراس ، له وجه كالتفاحة ، وهو يتحدث الى سيد كبير السن بدين ، فى ركن منها ، واثنان أو ثلاثة أشياخ آخرين ، ومثلهم من السيدات ، وقد جلسوا جميعا معتدلى القدود جامدين فى مقاعدهم ، ينظرون مليا الى المستر بكوك ورفقائه فى سفره

وانثنى السيد واردل يقول بأعلى صوته : « هذا هو » السيد بكوك يا أماه . »

وقالت العجوز وهى تهز رأسها : « آه .. لا أستطيع سماع كلامك . »

وهنا صرخت الفتاتان فى نفس واحد : « المستر بكوك .. يا جدتى . »

وصاحت العجوز : « آه .. حسن .. هذا الامر لا يهم كثيرا .. بل انى لاجترىء فأقول انه لا يعنى بامرأة عجوز مثلى »

وقال المستر بكوك ، وهويتناول يدالسيدة الكبيرة ، ويرفع صوته حتى ليبدو الاحمرار على سحنته الخيرة : « أؤكد لك

يا سيدتى ، ان لاشىء أبهج لخاطرى من لقاء سيدة فى مثل سنك على رأس أسرة طيبة كهذه، تبدو فى منتهى الشباب والعافية . »

وعادت السيدة العجوز بعد لحظة سكون تقول : « آه .. كل ذلك بديع .. ولكنى لا أستطيع أن أسمعه » .

وقالت ايزابللا واردل مخافتة : « ان جدتى الان كدرة المزاج .. ولكنها لن تلبث أن تتحدث اليك . »

وهز المستر بكوك رأسه ، هزة المستعد للتسامح أمام مناقص الشيخوخة وعيوبها ، ومضى يشـــترك فى الحديث العام مـع السادات الآخرين .

قال : « موضع بهيج هذا . »

ورد أصحاب سنودجراس وطبمن وونكل هذه العبارة قائلين بهيج حقا »

وقال المستر واردل : « أعتقد ذلك . »

وانثنى السيد الشديد المراس ، المستدير الوجه كالتفاحة يقول : ليس فى اقليم « كنت » كله موضع أفضل من هــــذا ٩
الموضع يا سيدى . أى والله يا سيدى .. انى لعلى يقين ان ليس فيه مكان أفضل » وراح يتلفت حوله منتصرا ، كأن أحدا قد عارضه معارضة شديدة ، ولكنه فى النهاية تغلب عليه .

وصمت الرجل لحظة ثم عاد يقول : « ليس فى جميع أرجاء « كنت » موضع أفضل . »

وهنا انبرى الرجل البدين يقـــول بجد : « اذا استثنينا مراعى مولين ؟ » .

فصاح الآخر باحتقار بالغ « مراعى مولين ! »

وعاد الرجل البدين يقول : « نعم مراعى مولين »

وتدخل سيد بدين آخر فقال : « هذه أرض طيبة طبعا . »

وقال بدين ثالث : « انها لكذلك يقينا »

وقال المضيف اللحيم : « كل انسان يعرف ذلك . »

وعندئذ ألقى الرجل العنيد المستدير الوجه نظرة تشكك حوله ، ولكنه تبين انه «اقلية» ، فاتخذ سمات الرفق والمسالمة، فلم يقل شيئا .

وسألت العجوز احدى حفيدتيها قائلة: « عم يتحدثون ؟وكان صوتها مسموعا مرتفعا ، كدأب معاشر الصم ، كأنما لايعنيها أن يسمع آخرون ما قالته . »

وأجابت حفيدتها قائلة : « عن الارض يا جدتى .. »

قالت : وماذا عن الأرض .. هل من أمر ذى بال ؟

وأجابت الفتاة : « كلا . كلا .. كان المستر ملر يقول ان أرضنا أحسن من مراعى مولين .. »

وقالت العجوز غاضبة : من أين أتاه العلم بأرضنا ؟ ان ملر لمختال فخور .. ولك أن تقولى له اننى قلت ذلك . »

وما ان فرغت من قولها هذا ، وهى لا تشعر بأن كلامها كان أكثر من همس ، حتى استوت فى جلستها ، وحدجت الرجل الشديد المراس بنظر حاد .

وبادر المضيف الكثير الحركة ، فى لهفة طبيعية ، على تغيير موضوع الحديث يقول : « هلم .. هلم .. ما قولك فى لعبة « ربر » ، يا مستر بكوك ؟»

قال : « أحب الأشياء الى نفسى ٠٠ ولكن أرجوك ألا نجعل اللعب على حسابى ٠ »

قال : « أؤكد لك أن أمى مولعة بلعبة « الربر » ٠٠ ألست كذلك يا أمى ؟ »

وأجابت العجوز بالايجاب ، وكانت أقل صمنا بكثير فى موضوع لعب الورق مما هى فى الموضوعات الاخرى ٠

وصاح السيد الكبير مناديا : « جو ٠٠ جو ٠٠ لعنة الله ٠٠ ولكن ها هو ذا ٠٠ هلم هيء لنا موائد اللعب ٠ »

فمضى ذلك الغلام النوام، بغير حاجة الىمزيد مناليقظة ،بعد مائدتين، احداهما للعبة«البباجوان» وأخرىللعبة «الويست»، وكانت حلقة لاعبى الويست تتألف من المستر بكوك والسيدة العجوز والمستر ملر والسيد البدين ٠ أما اللعبة المستديرة فقد شملت بقية الحاضرين ٠

وكان اللعب فيما يتعلق « بالويست » مقترنا بكل الجـد والاتزان والرزانة ، التى تليق باسمها ومعناه « السكون » ، حتى ليلوح لنا ان تسميتها « باللعب » تسمية منكرة وغير متفقة مع « الجد » الذى يراعى فيها ٠ أما اللعبة الأخرى فقد بلغ من ضجتها والمرح الصاخب من حولها ، ان قطعتفعلا على المستر ملر أفكاره ومسرحاته ، فلم يندمج فيها كمـا ينبغى ، وارتكب عامدا ، مرارا عدة أغلاط صارعة ومخالفات ، أثارت غضب السيد البدين الى حد بعيد ، وأدخلت السرور على نفس السيدة العجوز الى الحد ذاته ٠

وقال المستر ملر بلهجة المنتصر ، وهو يعود الى الخـدعة

القــديمة فى نهـــــاية كل دور « هيـــ ٠٠ ما رأيكمــــا لم يكن فى الامكان ان تلعب هذه الورقة أحسن من هذا ٠٠ انى لأمتدح نفسى وأتملقها ٠٠ مستحيل أن أكون قد عدت الى خدعة أخرى ٠ ؟

وقال العجوز : لقد كان أجدر بملر أن يرمى « الاسبانى » أليس كذلك ياسيدى ؟

فأومأ المستر بكوك ايماءة الموافقة ٠

وقال وهو يتوسل الى زميله مستنجدا : «أكان ذلك أحق ؟»

وأجاب السيد البدين بصوت مرعب : « انه أجـــدر بك يا سيدى ٠٠! »

قال وهو مطرق الرأس : « يؤسفنى ذلك جدا »

وزمجر السيد البدين قائلا : « هذه لعبة معروفة متداولة كثيرا » ٠

وقال المستر بكوك : « « عشرتان » بالشرف تســـاوى لدينا ثمانية ٠ »

وقالت العجوز : « هل تلعب « عشرة » ؟ »

قال : ألعب ٠٠ « عشرتين » ، واحدة « والثالثة » ٠

وقال المستر ملر : « ما رأيت يوما حظا كهذا ٠٠ »

وقال السيد البدين : « بل ما رأيت ورقا كهذا ٠٠ »

وساد سكون رهيب ، أما المستر بكوك فبدا « زائغا » ، وأما السيدة العجوز فبدت جادة ، ولاح السيد البدين غضبان متحاملا ، وكان المستر ملر هيابا خائفا ٠

وقالت العجوز : «نلعب دورا آخر ٠٠ هل يمكن ٠٠؟»وأقبلت تسجل الانتصار ، بوضع قطعة من ذات البنسات الستة ونصف بنس مضعضعا تحت « الماثلة » ٠

وقال المستر بكوك : « هذا « تطبيق » يا سيدى ٠٠ »

وأجاب السيد البدين بحدة : « فاهم يا سيدى ٠٠ »

وأعقب اللعب دورا آخر من المستر ملر « المنحوس » ، انفجر على أثره غضب السيد البدين وهياجه ، فانتبذ من القوم مكانا قصيا ، ولبث صامتا لا ينبس ساعة وسبعا وعشرين دقيقة ، خرج بعدها من معتزله وأقبل على المستر بكوك يعرض عليه عطوسه ، بدا كأنما قد قرر فى نفسه ان يأخذ بالسماحة المسيحية فيصفح عن المسيئين اليه ، ويغفر ما أصابه من أذى ، وتبين ان سمع السيدة العجزز قد تحسن يقينا ، وشعر المستر ملر ، السيء الحظ ،بأنه قد أخرج من محيطه، كما يخرج الدرفيل فيوضع فى مكان ديدبان ٠

أما اللعبة الاخرى فقد استمرت فى مرح وسلام ، وكانت ايزابلا واردل والمستر تراندل « شريكين » وكذلك كانت املى واردل والمستر سنودجراس ، حتى المستر طبمن أيضا والعمة العانس ٠ فقد عقدا شركة بينهما من الروغان والملق ، وكان المستر واردل الشيخ فى أوج ابتهاجه وأنسه ومرحه ، وهو مضحك فى تدبير ألعابه ورمى أوراقه ، كما كانت السيدات العجائز فطنات ذكيات بعد المكسب ، الى حد جعل المنضدة كلها فى قصف مستمر من المرح والضحك ، وكانت بينهن سيدة لا تفتأ تخسر ، وكان معها فى كل مرة ست أوراق أو نحوها ، فكان القوم يضحكون فى كل دور ، ولا يمسكون عن الضحك،

وعندما نظرت السيدة العجوز نظرة الغاضبة ، من اضطرارها الى الدفع ، ازدادوا هم ضحكا ، حتى أخذ وجهها ينطلق شيئا فشيئا ، الى أن راحت أشد منهم ضحكا من نفسها وأعلى صوتا، وعندما ألقت العمة العانس ورقتين ، كانتا فى يدها وهما : « البنت » و « الشايب » ، كأنهما صــــورة « قران » ، ضحكت الفتاتان مرة أخرى ، وكادت العانس تنزع الى الغضب، ولكنها شعرت بالمستر طبمن يضغط يدها ، من تحت المائدة ، فعادت أسـاريرها تنطلق ، وبدت كأنما قـد فهمت ، كأن « القران » فى الواقع لم يكن بعيـدا الى الحد الذى ظنه بعض الناس وتوهموه ، فعاود القـوم الضـحك ، ولاسيما المستر واردل ، فقد كانت النكتة تلذه بقدر ما تلذ الشباب، وأما المستر سنودجراس ، فلم يفعل شيئا غير الهمس بعواطف شعرية فى أذن شريكته ، مما جعل أحد السادات الشيوخ ينكت تلميحا ، على الشركة فى لعب الورق ، والشركة فى الحياة ، فما كان مـن السيد الشيخ الا أن أبدى بعض الملاحظات على هذه المقارنة ، مصحوبا بغمزات بالحواجب ، وومضات بالفم ، جعلت القوم يضحكون كثيرا ، ولا سيما زوجته ، وانبرى المستر ونكل يلقى بنكات معروفة فى المدن ، ولكنها ليست معروفة اطلاقا فى الريف فضحك الجمع لها كثيرا ، وقالوا انها نكت ظريفة كل الظرف ، حتى لقد شعر المستر ونكل بأنه قد أصـاب شرفا عظيما ، ومجدا باذخا . بينما لبث القسيس الخير مسرورا راضيا ، لان الوجوه المستبشرة التى أحاطت بالمائدة جعلته هو الآخـر سعيدا قرير العين . ولئن جاء الضحك أقرب شيء الى الصخب، فقد انبعث من القلوب ، لا من الشفاه ، وهذا هو أفضـل المرح وأحسنه حقا .

وانقضى المساء مربعا فى تلك الرياضـة البهيجة واللهو

اللطيف ، وبعد ان فرغ القوم من العشاء الدسم ، وان كان من النوع « البيتى » ، انتظم الجمع حلقة أنس حول المـــوقدة ، وقال المستر بكوك انه لم يشعر فىحياته يوما بمثل الهناءة التى شعر بها الآن ، ولم يحس من قبل ما يحسالساعة ، من الاقبال على الاستماع بهذه اللحظات العابرة ، والانتفاع بها غاية الانتفاع ٠

وقال المضيف الكريم ، وقد جلس جلسة الأبهة والسلطان ، بجانب المقعد الرحيب ، الذى جلست فيه السيدة العجوز ، ويدها مشتبكة بيده : « هذه هى اللحظة التى أحبهـــا ٠٠ ان أسعد اللحظات فى حياتى انقضت بجانب هذه الموقدة القديمة ، وأنا بها جد مولع ، حتى لأحتفظ بالنار مشبوبة فيها كل مساء ، الى أن يشـــتد أوارها فلا يطيق المرء احتمالهـــا ٠٠ وان أمى العجوز هنا قد ألفت الجلوس أمام هـــذه الموقدة ، فوق ذلك الكرسى الصغير الذى اعتادت الجلوس عليه وهى فتاة٠٠ أليس كذلك يا أماه ٠٠ ؟ »

وكانت الدمعة التىتبادرت الى عينها ، على عودة ذكرىالايام الخوالى فجأة ، ورغد السنينالماضيات ، قد تسللت الى وجهها ، وهى تهز رأسها وتبتسم ابتسامة حزينة ٠

وواصل رب الدار المضياف حديثه قائلا، بعدسكون قصير : « انى لأستميحك المعذرة عن حديثى بسبيل هذا المكان القديم، فانه على عزيز ، ولا أعرف موضعا سواه ٠ ان الدور والعقول القديمة لتلوح لى ، كأنها صحاب أحياء لى وأصدقاء ، وكذلك كنيستنا الصغيرة ، التى أذكر بهذه المناسبة أن صديقناالفاضل نظم فى « لياليها » شعرا غنائيا ، حين جاء أول مرة ، ليقيم بين

ظهرانينا ، ياسيد سنودجراس ، هل بقيت فى كأسك قطرات من الشراب ؟ » .

فأجاب المستر سنودجراس : « كثيرة ·· وأشكرك ·· » وكان فضولهالشعرى قد هاج فى نفسه ، عند سماع العبارة الأخيرة ، التى فاه بها مضيفه الكريم ، فاستتلى يقول : « عفوا اذا أنا ذكرتك بأنك قلت اللحظة شيئا عن أغنية اللبلاب » ·

فقال رب الدار وهو يومىء برأسه ايماءة العليم ، نحو القسيس : « سل صديقنا الجالس قبالتنا عن أمرها ·· »

وقال المستر سنودجراس : « هل تأذن لى يا سيدى فى مصارحتك انى أود أن أسمعها منك · »

وأجاب القس قائلا : « لم لا ؟ ·· وان كانت المسألة صغيرة جدا ، والعذر الوحيد لى عن اقترافها هو أنى كنت فى تلك الايام شابا ، ومهما يكن من شىء ، فانى مسمعك اياها ، اذا شئت · »

وكان الجواب بالطبع غمغمة فضول وتلهف ، وأنشأ السيد الكبير ينشد ، وامرأته تعاجله بالتلقين اذا نسى شيئا !
قال · لقد سميتها :

اللبلاب الأخضر

يا للبلاب الأخضر من نبات طيب رقيق ، يتسلل
الى كل أثر قديم ، وطلل عتيق ، ويأبى الا أن
يتخير لطعامه ، فى محبسه المنفرد المقرور
ومقامه ، فلا يختار الا الجدار المنقض ، والحجر .

البالى ، لارضاء انفته وأوهامه ، وأفضل الغـذاء لديه الطحلب الذى اصـــطنعته كرة الســـنين ودورة الأعـــوام الخوالى ، وانه ليتســـلل الى حيث لايرى للحياة أثر • انه لنبات قديم نادر •• ذلك هـــو اللبـــلاب الأخضر •••

★ ★ ★

انه ليختلس الخطى سراعا، وان لم يؤت جناحا ولاذراعا ولكن له قلبا مخلصا وفيا •• الا تراه كيف يلتف حول صديقته السروة العظيمة ، التفـــافا قويا ويتشبث بها تشبثـــا وفيـــا ، ويجـــر عـلى الأرض أذيالة ، ماكرا متلطفـــا ، ويـدع أوراقه تموج فى رفق تموجا ، وهو يحتضن فرحا ويزحف زحفا، حول الطحلب الوفر، على قبور الموتى الذاهبين، متســـنلا الى حيث المـوت الرهيب قد تســـلل •• انه لنبات قديم نادر •• ذلك هو اللبلاب الاخضر

★ ★ ★

أجيال رقرون انقضت ، وآثارها بليت وعفيت •• وأمم وشعوب تفرقت وانقرضت ، ولكن اللبلاب القـــوى المعمر لن يذوى الى الأبد ، ولن ينقطـع عبقة ولن يتبدد ، ونضارته المنبعثة من قلبه وخضرته فى تجدد ••• وسيسمن هـــذا النبـات الجـرىء القديم على الماضى وينمو ويشـــتد ، وكل ما يبنى الانسان من قصر منيف ، وبنيان باذخ ويشـــيد سيصبح فى النهاية للبلاب طعاما •

وانه المتسلل على الزمان القـــائم المستمر ..
انه نبات قديم نادر .. ذلك هو اللبلاب الأخضر ..

* * *

وبينما كان الشيخ يردد هذه الأبيات للمرة الثانية ، حتى يتمكن المستر سنود جراس من تدوينها ، راح المســـتر بكوك يتطلع فى قسمات وجهه باهتمام بالغ ، وما ان فرغ الشيخ من املائه ، وأعاد المستر سنودجراس الكناشة الى موضـعها من جيبه ، حتى أنشأ المستر بكوك يقول : «معذرة ياسيدى ، اذا أنا أبديت ملاحظة على قصر العهـــد بتعارفنا ، ولكن سيدا مثلك لايمكن ، فى اعتقادى ، الا أن تكون قد مرت عليه عدة مشـاهد وأحـداث خليقة بالتدوين ، فى طريق تجاربه ، بوصفه خادما من خدام الله » .

فأجاب الشيخ قائلا : « لقد شاهدت شيئا منها بلا شك . ولكن الحوادث والأشخاص الذين عرفتهم هم من النوع العادى ، لأن مجال عملى محدود جدا . »

وانثنى المستر واردل ، بدافع الرغبة فى اخراجه من صمته ، وحمله على الكلام ، ارضاء لزائريه الجدد يقول : « اننى أعتقد أنك دونت بعض المشـــاهدات ، ألم تفعل كذلك فى أمر جون أدموندز ؟ »

فأومأ الشيخ قليلا ايماءة الموافقة ، وهم بأن يغير الموضوع ، لولا أن بادره المستر بكوك قائلا : « أستميحك عفوا يا سيدى اذا أنا اجترأت على سؤالك من يكون جون أدموندز هذا ؟ »

وابتسم الشيخ مسرورا راضيا ، وقرب مقعده ، كما قرب الآخرون مقاعدهم وتلاصقوا ، وكان أسبقهم الى تقريبها المستر طبمن والسيدة العانس ، ولعلها كانت تشكو وخزا فى أذنيها ، كما رفعت السيدة العجوز مسمعتها ، واستيقظ المستر ملر ، وكان قد استولى النعاس عليه فى فترة تلاوة الأبيات ، حين أحس وخزة تأنيب من تحت المائدة ، وخزه بها الشيخ البدين الرزين الذى كان شريكا له فى لعب الورق .

وبدأ السيد العجوز ، بلا مقدمات ، يقص القصة التالية التى دعوناها :

عودة السجين

قال الشيخ : حين جئت لأقيم فى هذه القرية ، وهو عهد يرجع الى خمسة وعشرين عاما خلت ، وجدت ان أسوأ الناس فيها سمعة ، وشرهم مكانا ، رجل يدعى « ادموندز » كان قد استأجر ضيعة صغيرة بجوار هذا الموضع . وكان امرأ سوء ، غليظ القلب ، حاد الطبع متبطلا منحلا فى عاداته ، قاسيا متوحشا فى نزعاته ، ولم يكن له من صديق أو صاحب، غير أفراد قليلين من المكاسل والسوقة والمستهترين ، جعل يقضى أوقاته معهم متسكعا فى الحقول ، أو ماجنا معربدا، فى الحان ، فلم يكن أحد من خلق الله يعنى بالكلام مع هذا الرجل ،الذى كان قوم كثيرون يخشونه ، والجميع يكرهونه ، والكل يتحامونه .

وكانت له زوج وولد ، كان يبلغ من العمر ،أول ما نزلت بهذا الموضع ، قرابة اثنى عشر عاما ، وليس فى وسع انسان ان يتصور مدى الآلام التى كانت تلك المرأة تعانيها ومبلغ الجلد

الرقيق والاحتمال ، اللذين تذرعتا بهما ، والعذاب المضنى الذى قاسته ، فى تنشئة ذلك الصبى • وليغفر لى الله ظنى ، ان بعض الظن اثم ، وان كنت على يقين تام فى أعماق قلبى ، انه ظل يعمل جاهدا عدة سنين على كسر قلبها ، وتحطيم فؤادها ، ولكنها احتملت ذلك كله من أجل ولدها ، بل ومن أجله هو كذلك ، وان بدا هذا القول لقوم كثيرين غريبا • فقد كانت فى يوم من الايام تحبه ، وهو الحيوان البهيم ، والجبار القاسى الغاشم عليها ، فلا عجب اذا أيقظت ذكرى ماضيه ومبلغ مكانه من قبل فى نفسها ، مشاعر الرفق به ، والصبر عليه ، والحلم فى معاملته وهى المعذبة المعانية ، وهى مشاعر لا يعرفها ولا يتجمل بها من دون خلق الله ، غير معاشر النساء •

وكانا فقيرين ، بطبيعة الحال ، ما دام الرجل سادرا فى غلوائه ، ولكن الجهد المستمر الذى كانت تبذله ، والعناء الذى كانت تجانبه ، بكرة وعشيا ، وصباحا وظهرا وليلا ، جعلهما بمنجاة من الحاجة ، وجنبهما العوز ، ولكنه جازاها على تلك الجهود شر الجزاء • كان الذين يمرون بالموضع عشاء ، أو فى ساعة واهنة من الليل ، يقولون انهم كانوا يسمعون أنين امرأة فى خطبها ونحيبها ، وتطرق آذانهم أصوات لكمات وضربات ، وحدث أكثر من مرة ، أن خرج الغلام بعد منتصف الليل ، يدق فى رفق باب الجيران ، فرارا من غضب ذلك الوالد الشاذ ، أو امتثالا لأمر أمه ، التى خشيت عليه من بطشه •

وكانت تلك المخلوقة المسكينة لا تكف عن الحضور الى كنيستنا الصغيرة ، وكثيرا ما كانت تلوح عليها آثار القسوة والعذاب ، الذى كانت واجدته منه ، ولا تستطيع لتلك الآثار اخفاء ، فكانت لا تفتأ فى كل أحد ، صباحا واصيلا ، تأتى

فيتخذ مجلسا بعينه ، والغلام بجانبها ، ولئن كانا يلوحان فى ثياب مهلهلة ، بل أسوأ مظهرا من كثير من جيرانهما ، الذين هم أقل منهما شأنا ، ودونهما فى العيش مكانا ، فقد ظلا أبدا حريصين على الظهور أمام الناس نظيفين وضاءين ، وكان كل امرىء يومىء ايماءة مودة ويعد كلمة رقيقة حانية للسيدة أدموندز المسكينة » ، وأحيانا ، اذا وقفت لتتبادل بضع كلمات مع جارة لها بعد انتهاء الصلاة ، وسط أشجار الدردار المؤدية الى السقيفة ، أو تتخلف قليلا عن الخارجين ، لتلقى نظرة فخار وزهو وحب ، على وجه ولدها اليافع ، وهو يستبق فى صحبته بعض الرفاق الصغار ، وقد تهلل وجهها الذى علاه الهم وغمرته الكآبة ، بعرفان صادق ، وشكر جميل ، فكانت تبدو على الأقل هادئة النفس ، قانعة راضية ، وان لم تلح مبتهجة سعيدة هانئة ..

وانصرفت خمس سنين أو ست ، فأصبح الغلام شابا قويا صلب العود ناميا ، ولكن الزمان الذى أكسب الصبى القوة ، وحبا كيانه الواهن بأسا ، وأحال أوصاله الواهبة مفتولة ، فى قوة الرجولة وأيدها ، قد أحنى ظهر أمه ، وأضعف من خطاها ، ولكن الذراعين اللتين كان أولى بهما ان تسنداها لم تعودا بين أحضانها ، ولا مشتبكتين وذراعيها ، وذلك الوجه الذى كان أحق به ان يؤنسها فى وحشتها ، لم يعد ينظر الى وجهها ، فكانت تأتى الى الكنيسة ، فتجلس فى مقعدها القديم ، وان ظل المقعد الملاصق خاليا ، ولبث الكتاب المقدس مصونا لديها ، محفوظا كعهده ، والصفحات تنشر بين يديها وتطوى كدأبها ، ولكن لم يكن ثم أحد يقرأها معها ، فكانت الدموع تتساقط غزارا سراعا على الكتاب ، وتجعل الكلمات متراقصة أمام عينيها ، وظل جيرانها على ما ألفوه ، رحماء بها ، حناة عليها ، ولكنها جعلت ترد على تحياتهم باشاحة وجهها ، ولم تعد تبطىء الخطى

بين أشجار الدردار كعادتها ، ولم يبق فى قرارة نفسها من أمل مداعب يوحي اليها أن السعادة قادمة على الأيام ، بل بقيت المرأة المنهكة ترخي قبعتها على وجهها وتنصرف مهرولة مسرعة ٠

وهل أحدثك عما كان من أمر ذلك الفتى ؟ ٠٠ انه لم يعد كلما رجع بخاطره ، الى أيام الطفولة الأولى ، التى لابد من أن تعيها الذاكرة ، فيذكر شيئا من تلك السلسلة المستطيلة من صنوف الحرمان الطائع المختار ، الذى كانت تقاسيه أمه من أجله ، الى جانب من المساءة والاهانة ، والبطش الذى كانت تحتمله فى سبيله ، وهل أحدثكم عنه ، كيف استخف بفؤادها الكسير ، وكيف نسى عامدا كل ما فعلته وقاسته بسببه ، فمضى بصحبة الفاسدين وسيئى السيرة والمنبوذين من الناس ، ومضى فى غيه لا يبالى ، وينحدر الى الهاوية ولا يعبأ ؟ هل هو ملاق فى هذا الضلال مصرعه ، وجالب العار عليها والشنار بسوء مسلكه ؟ وأسفا للطبيعة البشرية ٠٠ وما أحسبكم الا عرفتم النتيجة المحتومة ، قبل أن أصفها لكم ، فقد كادت تلك المرأة الشقية المنكوبة تصل الى نهاية حدود شقائها وبأسائها ، لقد وقعت جرائم كثيرة فى هذه الربوع ، وظل أمر الجناة مجهولا ، مما زادهم جرأة ، وأغراهم بالمعاودة والامعان ، ووقع حادث سطو جسيم يدل على جرأة جناته ، فاقتضى الأمر السهر فى البحث عنهم ، وتشديد مطاردتهم ، ولم يكن الجناة يحسبون لهذا التعقب الملح حسابا ٠ وقد وقعت الشبهة على الفتى ادموندز وثلاثة من أصحابه ، فقبض عليه ، وحوكم ، وحكم عليه بالموت ٠

وان الصرخة الموحشة النفاذة ، التى ارتفع بها صوت المرأة ، فترددت أصداؤها فى جنبات ساحة القضاء ، حين نطق القاضى بهذا

الحـــكم الرهيب ، لترن اللحظة فى أذنى · وقـد ألقت تلك الصيحة المدوية الرعب فى قلب الجانى ، وكانت المحـــاكمة والادانة والحكم بالموت قد عجزت جميعا عن ايقاظ ضميره ، فلم تلبث الشفتان اللتان ظلتا مطبقتين مرفوعتين فى عبسة كظيمة طيلة الجلسة أن رعشتا وانفرجتا على الرغم منه ، وارتد وجهه شاحبا كرماد نار خابية ، وتفصد العرق البارد من كل مسامه ورجفت أوصاله القوية ، ووقف مرنحـا متمـــايلا فى القفص لا تحمله ساقاه ·

وفى الغشيات الاولى ، من أثر ألمها البالغ ، وعذابها الشديد ، راحت هذه الأم المعذبة تلقى بنفســها جاثية عند قـدمى ، ضارعة الى الله من أعماق صدرها ، وهو الذى أضفى عليهـــا رحمته فى مختلف الخطوب التى اجتازتها ، والمحن والاهوال التى مرت بها ، ان يخلصها من هـــذا العــالم المليء بالويلات والاحزان ، وينقذ حياة ولدها الوحيد ·

وأعقب ذلك انفجار فى أحزانها ، وصراع عنيف أرجو الله ان لا أشهد مثله مرة أخرى فيما بقى من حياتى ، وكنت أحس أن قلبها قد تحطم من تلك اللحظة ، ولكنى لم أكن قد سمعت يوما منها شكاة ، ولا أفلتت أمامى أنات من بين شفتيها ·

ولقد كان مشهدا يستثير الشفقة ، منظر تلك المرأة فى فناء السجن ، تغدو اليه فى كل يوم ، محاولة فى لهفة وحرارة ، أن ترقق ، بالحب والتوسل والتضرع ،قلبابنها القاسى ، وتلين من فؤاده الجمود المتحجـــر ، ولكن محـــاولتها ذهبت ادراج الرياح ، فقد ظل واجما عنيدا لا تتحرك فى نفسه خالجة ، ولا تجيش فى صدره عاطفة ، بل ان إستبدال حـــكم الموت ذاته

بالنفى أربعة عشر عاما لم يستطع ان يلين ولو لحظة من قسوته أو يرفق من غلظته ، ولم تلبث روح الاستسلام ، وقوة الجلد ، التى طالما أعانتها من قبل ،وشدت من نفسها الواهنة ،ان عجزت عن مقاومة ضعفها ، ومغالبة وهنها ، فمرضت ولكنها ظلت تجر قدميها المتعثرين ، تاركة فراشها ، الى السجن لتزور ابنها مرة أخرى ، واذا قوتها تخذلها فتهوى الى الأرض مهدمة لا تستطيع حراكا .

وكانت القسوة التى كان ذلك الفتى يباهى بها ، وعدم مبالاته ، قد امتحنا حقا ، وجربا الى آخر الحدود ، فكاد الانتقام الذى ألفى بجرانه عليه ، يذهب بلبه ، وانقضى يوم ولم تأت أمه لتزوره ، وفات آخر ، ولم تقترب منه حتى كان مساء اليوم الثالث ، ولم يرها ، ولم يبق الا أربع وعشرين ساعة أخرى ، فيفترق عنها ،ومن يدرى فقد يكون فراق الأبد .. يا لله ! لشد ما عادت الى خاطره ذكريات الأيام الخوالى التى كان قد نسيها ، فراح يقطع الفناء الضيق ، ذهوبا وجيئة بخطى مسرعة ، كأن أخبارها ستوافيه سراعا كلما أسرع فى غدوه ورواحه على تلك الصورة ، يا لله .. لشد ما آلمه الاحساس المرير بأنه قد بات وحيدا مهجورا ، مقطوع الصلة بالدنيا ، حين سمع النبأ اليقين ، وهو أن أمه ، الوالدة التى لم يعرف من أبويه غيرها ، مريضة فى فراشها ، أو من يدرى فقد تكون محصورة فى سكرات الموت ، على مبعدة ميل واحد من الموضع الذى وقف فيه ، ولو انه كان حرا طليقا من الأغلال ، لاستطاع فى بضع دقائق أن يكون بجانبها ، فاندفع نحو باب السجن ، وأمسك بقضبانه الحديدية ، بكل قوة الاستيئاس ، وراح يهزها هزا ، وهى تعود جامدة مرتدة الى مكانها ، ومضى

يلقى بكل قوته على الجدار السميك ، كأنما يريد أن يشق لنفسه طريقا من خلال هذا الحجر الأصم ، ولكن البناء المكين سخر من جيده الضعيف ، فوقف يقلب يديه حسرة ، ويبكى كالطفل من فرط اليأس ٠

وحملت مغفرة الأم وبركتها الى ولدها فى السجن ، ونقلت اليهـا وهى فى فراشها ، أقسامه المغلظة على توبته وندامته وتضرعاته الحارة لها أن تعفو عنه ، واستمعت اليه ، فى اشفاق ورحمة ورثاء له ، وهـو يصف لى عشرات الوسـائل التى سينتهجها ليكفل لها الراحة والمعونة عند عودته ، ولكنى كنت أعلم أن أمه لن تكون من أهل هذه الدنيا ، قبل أن يعود إليها بعد عدة أشهر ٠

ونقلوه ليلا ، ولم تنقض على نقله بضعة أسابيع ، حتى رحلت أمه من هذا العالم ، وأرجو موقنا ، وأومن حقا ، الى مكان تجد فيه السعادة الأبدية والراحة السرمدية ٠ وقمت بالصلاة عـلى رفاتها ، وهى اليوم ترقد فى فناء كنيستنا الصغيرة ، وليس على قبرها حجر ، ولا فوق جدثها من أثر ، فقد عـرف البشر أحزانها ، وعرف الله ما فى نفسها من فضيلة وخير ٠

وكان الاتفاق قد تم قبل نقل السجين على أن يكتب الى أمه بمجرد الاذن له فى مراسلتها ، وأن يرسل كتبه اليها بعنوانى ، وكان أبوه قد رفض بتاتا أن يرى أبنه ، من اللحظة التى أعتقل فيها ، وأصبح سواء لديه أبقى حيا أم ذهب فى الهالكين ٠

وانصرمت عدة سنين ولم يأتنا عنه نبأ ٠ ولما انقضى أكثر من نصف المدة المحكوم بهـا عليـه ، ولم أتلق منه كتـابا ، استنتجت من انقطاع أخباره انه قضى نحبه ، بل لقد رجوت أن

يكون الموت قد أدركه ٠

ولكن الواقع أن ادموندز كان قد أرسل الى موضع قصى من الأرض ،عند قدومه الى مستعمرة السجناء ،ولعل هذا هو السبب فى أننى لم أتلق منه ولا كتابا واحدا ، وان كان قد بعث إلى بعدة خطابات ٠ وقد لبث فى ذلك الموضع عينه المدة المقررة كلها، وهى أربعة عشر عاما ، ولما انقضت ،اتخذ طريقه الى هذه البلاد وهو ذاكر عزمته القديمة ، والميثاق الذى قطعه على نفسه لأمه، ولقى فى سفره صعابا كثيرة ، وأهوالا عدة ، حتى عاد ساعيا على قدميه الى موطنه ٠

ففى أصيل يوم أخد جميل ، فى شهر أغسطس ، قدم «جون ادموندز » الى القرية التى غادرها مجللا بالعار والشنار قبل ذلك بسبعة عشر عاما ، وكان أقرب طريق اليها يمر بالكنيسة ، وما كاد الرجل يجتاز باب فنائها الخشبى حتى هاجت الذكرى فى فؤاده ، وراحت أشجار « الدردار » القديمــة الفــارعة ، التى ألقت الشمس وهى فى المغيب ، من خلال أفنائها ،ضياء سنيا على الدرب الظليل الممتد أمامها ، توقظ فى نفسه ذكـــريات أيام طفولته الخالية ، فمضى يتمثل نفسه يوما وهو متشبث بيد أمه، منطلق فى سكون معها الى الكنيسة ، وتذكر كيف كان من عادته أن يتطلع الى وجهها الشاحب ، وكيف كانت عيناها تغرورقان أحيانا بالعبرات ، وهى تنظر الى معالم وجهه ، تلك العبرات السخينة التى كانت تساقط على جبينه ،وهى تنحنى عليه لتقبله، وتستثير دموعه هو كذلك وعبراته ، وان لم يكن يعرف يومئذ مبلغ المرارة التى كانت تختلط بدمعها ٠٠ وتذكر كـذلك كم مضى يعدو فرحان جذلا ،فى هذا الدرب مع بعض اللـــدات من الصبيان مثله ، ملقيا ، بين لحظة وأخرى ، عينه الى الخلف ليلمح

بسمة أمه أو يسمع صوتها الحنون . وسرعان ما أحس كأن ستارا قد رفع عن ذاكرته فما لبث أن تزاحمت على خاطره مشاهد قسوته ، حين كان يلقى كلمات الرفق والحنان منها بجفوة ، ونذرها بسخرية ، ووعوده لها بخلف ونكث ، حتى لقد أحس فى قلبه رجفة بالغة ، فلم يعد يستطيع احتمالا ولا تجلدا ..

ودخل الكنيسة ، وكانت صلوات المساء قد انتهت ، والمصلون قد انصرفوا ، ولكن الأبواب لا تزال مفتحة ، فكانت خطواته ، وهو يمشى فى جنباتها ، تتردد أصداؤها جوفاء غريبة الوقع ، حتى لقد أوجس خيفة ان رأى نفسه بمفرده ، وأحسن السكون البالغ من حوله ، فأدار فى المكان عينه ، فتبين له انه لا يزال على قديم عهده .لم يعتره تحول ولا تبدل ، وان بدا أصغر مما كان يألفه ، ولكن ها هى ذى التماثيل القديمة ، التى طالما تطلع اليها بتلك الرهبة الصبيانية ألوف المرات ، وها هو ذا المنبر الصغير ، بوسادته الناحلة اللون ، ومائدة العشاء الربانى التى طالما وقف أمامها ليردد « الوصايا » التى كان يجلها وهو صبى ، وقد نسيها وهو رجل ، ومضى يقترب من المقعد القديم، فبدا له باردا مهجورا ، وكانت الوسادة قد أزيلت عنه، ولم يجد الكتاب المقدس فى موضعه، فقال فى نفسه لعل أمه اليوم تتخذ مقعدا أقل شأنا،أو نراها وقد وهن العظم منها، فلم تعد تقوى على المجىء الى الكنيسة وحدها ،ولم يجرؤ على التفكير فيما كان منه متوجسا ، وسرت برودة فى أنحاء نفسه ، ورجفة شديدة فى كيانه ، فأشاح ببصره موليا ،وكان شيخ كبير قد دخل السقيفة فى اللحظة التى وصل فيها ، فأجفل ادموندز متراجعا ، فقد عرفه حق المعرفة ، ولطالما شهده وهو يحفر القبور فى مقبرة

الكنيسة .. وتساءل خاطره ماذا عسى أن يقوله هذا الرجل للسجين العائد ؟

ورفع الشيخ عينيه ليتأمل وجه هذا الغريب وحياه بقوله : « طاب مساؤك . » وانطلق بخطى وئيدة ، وقد نسيه ولم يعرف من هو .

ومضى يهبط النل ويمشى فى مناكب القرية . وكان الجو صائفا ، والناس جلوسا على أبواب دورهم ، أو متمشين فى بساتينها الصغيرة وهو يمر عليهم ، وقد رآقتهم هدأة الأصيل، والاستجمام من كفاح النهار وكده . وكم من نظرات اتجهت صوبه ، وكم من لمحات منشككة مستريبة ألفاها على جانبى الطريق ، ليرى هل أحدمن الناس عرفه فتحاماه ، فقدرأى وجوها غريبة عليه فى كل بيت ، وتبين فى بعضها أشكالا تقرب من أشكال لدات له فى المدرسة ورفاق .. رأى صبيا منذ آخر عهده به ، قد أصبح رجلا يحيط به جمع من أولاد له وهم فى مرح وقصف ، وشهد فى بيوت أخرى شيخا واهنا محطوما ، يجلس فى مقعد رحيب بباب كوخ ، تذكر انه كان يومئذ عاملا ممزاحا طروبا ، ولكن القوم جميعا قد نسوه ، فمضى فى طريقه مجهولا لا يعرفه أحد

وكانت آخر خيوط الشمس فى المغيب قد سقطت على الأرض ، ملقية شفقا أحمر على سنابل القمح الصفر ، ومطيلة خلال الاشجار فى البساتين ، حين وقف قبالة بيتهم القديم ، مهد طفولته ، دلك البيت الذى طالما حن اليه فؤاده ، وأحس له حبا بالغا لا يوصف ، خلال أعوام سجنه الطوال ، وفترةأحزانه المبرحة ، وكان السور خفيضا ، وان تذكر الايام التى كان يبدو

فيها جدارا شاهقا فى عينه ، وأطل على البستان القديم ، فوجد فيه من البذور والازاهر ، أكثر مما كان من قبل يألفه ، ورأى الأشجار القديمة كما هى ، وشهد الشجرة ذاتها التى رقدتحتها ألف مرة ، كلما شعر بتعب من اللعب والرتع فى الشـــمس ، والتى كان يحس تحت وارف ظلها دبيب النوم فى طفولتـــه السعيدة يدب رفيقا الى معاقد أجفانه ٠ وطرقت أذنيه أصوات منبعثة من عقر الدار ، فأصغى اليها ، ولكنها وقعت غريبة فى مسمعه ، ولم يعرفها ، فقد كانت أصواتا مرحة ، وكان يعلم حق العلم أن أمه العجوز المسكينة لا يمكن أن تكون مرحة ، وهوعنها النائى المغترب ٠

وفتح الباب ، فوثبت من خلاله مجموعة من الأطفال الصغار صارخين قافزين ، وظهر الاب يحمل طفلا صغيرا بين ذراعيــه فأحاطوا جميعا به ، مصفقين بأيديهم الدقيقة مجتذبينه اليهم ليشاركهم فى ألعابهم ومراتعهم ٠ فما لبث السجين أن تذكر كيف كان ينزوى رعبا من مشهد أبيه فى ذلك المكان بالذات ، وكيف كان يدفن رأسه الراجف تحت اللحاف ، وكم ســـمع الكلمة الخشنة منه ، وذاق «العلقة الساخنة» من كفه ، وولولة أمه الحدبة الرءوم عليه ، فأجهش الرجل بالبكاء من شدة الألم الذى اعتلج فى خاطره ، وهو منصرف من الموضع ، ولكنه مضى فى طريقه جامعا قبضة يده ، صارفا بأسنانه ، تغمر صــدره عاطفة موحشة قاتلة

وكذلك كانت الرجعة التى تمثلها فى عدة السنين الخاليات والتى من أجلها قاسى الأهوال ، وعانى أشد صنوف العذاب ، لا وجه يرحب به ، ولا نظرة صفح وغفران تطالعــه ٠ ولا بيت يتلقاه ، ولا يد تتقدماليه بعون ٠٠ وذلك كله فى القرية

القديمة التى نشأ فيها ، والبلد الذى درج على أرضه صغيرا • ان عزلته فى الغـــابات والآجام ، حيث لا يرى انســــانا ولا يلم ببشر ، لأهون والله من هذا وأخف وقعا ••

ولقد تذكر كيف كان وهو فى تلك الارض القصية ، التى قضى فيها عهد عبوديته ، وعاره ، وشناره ، يتمثل مسقطرأسه كما تركه ، لا كما سوف يبدو عند مآبه ،فلم تلبث هذه الحقيقه المرة أن نزلت باردة جامدة على فؤاده ، وأمسكت بكفها البارده بقلبه ، وأحس روحه تهوى فى أعماقه ، فلم يجد فى نفســه شجاعة تغريه بسؤال الناس عما صنع الله بأهله ، أو تحملهعلى التقدم الى الانسان، الوحيد الذى يحتمل أنيتلقاه بحنانورحمة، بل مضى يمشى مبطىء الخطى ، متحاميا عدوة الطريق ،كالمجرم الأثيم ، وعرج على بعض المروج التى كان يعرفها حق المعرفة، وراح يتهالك على الحشائش ، دافنا وجهه فى راحتيه •

ولم يفطن عندئذ الى رجل كان راقدا فوق الجسر غير بعيد ، ان كان هذا قد شعر به ،فاستدار ليختلس نظرة الى هـــذا الطارىء الغريب ، فأحدثت ثيابه حفيفا ، فانتبــــه ادموندز من غشيته ، ورفع رأسه ليتبين ما سر هذا الحفيف وباعثه •

وكان الرجل الآخر قد استوى جالسا فوق الثرى ، وقد بدا كأنه مقوسا ، ووجهه مغضنا ، ولونه أبهر شاحبا ، ويوحى لباسه بأنه من العاملين الكادحين فى الارض ، ويدل مظهره على أنه قد بلغ من الكبر عتيا ، وان لاح عليه أن الشيخوخة التى أدركته كانت من أثر الاسراف على نفسه ، واصطلاح الســـقام عليه ، لا من مطال العمر ، وتقادم السنين

لبث يحملق البصر فى ذلك الطارىء الغريب ، وان كان

بريق عينيه قد خبا ، وجفناه متثاقلين خلال النظرة الاولى ، فما عتمتا أن أبرقتا ، وخطف عليهما وميض غير طبيعى ، ونظر مروع رهيب ، بعد أن استقرتا على ذلك الوجه الغريب القائم حياله ، كأنما توشك عيناه أن تخرجا من محجريهما

_انثنى ادموندز يتحامل شيئا فشيئا ليستوى على ساقيه، ويطيل النظر فى وجه ذلك الشيخ المهدم ، واذا الرجلان يتبادلان النظرات فى صمت مستطيل ·

وبدا الشيخ شاحبا فى مثل شحوب الموتى ، وأخذته رجفة راجفة ، وترنح حتى استوى على قدميه ، كما وثب ادموندز من مكانه وتراجع خطوة أو خطوتين ، ثم دنا من الشيخ

قال بصوت متهدج متقطع : « دعنى أسمع منك قولا ·· »

ولكن الشيخ المهدم صاح به ، ساخطا ناهرا : « أغرب عنى ! »

وعاد السجين يدنو منه ويقترب ·

وانثنى الشيخ يصرخ : « اغرب عنى ! » واشتد به الرعب فرفع عصاه ، وضرب ادموندز بها ضربة شديدة على وجهه

وغمغم السجين قائلا وهو يصرف بأسنانه « أبى ·· أيها الشيطان !» واندفع هائجا وأمسك الشيخ من عنقه ،ولكنه كان أباه ، فما لبثت ذراعه أن تراخت الى جنبه عاجزة لا حراك بها

وأما الشيخ فقد أرسل صيحة عالية تردد صداها فى الحقول الساكنة كأنها زمجرة مارد رجيم ، وارتد وجهه مسودا ، وانبجس الدم من فمه وأنفه ، فلطخ العشب بحمرة قاتمة ،وترنح

الشيخ ثم هوى ·· فقد انفجر شريان فيه ، وأدركه الموت قبل أن يتقدم ابنه اليه ليرفعه ·

وسكت السيد الكبير لحظات وعاد يقول : « وفى ذلك الركن من فناء الكنيسة ، ذلك الركن الذى تحدثت عنه ، يرقد رجل قضى ثلاث سنين فى خدمتى عقب ذلك الحادث ، ظل خلالها سحيق القلب ، تائبا ، نادما ، خاشعا كل الخشوع الذى يتسنى لأحد من البشر الاخلاد اليه ، وما عرف أحد سواى خلال السنين التى قضاها قبل أن يوافيه الموت من يكون ذلك الرجل ، ومن أين أتى ·· لقد كان جون ادموندز ·· السجين العائد !··

الفصل السابع

كيف رأينا المستر ونكل ، بدلا من أن يسدد الرماية الى الحمامة ويقتل الغراب ، سددها الى الغراب ، وجرح الحمامة ، وكيف تبارى فريق نادى الكريكت فى « دنجلى ديل » مع فريق « ماجلتون » وكيف تناول هذا الفريق طعام العشاء ، على مائدة رب الضيعة فى دنجلى ديل ٠ وشئون طريفة طلية أخرى

واصطلحت متاعب النهار أو أثر القصة،التى قصها القسيس ومفعولها المنوم ، على معاقد أجفان المستر بكوك ولهفته على النعاس ، فلم تكد تنقضى بضع دقائق على اقتياده الى حجرة نومه المريحة ، حتى هبط فى سبات عميق ، لا أحلام فيه ، ولم يوقظه منه الا شمس الصباح، وقدنفذت بأشعتها الباهرة فى جوانب المخدع ، كأنما تعتب عليه طول المكث فى سريره ،ولم يكن السيد بكوك بالرجل المكسال المتبلد ، فما عتم أن وثب من فراشه وثبة جندى محارب ، متحمس للقتال من جوف خيمته

وغمغم ذلكم السيد المتحمس ، وهو يفتح باب الشرفة المتشابك قائلا ، وهو يرسل تنهدا مستطيلا : « ريف جميل ٠٠

ريف جميل ·· منذا يطيق العيش فى بلد لا يشهد فيه كل يوم غير الطوب والقرميد ، بعد أن أحس سلطان مشهد كهذا وأثره فى نفسه ، ومنذا الذى يحتمل الحياة فى موضع لا أبقار فيه غير الابقار المرسومة على غطاء المدخنة ، ولا شيء فيه من عطر اله الرعاة ، غير رائحة الآجر ، ولا انتاج فيه غير الحجر ·· ومنذا الذى يحتمل أن يحيا تلك الحياة السقيمة فى موضع كهذا ؟ اننى أسأل ، منذا الذى يطيقها ، لعمرى ، ومنذا يحتملها ؟ »

وبعد طول التساؤل والمناجاة بينه وبين خاطره ، على هذا النحو ، راح السيد بكوك يخرج رأسه ،من خلال الباب المتشابك الأجزاء ، ويجيل البصر فيما حوله

وتصاعدت رائحة الدريس الزكية الحلوة ، الى شرفة حجرته، وتأرج الفضاء المترامى حوله ، بأنفاس الزهر وشذى الشجر الفواح ، فى البساتين القائمة من تحته ، ولمعت المروج النضر بندى الصباح المتلألىء على أوراق الأفنان ، وهى تتثنى وتتمايل فى الهواء العليل ، والاطيار تشدو، كأن كل قطرة براقة من قطر الندى فوارة تبعث الوحى ، وتدفع الالهام ، فتصدح وتغنى ، فلم يلبث المستر بكوك أن ذهب فى حلم فاتن ، وخيال ممتع بديع ، لم يوقظه منه غير صوت ينادى « من هنا ؟ »

فنظر عن يمينه ، فلم ير أحدا ، وتلفت عن شماله وأرسل بصره يشق الفضاء ، ورفعه الى السماء ، ولكنه لم يكن مطلوبا فيها ، وعندئذ فعل ما يفعله كل انسان فى الحال ·· نظر الى الحديقة ، فاذا هو يبصر السيد واردل ·

وبادره هذا السيد الخفيف الروح ، فى لهفة المتعجل

اللذة ، المرتقب للمتع . قائلا « كيف أنت ؟.. انه لصباح جميل .. يسرني انك قد بكرت من فراشك هذا البكور ..هيا انزل آلينا ، وعجل فاني هنا مرتقبك .. »

ولم يكن المستر بكوك بحاجة الى دعوة أخرى ، فلم يستغرق اصلاح بزته غير عشر دقائق ، واذا هو قد وافى السيد واردل ووقف بجانبه .

قال بدوره لمضيفه : «هاأنذا ..ماذا وراءك؟» وقد رآه مسلحا ببندقية ، وشهد أخرى ملقاة على الحشائش .

وأجابه مضيفه قائلا : «انني وصاحبك خارجان لصيد الطيور ، قبل أن يحين موعد الفطور ، انه حسن الرماية جدا .. أليس كذلك ؟ »

وقال المستر بكوك : « لقد سمعته يقول آنه الماهر الحاذق ، ولكنى لم أره يوما يسدد الرماية الى شيء . »

وعاد المضيف يقول « حسنا . أود لو يأتي معي .. جو .. جو ..! »

وآذا الغلام البدين يخرج من البيت ، وهو من أثر هياج الصباح وكثرة حركته ، يبدو أكثر من ثلاثة أرباع نائم .. !

قال السيد الكبير لغلامه : « اصعد وناد السيد ، وقل له انه سيجدني أنا والمستر بكوك في مألف الطير .. وأر السيد الطريق اليها ، هل أنت سامع ؟ »

وانصرف الغلام لتنفيذ الأمر ،بينما حمل المضيف البندقيتين كأنه روبنصن كروزو آخر ، وسار في المقدمة ليهدى صاحبه الى الطريق .

وبعد أن سار بضع لحظات فى طريق تقوم الأشجار على حفافيه ، وقف عن المسير قائلا :

« هذا هو الموضع »

ولم يكن المستر بكوك بحاجة الى من ينبئه ، لأن نعيق الغربان المستمر كان كافيا للتدليل على المكان المقصود ٠

وألقى الشيخ بندقية فوق الثرى ، وحشا الأخرى ٠

وانثنى المستر بكوك يقول « هاهم أولاء ٠ » وفيما كان يقول ذلك ، بدت أشباح المستر طبمن والمستر سنود جراس والمستر ونكل من مكان بعيد ، ذلك أن الغلام البدين لم يكن متحققا أى السادات هو المطلوب، فعمد بذكائه الخاص ، ومنعا للوقوع فى خطأ ، الى دعوتهم جميعا ٠

وصاح الشيخ بالسيد ونكل مناديا : « أقبل ٠٠ ان راميا حاذقا مثلك كان أجدر به أن يستيقظ من وقت طويل حتى ولو من أجل عمل يسير كهذا »

فأجاب السيد ونكل بابتسامة مصطنعة ، وتناول البندقية الأخرى، وقد بدا على وجهه من الاثر والتعبير، مانحسب الغداف(١) الملهم ، المتطير ، الشاعر بدنو الموت ، رميا بالرصاص الا موجسا من دلالته ، مشفقا من معانيه ٠ ومن الجائز أن يكون ما بدا على وجهه دليلا على الحذق ومضاء العزيمة ، ولكن الظاهر الغالب أنه يرجع الى الألم والحيرة والارتباك

وأومأ الشيخ برأسه ، فبادر غلامان مهلهلا الثياب كانا قد

---

(١) الغداف ـ نوع من الطير

آقيما فى هذا الموضع تحت اشراف الصبى« لامبرت » الىالتسلق فوق شجرتين ٠

عندئذ راح السيد بكوك يسأل مضيفه : « ما شأن هذين الغلامين ؟ »

فقد أحس شيئا من الجزع ، لأنه اعتقد أن سوء أحـــوال الفلاحين والعاملين فى الارض ، كما سمع من قبل الشىء الكثير عنها ، ربما أرغمت هذينالغلامين الصغيرين ، علىكسب قوتهما من عمل خطر محفوف بالمكاره ، وهو أن يجعلا من نفسيهمـــا هدفا لصيادين غير خبيرين بالرماية

وأجاب السيد واردل ضاحكا : « لا لشىء غير بدء الصيد »
وعاد السيد بكوك يقول مبهوتا : « لأى شىء تقول ؟ »

قال بصراحة : « لتخويف طيور الغداف »
قال « أهذا كل ما فى الأمر ؟ »
قال « هل اقتنعت ؟»
أجاب « كل الاقتناع »
واستتلى المضيف يقول : « حسنا جدا ٠٠ هل أبتدىء ؟ »
وقال السيد ونكل ، وقد سره أن يعطى أى مهلة يسترد فيها أنفاسه ، ويستعيد جأشه : « تفضل »

قال « قف جانبا اذن ٠٠ والآن ٠٠ »
وفى هذه اللحظة صرخ الغلامان وهزا فرعا يحوى وكرا ، فاذا ستة غربان صغار ، كانت فى حديث عنيف ، قـد طارت لترى ما الخطب ، فعمد الشيخ الى أطلاق النار ردا عليها ،وبمثابة جواب ، فسقط أحدها ، وطارت الأخرى هاربة

وقال الشيخ لغلامه « احمله يا جو ! »

وخطفت على وجه الغلام ابتسامة وهو يتقدم ليحمـــله وقد تمثلت له صور الفطير المحشو بلحم الغداف ، ومرقت رسومها فى خياله ، وضحك وهو بالغداف عائد ، فقد وجده ســـمينا ممتلئا

والتفت الشيخ الى المستر ونكل ، وهو يعيد حشو قذيفتـه وقال : « والآن هلم يا مستر ونكل »

وتقدم هذا فسدد بندقيته ، وبادر المستر بكوك وصــحابه الى التراجع بغير ارادة ، تجنبا لأى أذى قد يمسهم، من تساقط طيور القداف وتناثرها من حولهم ، فقد كانوا على يقين من كثرة صرعاها برصاص صاحبهم المدمر

وساد سكون رهيب ·· وتلته صيحة ·· وأعقب الصيحـة رفيف أجنحة ·· ثم تكتكة خافتة

وصاح الشيخ « هيا ! »

وسأل السيد بكوك صاحبه قائلا : « ألم تخرج الرصاصة ؟»

وأجاب السيد ونكل وهو شاحب الوجه ، والغالب أن يكون مرد شحوبه الى الخيبة : « الطلقة خابت ! »

وبادر الشيخ الى البندقية فتناولها وهو يقول : « هذا غريب فما عرفت من قبل أن بندقية منها (تكذب) ·· يا عجبا ·· مالى لا أرى للظرف أثرا ؟ »

وعاد المستر ونكل يقول : « ويحى ·· لقد نسيت الظرف» وأصلح هذا الخطأ اليسير ، وعاد المستر بكوك يقبع تحاميا للخطر ، وتقدم المستر ونكل بخطوة عزم وتصميم ، ووقف المستر طبمن خلف شجرة ، يطل من ورائها ، وأرسل الغـلام

صيحة ، فطارت أربعة غربان ، فأطلق المستر ونكل عليها النار ، واذا بصيحة تنبعث ، كأنها صيحة انسان ، لا صرخة غراب ، وهي صرخة ألم جثماني ‥ وتبين أن المستر طبمن قد أنقذ أرواح عدد لا يحصى من الأطيار البريئة الوادعة ، بتلقى جزء من الطلقة في ذراعه اليسرى ‥

وليس من الهين أن نصف مبلغ الاضطراب ، الذي أدى اليه هذا الحادث ، والارتباك الشديد الذي أعقبه ، وكيف انثنى السيد بكوك ، في بوادر انفعاله يصيح بالسيد ونكل : « يالك من شقي ! » وكيف استلقى المستر طبمن فوق الثرى ، وكيف جثا السيد ونكل ، مروعا فزعا بجانبه ، وكيف مضى المستر طبمن ، وهو لايعي ، ينادي باسم سيدة ، وكيف فتح أولا احدى عينيه ثم عاد ففتح الأخرى ، ورجع فأغمضهما معا ‥ نقول ان وصف ذلك كله تفصيلا لايقل مشقة وتعذرا عن شرح ماتلاه ، وكيف أخذ الجريح السيء الحظ يفيق رويدا من غشيته ، وكيف ضمدت ذراعه بالمناديل ، وحمل على فترات ، مسنودا الى أذرع أصحابه المشفقين عليه ، كلما مضوا به عادوا فتمهلوا قبل استئناف المسير .

وحين اقتربوا من البيت ، كانت السيدات في الحديقة ينتظرن وصولهم ، ويرتقبن الفطور ، وظهرت السيدة العانس فابتسمت وأشارت اليهم بأن يسرعوا ، وتبين أنها لم تكن تعرف ما جرى ‥ لها الله ‥ ! ان الجهل قد يكون أحيانا نعمة أي نعمة ‥

وتدانوا ‥ وانثنت ايزابللا واردل تسأل قائلة : « ما الذي حدث للشيخ الكبير ؟ » ولكن العمة العانس لم تعبأ بهذا السؤال ، وحسبت المستر بكوك هو المراد به ، وكان المستر

طبمن فى تقديرها لا يزآل فتى فى نضارة الشباب ، فقد كانت تنظر الى سنه من خلال منظار مصغر !

وصاح المضيف الشيخ ، مشفقا من ازعاج ابنتيه : «لاتخفن»

وكان القوم قد ازدحموا حول المستر طبمن وأحاطوا به ، فلم يتبين لهن حقيقة الحادث ، ولم يعرفن مداه

وعاد الشيخ يقول : « ما الخطب ؟ »

وصاحت النساء « ما الخطب ؟ »

قال : « ان المستر طبمن أصيب فى حادث بسيط ٠٠ هذا هو كل ما فى الامر ٠٠ »

وما أن سمعت العمة العانس هـــذا القول ، حتى أطلقت صرخة تشق الفضاء ، وانطلقت فى ضحكات « هستيرية »

وسقطت فى أحضان ابنتى أخيها

وقال الشيخ : » ارششن قليلا من الماء على وجهها ٠٠ «

وغمغمت العانس تقول « كلا ٠٠ كلا ٠٠ اننى بخير الآن ٠٠ بيلا ٠٠ اميلى ٠٠ هيا ادعوا طبيبا ٠ أهو جريح ؟ أهو ميت هل هو ٠٠ ها ها ها ٠٠ ؟ وأصابتها النوبة رقم ٢ ، فعادت الى ضحكها « الهستيرى » الذى كانت الصرخات المولولة تتخلله

وهنا قال المستر طبمن ، وهو من فرط تأثره لايكاد يمسك دموعه ، حين شهد هذا العطف عليه وهو فى ألمه : « هـــدئى روعك يا سيدتى آلعزيزة ٠٠ هدئى روعك » ٠

وعندئذ صاحت العمة العانس ، وقد انتابتها النوبة رقم ٣ ، تقول « هذا صوته ! »

وعاد المستر طبمن يقول لها مواسيا : « لا تنفعلى هكذا يا سيدتى العزيزة ولا تضطربى ، أتوسل اليك ٠٠ أؤكد لك أن الجرح يسير ٠٠ »

وصاحت السيدة المتشنجة « لم تمت اذن ٠٠٠ قل انك لم تمت ! »

وفى هذه اللحظة تدخل المستر واردل ، فى خشونة لاتتفق وهذا المشهد الشعرى ، قائلا « كفى حمقا ياراشل ! ما الفائدة بالله عليك من قولك له انه لم يمت ؟ »

وقال المستر طبمن : « كلا ٠٠ كلا ٠٠ أنا لم أمت، ولكنى لست بحاجة الى معونة أحد سواك ٠٠ دعينى أستند الى ذراعك » ، ومضى يهمس لها : « اواه يا آنسة راشل ٠٠ ! » فدنت المرأة المضطربة منه ، ومدت نحوه ذراعها ٠

ودخل القوم قاعة الفطور ، ومد المستر طبمن يده ، فرفع كفها برفق الى شفتيه ، وتهالك على الاريكة ٠

وسألته راشل فى لهفة : « هل أغمى عليك ؟ »

قال « كلا ٠٠ لا شيء ٠٠ لن ألبث أن أفيق »

وأغمض عينيه

وغمغمت العانس تقول ، ولما يمض على اغماضه أكثر من ثوان معدودات : « لقد تولاه النوم ٠٠ عزيزى ٠٠ عزيزى يا مستر طبمن » ٠

واذا السيد طبمن يثب من مكانه صائحا « أواه ٠٠ أعيدى على سمعى تلك الكلمات مرة أخرى ٠٠ »

فأجفلت السيدة ، وقالت وقد استولى عليها الحياء : « وهل سمعتها حقا ٠٠ ؟ »

قال « نعم ٠٠ سمعتها ٠٠ هلا رددتها ٠٠ ان كنت تريدين أن أفيق فأعيديها على مسمعى »

قالت « صه ! ٠٠ أخى قادم ! »

وعاد المستر طبمن الى استلقائه ، ودخل السيد واردل ، مصطحبا طبيبا

وفحص الطبيب الذراع ، وضمد الجرح وأعلن أنه يسير لايذكر ، فاطمأنت الخواطر ، وهدأت النفوس، وشرع القوم فى اشباع شهواتهم الى الطعام ، وعادت امارات الغبطة الى وجوههم الا السيد بكوك ، فقد لزم الصمت ، وبدت الشكوك والريب تلوح على محياه ، فقد زعزع هذا الحادث فى نفسه الثقة بالمستر ونكل ، الى حد كبير ٠

والتفت المستر واردل الى هذا الصياد البارع فسأله قائلا : « هل تعرف الكريكت ؟ »

ولو أن المستر ونكل سئل فى أى وقت آخر هذا السؤال، لكان رده بالايجاب ، ولكنه أحس بدقة الموقف ، فقال فى استحياء وتواضع : « كلا »

وأنشأ المستر سنودجراس يسأل رب البيت : « هل تلعب الكريكت يا سيدى ؟ »

قال : « كنت فترة من الدهر ، ولكنى أهملتها اليوم ٠٠ وأنا مشترك فى النادى هنا ، ولكنى لاألعب »

وقال المستر بكوك : «أعتقد أن المباراة الكبرى ستقام اليوم» وأجاب رب الدار « أجل ·· وتحب طبعا أن تشهدها »

فقال المستر بكوك « انى ليبهجنى ياسيدى أن أشهد أى ألعاب يمارسها الناس فى أمان ، ولاتتعرض فيها حياة البشر للخطر من عجز غير البارعين فيها ، الذين لم يحذقوها » ·

وتجهل المستر بكوك ونظر الى المستر ونكل طويلا ، فانزوى هذا من نظرة زعيمه المتفحصة ، واسترد ذلك الرجل العظيم عينيه بعد بضع دقائق ، وأضاف يقول : «هل من شفيع يشفع لنركنا صديقنا الجريح لعناية السيدات ؟ »

وقال المستر طبمن : « لستم تاركى لرعاية أفضل من هذه وأجدى »

وقال المستر سنودجراس : « حقا ان هذا لمتعذر »

وكذلك تم الاتفاق ، على أن يبقى المستر طبمن فى الدار ، برعاية السيدات · وأن يذهب الباقون من الاضياف ، بقيادة المستر واردل ، الى الموضع الذى ستقام فيها هذه المباراة ، التى أثارت أهل ماجلتون من سكونهم ، وهاجت حماسة « دنجلى ديل » وحميتها ··

وفى الطريق ، والمسافة لاتعدو أكثر من ميلين ، خلال دروب ظليلة ، ومسالك مقفرة ، عطفت أحاديث القوم على المشاهد البهيجة ، التى أحاطت بهم من كل ناحية ، حتى لقد كاد المستر بكوك يأسف بعد اجتياز هذا الطريق ، على أنهم وصلوا الى الطريق الرئيسى الذى يشق بلدة « ماجلتون »

ولايجهل أحد أوتيت عبقريته ميلاالى علم تخطيط الأرض ،

ان « ماجلتون » بلدة ذات شخصية معنوية ، ولها عمدةومشايخ وأعضاء مجلس قروى ، وكل من يطلع على عناوين كبارها ، من العمدة الى الأعضاء ، أو من الأعضاء الى العمدة ، أو منهما معا الى الهيئة العامة ، أو من هؤلاء الثلاثة الى البرلمان ، يتبين منها ما كان أولى أن يتبينه من قبل، وهو أن ماجلتون قرية قديمة مخلصة ، جمعت بين الحماسة الصادقة لتعاليم المسيحية وبين التفانى فى المحافظة على الحقوق التجارية ، بدليل أن العمدة والمجلس وغيرهما من السكان قدموا فى أوقات مختلفة ، لا أقل من ألف وأربعمائة وعشرين معروض احتجاج على استمرار النخاسة والرق فى الخارج ، ومثل هذا العدد من العروضات يحتجون فيها على التدخل فى نظام المصانع فى البلاد ، وثمانية وستين معروضا أخرى ، يؤيدون فيها بيع المأكولات فى الكنيسة، وثمانين وستة معروضات ، يلتمسون فيها الغاء البيع والشراء فى الطريق ، أيام الآحاد .

ووقف المستر بكوك فى الشارع الاكبر ، فى هذه البلدة المجيدة ، وألقى نظرة فضول تختلط باهتمام ، على الاشياء المحيطة به ، فرأى ساحة خصصت للسوق ، وفى وسطها فندق كبير ، علقت لافتة على واجهته ، تمثل صورة شائقة فى عالم الفن ، وان ندر وجودها فى دنيا الطبيعة ، ونعنى بها صورة أسد أزرق ، ارتفعت منه ثلاث سيقان مقوسة فى الفضاء وهومتوازن على الطرف الأقصى ، من المخلب الاوسط فى قدمه الرابعة ، وعلى مدى البصر ، رأى دكان دلال ومكتبا للمطافىء ، وسمسار غلال ، ودكان تاجر قماش وحانوت « سراج » ومعمل خمر ، ثم دكان بقال ودكان بيطار ، وكان الأخير أيضا يبيع القلانس والقبعات والثياب والمظلات ، المصنوعة من القطن ، ويقدم المعلومات المختلفة لمن يشاء ، وألمت عيناه كذلك ببيت مقام من

الآجر الأحمر ، له فناء مرصوف صغير فى مقدمه ، لا يشق على أحد أن يعرف أنه بيت المحامى ، وبيت آخر مبنى من الآجر ذاته ، وله شباك من حصير ، ولوح نحاسى كبير على بابه ، كتب عليه بخط مقروء واضح أنه بيت الطبيب ، وكان بضعة غلمان فى طريقهم الى ملعب « الكريكت » وتاجران أو ثلاثة تجار قد وقفوا بأبواب حوانيتهم ، وهم يلوحون كأنهم يودون أن يتخذوا الطريق هم كذلك الى الملعب ، وكان من الجائز كل الجواز أن يفعلوا ، دون أن يفقدوا كثيرا من البيعاء ، أو تفوتهم فرص البيع •

وقف المستر بكوك لحظة ، يجيل العين فى هذه المشاهد ، لكى يدونها فى فرصة مؤاتية ، ولكنه عاد يلاحق أصحابه ، وكانوا قد انحرفوا عن الطريق العام ، وأصبحوا على مقربة من ميدان المباراة •

وكانت «الشبكات» منصوبة ، كما أقيم سرادقان ، يستريح فيهما أفراد الفريقين المتباريين ، ويتناولون فيهما المرطبات • ولم يكن اللعب قد بدأ بعد ، ووقف اثنان أو ثلاثة ، من لاعبى فريق « دنجلى ديل » وفريق «ماجلتون» ، يتلهون ويتسلون فى وقار وجلال ، بالقاء الكرة فى استخفاف ظاهر ، من يد الى يد أخرى ، بينما كان عدة سادات آخرين ، مرتدين الزى ذاته ، فى قبعات من القش ، وقمصان من «الفانللا» ، وسراويل بيض ، وهو زى بدوا فيه أشبه ببناءين من الهواة ، متفرقين حول الخيام ، فتقدم المستر واردل بالقوم ، الى خيمة منها ، واذا بعشرات من تحيات « وكيف الحال ؟ » تستقبل ذلك الشيخ الكبير ، واذا بالقبعات القش ترتفع للسلام عليه ، والانحناءات تطالعه من اللاعبين ذوى القمصان ، بعدأن تولى تعريف الجميع

بأضيافه قائلا أنهم سادات قادمون من لنـــدن ، يتلهفون على مشاهدة مباراة اليوم ، التى لايخامره الشك ، فى أنها ستكون مبعث غبطة بالغة ٠

وانشأ سيد ضخم بدا جسمه وساقاه أشبه بنصف لفـــة ضخمة من الأصواف ، مرفوعة فوق مخدتين منفوختين ، يقول: « أظن الاوفق يا سيدى أن تدخل السرادق »

وقال آخر يشبه كثيرا النصف الثانى من آللفة الســـالفة الذكر : « ستجد الجلوس فى السرادق أوفق وأريح كثيرا يا سيدى » ٠

فأجاب المستر بكوك قائلا : « انك لكريم يا سيدى »

وقال الاول : « من هنا يا سيدى ٠ هنا الدرجة الاولى٠ وهى أفضل مكان فى الملعب كله »

وتقدمهم وهو يلهث من فرط البدانة ، الى الخيمة التى أشار اليها

وتتابع على سمع المســـتر بكوك عند دخوله السرادق قول القائلين « مباراة باهرة ٠٠ لعب بديع ٠٠ رياضة رائعة ٠٠ جدا ٠٠ » ٠ وكان أول شيء طالع عينيه ، منظر صاحبه ذى الثوب الأخضر ، الذى رافقهم فى المركبة الى روشستر ، وقد وقف يهتف ، وسط مظاهر بالغة من السرور والاغتباط ، غمرا حلقة مختارة من صفوة أهل ماجلتون وساداتها ، وكان هندامه قد تحسن قليلا ، وكان ينتعل حذاء ، ولكنه هو بعينه ، لاشك فيه ولا ريب

وعرف الغريب أصحابه فى الحال ، فاندفع نحوهم وتناول

يد السيد بكوك ، ومشى به الى أحد المقاعد بذلك التهور المألوف منه ، وهو لايكف عن الكلام ، كأنه المشرف على المكان كله ، المدبر المنظم لكل شيء فيه

وطفق يقول : « من هنا ‥ من هنا ‥ تسلية ممتعة ‥ جعة موفورة ‥ دنان ملأى منها ‥ أكوام من اللحم ‥ لحم العجول ‥ توابل ومشهيات ‥ حمل مركبات منها ‥ يوم عظيم ‥ اجلس ‥ ابتهج يا رجل واشعر بأنس ، كأنك فى بيتك ‥ مسرور للقائك جد السرور ‥ »

وجلس المستر بكوك ، كما أمر أن يجلس ، كما امتثل السيد ونكل والمستر سنودجراس لتوجيهات صديقهما العجيب ، بينما لبث المستر واردل ينظر فى دهشة صامتة .

وعندئذ انبرى المستر بكوك يقول : « هذا أحد أصدقائى يا مستر واردل »

فصاح هذا قائلا : « أحد أصدقائك ‥! كيف أنت ياسيدى العزيز ، يا صديق صديقى ؟ هات يدك يا سيدى »

وتناول الغريب يد السيد واردل ، بكل حماسة الصداقة المتينة التى توثقت على السنين ، ثم تراجع خطوة أو خطوتين ، كأنما يريد أن يتأمل وجهه وشكله ، ثم صافحه مرة أخرى بحرارة أشد من قبل »

وقال المستر بكوك ، وهو يبتسم ابتسامة ، تنازعت فيها الطيبة والعجب الشديد « وما الذى جاء بك الى هنا ؟ »

فأجابه الغريب قائلا : « دع عنك ‥ أنك نازل فى فندق « الكراون » ‥ الكراون فى بلدة ماجلتون ‥ التقيت بجماعة

فيه من ذوى القمصان والسراويل البيض .. شطائر بالانشوقة .. والكلاوى .. قوم ظرفاء .. شيء بديع .. »

وكان المستر بكوك قد ألف من ذلك الغريب هذا النحو « الاختزالى » من الكلام ، فاستخلص من تلك العبارات السريعة ، المفككة ، المقطوعة الصلة ، ان الرجل تعرف بطريقة ما بلاعبى ماجلتون ، وأنه لم يلبث أن أحال مجرد المعرفة ، بوسائله الخاصة ، الى هذا المدى من « المودة » الذى يسهل معه توجيه الدعوة اليه ، والمبالغة فى تكريمه ، فلا غرو اذا سكن فضوله ، وهدأ خاطره ، وأقبل على منظاره يضمه على عينيه ، استعدادا لمشاهدة اللعب ، وكان قد بدأ فعلا ٠

وكان أول النازلين الى الحومة فريق ماجلتون ، واشتدت الحماسة حين تقدم المستر دمكنز والمستر بدر ، وهما من أبرز أعضاء ذلك النادى المشهور ، متماسكين باليدين ، الى الشبكتين المخصصتين لهما ، وكان اللاعب الذى وقع الاختيار عليه ليلعب ازاءه دمكنز البارع ، من فريق « دنجلى ديل » هو المستر لفى ، زين أهلها وأرفع القوم مكانة فيها ، كما انتخب المستر سترجلز لمباراة « بدر » القاهر الذى ، لم يغلبه فى اللعب غالب الى الساعة ، بينما « رابط » عدة لاعبين « للمراقبة » فى أنحاء مختلفة من الملعب ومضى كل لاعب منهم يتخذ الوضع اللائق ، وهو واضع يديه فوق ركبتيه ، وقد انحنى برأسه وظهره كثيرا ، كأنه يتأهب للعبة المعروفة « بقفزة الضفادع » (١) ٠ والمشاهد أن اللاعبين جميعا يفعلون ذلك ، حتى ليذهب الظن عامة الى أنه من المستحيل اجادة المراقبة فى أى وضع آخر ٠

---

(١) كاللعبة المعروفة بين أطفالنا ، وهى « عنكب ، شد واركب » ، والتى يسميها الفرنسيون « قفزة الخروف »

ووقف « الحكام » خلف الشباك ، واستعد العداءون لعـــد الرميات ، وعندئذ ساد سكون تتقطع فيه الأنفاس ، وارتد المستر لفى بضع خطوات خلف شبكة المستر بدر، وكان هذا قد وقف فى مكانه ، هادئا لايتحرك، وقرب الكرة من عينه اليمنى عدة ثوان ، وانتظر دمكنز مجيئها فى طمأنينة واعتـــداد ، وعيناه تراقبان حركات لفى

وصاح الممسك بالكرة فجأة « العب ! » ، وطارت الكرة من يده رأسا ، وبسرعة بالغة ، صوب النقطة الوسطى من الشبكة، وكان دمكنز الفطن المتنبه على الأهبة لها ، فسقطت فوق طرف القبعة ، ثم قفزت بعيدا فوق رءوس « المراقبين » الذين انحنوا لها كثيرا ليدعوها تطير فوقهم

وتعالت عندئذ الصيحات متتابعة : « اجر ·· اجر ·· ضربة أخرى ·· والآن اقذفها عاليا ·· هيا طوح بها ·· قف عندك رمية أخـــرى ·· كلا ·· نعم ·· كلا ·· أقذفها الى أعلى ·· أقذفها الى أعلى ·· »

وانتهت تلك الصيحات بفوز فريق ماجلتون بهدفين ، ولم يتخلف بدر أو يتوان فى الظفر بأكاليل الغار للاشادة بذكره ، وكسب المجد لبلدته ، فجعل يحتجز الكرات المشكوك فيهـا ، ويتخلى عن الكرات الرديئة ، ويتوخى الجيدة منها ، فيرسـلها طائرة فى مختلف أرجاء الملعب ، وكان « المراقبون » قد عرقوا وسخنوا واستولى التعب عليهم ، واستبدل برماة الكرة آخرون، وظلوا يطوحون بها حتى خدرت أذرعهم · ولكن دمكنز وبدر ظلا غالبين لا قاهر لهما ، وكلماحاول سيد متقدم فى السن،أن يوقف سير الكرة ، تدحرجت من خلال ساقيه ، أو تسربت من

بين أنامله ، وكلما حاول سيد ناحل الامساك بها ، ضربته على أنفه ، ثم قفزت لاهية مداعبة ، وهى أشد من قبل وثبا وقفزا ، تاركة الرجل مغرورق العين بالدمع ، متلويا من الالم • وكلما طوحت رأسا صوب الشبكة ، وصل دمكنز اليها قبل وصول الكرة •• وجملة القول ان لاعبى فريق ماجلتون بفضل براعة دمكنز وحذق «بدر» ، ظفروا بنحو أربع وخمسين رمية صائبة ، بينما كان حساب مافاز به لاعبو « دنجلى ديل » فارغا ، أو ظل على « بياض » كشحوب وجوههم ، وكان تفوق غرمائهم أكبر من أن يحاولوا التغلب عليه ، وذهبت سدى كل جهود « لفى » الصادقة ، وحماسة « استرجلز » المتقدة ، فى حشد كل ما فى وسع البراعة والخبرة أن تبذلاه ، أو تستعينا به ، لاسترداد الارض التى فقدها فريقهما •• ولم تجد المحاولات كلها نفعا ، فما لبث لاعبو « دنجلى ديل » أن استسلموا ، وتركوا فريق « ماجلتون » يظهرون من براعتهم الفائقة ما هم مظهروه •

وكان الغريب طيلة الوقت مقبلا على الطعام والشراب ، والكلام ، لا ينثنى لحظة عنها ولا يكف ، وكلما شهد رمية طيبة أبدى ارتياحه ورضاه عن لاعبها ، فى لهجة المتنزل من عليائه ، المتبرع بعطفه ورعايته ، مما سر كثيرا الفريق الذى ينتمى ذلك اللاعب اليه ، بينما كان يقابل كل محاولة خائبة ، أو يقتصر فى وقف الكرة ، بالتعبير عن استيائه الشخصى من ذلك اللاعب المسىء ، أو المحاول الفاشل فى عبارات غريبة ، كقوله: « آه يا غبى •• والآن •• خسئت يا طرى اليد •• مغفل مخادع •• » وما اليها من عبارات ، جعلته يبدو فى أعين جميع المحيطين به كأبدع خبير ، لا تنكر خبرته ، بسائر فنون الكريكت وأسرارها •

وازدحمت الخيمة بكلا الفريقين المتبارين عقب انتهاء المباراة ،

فأنشأ الغريب يقول : « مباراة مفتخرة ·· لعبت باجادة ·· بعض الالعاب تستحق الاعجاب ·· »

وهنا سأله المستر واردل، وقد سرته كثيرو ثرثرته وهذره: « هل سبق لك يا سيدى أن لعبتها ؟ »

قال : « لعبتها ؟ أظن اننى لعبتها آلاف المرات ·· ليس هنا ·· بل فى جزر الهند الغربية ·· شىء مثير ·· نضـــال حام متوقد ·· جدا ·· »

وقال المستر بكوك : « لا بد من أن يكون اللعب رياضـــة دافئة فى مناخ كهذا ؟ »

قال : « دافئة ··! بل ساخنة كالنار ·· محرقة متأججة·· لعبت مرة فى مباراة ·· بشبكة واحدة ·· صديقى الأميرالاى السير توماس بليزو ، وكان المعتقد بأنه سوف يظفر بأكبر عدد من الأهداف ·· عملنـــا القرعة لمن يلعب أولا ·· وابتــدأنا الساعة السابعة صباحا ·· ستة أفراد من الأهلين اشتركوا فى المباراة « مراقبين » ، نزلت واتخذت مكانى ·· الحر شديد ·· كل الأهلين أغمى عليهم ·· وحملوا من الملعب حملا ·· وجىء بستة آخرين ·· ولكنهم عجزوا عن ملاحقتى ·· أغمى عليهم كذلك ·· دوخت الأميرالاى ·· أبى أن يسلم ··تابعى الأمين ·· كوانكو سامبو ·· آخر من بقى ·· الشمس تتلظى شواظا من نار ·· المضرب ملتهب ·· الكرة مسودة من شدة الاحتراق ·· رميت خمسمائة وسبعين رمية ·· كاد الاعياء يستولى على ·· كوانكو مضى يستجمع آخر بقــايا قواه ·· ظل الى جانبى يعد لى الضربات الى النهاية ·· اغتسلت ·· وذهبت لأتناول طعام الغداء »

وهنا سأله سيد متقدم فى العمر « وماذا صنع الله ياسيدى بذلك الرجل الذى لم أستطع أن ألتقط اسمه ؟ »

قال « هل تعنى « بليزو » ؟ »

قال « كلا ٠٠ السيد الاخر »

قال « كوانكو سامبو ؟ »

أجاب « أى نعم ياسيدى »

قال « مسكين كوانكو ! لم يقم بعدها أبدا ٠٠ لقـــد مات ياسيدى ٠٠! »

وهنا راح الغريب يخفى وجهـــه فى جرة سوداء ، ولـكنا لا نستطيع أن نؤكد هل أراد بهذه الحركة أن يخفى تأثره ، أو يرشف ما في الجرة ويحتسيه ؟ وكل ما نعرفه انه تمهل فجأة، وتنفس نفسا طويلا عميقا ، وجعل ينظر حوله بفضول ، بينما اقترب اثنان من كبار أعضـــاء نادى « دنجلى ديل » من المستر بكوك ، فقالا : « اننا موشكون أن نتناول غذاء بسيطا فى فندق الأسد الازرق » يا سيدى ، ونرجو أن تتكرم أنت وأصحابك بمشاركتنا فيه »

وأجاب المستر واردل : « بالطبع ٠٠ ومن بين أصـــدقائنا المستر ٠٠٠ »

والتفت نحو الغريب ، فقال هذا السيد الخبير بكل شيء ، وهو ينتهز الفرصة : « جنجل » ! الفرد جنجل المحترم ٠٠ من أهل نوهول نوهوير (١)

وأجاب المستر بكوك على الدعوة قائلا : « اننى على يقين اننى سأكون سعيدا كل السعادة » ٠

---

(١) العادة أن يذكر الاسم والبلد والاقليم عند التعريف ، وقد عـــرف المستر جنجل نفسه بأنه من نوهول NO HALL أى لا بلد له ، وهى من أعمال نوهوير ، أى ليست فى مكان ما ٠

وقال المستر جنجل ، وهو يدخل احدى ذراعيــه فى ذراع المستر بكوك ، والاخرى فى ذراع المستر واردل ، « وأناكذلك!»

ومضى يهمس فى أذن المستر بكوك قائلا : « غداء طيب ٠٠ بارد ولكنه عظيم ٠٠ لقد أطللت على القاعة فى هذا الصباح ٠٠ دجاج وفطير وألوان شهية ٠٠ كرام ٠٠ أهل أدب ٠٠ جدا »

ولم تكن ثمة مقدمات أخرى ، أو تمهيدات يراد اتخاذها، فلم يلبث القوم أن اتخذوا سمتهم الى البلدة فى جماعات صغيرة ، أو مثنى وثلاث ٠ ولم يكد ينقضى ربع ساعة ، حتى كانوا جميعا جلوسا فى القاعة الكبرى بفندق «الاسد الازرق» فى ماجلتون ، وقد اتخذ المستر دمكنز كرسى الرياسة ، وتولى المســتر لفى مركز « نائب الرئيس »

وكثر الكلام واشتدت قعقعة السكاكين والشوكوالصحاف ، وهرولة ثلاثة غلمان ضخام الرؤوس ، واختفت فى لمح البــرق اللحوم المصفوفة فوق المائدة ، وكان المستر جنجــل الماجن ، يساوى فى كل ضجة وحركة ، أو يعدل على الأقل ، ستة من الأشخاص العاديين ٠

ولما أكل كل منهم ما استطاع أن يأكل ، ملء جوفه أويزيد، رفع الغطاء عن المائدة وأزيلت الزجاجات والاقداح ، ووضــــع النقل والفاكهة ، وانسحب الخدم ، لكى « يزيحوا » ما هنالك ٠٠ أو بعبارة أخرى ، ليعكفوا على البقايا والفضــلات ، من كل مأكول ومشروب ، يصح لهم أن يضعوا عليه أيديهم ، امتلاكا ومكسبا ٠٠

وفى وسط تلك الجلبة العامة من المزاح والكلام ، لبث رجل صغير الجثة ساكنا صموتا ، تلوح على وجهه سمات من هوقائل

لك « حذار ٠٠ لا تكلمنى ، أو انى سأغارضك » ، وان مضى بين لحظة وأخرى يجيل البصر حوله ، كلما وجد الحديث هدأ قليلا ، كأنما يفكر فى قول شىء قيم ، أو كلام متزن ، أو يروح يسعل سعلة قصيرة ، توحى بعظمة ووقار لا وصف لهما، وأخيرا ،حين كاد السكون يسود المكان ، انطلق ينادى بصوت مرتفع رهيب قائلا « يا لفى ! » ، فغمر الجميع سكون شديد ، وانثنى السيد الذى وجه النداء اليه يجيب قائلا « نعم يا سيدى » قال « أود أن أوجه اليك ، ياسيدى بضع كلمات ، اذا تكرمت فرجوت الى السادة أن يملأوا الاقداح

وهنا صاح المستر جنجل ، بلهجة المشرف الراعى « مرحى ٠٠ مرحى ! » ، وردد الآخرون هتافه ، واترعت الأقداح ، واتخذ نائب الرئيس سمت الحكمة والانتباه الشديد ، وانشأ يقول مستر « ستيبل » !

ونهض الرجل الصغير الجثة فقال : « سيدى أود أن أوجه ما أنا قائله اليك أنت ، لا الى رئيسنا الفاضل ، لان رئيسنا الفاضل هو الى حد ما ـ بل اسمح لى أن أقول الى حد كبير ـ موضوع ما سأقوله ،أومايصح أن ٠٠٠ »

فبادر المستر جنجل الى اسعافه قائلا : « ان أدلى به ٠٠ »

قال ٠ أجل ٠٠ ما سأدلى به ٠٠ انى لشاكر صديقى الكريم، اذا أذن لى أن أدعوه كذلك ٠ مرحى (أربع مرات ، وواحدة بلا شك من المستر جنجل) على التعبير الذى أقترحه ٠ اننى ياسيدى ديليرى ـ أى من أهل دنجلى ديل ـ هتاف ـ « فلست أدعى شرف الانتساب الى أهل ماجلتون ، وان أردت يا سيدى الصراحة قلت : اننى لست أطمع فى الظفر بهذا الشرف ، وأنا

مبين لك السبب ياسيدى ٠٠ « مرجى » ٠٠ وهو أننى مسلم على الفور لماجلتون بكل الامجاد والمناقب ، التى فى وسعها بحق ان تنسبها الى نفسها ٠٠ وانها لأمجاد ومنـــاقب ، من فرط كثرتها وشهرتها لا تقتضى منى تنـــويها ولا تحتــــاج الى تعديد أو ترديد ، ولكن اذا تذكرنا يا سيدى ان ماجلتون أنجبت دمكنز وبدر ، فلا يصح أن ننسى أن دنجلى ديل لها أن تفخر بانجابها رجلا مثل « لفى » وسيدا من طراز « استرجلز ٠٠ هتافات مدوية ٠٠ وأرجو ألا أعد رجـلا يريد أن ينتقص من فضل السيدين ، أويغض من قدرهما ومواهبهما ، ولكنى ياسيدى أحسدهما على اغتباطهما وهناءتهما بهذه المناسبة ـ هتاف ـ وأكبر ظنى أن كل سيد يستمع الساعة الى ما أقوله ، يعـرف رد ذلك الرجل الذى وجد نفسه ـ على سبيل المجاز والاستعارة ، قابعا فى طشت فقال ، للامبراطور الاســكندر : لو لم أكن ديوجينيس لوددت أن أكون الاسكندر » وبالمثل أستطيع أن أتصور هذين السيدين وهما قائلان مقالة « ديوجينيس » لو لم أكن دمكنز لوددت أن أكون « لفى ، ولو لم أكن « بدر » لوددت أن أكون « استرجلز » ، هتـــاف حماسى ، ولـــكن ياسادة ماجلتون ، أفى ملاعب الكريكت وحدها يبرز أبنـــاء جلدتكم أعلاما ساطعين ؟ ألم تستمعوا يوما عن دمكنز وقوة العزيمة ٠٠ ألم تسمعوا يوما عن بدر والنضـــال عن حقوق الملكية ؟ ـ هتاف شديد ـ أو لم تسمعوا عن نضـــالكم عن حقوقكم ، وحرياتكم ، وامتيازاتكم ، حين انتقص منها ، ولو لحظة واحدة ، حتى لقد أحسستم من انتقاصها التطير واليأس ، وحين تطرق اليأس اليكم ، ألم يكن الاسم دمكنز هـو الذى عاد يشعل نار الحمية فى صدوركم حين خبت جذوتها ، أو لم تكف يومئذ كلمة من هذا الرجل لكى ترسلها مشتعلة كمـا

كانت ، مستعرة باهرة اللهب ، كأنها لم تخب يوما ولم تخمد ـ هتافات مدوية ـ أيها السادة ، انى لأود أن أحيط اسمى « دمكنز وبدر » مقترنين بهالة باهرة من الحماسة والهتاف٠٠»

وهنا وقف الرجل الصغير الجثة عن الكلام ، وبدأ الجمع يتصايحون ، ويدقون الموائد بأيديهم ، ولبثوا كذلك فى صياح ودق بقية المساء لا يكفون عنهما الا على فترات قصار ،وشربت الأنخاب مرة أخرى وكان كل من المستر لفىوالمستر استرجلز والمستر بكوك ، والمستر جنجل ، موضع مديح مستمر ، وثناء مستطاب غير منقطع ، ومضى كل منهم فى دوره يرد بالشكر ، على هذا التكريم

وكان أجدر بنا ، ونحن مخلصون كل الاخلاص فى تأدية رسالتنا الكريمة ، التى توفرنا عليها ، أن نشعر بزهو لانستطيع عنه تعبيرا ، وأن نحس بأننا أدينا عمـلا يستحق خلودا نحن الساعة محرومون منه ، لو أننا استطعنا أن نسجل هنا ماتيسر من تلك الخطب الرنانة، التى ألقيت فى ذلك الحفل، ليطلع عليها قراؤنا الكرام٠ وكان المستر سنودجراس كدأبه قد دون حشدا كبيرا من المذكرات ، وكانت هذه المذكرات ، بلاشك كفيلة بأوفى وأنفع المعلومات ، لولا أن بلاغة تلك الخطب وحماسة عباراتها ، أو لولا ان الحمى التى انتابته من أثر النبيذ ، قد جعلت يد ذلك السيد راجفة كل الارتجاف ، مهتزة أشد الاهتزاز ، مما جعل خطه لا يكاد يقرأ ، وأسلوبه لا يفهم اطلاقا ، ولكننا بفضـل البحث المستمر ، والصبر الشديد على التحقيق والاستقصـاء ، استطعنا أن نكشف بعض حروف تشبه من بعيد أسماء الخطباء، كما تيسر لنا العثور على « مدخل » أغنية يظن أن المستر جنجل هو الذى كان يغنيها ، ويكثر فيها ترديد كلمات وألفاظ ، بين

كل بيت ، ونحوه من مثل « الكاس والطاس » و « المشعشع » كلون الياقوت ، « وباهر » « والنبيذ » ، ويخيل الينا أيضا اننا استطعنا في نهاية تلك المذكرات أن نتبين اشارة غير واضحة الى «عظام محمرة» ثم كلمة « باردة » ٠٠ وكلمة «بدون»، ولكن أى فكرة يمكن ان نبنيها على هذا الأساس يجب بطبيعة الحال أن تقوم على مجرد « الحدس والتخمين » ، ولسنا نريد أن نمعن في شيء منهما ، ولا فيما عسى أن يكون مدلول تلك الكلمات ٠

ولهذا نعود الى المستر طبمن ، غير مضيفين هنا شيئا ، غير أنه لم يكن قد بقي على منتصف الليل سوى بضع دقائق ، حتى سمعت أصوات سادات دنجلي ديل وماجلتون ، وهم يغنون بحماسة وقوة ، هذا النشيد الوطنى الجميل المؤثر وهو :

لن نذهب الى دورنا حتى الصباح
لن نذهب الى دورنا حتى الصباح
لن نذهب الى دورنا حتى الصباح
لن نذهب اليها حتى يطلع النهار

الفصل الثامن

شرح واف للموقف ، والتدليل على ان طريق « الحب الصادق » ليس « سكة حديدية »

كانت السكينة المخيمة على ضيعة « دنجلى ديل » المنعزلة وكثرة أفراد « الجنس اللطيف » فيها ، واللهفة والقلق اللذين أبدينه نحو المستر تراسى طبمن ، عوامل اجتمعت لتنمية تلك الأحاسيس الرقيقة التى أنبتتها الطبيعة وغرزتها فى أعماق صدره ، والتى تبين الآن ، أنها قد قدر لها ، أن تتركز حول شخص واحد محبب جميل ..

لقد كانت الغيد الصغيرات مليحات ، وآدابهن فاتنة ، وأمزجتهن ومنازعهن مألوفة ، لا شذوذ فيها ولا نبو عما عرف من الأمزجة ، وشوهد فى مظهر العمة العانس شىء من اعتزاز واعتداد ، وفى مشيتها نذير يقول لك حذار من الاقتراب ، وفى العين روعة ، لا تخولها فى أنضر أيامها حقا يميزها عن أية أنثى وقعت عليها عين المستر طبمن فى يوم من الايام ، ولكن الجلى الواضح انه كان بينه وبينها شىء من تماثل الطباع ، وتوافق « الارواح » ، بل شىء من التشابه الغريب فى العواطف والأحاسيس ، وكان اسمها أول ما ارتفع الى شفتيه ، وهو جريح مستلق فوق الحشائش ، وكانت ضحكاتها

الهيستيرية أول صوت طرق أذنه حين حمل الى البيت ، ولكن هل كان جزعها عليه راجعا الى « حساسية » محببة ، ورقة شعور لم يكن فى الامكان مغالبته أو كبته فى أية حالة مماثلة ، أو كان مبعثه شعورا أقوى من ذلك أثرا ، واحساسا أطغى من ذلك سلطانا ، شعورا ليس فى امكان أحد من خلق الله ، أن يوقظه فى نفس امرأة وصدرها ؟

هذه هى الشكوك والهواجس التى ألحت على خاطره وهو راقد ممدد على الاريكة ، بل هذه هى الشكوك والخوالج التى إعتزم ان يقطع فيها برأى فى الحال ، ويتخذ فيها قرارا حاسما لا حول عنه الى الابد .

وكان الوقت مساء ، وقد ذهبت ايزابللا واميلى تتمشيان مع المستر ترندل ، واستولى النعاس على السيدة العجوز ، وهى فى مقعدها ، وغطيط الغلام البدين ينبعث رتيبا خافتا من المطبخ البعيد ، والجوارى البضات الغضات مسترخيات فى مقاعدهن عند الباب الجانبى يستمتعن ببهجة المساء وفتونه ، ولذة المغازلة « فى غير أثم » مع بعض الفلاحين الملحقين بالمزرعة

وفى خلوة جلس المستر طبمن والعمة العانس ، لا يعنى احد بهما ، ولا يعنيان بأحد ، ولا يحلمان الا بنفسيهما ، بل هنالك جلسا كزوج من قفاز مطوى ، متلاصقين متجاورين .

وأنشأت العمة العانس تقول : « لقد نسيت أزهارى » .

وقال المستر طبمن بلهجة الحض والاحتثاث : « هيا نسقيها الآن .. » .

وقالت هى برثاء وتلطف : « أخاف عليك ان تصاب بالبرد من هواء المساء !! »

قال وهو ينهض : « كلا ٠٠ كلا ٠٠ بل سيفيدنى الخروج ٠٠ دعينى اذهب معك »

وتمهلت الغادة لتصلح من الرباط الذى علقت فيه ذراعه اليسرى ، وتناولت ذراعه اليمنى واقتادته الى الحديقة ٠

وكانت ثمة خميلة فى الطرف الاقصى منها تحوى عيدانا من زهر العسل ، والياسمين والنباتات الزاحفة ، وهى خلوة من تلك الخلوات الحلوة التى يبنيها البشر لسكنى العناكب ٠

وتناولت العمة العانس « رشاشة » كبيرة كانت ملقاة فى ركن ، وهمت بان تغادر الخميلة لو لم يحتجزها المستر طبمن ويجرها الى مقعد قريب منه

قال : « يا آنسة واردل »

فارتجفت ، حتى لقد وجدت حصوات فى الارض طريقها عرضا الى جوف الرشاشة فاهتزت كما تهتز « شخشيخة » الوليد

وعاد المستر طبمن يقول : « يا آنسة واردل ٠٠ انــك لملك كريم » !

وصاحت راشل ، وقــد احمرت وجنتاها احمــرار لون « الرشاشة » ذاتها . : يا سيد طبمن »

وقال ذلكم « البكوكى » البليغ : « أى والله ٠٠ اننى أعرف ذلك حق المعرفة »

« غمغمت السيدة بدلال قائلة : « يقولون ان النساء جميعا ملائكة »

وأجاب هو قائلا : « اذا صح ذلك ، فماذا عسى أن تكونى « أنت » اذن ، وبأى شيء يمكن أن أقارنك ، في غير رياء أو ادعاء .. أين تلك المرآة التى تشبهك .. وأين أرجو أن أعثر على هذا المثال النادر من الابداع والجمـــال مجتمعين .. وأين تراني ملتمســـا .. أواه .. » وتمهل المســتر طبمن وراح يضغط اليد التى أمسكت بمقبض الرشاشة السعيدة .

وأمالت السيدة برأسها الى ناحيـــة ، وهمست فى رفق قائلة : « يا للرجال من غشاشين » !

وصاح هو قائلا : « انهم لكذلك .. انهم لكذلك ، ولـكن ليس الرجال جميعا بالخداعين ، بل هناك على الاقل واحد لن يتغير أو يتحول .. واحد يقنعه أن يكرس كل حياته لسعادتك .. ولا يحيا الا فى عينيك ، ولا يتنفس الا من ابتسامتك . ولا يحمل عبء الحياة الفادح الا من أجلك .. »

وقالت السيدة « أيمكن أن يكون لرجل كهذا وجود ؟؟ »

وأجاب المستر طبمن المتلهف مقاطعا : « يمكن أن يوجد .. بل هو فعلا موجود .. انه هنا يا آنسه واردل »

وقبل أن تفطن الى ماهو مقدم عليه ، راح يجثو على ركبتيه عند قدميها

وأهابت راشل به « يا مستر طبمن .. انهض ! »

وكان جوابه الجرىء « أبدا ... أواه ... ياراشل » .. وأمسك بيدها المتراخية ، فهوت الرشاشـــة الى الأرض ، فى اللحظة ذاتها التى أدنى فيها يدها من شفتيه وهو يغمغم قائلا « أى راشل . قولى انك تحبيننى »

وأجابت العمة العانس مطرقة « يامستر طيمن ، لاأكاد أقدر على قول هذه الكلمات ٠٠٠ ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنك لست بالذى لا أهتم به »

وما كاد المستر طبمن يسمع هذا الاعتراف ، حتى أخذ يفعل مايحث الانفعال الشديد على فعله وما يفعله كل انسان دائما ، اذا وجد نفسه فى مثل هذا الموقف ، وان كنا نحن قليلى المعرفة بهذه المسائل وأمثالها ٠٠٠ لقد استوى واقفا وأحاط بذراعه جيد العمة العانس ، وطبع على شفتيها عدة قبلات ، تلقتها بعد أن أظهرت طبعا ما ينبغى اظهاره من المغالبة والمقاومة ، بكل هدوء ورضى ، لا ندرى كم من عشرات القبل مثلها كان من المحتمل أن يطبعها المستر طبمن على شفتيها ، لو لم تجفل السيدة اجفالة لا تصنع فيها ، وتصرخ صرخة مروعة ، قائلة يا مستر طبمن « اننا مراقبان ٠٠ لقد اكتشف أمرنا »

فتلفت المستر طبمن حوله ، فرأى الغلام البدين واقفا جامد الحركة ، محملقا بعينيه الكبيرتين المستديرتين فى الخميلة ، وان لم يبد على وجهه أى انفعال ولا أقل تعبير ، حتى ليعجز أقدر الخبراء بعلم الفراسة ، عن تأويل ذلك بأن مرجعه الى الدهشة ، أو مرده الى الفضول ، أو الى أية عاطفة أخرى من العواطف المعروفة التى تخالج صدور البشر

ولبث المستر طبمن يجيل البصر فى وجه الغلام البدين ، وظل هذا يحملق البصر فيه ، وكلما تبين الفراغ المطلق فى سحنة الغلام ، ازداد اقتناعا بأن الغلام اما أنه لايعرف ، أو لم يفهم ، شيئا مما كان جاريا أمام عينيه ، ولهذا انثنى ، بعد هذا الاقتناع ، يقول بكل هدوء وثبات ، « ماذا جئت تريد هنا ياسيدى ؟ »



الغلام البدين يستيقظ ..

فكان جوابه على الفور « العشاء مهيأ ياسيدى »

قال وهو ينظر اليه نظرة نفاذة « هل أتيت هـذه اللحظة فقط ياسيدى ؟ »

وأجاب الغلام البدين : « فى هذه اللحظة ذاتها »

وعاد المستر طبمن يحدجه بنظرة قاســية ، فلم يلمح فى عينيه غمزة ولا اختلاجة فى معارفه

وتناول المستر طبمن ذراع العمـة العانس ومشى بها الى البيت ، وفى أثرهما انطلق الغلام البدين

وهمس لها قائلا : « انه لايعرف مما جرى شيئا » ...

وقالت العمة العجوز . « وهو كذلك » .

وسمعا صوتا من خلفهما ، يشبه صوت ضحكة مكبـوتة ، فالتفت المستر طبمن بسرعة ، ولكنه لم يستطع أن يصدق أن هذا الصوت انبعث من ذلك الغلام ، فلم تكن تبدو على وجهه بارقة من مرح أو خالجة من ضحك ... ولكن كل وجهه ينـم عن اللهفة على الطعام

وهمس المستر طبمن : «لابد من أنه كان غارقا فى النوم »

وأجابت العمة العانس : « لاشك عندى مطلقا فى ذلك . »

وضحكا من أعماقهما .

ولكن المستر طبمن كان مخطئا ، فان الغلام البدين لم يكن كما توهم غارقا فى النوم ، بل كان يقظان صاحيا ، منتبها الى كل ماجرى .

وانقضى العشاء دون أن يحاول أحد تجاذب أطراف الحديث، فأما السيدة العجوز فقد أوت الى فراشها ، ومضت ايزابيللا واردل تكرس نفسها للمستر ترندل خاصة ، بينما خصت العمة العانس المستر طبمن بكل اهتمامها ، وبدا على « املى » الانشغال بشيء بعيد ٠ ٠ ٠ لعل أفكارها كانت فى اثر سنودجراس الذى لم يعد الى الآن

ودقت الحادية عشرة ٠٠٠ والثانية عشرة ٠٠٠ والواحدة بعد نصف الليل ، ولما يصل السادة بعد ، وبدأ الذهول يستقر على الوجوه كلها ٠٠ أتراهم سطا اللصوص عليهم فى الطريق ، وهل يصح لهم أن يرسلوا بعض الخدم ومعهم المصابيح ليبحثوا عنهم فى كل مكان يرجح أنهم اتخذوا منه طريقهم الى البيت ، أم ينبغى ٠٠٠ صه ٠٠٠ ها هم أولاء قد وصلوا ٠٠ يا عجبا ما الذى أخرهم كل هذا الوقت ٠٠٠ هاهو ذا صوت غريب لم تألفه الأسماع ٠٠٠ لمن يكون هذا الصوت ؟؟٠٠٠ وبادر القوم سراعا الى المطبخ حيث ترددت الجلبة وتعالت ، فلم يلبثوا أن طالعتهم أكثر من لمحة من حقيقة الحال وواقعه

فقد بدا المستر بكوك واضعا يديه فى جيبيه ، وقبعته مرخية تماما على عينه اليسرى ، وقد استند الى « منضدة » المطبخ ، وهو يهز رأسه من جانب الى آخر ، ويرسل فيضا متتابعا من الطف وأرق الضحكات ، بلا أقل سبب ظاهر ، أو باعث معقول ، بينما راح المستر واردل ، وقد احمر وجهه أشد الاحمرار ، يمسك بكف سيد غريب ، ويرسل فيضا من عبارات الصداقة الأبدية ، أما المستر ونكل فقد أسند ظهره الى الساعة الأثرية ، وأخذ يتوعد فى كلام خافت متلعثم كل من يقترح عليه أن يأوى الى فراشه ، بتحطيم رأسه ، بينما

تهالك المستر سنودجراس على مقعد ، وهو فى أسوأ حال من التعب والعجز والسكر يمكن أن يتصورها الخاطر ، وقد بدت بكل علاماتها واماراتها فى كل ناحية من معارف صفحته المعبرة

وراحت السيدات الثلاث يسألن قائلات : « ما الخبر ؟ هل من شيء يستوجب الاهتمام ؟ »

فأجابهن المستر بكوك قائلا . « لاشيء ... اننا كلنا .. بخير .. يامستر واردل .. ألسنا بخير ؟ »

وأجاب الرجل المراح قائلا : « أظن ذلك .. ياعزيزاتى ، أقدم اليكن صديقى المستر جنجل ... صديق المستر بكوك وقد جاء فى زيارة قصيرة »

وسألت املى فى قلق شديد : « هل من شيء ألم بالمستر سنوجراس ياسيدى »

وأجاب الغريب : « لاشيء يستوجب الاهتمام ياسيدتى .. عشاء بعد الكريكت ... حفلة باهرة ... أغان « مفتخرة » نبيذ معتق .. نبيذ جيد ... جدا ياسيدتى . نبيذ .. ! »

وغمغم المستر سنودجراس بصوت متقطع : « لم يكن النبيذ هو السبب .. بل سمك السلمون

وفى هذه الحالات لايكون الذنب للنبيذ ، ولكن الذنب للسلمون »

وانثنت املى تقول : « ألا يحسن أن يذهبوا الى فراشهم ياسيدتى ... وليحمل اثنان من الغلمان السيد الى مخدعه .. »

وقال المستر ونكل بعناد : « لن أذهب الى الفراش »

وقال المستر بكوك بقوة وجرأة ، وهو لايكف عن الضحك والابتسام : « لن يحملنى فى هذه الدنيا غلام » ...

وقال المستر ونكل مخافتنا لاهثا « مرحى ! »

وردد المستر بكوك الصدى بقوله « مرحى ! » ومضى ينزع قبعته عن رأسه فألقى بها على الارض ورمى فى جنة منظاره فى وسط المطبخ ، وهو من هذه الفعلة المجونية ضاحك مقهقه

وشرع المستر ونكل يصيح فى نغمة عالية ، ثم يخفضها « لنشرب زجاجة ... أخرى ! »

وهوى رأسه الى صدره ، وتمتم مكررا عزمته الغلابة على أن يظل ساهرا ، لايأوى الى فراشه ، ويعبر عن أسفه الصادق على ما فرط منه فى حق طبمن فى الصباح ، وهبط وادى الكرى سريعا ، فحمله وهو على هذه الحال الى فراشه شابان عملاقان تحت اشراف الغلام البدين بنفسه ، ولم يلبث المستر سنودجراس أيضا أن ترك له العناية به وتقبل المستر بكوك ذراع المستر طبمن المبسوطة اليه وتوارى فى هدوء ، وهو أشد من قبل ابتساما وأكثر ضحكا ، واما المستر واردل فبعد أن ودع أفراد الأسرة كلها وداعا أليما ، كأنه قد أمر بأن يساق الى المشنقة فى الحال ، ترك للمستر ترندل شرف حمله الى الطبقة العليا من البيت ، وأوى الى فراشه ، بعد محاولة فاشلة فى سبيل التظاهر بكل مايقتضيه الوقار والجد

وقالت العمة العانس : « ياله من منظر بشع ! »

وقالت الفتاتان معا : « ويثير الاشمئزاز .. »

وقال المستر جنجل : « مخيف ..مروع .. » ، وهو يبدو

رزينا متزنا ، وكان قد سبق صحابه بزجاجة ونصف زجاجة، ومضى يقول : « منظر شنيع ·· جدا ·· »

وهمست العمة العانس للمستر طبمن : « يا له من رجل ظريف ! »

وهمست ايزابللا واردل كذلك : « جميل الملامح أيضا »

وقالت العمة العانس : « بلا شك »

وتذكر المستر طبمن عندئذ واقعة الحال مع أرملة روشستر، فانشغل باله ، واضطرب خاطره ·

ولم يفد الحديث الذى تلا ذلك ، واستغرق نصف ساعة فى تهدئة هواجسه ·

وطفق الزائر الجديد يكثر من الكلام ، ولم تكن حكاياته ونوادره ليفوقها شيء ، غير أدبه الجم ، ولطفه المتناهى · وأحس المستر طبمن أنه كلما ارتفعت مكانة « جنجل » فى القلوب ارتد هو الى الظل ، وفقد موضعه ، فظل ضحكه مفتعلا ، ومرحه مصطنعا ، وحين وضع صدغيه أخيرا بين أطواء لحافه وأغطيته ، مضى يتصور فى سرور شنيع مدى الاغتباط الذى كان يشعر به ، لو أنه استطاع فى تلك اللحظة أن يدس رأس « جنجل » بين الفراش الريشى والحشية ليخنقه خنقا ·

واستيقظ الغريب الذى لا يعرف الكلال ، ولا ينتابه الاعياء ، مبكرا فى الصباح ، ولا يزال رفقاؤه فى مراقدهم من أثر افراطهم فى الليلة البارحة ، ومضى ينشط ويؤدى من الحركات الرياضية ما يزيد فى بهجة مائدة الفطور ولذة الطعام ، وكانت محاولاته وجهوده موفقة ناجحة الى حد جعل

السيدة العجوز الصماء تلح عليه أن يحكى لها نادرة أو نادرتين من أحسن نوادره من خلال جهاز سمعها ، بل لقد تنزلت من عليائها لتقول للعمة العانس انه ـ أى « جنجل » ـ فتى جسور لا يعرف الحياء ·· وهو رأى وافقت عليه كل ذوات قرباها الحاضرات وأقررنه على الأثر ·

وكان من عادة السيدة العجوز فى كل صباح صاف فى فصل الصيف أن تذهب الى الخميلة ، التى كان السيد طبمن قد انكشف فيها أمره · وقد بدأ الغلام البدين باحضار قبعة صغيرة من الحرير الأسود اللون كانت معلقة فى مشجب خلف باب مخدع السيدة العجوز ، ثم جاء بلفاعة كثيفة من القطن ، وعصا غليظة ذات مقبض كبير ، وما أن وضعت السيدة العجوز القبعة على رأسها ، وتلفت بلفاعتها على مهل ، واتكأت على العصا باحدى يديها ، وبالاخرى استندت الى كتف الغلام البدين ، ومشت الهوينا الى الخميلة ، حيث اعتاد الغلام أن يتركها لتستمتع باستنشاق النسيم العليل نصف ساعة أو نحوه ، فيعود أدراجه اليها ويسير بها عائدة الى البيت ·

وكانت السيدة العجوز دقيقة فى ملازمة هذه العادة ، ومعنية بكل دقائقها وجزئياتها ، وقد انفرطت ثلاثة أعوام متوالية ، وهى فى كل صيف تجرى عليها ، فلم تنحرف يوما أقل انحراف عن شىء منها ، فلا عجب اذا هى أحست ببعض الدهشة فى ذلك الصباح بالذات حين رأت الغلام البدين لم ينصرف من الخميلة ، بل خطا بضع خطوات ، ثم تلفت بحذر حوله فى كل ناحية ، وعاد يمشى نحوها مختلسا الخطى ، فى شكل يثير أشد العجب ·

وشعرت السيدة العجوز بوجل ·· وأوجست خيفة ـ وكل

العجائز أبدا موجسات ـ وكان أول خاطر تبادر الى ذهنها ان الغلام المتورم يريد أن يمسها بأذى بالغ لينتزع النقود الصغيرة التى لديها ، وكانت توشك أن تصرخ طالبة النجدة ، لولا أن الكبر والعجز قد أفقداها من زمن بعيد القـدرة على الصراخ ، فقنعت بمراقبة حركاته ، وهى فى رعب شديد ، لم يلبث أن ازداد حين رأته يقترب كثيرا منها ، ويصيح فى أذنهـا بلهجة مضطربة ، وان بدت لها هى متوعدة مهددة ٠

« ٠٠ يا سيدتى ٠٠! »

واتفق فى تلك اللحظـة ان كان المستر جنجل يتمشى فى الحديقـة بجوار الخميلة ، فسمع صيحة الغـلام لها ، فوقف ليستمع الى مزيد ، وكانت لوقوفه واستراقه السـمع ثلاثة أسباب ، أولا أنه كان خاليا من كل عمل ، وفضوليا ، وثانيا أن مثله لا يعرف التردد مطلقا ولا وخز الضمير ، وثالثا وأخيرا، أنه كان فى خفية عن الانظار خلف بعض الزهر وقصار الشجر ٠

هنالك وقف ٠٠ وهنالك أرهف السمع ٠

وعاد الغلام البدين يصيح : « يا سيدتى ! »

فأجابت السيدة العجوز وهى راجفة : « ايه يا جو ٠٠ لقد كنت لك يا جو سيدة كريمة حانية ، وقد أحسنت اليك أبدا وأكرمت مثواك ، ولم تكلف يوما بعمل يفدحك ، وكان لك من الطعام القسط الوفير »

وكانت هذه العبارة الأخيرة مناشدة منها لأشـد حواس الغلام البدين تأثرا ، فبدا ذلك عليه ، فراح يجيب مؤمنا عليها: « أعرف ذلك حقا ٠٠ »

وانثنت العجوز وقد استردت بعض الشجاعة تقول : « اذن ماذا تريد أن تفعل الآن ؟ »

قال : « أريد أن أجعل بدنك يقشعر ٠٠! »

وبدا هذا القول منه تعبيراً عن عرفانه للجميل شبيها بتعبير انسان متعطش للدم ، فلم تفهم السيدة العجوز تمـاما ما هى الوسيلة التى يريد ان يستعين بها للوصول الى هذه النتيجة ، وعاودها رعبها السابق ٠

وراح الغلام البدين يسألها قائلا : « ماذا تظنين انى رأيته فى هذه المظلة الليلة البارحة ؟ »

قالت وهى فزعة من هذه اللهجة الجديدة ، التى اتخذها ذلك الغلام السمين : « يا ويحى ٠٠ ماذا رأيت ٠٠؟ »

قال مترددا : « السيد الغريب ٠٠ الذى جرحت ذراعه ٠٠ وهو يقبل ويحتضن ٠٠٠ »

فعاجلته مقاطعة : « من يا جو ٠٠؟ أرجو ان لا تكون خادما من خدم البيت »

وزأر الغـــلام البدين فى أذن العجوز : « بل شر من ذلك وأدهى ٠ »

قالت : « أأحدى حفيداتى ٠٠؟ »

قال : « أسوأ من ذلك وأدهى ٠ »

قالت وقد ظنت ذلك أقصى حدود الفظاعة البشرية : « أتقول: شر من ذلك وأدهى ؟٠٠ من تكون اذن ٠٠ يا جو ؟٠٠ أصر على أن أعرف ٠ »

تلفت الغلام البدين بحذر حوله ، وراح يصيح ، بعد أن انتهى من الحيطة واطمأن : « مس راشل »

وعندئذ صرخت السيدة العجوز بصوت صافر قائلة : « من هى ؟ ارفع صوتك قليلا »

وصرخ الغلام البدين فى أذنها : « مس راشل ! »

قالت : « ابنتى ! »

وراحت آلايماءات المتتابعة التى أومأها الغلام اللحيم ، يعبر بها عن الموافقة ، تحيل خديه السمينين أشبه بالفالوذج المترجرج •

وعادت السيدة العجوز تقول : « وهل كانت راضية منه بما فعل ؟ »

وقال الغلام البدين ، وقد تسللت بسمة مومضة الىقسمات وجهه : « لقد رأيتها هى أيضا تقبله »

ولو استطاع المستر جنجل من مخبئه ، أن يشهد وجه السيدة العجوز ، وما علاه فى تلك اللحظة ، عند سماعها هذا النبأ ، لانفجرت منه على الأرجح ضحكة مدوية تنم عنهوتكشف عن مختبئه بجوار تلك العريشة ، ولكنه ظل مصغيا مرهفا أذنيه ، فسمع عبارات متقطعة كقولها : « بدون اذنى •• وفى هذه السن التى وصلت اليها •• وأنا عجوز مدبرة •• كان أولى بها أن تنتظر حتى أموت » •• وعندئذ سمع مواقع حذاء الغلام البدين ومواطئه فوق الحصباء ، وهو منصرف تاركا السيدة العجوز وحدها •

ولعل من أعاجيب المصادفات ، وان كان هو الواقع ، أن

المستر جنجل كان بعد خمس دقائق من وصوله الى « ضيعة مانور » فى الليلة الماضية قد اعتزم فى أعماق نفسه أن يضرب حصارا فى الحال حول قلب تلك العمة العانس ، فقد كان له من الفطانة مايكفى لكى يتبين أن طريقته المرتجلة كانت مستحبة لدى موضع هجومه ، ومركز حصاره وكان يساور نفسه شىء أقوى من مجرد الظن أنها تملك أحب مايقتنى فى هذه الدنيا وأعز ما يملك .. وهو .. المال .. فلم تلبث أن خطرت له فكرة العمل السريع الملح على ازالة منافسه من طريقه بأية وسيلة ، فاعتزم فى الحال اتخاذ خطط معينة ، تؤدى الى تحقيق هذا الهدف ، دون اضاعة لحظة واحدة ، وقد رأينا فيلدنج (١) يقول لنا ان مثل الرجل كمثل نار ، والمرأة كمثل قطعة صوف ، وان أمير الظلام ـ أى ابليس ـ هو الذى يحكمها فيحدث ضوءا ، ويبعث وهجا . ولم يكن يخفى على المستر جنجل أن الفتيان للعمات العوانس كالغاز المستعمل للبارود ، فانتوى أن يبادر الى تجربة مدى الانفجار وأثره

ومضى فى زحمة نفسه بالافكار والخواطر ، بعد هذا القرار الخطير الذى اتخذه ، يتسلل من مخبئه متسترا بالشجر ، حتى اقترب من البيت ، والظاهر أن الحظ كان له حليفا ، فقد تبين أن المستر طبمن والسادات الآخرين قد غادروا الحديقة ، من الباب الخلفى فى تلك اللحظة بالذات التى دخلها فيها ، وعرف أن الفتاتين قد خرجتا وحدهما ، عقب تناول الافطار مباشرة ، وأن الجو خال ، والظروف مواتية .

ورأى باب قاعة الافطار مفتوحا قليلا فأطل منه ، فوجد

---

(١) كاتب انجليزى معروف

العمة العانس تغزل ، فسعل ، ورفعت بصرها اليه وابتسمت، ولم يكن التردد من خلقه ، فوضع أنملته فوق شفتيه بشكل غامض ، وحركة مجهولة ، وتقدم فأغلق الباب

قال في جد مصطنع : « اغفرى لى يامس واردل تطفلى على قصر العهد بتعارفنا ··· لامتسع من الوقت للكلفة ··· لقد اكتشفت الأمر كله » ·

وقالت العمة العانس بشيء من الدهشة لمباغتته وظهوره على تلك الصورة الفجائية وبعض الشك في سلامة عقله : « سيدى ! »

قال وهو يهمس همسة مسرحية : « صه ··· الغلام البطين ··· ذو الوجه الطرى كالفطير ··· المستدير العينين ··· الوغد الأثيم ··· ! »

وهنا هز رأسه هزة معبرة ، فاضطربت العمة العانس وتولاها الوجل ·

قالت وهى تحاول جاهدة اصطناع الهدوء : « اظنك تقصد جوزف ياسيدى ؟؟ »

قال : « نعم ·· هو جو ذلك اللعين ··· ذلك الكلب الضخم جو ··· لقد أبلغ السيدة الكبيرة ··· السيدة الكبيرة مغضبة ··· حانقة ··· هاذية ··· العريشة ··· طبمن يقبل ويحضن ··· وكل الأشياء التى من هذا القبيل ··· ايه ·· ياسيدتى ··· ايه ؟ »

قالت : « اذا كنت قد أتيت الى هنا يامستر جنجل لتهينني »

وأجاب جنجل الصفيق : « لا اطلاقا ··· بتاتا ··· لقد

سمعت القصة ٠٠٠ جئت لأحذرك من الخطر ٠٠٠ أقدم خدماتى ٠٠٠ لأمنع الثرثرة ٠٠٠ لا بأس ٠٠ ظنيها اهانة ٠٠٠ سأغادر الحجرة ٠ »

واستدار كأنما يريد أن ينفذ وعيده

فانفجرت العمة العانس باكية وهى تقول : « ماذا أفعل ؟ ان أخى سيغضب وسيشتد حنقه ٠ »

وقال المستر جنجل : « بالطبع سيغضب » ٠٠٠ وتمهل هنيهة ، ثم عاد يقول : « بل سيتهيج ويحنق لعرضه »

وصاحت العمة العانس فى نوبة أخرى من اليأس : « أواه يامستر جنجل ، ماذا يمكن ان أقوله له ؟ »

قال بكل برود : « قولى ان الغلام البدين كان يحلم ٠ »

فلم تكد تسمع هذا الاقتراح حتى خطف شعاع من أمل فى خاطرها ، ولاحظ المستر جنجل ذلك ، فاستغله لمصلحته فاستتلى قائلا : « ما أسهل هذا وما أيسر !٠٠ غلام خبيث ٠٠ امرأة جميلة ٠٠٠ الغلام البدين سوف يساط ٠٠٠ وتنتهى الحكاية ٠٠٠ بسلام ٠ »

ولسنا ندرى هل سر العمة العانس رجحان كفة نجاتها من عواقب هذا الاكتشاف الذى حدث فى أسوأ الاوقات ، أو خفف وصفه لها بقوله « امرأة جميلة » من حدة غمها ، ولكنا نعلم أنها شعرت بشىء من الخجل وراحت تلقى على المستر جنجل نظرة شكر ورنوة عرفان

وتنهد ذلك السيد الذى أوحى بالفكرة وأرسل زفرة من

أعماقه ، ونظر مليا الى وجــه العمة العانس ، وأجفل اجفــالة مسرحية ، ثم استرد عينيه فجأة

وقالت العمة العانس فى نغمة حانية : « يلوح لى يامستر جنجل أنك لست سعيدا،فهل تسمح لى بأن أبدى لك عرفانى ؟ لتدخلك الكريم ، بأن أسأل عن سبب حزنك ، والعمــل اذا أمكن على ازالته »

فأجفل المســتر جنجل اجفالة أخــرى وقال : « ها ··· ازالتــه ··· ازالة حزنى ··· وأنت تخلعين حبك على رجل لايدرك هذه النعمة ولا يقدرها حق قدرها ··· رجل يفكــر الساعة فى كسب رضى ابنة أخى الانســانة التى ··· ولكن لايصـــح لى أن أتكلم ··· انه صــديقى ··· ولست أريد أن أكشف النقاب عن مساوئه ·· يامس واردل ··· وداعا ! »

ولم يكد يتم كلماته هذه ، وهى الكلمات الوحيدة المتصلة المتتابعة التى عرف يوما عنه أنه فأه بها ، حتى رفع الى عينيه بقايا منديل لاحظناه من قبل ، والتفت ناحية الباب

وأهابت به العمة العجوز « قف يامستر جنجل · لقد لمحت عن المستر طبمن تلميحا معينا ، فأشرحه · »

قال بلهجة المحترفين ، أى الممثلين : « أبدا ··· أبدا ··· » ولكى يظهر أن لارغبة له فى أن يسأل سؤالا آخر ، راح يسحب كرسيا ويدنيه من مجلس العمة العانس ويستوى فوقه ·

وقالت العمــة العانس : أتوســل اليك يامستر جنجــل وأتضرع ··· اذا كان هنـــاك سر مخيف يتصل بالمســتر طبمن ··· فاكشفه »

فالقى بنظرة على وجه العمة وأنشأ يقول : « وهل أستطيع ·· هل أستطيع أن أرى ··· مخلوقة محببة ··· تقدم على مذبح ··· الجشع المجرد من الاحساس ؟ · »

وتظاهر بأنه يغالب عدة انفعالات متعارضة بضع لحظات ، ثم انثنى يقول بصوت خافت أجش : « ان طبمن لا يريد منك الا ··· مالك ! »

فصاحت العانس بغضب شديد قائلة : « ياله من وغد »

وهنا تبددت شكوك المستر جنجل ··· لقد عرف أنهاتملك مالا ··· فاسترسل يقول : « وفوق هذا يحب أخرى »

وصاحت العانس : « أخرى ··· ومن تكون ؟ »

قال : الفتاة القصيرة ··· ذات العينين السوداوين ··· ابنة الأخ ··· أملى »

وساد سكون ···

ولو أن فى العالم كله انسانا واحدا كانت العمة العانس تكن له كراهية مميتة ، وتطوى الجوانح على غيرة متأصلة منه ، لكان هذا الانسان هو ابنة الأخ تلك بالذات ، فلا عجب اذا تغير فى الحال وجهها وغمر الاحمرار عنقها ، وراحت تطوح برأسها فى صمت واحتقار يفوق كل وصف ·

وأخيرا أنشأت تقول ، وهى تعض شفتيها وتكبح جماح حقدها : « هذا لايمكن · لا أصدق · »

قال : « راقبيهما · »

قالت : « سأفعلن · »

قال : « وراقبى نظراته »

قالت : « انى لفاعلة »

ـ « وهمساته »

ـ « سأفعل • »

ـ « وسيجلس بجانبها الى المائدة • »

ـ « فليجلس • »

ـ « وسيتملقها • »

ـ « ليتملقها ؟ »

ـ « وسيبدى لها كل عناية ممكنة • »

ـ « دعه • »

ـ « وسيجفوك • »

وهنا صاحت العمةالعانس قائلة : « يجفونى •• يجفونى ، وهل تراه فاعلا ؟ » ورجفت من شدة الغيظ وخيبة الأمل

قال : « وستقتفين نفسك بنفسك »

قالت : « لافعلن » •

قال : « وهل ستظهرين له روحك ؟ »

قالت : « وانى لفاعلة • »

ـ « ولن تكون لك به صلة بعد ذلك »

ـ « أبدا »

ـ وستتقبلين : « أحدا آخر ••• »

ـ « نعم »

ـ « حقـا • »

وراح المستر جنجل يجثو عند قدميهـا ، ولبث طـويلا فى جثوته ، حتى نهض حبيبا مقبولا عند العمة العانس على شرط

واحد ‥ وهو أن تظهر خيانة المستر طبمن جلية واضحة

وكان عبء الاثبات من واجب المستر الفرد جنجل ، فمضى يبرز الدليل فى ذلك اليوم بالذات على مائدة الغداء ٠

وكادت العمة العانس لاتصدق عينيها ، حين رأت المستر تراسى طبمن يجلس بجـــانب « املى » يرنو اليها ، ويهمس ويبتسم ، « أغاظة » فى المستر سنودجراس ، فلم يوجه كلمة ولا نظرة ، ولا رنوة واحدة الى التى كانت موضع معزته وحبه فى المساء المنصرم

وجعل المستر واردل يقول لنفسه : « لعنـــة الله على ذلك الغلام ٠ لقد سمع هذه القصة من أمه ‥ لعنة الله عليــه ‥ كان نائما بلا شك ٠٠٠ ذلك كله من نسج الخيال ٠

وكانت العمة العانس فى تلك اللحظة ذاتها تقول لنفسها : « ياللخائن ، لم يخدعنى المستر جنجل العزيز ٠٠٠ أوه ، كم أنا لذلك الشقى الأثيم كارهة ! »

ولعل فى الحديث الذى نحن هنا موردوه شرحا كافيا لسر هذا التحول الغريب فى ظاهره ، الذى بدا من جانب المستر تراسى طبمن

كان الوقت مساء ، والمنظر فى الحديقة ، وكان هناك شبحان يسيران فى طريق جانبى ، أحدهما أميل الى القصر والبدانة ، والآخر أدنى الى الطول والنحول ٠ وكان الرجلان هما المستر طبمن ، والمستر جنجل

وبدأ الرجل البدين الحوار ٠

قال : « لست أدرى كيف فعلت ذلك ؟ »

وأجاب الآخر « بديع ··· مفتخر ··· لو كنت فى مكانك لما فعلت أحسن من ذلك ولا أفضل ··· لتكرر الدور عينه غدا ··· وفى كل مساء ··· الى حين صدور تعليمات أخرى »

قال : « وهل تريد راشل منى أن أثابر ؟؟ »

قال : « بالطبع ··· وان كان ذلك على الرغم منها ··· ولكن لابد مما ليس منه بد ··· لتحويل الأنظار ··· وازالة الشبهات ·· خائفة من أخيها ·· تقول انه لاحيلة غير ذلك ·· وان يستمر عدة أيام قليلة لاأكثر ··· وعند ماتعمى أبصار الكبار فى السن هنا ··· تقدم فتوج سعادتك باكاليل الانتصار · »

قال : « أو لم تحملك الى رسالة ما ؟ »

قال : « حب · أعز الحب وأغلاه · أزكى التحيات ··· وفاء ثابت لايتغير ··· فهل أقول لها عنك شيئا ؟ »

قال : « لاشىء سوى أن تبين لها كم أنى مشوق متلهف للخطة التى أستطيع فيها أن أدعوها « مليكتى » ، ولا تبقى ضرورة لكل هذا التصنع والرياء · »

قال : « بلا شك ··· بلا شك ··· لديك مزيد أحمله اليها ؟ »

وهنا تناول المستر طبمن المسكين يد صاحبه وهو يقول : « أواه ياصديقى ·· لك منى أصدق الشكر على كريم عطفك المبرأ من الغرض ، واغفر لى ان كنت قد ظلمتك ولو كان ذلك الظلم مجرد تفكير مر بخاطرى فظننتك مزاحمى أو قائما فى

طريفى ··· أيها الصديق العزيز ، هل يتاح لى يوما أن أرد اليك هذا الجميل ؟ »

فأجاب المستر جنجل قائلا : «لاتتكلم عن ذلك ولا تتحدث» وأمسك عن القول كأنما قد تذكر شيئا فجأة ثم مضى يقول : « والشيء يذكر بالشيء ··· هل معك عشرة جنيهات أنت فى غنى عنها ؟ ··· لى غرض معين أريد تنفيذه · · · وسأردها اليك فى غضون ثلاثةأيام »

وقال المستر طبمن من صميم قلبه : « أظن معى ·· أقلت بعد ثلاثة أيام ·· »

قال : « بعد أيام ثلاثة ليس أكثر ··· انتهى كل شيء على مايرام ·· لاحوائل أخرى ولا صعاب »

ومضى المستر طبمن يعد النقود فى كف صـــاحبه ، وجعل هذا يدسها قطعة قطعة فى جيبه ، وهما يسيران صوب البيت·

وقال جنجل : « حذار ··· ولا نظرة واحدة · »

وأجاب المستر طبمن : « ولا رنوة حتى · »

ـ « ولا مقطعا من كلمة » ·

ـ « ولا همسة هامس »

قال : « بل ليكن كل اهتمامك منصرفا الى بنت الأخ ··· وأظهر بعض الجفوة للعمـــة على الأقل ·· على سبيل تضليـــل العجائز الآخرين · »

قال بصوت مرتفع : » سأحاذرن «

وقال المستر جنجل فى نفسه : « وسأحاذر أنا أيضا »

ودخلا البيت ٠

وتكرر مشهد ذلك الاصيل فى ذلك المســاء ، والاصــائل والليالى الثلاث التالية ، حتى اذا كان مســاء اليــوم الرابع ، بدا رب الدار منشرح الصدر ، رائق المزاج ، اذ اقتنع أن ما ادعى على المستر طبمن لا أساس له ، كما كان هــــذا الأخير مغتبطا راضيا لان المستر جنجل أبلغه أن مسألته لاتلبث أن تنتهى ، وكذلك بدا المستر بكوك ، وهو قلما يبدو عكس ذلك، والمستر سنودجراس أيضا ، لانه بدأ يغار من المســتر طبمن والسيدة العجوز لأنها كسبت فى لعبة « الويست » ، وبالمثل كان المستر جنجل ومس واردل ، لاسباب ذات بال فيمايتصل بهذا التاريخ الملىء بالاحداثحتى يصح أننفرد لشرحها الفصل التالى ٠

الفصل التاسع

اكتشاف ومطاردة

كان العشاء قد أعد فوق الخوان ، وصفت المقاعد من حوله ، ونسقت الزجاجات والجرار والأقداح فوق النضد الجانبى ، وكان كل شيء يشير الى اقتراب أبهج فترة فى الساعات الأربع والعشرين كلها

وسأل المستر واردل : « أين راشل ؟ »

وأضاف المستر بكوك قائلا : « أى والله وأين جنجل ؟ »

وقال رب الدار عجبا : « لم يغب لحظة قبل الآن عن ناظرى غريب حقا ، لست أحسبنى قد سمعت له صوتا منذ ساعتين على الأقل · ياعزيزتى اعلى دقى الجرس »

ودق الجرس ، وظهر الغلام البدين ·

وسئل : « أين مس راشل ؟ » وكان جوابه أنه لايدرى

وقيل له : وأين المستر جنجل اذن ؟ فقال انه لا يعرف

وبدت الدهشة على الجميع وكانت الساعة متأخرة قدجاوزت الحادية عشرة ، وضحك المستر طبمن فى سره ، فقد كان وحده

الذى يعـرف أنهما ذهبـا يتمشيان فى مكان ما ، ويتحـدثان عنه ··· ها ·· ها ··· فكرة بديعة هذه ··· ومضحكة

وأنشأ المستر واردل بعد لحظة سكون يقول : « لابأس ·· لن يلبثا أن يظهرا ·· والحق أقول اننى لا أطيق انتظار أحد على العشاء · »

وقال المستر بكوك:هذه قاعدة بديعة···خليقة بالاعجاب·»

وقال المضيف : « تفضل بالجلوس · »

وأجاب المستر بكوك قائلا : « بالتأكيد · »

واتخذ الى المائدة مجلسه ·

وكان فوق الخوان كتلة ضخمة من لحم البقر البارد ، وقدمت الى المستر بكوك حصة وفيرة منها ، ولكنه ماكاد يرفع الشوكة الى شفتيه ويهم بفتح فمه لتلقى قطعة من اللحم ، حتى ارتفعت فجأة أصوات مختلطة منجانب المطبخ،فأمسك ووضعشوكته ، وتمهل المستر واردل أيضا ، وأرخى قبضته على السكين وهو لايعى ، فبقيت مغروزة فى كتلة اللحم ، ونظر الى المستر بكوك ونظر المستر بكوك اليه ·

وسمعت مواقع أقدام ثقال فى الردهة ، وانفتح البابفجأة، واذا ذلك الرجل الذى مسح حذاء المستر بكوك عند مقدمه قد اندفع الى القاعة ، يتبعه الغلام البدين وبقية الخدم ·

وصاح رب الدار بهم : « ما معنى هذا ؟ ويحكم ! »

وسألت السيدة العجوز حفيدتها : « هل شب حريق فى المطبخ يا املى ؟ »

وصرخت الفتاتان معا : « ياآلهى ··· ياجدتاه ·· كلا ·· لاقدر الله »

وزأر رب الدار قائلا : « ما الخطب ؟• وما الامر ؟ »

ووقف الرجل يحاول استعادة أنفاسه ، وانثنى يقول بصوت خافت : « لقد ذهبا يامولاى ••• هربا ياسيدى »

ولوحظ فى هذه اللحظة أن المستر طبمن وضع الشوكة والسكين من يديه وارتد شاحبا مبهورا •

وسأل المستر واردل الرجل بحدة : «من هما اللذان ذهبا؟»

قال : « المستر جنجل ومس راشل ••• فى مركبة منفندق الأسد الازرق فى ماجلتون • لقد كنت هنالك ، ولكنى لم أستطع الامساك بهما ، فأسرعت الى هنا لابلاغكم •• »

ولم يكد المستر طبمن يسمع هذا النبأ حتى نهض من المائدة مذعورا هائجا ، وقال : « لقد ذهب على حسابى ••• أخذ نفقة السفر منى ••• لقد أخذ منى عشرة جنيهات • أمسكوه ! » لقد نصب على واحتال ، لا يمكن أن أحتمل هذا ، العدالة يا مستر بكوك ، لن أحتمل هذا مطلقا »

ومضى المسكين فى هذهالصيحات المتقطعة • وأمثالها يلف ويدور حول نفسه ، وحول القاعة ، وهو فى جنة •

وصاح المستر بكوك،وهو ينظر الى حركات صديقه الغريبة بدهشة مروعة « ياحفيظ يارب ! لقد جن ، فماذا نصنع ؟ »

وقال الشيخ المضيف البدين ، ولم يكن قد ألقى باله الى شىء ، غير هذه العبارة الأخيرة : « ماذا نصنع ؟ نشد الحصان الى المركبة ، ونستأجر أخرى من فندق الأسد الأزرق ، ونطاردهما بغير توان•أين ؟ » وقد صاح بهذه الكلمة الأخيرة ، بينما كان الرجل قد انطلق لينفذ الأمر ــ وعاد يصيح قائلا : « أين ذلك الوغد جو ؟ »

وأجاب صوت يقول : « أنا هو ولكنى لست وغدا • »
وكان ذلك صوت الغلام البدين •

وصرخ الشيخ وهـو يندفع نحو ذلك الغـلام المنحوس : « دعنى أنقض عليه يابكوك • لقد رشاه ذلك المجرم جنجل ، ليصرف أنفى عن اشتمام الحقيقة ، باختلاقه حكاية سخيفة عن اختى وصديقك طبمن • »

وهنا هبط المستر طبمن فى جوف أحـد المقاعد : « دعنى أنقض عليه »

وصرخت النساء : « لاتدعه يذهب وحده انه سـيقتل اذا الغلام البدين واجهاشاته بالعبرات كانت أعلى وأوضـــح من صرخاتهن • »

وصاح الشيخ : « لا يمنعنى أحد •• يا مستر ونكل ، أرفع يديك عنى وأنت يامستر بكوك اتركنى من فضلك ياسيدى »•

وكان مشهدا جميـــلا فى وسط تلك الجلبة والأصـوات المختلطة ، أن يرى المرء ذلك التعبير الهادىء الفلسفى الذى بدا على وجه المستر بكوك ،وقد احمر قليلا من الاجهاد ، وهـــو واقف وذراعاه محيطتان بقوة حول خصر مضيفـه البـدين ، وبطنه الرحيب ، ليكبح جمـاح غضبه ، ويحتجـزه عن ايذاء الغلام البدين ، بينما تكاثرت السيدات جميعـا على الغـلام فأوسعنه خدشا ، وجذبا ، وجررنه جرا ، ودفعنه من القاعة دفعا ، وما أن أرخى المستر بكوك قبضته حتى دخل الرجل ليعلن أن المركبة قد أعدت

وصرخت النساء جميعا قائلات : « لاتدعه ، ولكن صيحات ترك لغضبه »

وهنا قال المستر بكوك : « سأذهب معه »

وقال المضيف ، وهو يتناول يده : « انك لرجل كريم يابكوك ، املى ، أعطى المستر بكوك لفاعة يلقيها حول رقبته ، وعجلى ٠٠ ويابنات ، خذن بالكن من جدتكن لقد أغمى عليها٠ والآن هل أنت على استعداد ؟ »

وراح المستر بكوك فى عجلة يلف فمه وذقنه فى لفاعة كبيرة ، ويضع قبعته على رأسه ، ويلقى بمعطفه الكبير على ذراعه ، حتى اذا انتهى من ذلك كله ، أجاب بالايجاب

ووثبا الى العجلة ، وصاح رب الدار : « أطلق لها العنان ياتوم » ، وانطلقا يقطعان الأزقة والدروب الضيقة والعجلة تهتز وتعلو وتهبط ، وهى مارقة فوق الأخاديد ، تصطدم بأسوار العوسج على كلا الجانبين ، كأنما توشك أن تتكسر اربا فى كل لحظة ٠

وصاح واردل حين وصلوا الى باب فندق الأسد الأزرق : وقد رأى جمعا قليلا قد وقفوا حوله على الرغم من أن الوقت كان متأخرا : « كم من الوقت ترونهم سبقونا ؟ »

فكان جواب الجميع : « ليس أكثر من ثلاثة أرباع ساعة ٠»

وصرخ الشيخ : مركبة وأربعة خيول فى الحال ٠ هيا ، أسرعوا ، ودعوا العجلة لتدخلوها فيما بعد »

وصاح رب الفندق : « والآن يا اولاد : « مركبة وأربعة خيول فى الحال ، عجلوا ، شيئا من الهمة ٠ هلموا »

وجرى رب الفندق وخدمه سراعا مبادرين ، وأنوار « المصابيح » لماحة ، وهم يروحون بها ويغدون ، وسمعت حوافر الخيل وهى تدق أرض الفناء غير المستوية ، وجاءت المركبة من المرابط رجراجة ، والمكان يعج جلبة وحركة ٠

وصاح واردل قائلا : « هيه ... أليست المركبة آتيـــة الليلة ؟ »

وأجاب رب الفنـدق قائلا : « انهـا تقطع الفنـاء اللحظة ياسيدى . »

وجاءت المركبة ، وشـدت الخيـل ، وفوق صهواتهـا وثب الأولاد ، وفى جوفها دخل الراكبان .

وصاح واردل : « افهموا . سبعة أميال فى أقل من نصف ساعة . اجعلوا هذا نصب أعينكم . هيا انطلقوا . »

وأعمـل الاولاد السوط والمهماز ، وسـط صراخ الخـدم وصاحب الفندق ، وانطلقت المركبة سريعة مغضبة هائجة

وأنشأ المستر بكوك يحدث خاطره ، حين وجد لحظة تتسـع للتفكير : « موقف حرج ، للرئيس العام لنادى بكوك ، مركبة رطبة ، خيل غريبة ، خمسة عشر ميلا فى الساعة ، والساعة الثانية عشرة ليلا ! »

ولم يتبادل السيدان كلمة واحدة ، خلال الأميال الثلاثة أو الأربعة الاولى ، فقد كان كل منهما مستغرقا فى أفكاره ، منشغلا بهواجسه وخواطره ، حتى لايجد شيئا يمكن أن يقوله لصاحبه ، ولكن حين اجتازا هذه المسافة من الرحلة ، وبدأت الخيل تستحث وتؤدى مهمتها بشكل حسن ، وسرعة معقولة، لم يلبث المسـتر بكوك أن اغتبـط بتلك السرعة الى حـد لم يستطع عنده أن يبقى ملازما الصمت على تلك الصورة ،فقال: « أعتقد أننا سنلحقهما بلا شك »

وأجابه صاحبه « أرجو ذلك »

وتطلع المستر بكوك الى القمر ، وكان ضياؤه باهرا فقال : « ليلة صافية »

وأجاب واردل قائلا : « هذه هي المصيبة ، لأنهما استغلا ضياء القمر فسبقانا ، أما نحن فسوف نفقد كل مزايا هذا البزوغ وفائدته ٠٠٠ اذ لن تمضى ساعة أخرى حتى يتوارى نور القمر »

فسأله المستر بكوك : « أظن أن المسير بهذا المعدل غير مستحب فى الظلام ٠ أليس كذلك ؟ »

وقال صاحبه بجفاء : « فعلا »

وبدأ اضطراب المستر بكوك العابر يهدأ قليلا ، فمضى يفكر فى المتاعب والأخطار التى تكتنف هذه الرحلة التى أقدم بغير ترو عليها ، ولكنه انتبه من تأملاته على صيحة الغلام الراكب فوق الحصان الذى فى المقدمة وهو يقول : « لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ »

وعلى أثره صاح الغلام الثانى « لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ »

وتبعهما المستر واردل نفسه يصيح ، فى حماسة صيحتهما ذاتها ، وقد أخرج رأسه ونصف جسمه من نافذة المركبة »

وصاح المستر بكوك أيضا « لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ لو ٠٠٠ » مرددا النغمة عينها ، وان لم تكن لديه أقل فكرة عن معناها أو الغرض منها ، وفى وسط هذه « الصيحات » من السيدين والغلامين وقفت المركبة ٠

وسأل المستر بكوك « ما الخطب ؟ »
وأجاب الشيخ واردل : « هنا باب ٠٠٠ وسنسمع شيئا عن الهاربين ٠ »

وبعد أن انقضت خمس دقائق فى دق متواصــل وصــياح خرج من بيت المكوس رجل متقدم فى العمـــر ، فى قميص وسراويل ، وفتح البوابة ، فابتدره المستر واردل قائلا : « كم من الوقت انقضى منذ مرت مركبة من هنا ؟ »

قال : « كم من الوقت ؟ »

قال : « آه »

وعندئذ مضى الرجل يقول : « لست أدرى تماما ولكن من وقت غير طويل ، ولا هو قصير ، ولعله بين ذلك . »

وعاد الشيخ يسأله : « هل مرت مركبة من هنا فعلا ؟ »

قال : « أى نعم مرت مركبة . »

وتدخل المستر بكوك فسأله : « متى ياصديقى ؟. هل من ساعة مثلا ؟ »

فأجاب الرجل قائلا : « أستطيع أن أقول ذلك »

وسأله الغلام الراكب فى العربة : « أو من ساعتين ؟ »

وأجاب الرجل بلهجة المتشكك : « لايبعد أن يكون الامــر كذلك »

وهنا صاح الشيخ غاضبا : « انطلقا أيها الغلامان بنــا ، ولا تضيعا الوقت مع هذا العجوز المغفل »

وصاح الرجل وهو يومض بابتسامة « مغفل ! » وقد وقف فى وسط الطريق ، وفتح البوابة قليــلا ، وراح يرقب بنظره المركبة ، وهى تتضاءل وشيكا كلما أمعنت فى المسير وأوغلت

« كلا لست مغفلا الى هذا الحد وقد أضعتم عشر دقائق هنا ، وانصرفتم جاهلين الحقيقة كما جئتم ، ولو أن رجلا على الطريق أصاب جنيها وعرف كيف يكسبه ، كما عرفت لما لحقتم بتلك المركبة قبل موسم عيد الميلاد أيها الشيخ القصير البدين ٠

وانثنى الرجل يغلق البوابة ، وهو يبتسم ابتسامة أخرى مستطيلة ، وعاد الى البيت وأغلق الباب فى أثره ٠

وكانت المركبة فى تلك اللحظة موغلة فى المسير دون ابطاء صوب نهاية الرحلة ، وكان القمر كما تكهن واردل ، قد أخذ يضعف نوره سريعا ، وبدأت قطع كبيرة من سحب قاتمة ثقال كانت منذ لحظات تتجمع رويدا وتغمر وجه السماء ، تتحول الى كتلة سوداء واحدة ، وأخذت قطرات كبيرة من المطر تتساقط بين هنيهة وأخرى على نافذة المركبة ، كأنما تنذرهما بوشك اقتراب ليل عاصف ، وكانت الريح أيضا ضدهم ،وهى تهب فى زفيف وعصف على الطريق الضيق تزمجر وتعصف من خلال الشجر الذى يحف به ، فعمد المستر بكوك الى جمع أطراف معطفه حول بدنه،وانزوى منكمشا فى ركن من المركبة، وهبط فى سبات عميق ، لم يستيقظ منه الا على وقوف المركبة، وصوت جرس رب الفندق ، وصيحة عالية تقول : « علينا بخيل فى الحال ٠

ولكن حدث هنا أيضا بعض التأخير ، فقد كان الخدم فى سبات عميق ، اقتضى خمس دقائق لايقاظ كل خادم منهم ، وكان رب الفندق قد وضع مفتاح الاسطبل فى مكان ما ونسيه، فمضى يبحث عنه ، ولما وجده ، أخطأ خادمان منهم لايزال النوم يداعب أجفانهما ، فوضعا على حصان سرج الحصان الآخر ، واضطر الامر الى تكرار الأسراج من جديد ، ولو كان

المستر بكوك هو المسافر وحده لكانت هـذه العقبات المتكررة كافية لعدوله فى الحال عن هذه المطاردة · ولكن الشـيخ لم تكن هـذه الحوائل لتثنيه عن واجبه بهـذه السهولة ، فطفق يستجمع كل عزمته ويستعين بكل قوته ، ويلكز هـذا الغلام ويدفع ذاك ، ويفك رباطا هنا ، ويشد حلقة هنـاك ، حتى تهيأت المركبة للمسير فى فترة أقل مما كان متوقعا وسط كل هذه الحوائل والعقبات

وواصلوا المسير ، ولكن المدى أمامهم لم يكن ليغرى بأمل ، فان المرحلة تبلغ خمسـة عشر ميلا ، والليل حالك ، والريح عاتية ، والمطر يهطل مدرارا ، وليس فى الامكان قطع شـوط كبير مع اجتماع هذه العوائق كلها · وكان الوقت قـد جاوز الواحدة بعد نصف الليل ، ولا بد من انقضـاء ساعتـين أو قرابتهما لبلوغ نهاية المرحلة · ولكن شيئا تراءى لهم ، فجدد آمالهم ، وأحيا موات هممهم ، وعاد يرفع من أرواحهم المتخاذلة

وصاح المستر واردل وهو يقفز من مكانه فى المركبة ويشير الى مركبة أخرى علاها الطين الرطب ، وهى واقفة فى الفناء : « متى جاءت هذه المركبة ؟ »

قال رب الفندق الذى وجه السؤال اليه : « من أقل من ربع ساعة ياسيدى »

وعاد المستر واردل يسأله ، وهو لاهث الانفاس من اللهفة والقلق : « وهل كانت تحوى سيدة وسيدا ؟ »

— « نعم يا سيدى »

— « والسيد طويل ، وعليه سترة ، وساقاه مستطيلتان ، وناحل البدن ؟ »

« نعم يا سيدى »

ـ « والسيدة نصف · ولها وجه نحيل ، وتبدو عجفاء ايه ؟ »

« نعم يا سيدى »

وصاح السيد الكبير : « وحق السموات انهما هما يا بكوك »

وواصل رب الفندق حديثه يقول : كان من الجائز أن يكونا الآن هنا ، ولكنهما أرادا أن لا يشق لهما غبار »

قال واردل : « هو كذلك ، والله هو كذلك ، مركبة وأربعة خيول فى الحال ، وسنلحقهما قبل أن يبلغا المرحلة التالية ، هلموا يا أولاد ، جنيه لكم منكم اذا نشطتم ، هيا أظهروا همة يا أيها الفتيان الطيبون »

ومضى الشيخ بهذه الاحتثاثات والحوافز ونحوها يروح ويغدو فى جنبات الفناء فى حالة من الهياج ، انتقلت عدواها الى بكوك أيضا ، فلم يلبث هذا تحت تأثير العدوى ان ورط نفسه فى عملية الاسراج ، وتهيئة الخيل والعجلات ، فى صورة تبعث اشد الدهشة ، اعتقادا جازما منه بانه بعمله هذا كان يعاون معاونة فعلية فى الاستعداد لمواصلة المسير »

وصاح واردل بصاحبه وهو يقفز الى المركبة ويرفع سلمها : « ادخل ، ادخل » ، وانثنى يغلق الباب بعنف فى اثره ويعاود الصياح قائلا : « هيا بنا ، أسرعوا » · وقبل أن يعى بكوك شيئا مما حوله أحس بمن يرفعه رفعا من الباب الآخر ، واذا الشيخ يجتذبه الى الداخل ، وصاحب الفندق

يدفعه من الخارج ، واذا المركبة منطلقة تنهب الطريق نهبا .

وقال الشيخ الكبير بسرور بالـــغ : « آه .. نحن الآن متابعون السير حقا »

والواقع انهم كانوا كذلك ، بدليل ما كان المستر بكوك يحسه بين لحظة وأخرى من الاصطدام مرة بالجـــزء الخشبى الصلب من المركبة ، وأخرى بجسم صاحبه

وصاح المستر وازدل البدين : « اثبت » حين رأى المستر بكوك يضرب برأسه فى بطنه الرحيب ، وهو يقــول : « لم أشعر » بخضخضة كهذه فى حياتى . »

وقال صاحبه : « لا عليك فلن تلبث أن تزول ، ثبــاتا ، ثباتا »

وراح المستر بكوك يغرز نفسه فى ركنه ، محاولا أن يثبت فيه ما استطاع ، بينما راحت المركبة أشد سرعة من قبــل وأكثر اندفاعا .

ولبثت على تلـــك السرعة مارقة حتى قطعت قرابة ثلاثة أميال – اخرج بعدها المستر واردل رأسه من النافذة ، وأطل على الطريق دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ثم ادخل وجهه وقد غمره رشــاش من المطر وصـــاح لاهثا فى لهفة شـــديدة « ها هما .. »

وعندئذ أخرج المستر بكوك رأسه من النافذة فاذا هـــو يبصر حقا مركبة وأربعة جياد ، على مسافة قصيرة منهما ، وهى مندفعة فى سرعة بالغة .

وقال الشيخ بصوت يكاد يكون صراخا : « تقدما ، تقدما ، جنيهان لكل منكما ، لا تدعاهما يسبقاننا ، هلما ، أحرصا على اللحاق بهما »

وكانت الخيل المسرجة في المركبة الاولى قد شرعت تعدو بأقصى السرعة ، ومركبة واردل تنهب الأرض فى اثرها نهبا ، ولا تلوى على شيء ٠

وصاح الشيخ الغضوب قائلا : « انى أرى رأسه ، لعنة الله ، انى لأرى رأسه »

وقال المستر بكوك : « وأنا أيضا ، هذا هو » ٠

ولم يكن المستر بكوك مخطئا ، فقد كان وجه المستر جنجل الذى غمره الوحل المتطاير من العجلات ظاهرا للعين من شرفة المركبة ، وحركة ذراعه التى كان يلوح بها بعنف صوب السائقين لتشجيعهما واحتثاثهما على زيادة السرعة

وكان الموقف قد استحمى واستحر ، وبدت الحقول والاشجار وأسوار العوسج تمرق من أمامهما بسرعة «الدوامة» وشدة انطلاق المركبة واندفاعها ، حتى دنت من جانب المركبة المستبقة ، وكان صوت جنجل فى تلك اللحظة غالبا على أصوات العجلات وهو يستحث الغلمان ، واشتد غضب الشيخ وثارت ثائرته ، وذهب يزأر شاتما لاعنا ، عشرات الشتائم واللعنات ، صارخا : « أيها الاوغاد ، أيها المجرمون » جامعا قبضة يده ، ملوحا بها ، يهزها فى الفضاء هزا لذلك المستهدف لغضبه ، ولكن المستر جنجل لم يجاوز فى الرد على هذا الوعيد أكثر من الابتسام المستخف ، والجواب عن هذه التهديدات بصيحات المنتصر ، حين انطلقت خيله

مستجيبة لهوى السياط المتزايدة ، ووخزة المهماز فى الخاصرة ، فى سرعة متجددة ، تركت المطاردين فى اثرها متخلفين .

وما كاد المستر بكوك يدخل رأسه من النافذة ، ويفعل المستر واردل مثله ، من الجهد والتعب بعد ذلك الصياح الشديد ، حتى حدثت رجة عنيفة طوحت بهما فوق مقدم المركبة وتلتها خبطة فجائية ، وصوت تهشم شديد ، وانطلاق عجلة من مكانها ، وانقلاب المركبة رأسا على عقب .

وبعد بضع ثوان فى ذهول واضطراب بالغين ، لا يتبين خلالهما غير اندفاع الخيل ، وتحطم الزجاج شعر المستر بكوك بأيد تجذبه من تحت أنقاض المركبة ، ولم يكد يستوى على قدميه ، ويستخرج رأسه من أطراف معطفه الفضفاض الذى حال فى الواقع بينه وبين الانتفاع بمنظاره ، حتى بدت النكبة واضحة لعينيه .

ورأى الشيخ واردل حاسر الرأس ، طارت القبعة من فوقه ، ممزق الثياب فى عدة أجزاء منها ، واقفا بجانبه ، وبقايا المركبة متناثرة عند قدميه ، وأما الغلامان فقد استطاعا بعد جهد قطع « السيور » والحلقات التى تربط الخيل ، ووقفا بجانب رؤوسها ، تعلوهما الأوحال ، ويلوحان أشعثين أغبرين من عناء السفر ، ومجهدة الركوب .

وعلى قيد مائة خطوة او نحوها ، وقفت المركبة الاخرى على صوت الاصطدام ، والغلامان يبتسمان ابتسامة يختلج لها وجهاهما أشد الاختلاج ، وهما يشهدان ما حل بالمركبة الأخرى من فوق سرجيهما ، بينما أطل المستر جنجل من النافذة ، يتأمل المشهد بارتياح ظاهر .

وكان النهار قد طلع منذ لحظة ، فبدا المشهد جليا للعين على مطالع خيوطه .

وصاح جنجل الصفيق الذى لا يعرف الحياء : « هل أصيب أحد ؟ شيخان كبيران ، ليسا من الوزن الخفيف ، عملية خطرة جدا . »

وصرخ واردل وزأر قائلا : « انك لوغد ! »

وأجاب جنجل ضاحكا : « ها ها ! » ثم أردف يقول بغمزة ذات دلالة من طرف عينه ، وهزة من انملته صوب داخل مركبته : « انها بخير ، وتحملنى اليك السلام وترجو أن تكف عن أتعاب نفسك ، الحب لطبى ، ألا تركبان فى المؤخرة؟ سق يا غلام »

فعاد الغلامان الى مجلسهما من المركبة ، وانطلقت بهم ، وقد رفع المسترجنجل منديلا أبيض وأخذ يلوح به من النافذة سخرية واستهزاء .

ولكن هدوء طبع المستر بكوك وسكينة نفسه لم يكدرهما شىء مما جرى ، ولم يزعجهما انقلاب المركبة ذاتها ، وإنما كانت تلك الخسة التى بلغ من نكرها أن يقترض فى أول الامر مالا من مريده الأمين ، ثم تختصر اسمه اختصارا وقحا ، فتدعوه « طبى » أكثر وأشد مما يطيق صبره ، حتى راح يتنفس بمشقة ويحمر وجهه الى طرف منظاره ذاته ، وهو يقول فى رفق ولهجة جد : « لو أتيح لى لقاء هذا الرجل مرة أخرى فلا ... »

ولكنه لم يتم ـ فقد عاجله المستر واردل بقوله : « نعم ،

نعم ، هذا كله جميل ولكنهما ، ونحن هنـــا واقفان نتكلم ، سيظفران بعقد قرانهما فى لندن ٠ »

فتمهل المستر بكوك وكبت غضبه ، كما يملأ المرء الزجاجة ويغلقها بالسدادة ٠

والتفت المستر واردل الى الغلامين فقال : « كم المســـافة بيننا وبين المرحلة التالية ؟ »

قال أحدهما لزميله : « ســـــتة أميال ٠ أليس كذلـــك ياتوم ؟ »

وأجاب هذا : « أكثر قليلا ٠ »

وانثنى الاول يقول : « ستة أميال أو نحوها ٠ »

وقال المستر واردل : « لابد مما ليس منه بد ، سنقطعها مشيا يا بكوك ليس ثمة شيء غير هذا ٠ »

وأرسلا غلاما على حصان ليظفر لهما بمركبة أخرى وخيل ، وتركا الآخر لحراسة المركبة المحطمة ثم انطلقا بعزمة الرجال يقطعان بقية الطريق على الاقدام ، بعد أن لفا لفاعتيهما حـــول عنقيهما ، وأرخيا قبعتيهما لكى يحتميا ما استطاعا من هطل المطر ، وكان قد عاد بعـــد اقطاع بسير يتســـاقط صـــببا مدرارا ٠

الفصـــل العاشر

ـ ازالة كل ما كان يساور النفوس من الشكوك « ان كان ثمة شيء منها » في أن المستر جنجل منزه عن الغرض ـ

لا تزال لندن تحوى عدة فنادق ، كانت فى سالف الدهر مركزا للمركبات التى كانت تؤدى الاسفار ، وتقطع الرحلات فى صورة أكثر جدا ، وأفعل أثرا ممـــا يبدو من المركبات ، فى هذه الايام • ولكن تلك الفنادق قد انحط شأنها اليوم ، فلم تعد تزيد عن محطـــات ونقط لحجز أماكن فى المركبات المسافرة الى الريف • ولن يهتدى القارىء الآن الى شيء من تلك الفنادق أو « الوكالات » القديمة ، مهما يحاول البحث عنها بين فنادق الصليب الذهبى «الجولدن كروس» و «الثور» بل والأفواه « ماوثز » القائمة بواجباتها الرائعة فى شوارع لندن التى دخل التحسين عليها ، فاذا أراد فندقا من تلـــك الفنادق القديمة فليوجه خطاه صوب أحياء المدينـــة المظلمـــة ، ومعالمها الاثرية ، فهو واجد فى بعض زواياها المهجـــورة عدة فنادق كهذه لا تزال قائمة تعلوها الكآبة ، وينم شكلها عن قوة التشبث بالبقاء ، فى وسط الابنية الحديثة المحيطة بها •

وفى قصبة لندن خاصة لا تزال ثمة بضعة فنـــادق عتيقة احتفظت بمعالمها الخارجية كما هى ، فلم يطرأ عليها تغيير ،

ولم تتعرض لخطر الدعوة العامة الى التحسين والتعمير ، ولا استهدفت لمغامرات الافراد باموالهم فى تجديد المبانى وتشييد العمارات ، وهى الى اليوم تبدو عظيمة ، متماسكة غريبـــة ذوات دهاليز ، وممرات ومدارج ، ومن الرحابة وقدم العهد بحيث تكفى لتهيئة مواد موضوعات لمئات القصص عن المردة والعفاريت ، اذا فرضنا أننا قد نتدهور الى هذا الحد المؤسف من ابتكار شيء منها ، أو وصل الاسفاف بنا الى تأليف روايات على غرارها ، أو اذا تصورنا ان الدنيـــــا سوف تعيش حتى تستنفد الاساطير الصحيحة التى لا تحصى عن جسر لنــــدن القديم وما جاوره من الأحياء القائمة على جانب « صرى »

وفى فناء أحد تلك الفنادق ، وهو فنـــدق الأيل الأبيض (هوايت هارت) الذائع الصيت كنت ترى ثمة رجلا منهمكا فى تنظيف حذائه ، فى بكور الصباح التالى لليوم الذى وقعت فيه الحوادث التى سردناها عليك فى الفصل السابق . وكان الرجل يرتدى صدارا مخططا تخطيطا لا يدل على ذوق جميل ، ذا ردنين اسودين من القطن وأزرار زرق من الزجاج وسراويل ذات لون كئيب ، « وطماقا » يكســـو ســاقيه ، وقــد لف حـــول رقبته منديلا أحمر خفيف الحمرة لفــة غــير محبوكة ولا متقنة ، والقى قبعة قديمة بيضاء بغير عناية على جانب من رأسه ، وأمامه صفان من الاحذية أحدهما قد فرغ من تنظيفه ، وبقى الآخر متسخا لم يتناوله بعد ، وكلما فرغ من مســح حذاء اضافه الى مجموعة الاحذية التى نظفها ، وكف لحظة عن العمل يتأمل نتائجه بارتياح ظاهر .

ولم تكن ترتفع فى جنبات الفناء تلك الجلبة التى امتازت بها أفنية الفنادق الكبيرة عادة ، ولابد فيه تلك الحركة الدائبة

المعروفة عنها ، بل كانت هنـــالك ثلاث مركبات أو أربـع ضخمة ، محملة أكداســـا من البضائع تلوح تحت أغطيتهـا الرحيبة ، وترتفع الى ما يقرب من ارتفاع النوافذ فى الطبقة الثانية من أى منزل عادى ، وهى مصفوفة تحت سقف مرتفع يمتد على طول الفناء من أحد طرفيه ، والغالب أنها كانت على وشك الخروج فى ذلك الصباح ، فقد اخرجت من السقيفة الى الجزء الفضاء من الفناء .

وحول جانبى الارض الفضاء كليهما قام صف مزدوج من الدهاليز المؤدية الى غرف النوم « بدرابزين » قديم مشـــوه الشكل ، كما بدا صفان مزدوجان من الأجراس يحميهما من التقلبات الجوية سقف مغبر منحدر ، من تحته باب يؤدى الى « محل الشراب » وغرفة القهوة ، وقد سبقت عربتان صغيرتان وعربتان أخريان من عربات النقل الى سقائف صغيرة مختلفة، وبين فترة وأخرى كان يرتفع صوت مركبة قادمة او حـركة حلقات وسراج فى الطرف الأقصى من الفنـــاء كأنما تعلن من يعنيه الأمر أن الاصطبل قائم فى هذه الناحية من الفنـدق ، فاذا قلنا أيضا ان هناك بضعة غلمـــان فى جلابيب فضفاضة بدوا رقودا فوق الطرود الثقال والرزم الضخمة وغـــيرها من البضائع المتناثرة فى أرجاء الفنـــاء فوق أكداس من القش ، فقد وصفنا بما فيه الكفاية مظهر فنـاء فندق الأيل الأبيض فى « هاى ستريت » ورسمنا صورته العامة كما كان يبدو فى صباح ذلك اليوم الذى نتحدث عنه .

وأعقب ارتفاع صوت أحد الاجراس ظهور وصيفة رشيقة فى الردهة العليا لغرف النوم، وبعد أن طرقت احدى الحجرات وتلقت أمرا ممن فيها ، وقفت على رأس السلم تنادى قائلة :

« يا سام ·· ! »

وأجاب الرجل ذو القبعة البيضاء : « نعم ! »

ـ « رقم ٢٢ يطلب حذاءه »

ـ « اسألى رقم ٢٢ هـــل يريده الآن أو ينتظـــر حتى يتلقاه ؟؟ »

وقالت الفتاة مداعبة : « هيا ·· يا سام ·· دع الهـزل والمزاح ·· العميل يريد حذاءه حالا · »

فأجابها مساح الاحذية : « حسن · أنت شابة لطيفة تصلح للعمل مع فرقة موسيقية ·· انظرى الى هذه الاحذية هنا ·· أحد عشر زوجا ·· ونعل لرقم ٦ ذى الساق الخشبية ، والاحد عشر زوجا مطلوبة فى الساعة الثانية والنصف ، والنعل فى التاسعة ·· فمن هو رقم ٢٢ حتى يتقدم الباقين جميعا ·· لا ·· لا · كل انسان بدوره ·· كما قال « جاك كش » حين راح يشد وثاق الجمع واحدا بعد الآخر ، آسف يا ســـيدى لأنى جعلتك تنتظر ·· ولكنى قادم اليك حالا ·· »

وأقبل المساح على عمله ، وكان يمسح حذاء طويلا وهـــو يضاعف نشاطه ·

وتردد صوت جرس آخر عاليا ، وظهرت ربة الفنـــــدق العجوز الكثيرة الحركة فى الدهليز المقابل ، وصاحت قائلة : « يا سام ·· اين ذلك البليد الكسول ·· آه ·· ها أنت ذا يا سام ·· لماذا لا ترد »

قال بخشونة : « ليس من حسن الذوق أن أرد حتى تنتهى من الكلام »

قالت : « اسمع هنا ·· امسح هذا الحذاء لرقم ١٧ حالا واحضره الى قاعة الجلوس الخاصة رقم ٥ فى الدور الاول »

وطوحت ربة الفنـــدق بحذاء انثى فى الفنـاء وانصرفت مسرعة

وتناول سام الحذاء ، واخرج قطعة من الطباشير من جيبه ، وأخذ مذكرة على مشط النعل بها وهو يقول لنفسه : « رقم ٥ حذاء سيدة ، قاعة الجلوس الخاصـــــة ·· لا أظنها جاءت فى مركبة العفش »

وصاحت الفتاة وهى لا تزال مستندة الى سـياج السلم : « لقد جاءت باكرة فى هذا الصباح مع سيد فى مركبة إجرة، وهو السيد الذى يريد حذاءه ·· أحسن لك أن تمسحهما ·· هذا هو كل ما فى المسألة »

قال فى غضب شديد ، مخرجا الحذاء المشار اليه من الكومة المصفوفة امامه : « لماذا لم تقولى ذلك من أول الامر فقد كنت فاهما أنه عمل غير ذى شأن من الذين لا يدفعون عادة اكثر من ثلاثة بنسات ، واذا بى اسمع ·· قاعة خاصة ·· وسيدة أيضا ، فان كان سيدا كمـــا قلت فحقه ان يدفع شـلنا فى اليوم ، وأجرة الذهاب والاياب »

وحفزه هذا الخاطر الملهم فمضى فى مسح الحذاء بالفرشـــاة بحماسة واقبال صادقين ، فلم تنقض بضع دقائق حتى كان الحذاء والنعل قد دهنا بطلاء براق كان بلا ريب مثيرا للحسد فى نفس المستر وارن

فقد كانوا فى فنـــدق الأيل الأبيض « هوايت هارت » يستعملون طلاء « داى ومارتن »

ووصل المساح الى باب الغرفة رقم ٢٢

وسمع صوت رجل من الداخل يقول : « ادخل · » ردا على دقة سام للباب

وانحنى « سام » بأحسن ما لديه من الانحناءات ومثل فى حضرة سيدة ورجل كانا جالسين يتناولان طعـــام الفطور ، وبعد أن سلم الحذاءين بكل الرسميات المطلوبة ووضع أحدهما على اليمين والآخر على اليسار عند قدمى السيد ، ووضـــع حذائى السيدة مثلها عن يمينها ويسارها تراجع خطوات نحو الباب

وقال السيد : « الاحذية ! »

وأجاب سام : « نعم يا سيدى » وهو يغلق الباب ويبقى يده على الاكرة

قال : « هل تعـــرف ·· ما يسمى ·· بمـــاذا ؟؟ بحى الأطباء ؟ »

ـ « نعم يا سيدى »

ـ « أين هو »

ـ « بحضرة كنيسة القديس بولس يا سيدى ، وهناك باب مقوى خفيض على الجانب الذى تقف عنده المركبات ، وبائع كتب فى ركن منه ، وفندق فى الركن الآخر ، وحمالان فى الوسط يعملان فى استخراج الرخص »

وقال السيد : « سمسارين للرخص ! »

وأجاب سام : « نعم سمساران للرخص ·· وهما يلوحان

فى حلة بيضاء ، ويلمسان قبعتيهما احتراما ، عنـــد دخولك ويسألانك : « رخصة يا سيدى ، رخصة ؟ » انهما لشخصان عجيبان يا سيدى ·· ومعلموهما عجيبون أيضـــا ·· وكلاء محامين فى محكمة « اولد بيلى » وهذا كله صحيح لا خطأ فيه »

وسأل السيد قائلا : « وماذا يعملان ؟ »

قال : « يعملان ·· سبحان الله يا سيدى ·· يعملان ما لا يخطر ببال ·· يدخلان أشياء فى رؤوس أناس كبار السن لم يكونوا يحلمون بها فى يوم من الأيام ·· كان والدى ياسيدى حوذيا ·· وكان أرمل أيضا ، وبدينا لا يصـــلح لشىء ·· سمينا الى حد غير مألوف ·· ماتت زوجته وتركت له اربعمائة جنيه ·· فذهب الى ذلك الحى لمقابلة المحامى ليسحب النقود ·· ذهب فى هندام رشيق جدا ·· حذاء طـويل ووردة فى عروة سترته ·· وقبعة عريضة الحاشية··ولفاعة خضراء ·· وجيه جدا ·· واجتاز الباب ، وهو يفكر فيما عسى أن يفعل لاستثمار ذلك المال ·· واذا السمسار يتقدم نحوه ، ويرفع القبعة له ويسأله : « رخصة يا سيدى ؟·· رخصة » ، فيقول والدى : « وماذا تكون هذه ؟ » · فيقول صاخبا : « رخصة يا سيدى ؟ » · ويقول والدى : « أى رخصـــة تعنى ؟ » · فيجيبه السمسار : « رخصة الزواج ؟! » · ويقول والدى : « أى زواج ! ما فكرت فيه مطلقا » · فيعود السمسار يقول له : « اعتقد انك محتاج الى رخصة يا سيدى ·· » · ويذهل والدى ويفكر قليلا ثم يقـــول : « لا ·· لا ·· اننى كبير فى السن ·· ومفرط فى السمنة الى حد لا أصلح معه للزواج » · فيقول السمسار : « أبدا والله ·· لست كذلك يا سيدى » · ويجيب الوالد : « لا أظن ، ولكن صاحبنا يقول له أنا متأكد

انك لست كذلك ·· لقد زوجنا سيدا فى ضعفى بدانتك » فى يوم الاثنين الماضى ، ويقول الوالد أحقا ؟ فيجيب السـمسار فعلا · وأنت طفل صغير بالنسبة اليه ·· من هنا الطريق يا سيدى ، من هنا ·· ومشى والدى فى أثره كما يمشى القرد المستأنس خلف صاحبه حتى وصلا الى مكتب منعزل ، حيث جلس رجل وسط أوراق قذرة وصناديق صفيح صغيرة ، ليوهم انه مشغول ولديه أعمال كثيرة ، ويقول هذا المحامى للسيد الوالد ، تفضل اجلس ريثما أتم تحرير الاقرار ، فيقول أبى : « شكرا لك يا سيدى ويجلس وهو محملق البصر فاغر الفم على سعته ، يتأمل الأسماء المكتوبة على الصناديق ، ويسأله المحامى ما الاسم الكريم ؟ فيجيب الوالد اسمى « تونى ولر » فيعود يسأله : وأية أبرشـية تتبع ؟ ويقول أبى : « بل سـفج » وهو محل الشراب الذى كان قد عرج عليه فى طريقـه قبل حضوره ، ولم يكن يعرف أية « أبرشيات » أى والله لم يكن فعلا يعرف · ويسأله المحامى : وما اسم السيدة ؟ فبهت الوالد ولم يدر بماذا يجيب · قال والله لا أعرف ، ويقول المحامى : لا تعرف ·· كيف هذا ؟ ويجيب والدى والله لا أدرى ·· ألا يجوز أن نؤجل مسألة الاسم الى ما بعد ؟ ويقـول المحـامى مستحيل ، وهنا يفكر الوالد لحظة ثم يقول : حسنا ، اكتب « مسز كلارك » ويقول المحامى وهو يغمس القلم فى الدواة : أى كلارك ؟ فيرد الوالد قائلا : « سـوزان كـلارك ماركيز أوجرانبى من ناحيةدركنج، فهى ستقبلنىاذا طلبت ذلك اليها ·· أنا لم أقل شيئا لها ولكنى أعرف أنهـا سترضى بى · » وهكذا تم تحرير الرخصة ، والواقع أنها رضيت به ، وأدهى من ذلك أنها الآن قابضة على خنـاقه ، وأنا لم أفز بشىء من الأربعمائة جنيه ·· حظ سيىء ··أرجوك المعذرة ياسيدى··

كلما ذكرت هذه المظلمة ، أجرى كالعجـــلة الجديدة عقب « التشحيم »

وغادر « سام » الحجرة بعد أن وقف لحظة ليتبين هل هـــو مطلوب لشيء آخر

وقال السيد : « ولسنا بحاجة الى تقديمه للقارىء فهـــو المستر جنجل بعينه ، الساعة التاسعة والنصف ٠٠ هذا هـو الوقت الملائم ٠٠ فلأذهب في الحال ٠٠ »

وقالت العمـــة العانس بدلال ودعابة : « الوقت الملائم ٠٠ لأى شيء ؟ »

قال وهو يضغط يد العمـــة العانس : « للرخصة يا أعز الملائكة ، واعطاء خبر للكنيسة لكى ادعوك مليكتى غدا ٠٠ »

وقالت راشل بحياء : « الرخصة ٠٠ »

وردد المستر جنجل الكلمة وترنم قائلا :

« فى سرعة العربة للرخصة اذهب ٠٠ »

« وفى عجلة ، دقات الجرس أؤوب ٠٠ »

قالت « ما أشد استعجالك »

قال : « اســـتعجالى ، لا شيء يقف امام الســاعات والأيام والأسابيع ، والشهور والأعوام التىستوحد بيننا وتجمعنا٠٠ انا مستعجل ، ستطير كلها ٠٠ مقلقا ٠٠ وفوهة ٠٠ وقاطرة ٠٠ قوة الف حصان ٠٠ لا شيء »

وسألت راشل : « ألا يمكن ٠٠ ألا يمكننا ان نقترن قبـــل صباح غد ؟ »

قال : « مستحيل ، لا يمكن ٠٠ ابلاغ الكنيسة ٠٠ استخراج الرخصة اليوم ٠٠ الاحتفال بالقران غدا »

وقالت راشل : « انى فى هلع من أن يكشف أخى أمرنا »

قال : « يكشف أمرنا !٠٠ كـــلام فارغ ٠٠ هزته كسرة المركبة هزة شديدة ٠٠ وبجانب ذلك ٠٠ اتخذت أشد الحيطة تركنا المركبة ٠٠ مشينا ٠٠ أخذنا عربة مأجورة ٠٠ جئنا الى « الضاحية » ٠٠ آخر مكان فى العالم يخطر بباله ان يبحث فيه عنا ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ فكرة مفتخرة هذه ، جدا »

وقالت العانس بحب ، وهو يلصق قبعته الضيقة برأسه : « لا تغب ٠ »

قال : « أغيب عنك ٠٠ أيتها الفاتنة القاسية » ٠٠ وأسرع فى مجانة الى العمة العانس وطبع قبلة بريئة عـــلى شفتيها ، واندفع من الحجرة وهو يرقص ٠

وقالت العمة العانس وهو يغلق الباب وراءه : « يا له مـن عزيز » !

وقال هو لنفسه وهو منصرف من الردهة : « يا لها من فتاة عجوز بديعة » !

ومن المؤلم للخاطر أن يتمثل المرء منا مبلـــغ غدر الانسان ولؤمه ، ولهذا لا نبغى ان نتابع خيط افكار المستر جنجـــل وسلسلة تصوراته وهو منطلق فى طريقه الى حى الأطباء وانما حسبنا فى هذا المجال ان نقول انه أفلت من شراك السمسارين الواقفين بالمرصاد فى مبذلتيهما ذواتى اللون الأبيض ٠

ووصل الى مكتب القسيس العام بسلام ، وبعد أن ظفـــر بكتاب رقيق لطيف العبارة ، محرر على ورق مصقول جميل من

كبير أساقفة كانتربرى الى عزيزيه المخلصين « الفرد جنجل » و « راشل واردل » تحيات وسلاما وبعد ٠٠ الخ ٠ وضع بكل حذر الوثيقة الشرعية فى جيبه وعاد أدراجه منتصرا الى المدينة ٠

وبينما كان فى طريقه الى الفندق ، اذ دخل الفناء سيدان بدينان وآخر نحيف ، وتلفتوا حولهم للبحثعن شخص مسئول يمكن الحصول منه على بضعة معلومات ، واتفق ان كان المستر صمويل ولر منهمكا عندئذ فى تلميع حذاء طويل لمزارع جلس يستمتع بغداء خفيف يتألف من رطلين أو ثلاثة أرطال من اللحم البارد ، وجرة أو جرتين من النبيذ ، بعد متاعب السوق ٠

وتقدم السيد النحيف رأسا الى المستر صمويل ولر فقال : « يا صديقى » !

وقال « سام » لنفسه ٠ يظهر انك من الذين يطلبون المشورة ولا يدفعون شيئا ، والا لما حييننى هكذا مسرعا ، ودعوتنى صديقا ٠٠ »

ولكنه أجاب السائل قائلا : « نعم يا صديقى »

وقال السيد النحيف بنحنحة مغرية : « اسمع يا صديقى ٠٠ هل لديكم هنا نزلاء كثيرون الآن ٠٠ والحركة طيبة ؟ »

واختلس سام نظرة الى السائل ، فبدا له انه رجل نحيف ، « ضامر » ذو وجه أسمر مغلق وعينين صغيرتين خلاجتين ، لا تكفان عن الغمز والاختلاج واللمع على كلا جانبى أنفه الدقيق الملح ، وكان مرتديا ثيابا سوداء ، ومنتعلا حذاء براقا كعينيه ، وغطاء رقبة صغير أبيض اللون ، وقميصا نظيفا متغضنا

وسلسلة ساعة ذهبية وخاتما متدليا من جيب صداره ، وكان يحمل قفازا أسود من جلد الماعز فى يديه ، لا عليهما ، وكلما تكلم ألقى بمعصميه تحت ذيل ردائه ، فعل الرجل الذى اعتاد حل المشكلات ٠

وعاد الرجل النحيل يسأل قائلا : « الحركة طيبة ٠ هه ؟ »

وأجاب سام : « طيبة جدا يا سيدى ٠ فلا ينتظر أن نفلس ، ولا أن نغتنى ، يكفينا أننا نأكل لحم الضأن المسلوق بغير قبار ، ولا يهمنا الفجل الحراق ما دمنا نجد لحم العجول » ٠

وقال الرجل النحيل : « أراك ابن نكتة ٠٠ أفأنت كذلك ؟ »

وأجاب سام : « كان أخى الكبير مصابا بهذا المرض ومن الجائز أنه من الأمراض المعدية ٠٠ وقد اعتدت أن أنام معه »!

وعاد السيد النحيف يقول وهو يدير عينيه فيما حوله : « وهل هذا الفندق القديم العجيب لك ؟ »

وأجاب سام بكل برود : « لو كنت أرسلت خبرا أنك قادم لأصلحناه ورممناه » ٠

وبدت على الرجل النحيف الحيرة من هذه الردود المسكنة فاختلى بالسيدين البدينين للمشاورة ٠ ولم يكد يتم تبـــادل الرأى حتى تناول شيئا قليلا من علبة عطوسه الفضية المستطيلة الشكل، وهم بتجديد الحديث، لولا أن أحدالسيدين الضخمين، وهو رجل تلوح الطيبة على وجهه ويضع منظارا على عينيه ، ويلبس « طماقا » أسود اللون ، بادر الى التدخل قائلا لسام : « ان واقع الامر هو أن صديقى هذا ـ مشيرا الى السيد البدين الآخر ـ سيعطيك نصف جنيه اذا أنت رددت على سؤال أو سؤالين ٠٠ »

ولكن السيد النحيل قاطعه بقوله : « كلا . يا سيدى العزيز كلا ، يا سيدى العزيز ! من فضلك اسمح لى يا سيدى العزيز . ان المبدأ الاول الذى ينبغى أن يراعى فى هذه المسائل هو أنك اذا وضعت مسألة ما فى يدى أحد أرباب المهنة فلا يجوز لك بأية حال أن تتدخل فى سيرها ، بل يجب أن تضع فيه ثقتك المطلقة وفى الحقيقة يا مستر ـ »

والتفت الى السيد الآخر البدين :

« لقد نسيت اسم صديقك »

واجاب المستر واردل « بكوك » ولم يكن الرجل المعنى بالسؤال أحدا غير صاحب هذه الشخصية المرحة

وواصل السيد النحيف حديثه قائلا : « وفى الحقيقة يا مستر بكوك استميحك المعذرة يا سيدى العزيز وفى الحقيقة انى ليسعدنى أن أتلقى أية مقترحات منك « بصفة ودية » ـ كما نقول نحن رجال القانون ، ولكن لا يخفى عليك بطبيعة الحال مبلغ الخطأ البالغ من تدخلك فى تصرفاتى فى هذه القضية ، بهذا الاقتراح الذى تعرض فيه دفع نصف جنيه ، انه اقتراح من النوع الذى نسميه فى اصطلاحنا القانونى « اغراء » . فى الحقيقة ياسيدى العزيز ، فى الحقيقة » .

وتناول السيد النحيل قدرا « جدليا » من عطوسه وبدا عليه الجد المتناهى

وقال المستر بكوك : « ان كل رغبتى يا سيدى هى أن أنهى هذه المسألة المؤلمة فى أسرع وقت ممكن » .

وأجاب السيد النحيف : « صح .. صح .. تمام ! »

وواصل المستر بكوك حديثه قائلا : « وفى سبيل تحقيق هذا الغرض استعنت بالحجة التى علمتنى التجارب أنها الوسيلة التى يغلب على الظن أنها الطريقة الناجحة فى كل قضية » ٠

وقال الرجل النحيل : « حسن جدا ٠٠ حسن جدا ٠ فعلا ولكن كان يصح أن نقترحها على أنا أولا ٠ اننى واثق يا سيدى العزيز أنك لست تجهل مدى الثقة التى ينبغى أن توضع فى أرباب المهنة ، واذ لم يكن بد فى هذه النقطة من الاستناد الى السوابق والأمثال فدعنى ياسيدى العزيز أحيلك الى القضية المشهورة فى بارنول و ٠٠ »

وهنا قاطعه سام وكان قد لبث يستمع فى دهشة خلال هذا الحوار القصير ، فقال :

« أن مسألة جورج بارنول لا تهم فى الموضوع ٠ كل انسان يعرف أى نوع من القضايا كانت قضيته ، وان كان رأيى الذى لا أتحول عنه ، أتفهمنى ؟٠ كان رأيى الثابت أن المرأة الشابة كانت تستحق الشنق أكثر منه ٠ ولكن هذه المسألة على أية حال ، غير ذات بال ، أنت تريد منيأن أقبل نصف جنيه ، حسن جدا ، وأنا قبلت ، هذا هو ما أقوله ، وليس عندى قول أحسن منه » ــ والتفت الى المستر بكوك قائلا : «هل يمكنني ياسيدى؟» وهنا ابتسم المستر بكوك وقال : « ثم ننتقل الى المسألة الاخرى ماذا بالله تريد منى ، كما قال الرجل حين رأى العفريت ؟ »

وهنا قال المستر واردل : « نريد أن نعرف »

وقاطعه السيد النحيف المترقب لكل كلمة : «والآن ياسيدى العزيز ، ياسيدى العزيز »

فهز المستر واردل كتفيه ولزم الصمت

وواصل السيد النحيف حديثه بجد بالغ : « نريد أن نعرف، نريد أن نسألك أنت ، حتى لا نثير مخاوف فى الداخل ، نريد أن نعرف من هم النزلاء فى اللحظة الراهنة فى الفندق ؟ »

وأجاب سام : « من هم النزلاء ؟ » ولم يكن يعرف النزلاء الا بذلك الجزء الخاص من ثيابهم الذى يقع تحت ملاحظته مباشرة ونعنى به « الاحذية » ، ومضى يقول : « عندنا الساق الخشبية فى رقم ٦ ، وعندنا زوجان من الروس فى رقم ١٣ ، وعندنا « نصفان » فى التجارى ، وهذا الحذاء الطويل الممسوح للجالس فى ركن منزو من « محل الشراب » ٠٠ وخمسة أحذية طوال أخرى فى غرفة القهوة » ٠

وعاد السيد النحيف يسأله : « أليس هناك آخرون ؟ »

فأجاب سام وقد تذكر فجأة : « قف لحظة ٠ نعم عندنا زوج أحذية طرز ولنجتون طال العهد على انتعاله وزوج من أحذية السيدات ، فى رقم ٥ »

وسأله واردل فى عجلة ، وكان هو والمستر بكوك قد استولى الذهول عليهما عند استعراض أوصاف النزلاء على تلك الصورة ، « أى نوع من أحذية النساء هو ؟ » ٠

فأجاب سام : « من صنع الريف »

– « وهل كتب عليه اسم الصانع ؟ »

– « أى نعم ٠ براون » ٠

– « ومن أى بلد ؟ »

– « من ماجلتون » ٠

فصاح المستر واردل قائلا : «هما ، والله لقد اهتدينا اليهما »

وعاد سام يقول : « صه . أما الولنجتون فقد ذهب الى حى (الاطباء) »

وقال السيد النحيف : « كلا . أأنت واثق ؟ »

فقال : نعم - لأجل الرخصة » .

وعاد واردل يصيح قائلا : « لقد أتينا فى الوقت المناسب هيا ، أرنا الحجرة ، فلا ينبغى أن نضيع لحظة واحدة » .

وتدخل السيد النحيف قائلا : « أرجوك يا سيدى العزيز أرجوك ، الاحتياط ، الاحتياط » . وأخرج من جيبه كيسا من الحرير الاحمر ، ونظر طويلا فى وجه « سام » وهو يخرج من الكيس جنيها ذهبيا .

وتهللت أسارير سام على مشهده

وقال السيد النحيل : « أرنا الحجرة فى الحال ، دون أن تعلن قدومنا »

فألقى سام الحذاء الطويل الممسوح فى ركن وتقدم الجمع يشق الطريق من خلال دهليز مظلم ، ويصعد بهم سلما رحيبا ، ووقف فى نهاية دهليز آخر ، ومد يده وهمس للمحامى وهو يضع النقود فى كفه : « ها هو ذا » .

وتقدم سام بضع خطوات يتبعه الصديقان ومستشارهما القانونى ، حتى وقف بباب هنالك

وغمغم السيد النحيف قائلا : « أهذه هى الغرفة ؟ »

فأومأ سام ايماءة الايجاب .

وفتح الشيخ واردل الباب . ودخل الثلاثة كلهم فى اللحظة التى كان فيها المستر جنجل قد عاد من مهمته ، ووقف يبرز الرخصة أمام العمة العانس

ولم تكد هذه تراهم حتى أطلقت صرخة مدوية وارتمت على مقعد ، وغطت وجهها بيديها ، وطبق المستر جنجل الرخصة فى كفه ودسها فى جيب ردائه ، بينما تقدم الزائرون الثقلاء الى وسط الغرفة ، وصاح واردل وهو لاهث من شدة الغضب يقول : « آنت . انت وغد عجيب ألست كذلك ؟ »

وقاطعه السيد النحيف ، وهو يضع قبعته فوق النضـــد « ياسيدى العزيز .. يا ســـيدى العزيز أرجو أن تفكر من فضلك ـ هذا سب علنى يستوجب رفع قضية تعويض ، هدىء روعك ياسيدى العزيز ـ أرجوك »

وقال الشيخ : « كيف سولت لك نفسك أن تجر أختى من بيتى ؟ »

وعاد السيد النحيف يقول : « هذا كلام صحيح .. صح ، تمام ، يجوز لك أن تسأله هذا السؤال ، كيف سولت لك النفس يا سيدى ؟ »

وقال المستر جنجل بلهفة حادة خشنة : «ومن تكون أنت ؟»

واضطر السيد النحيف من حدة لهجة السائل وخشونته الى التراجع خطوة أو خطوتين

وتدخل واردل قائلا : « من يكون هو أيها الوغد ؟ انه المحـــامى عنى المستر بركر من جرايز ان » .. يا بركر اننى أصر على مقاضاة هذا الشقى ، ومحاكمته وتخريب بيته ،وأنت»

(ملتفتا فجأة الى أخته) « وأنت يا راشل فى هذه السن التى كان أولى بك فيها أن تكونى أحكم وأحجى · ماذا تقصدين بالفرار مع متشرد كهذا ، وتعريض سمعة أسرتك للعـــار ، والاستهداف لهذا البؤس والشقاء ؟ هلمى البسى قبعتك وعودى ادع لنا مركبة يا هذ فى الحال · وهات حساب هذه السيدة · هل سمعت ؟ هل أنت سامع ؟ »

وأجاب سام ، وقد جاء مهرولا حين سمع دق الباب بعنف شديد ، مما يثير الدهشة فى نفس أى انسان لا يعرف أن عينه كانت تطل من خصاص الباب طيلة هذا الحديث الذى دار فى الحجرة : « حالا ياسيدى ! »

وعاد واردل يقول لأختها : البسى القبعة ! »

وقال جنجل : « لا تفعلى شيئا كهذا · وانت يا سيدى اخرج من هنا · ليس لك عمل هنا · السيدة حرة تتصرف كما تشاء ، لأنها تجاوزت الحادية والعشرين »

وصاح واردل باحتقار : « تجاوزت الحادية والعشرين ! قل الحادية والاربعين ! »

وقالت العمة العانس ، وقد تغلب الغضب فى نفسها على اعتزامها الاغماء · « كلا · لم أتجاوزها »

وأجابها أخوها قائلا : « بل تجاوزتها · أنت لا تقلين عن الخمسين ساعة واحدة ! »

وعندئذ أطلقت العمة العانس صرخة شـــديدة وغابت عن رشدها ·

وبادر المستر بكوك الانسانى الرحيم الى مناداة ربة الفندق وهو يقول : « كوبا من الماء »

وصاح واردل فى شدة غضبه : « كوبا من الماء ! هاتوا جردلا فألقوه على بدنها كله ، لكى تفيق • انها تستحق كل ما جرى لها »

وصرخت ربة الفندق الحنون قائلة : « يا لك من حيوان ! ما أشقاك يا أختى ! » وطفأت تلاطفها قائلة : « هلمى أفيقى ! اشربى قليلا من هذا يفقك • لا تستسلمى هكذا ياحبيبتى• » الى غير ذلك • وأخذت ربة الفندق بمعونة احدى الوصيفات تمسح بالخل جبين العمة العانس ، وتضرب كفيها ، وتدغدغ أنفها ، وتفك حمائل ثدييها ، وتعطيهـــا المنبهات ما تعطيه النساء الرحيمات عادة للسيدات اللائى يحاولن تهييج أنفسهن والالتجاء الى التشنج •

وقال سام وقد ظهر لدى الباب : « المركبة جاءت ياسيدى »

وصاح واردل : « هيا بنا • سأحملها وانزل بها السلم » •

وعند هذا الاقتراح عاد التشنج الى العمة العانس بشـــدة مضاعفة •

وهمت ربة الفندق بالدخول فى احتجاج شديد على هــذا التصرف ، وبدأت فعلا تغضب وتسأل واردل هل يحسب نفسه رب الخليقة ، وعندئذ تدخل المستر جنجل قائلا : « مساح ! ادع لى ضابطا •• ! »

وأهاب السيد النحيف بالمساح قائلا : « قف • قف والتفت الى المستر جنجل فقال : « فكر ياسيدى • فكر »

وأجاب هذا : « لن أفكر · انها سيدة نفسها · وسأرى من الذى سيجرؤ على أخذها · الا اذا شاءت هى »

وغمغمت العمة العانس تقول : لا يمكن أن أوخذ ، لا أريد وهنا عاودتها الغشية المروعة » ·

وقال السيد النحيف بصوت خافت وهو ينتحى المستر واردل والمستر بكوك ناحية : «ياسيدى العزيز ، ياسيدى العزيز اننا فى موقف جد حرج ، وقضية مؤلمة جدا ، لا أذكر أننى شهدت يوما أسوأ منها ، ولكن فى الحقيقة ياسيدى ، فى الحقيقة لسنا نملك السيطرة على تصرفات هذه السيدة ، وقد حذرتك

وسأل المستر بكوك « بأى نوع من الترضية تشير ؟ » قبل مجيئنا يا سيدى العزيز أنه لا سبيل أمامنا غير الترضية »

قال : « ان صديقنا ياسيدى العزيز فى موقف لايسر ، فى موقف سيىء جدا فلنقنع بعرض بعض المال ولو خسرناه »

وقال واردل اننى لأوثر أن أخسر شيئا منه على التسليم بهذه الفضيحة ، وتعريض هذه الحمقاء لشقاء مؤبد »

وقال السيد النحيف الهمام : « أظن أن هذا ممكن ··· يامستر جنجل · تفضل معنا الى الغرفة المجاورة لحظة »

وأجاب المستر جنجل الطلب ، ودخل الأربعة حجرة خالية

وبدأ السيد النحيف الحديث بعد أن أغلق الباب بعناية فقال : « والآن ياسيدى ، هل من وسيلة لتصفية هذه المسألة ؟ تقدم خطوة الى هذه الناحية ياسيدى ولو لحظة ·

تعال الى النافذة ياسيدى حيث تتيسر الخلوة لنا · هكذا ، ياسيدى ، أرجو أن تجلس ياسيدى ، والآن ياسيدى العزيز بينى وبينك ، اننا نعرف حق المعرفة أنك هربت مع هذه السيدة من أجل المال ، لاتعبس ياسيدى لاتعبس ، بينى وبينك · نحن نعرف ذلك · ونحن ، أنا وأنت ، من الرجال الذين يعرفون شئون العالم ، ولا يخفى علينا نحن أن هذين الصديقين ليسا كذلك ؟ »

وبدأ وجه المستر جنجل ينطلق شيئا فشيئا ، ويزول العبوس منه ، ولاح شيء يشبه الاختلاج لحظة خاطفة فى عينه اليسرى

وقال السيد النحيف وقد لاحظ هذه الاختلاجة التيأحدثها كلامه : « حسن جدا ·· حسن جدا · والواقع ان السيدة لاتملك شيئا كثيرا ، بل انها عدا بضع مئات ، لاتملك فى الحقيقة شيئا ، قبل وفاة أمها · ولكن أمها ياسيدى العزيز عجوز دردبيس · وصحتها قوية »

وقال المستر جنجل بايجاز ولكن بتأكيد « عجوز ! »

ومضى المحامى يقول وهو يسعل سعلة خفيفة « أى نعم · يا سيدى العزيز · انها عجوز تقريبا ، ولكنها سليلة بيت قديم ، نعم ياسيدى العزيز قديم بكل معنى الكلمة ، لقد جاء مؤسس هذه الاسرة الى ولاية « كنت » حين غزا يوليوس قيصر أرض بريطانيا ، ولم يحدث يوما أن فردا من الاسرة ، اللهم الا واحدا ـ لم يعش الى الخامسة والثمانين ، ولكن هذا الواحد مات شنقا فى عهد هنرى ما ، هنرى هذا أو ذاك ،

والسيدة العجوز فى الثالثة والسبعين فقط الآن ياسيدى العزيز »

وتمهل السيد النحيف وتناول قدرا من سعوطه

وقال المستر جنجل : « وماذا أيضا ؟ »

قال : « والآن ألا تتنشق ؟ · هذا أفضل كثيرا ، عادة كثيرة التكاليف · وانت ياسيدى العزيز شاب ملم بشئون الدنيا وفى امكانك أن تدفع بحياتك الى الامام اذا توافر لك شيء من المال »

وعاد المستر جنجل يقول « وماذا أيضا ؟ »

قال : « هل تفهم مرادى ؟ »

أجاب : « ليس كثيرا »

قال : « ألا ترى ياسيدى العزيز ؟ دعنى أصارحك · ألا ترى أن خمسين جنيها والحرية خير من واردل والانتظار ؟!

وعندئذ نهض المستر جنجل من مجلسه وهو يقول : «لايكفى بل لايكفى ولا نصف الكفاية »

ولكن السيد النحيف أمسك به من زر ثوبه محتجا وهو يقول: حسن ، حسن ، انتظر ياسيدى العزيز · رقممستدير بديع · يستطيع رجل مثلك أن يبلغ به ثلاثة أضعافه فى وقت قصير · ان خمسين جنيها ياسيدى العزيز تعمل عملا كبيرا »

وقال المستر جنجل ببرود « ومائة وخمسون تعمل أكثر »

وعاد السيد النحيف يقول : « حسن ·· ياسيدى العزيز· لايصح أن نضيع الوقت فى تجزئة القش ، قل،قل سبعين ! »

قال : « لايكفى »

وقال المحامى : « لاتذهب ياسيدى العـزيز ، ولا تسرع ، ثمانين ، هلم · سأكتب لك ضكا بها فى الحال » ·

وعاد المستر جنجل يقول : « لاتكفى »

وقال السيد النحيف وهو يمسك به « حسن ، حســن ، ياسيدى العزيز · قل لى أنت ما الذى يكفى اذن ؟ »

وأجاب المستر جنجل · مسألة كلفتنى نفقات كثيرة دفعتها من حبيبى ـ أجور سفر تسعة جنيهات ـ رخصة ثلاثة جنيهات ـ الجملة اثنا عشر جنيها ـ ومائة بصفة تعويض ـ تكون الجملة ١١٢ ـ اخلال بالتعهد وفقدان السيدة ··· »

وقال السيد النحيف بنظرة العارف « نعم· ياسيدى العزيز ـ نعم ولكن دعنا من الفقرتين الاخيرتين ، يعنى مائة واثنىعشر جنيها ، فلنقل مائة فقط ، هيا »

وأجاب المستر جنجل : « مائة وعشرون »

وقال السيد النحيف بنظرة العارف « نعم ياسيدى العزيز صكا بها »

وجلس الى المنضدة لتنفيذ هذا الاتفاق

وقال : وهو ينظر الى المستر واردل : « سأجعل الوفاء بعد غد وفى الوقت ذاته يمكننا أن نأخذ السيدة الآن »

وأومأ المستر واردل ايماءة الموافقة وهو غاضب

وقال المستر بركر : « مائة »

وعاد المستر جنجل يقول : « مائة وعشرون »

واحتج السيد النحيف قائلا : « ياسيدى العزيز »
وتدخل المستر واردل فقال : « أعطه القدر المطلوب ودعــه يذهب »

وتم تحرير « الصك » ودسه المستر جنجل في جيبه
ونهض المستر واردل وهو يقول : « والآن انصرف من هذا المكان فى الحال ! »

وقال السيد النحيف « ياسيدى العزيز ··· »

وعاد المستر واردل يقول : « ولا تنس انه ما كان شيء في هذا العالم ليحملنى على هذا الحل ، حتى ولا الابقاء على كرامة اسرتى ، لو لم أعرف أنك فى اللحظة التى ستذهب فيها والمال في جيبك هذا ، ذاهب الى الشيطان أسرع ماتكـــون خطى ، وأعجل اذا أمكن مما كنت اليه ذاهبا وانت لاتملك منه شيئا »

وعاد السيد النحيف يحتج قائلا : « ياسيدى العزيز ··· »

واستتلى واردل يقول : « اسكت يابركر · وأنت ياسيدى انصرف من الحجرة »

وأجاب المستر جنجل بكل صفاقة : « حــالا ··· وداعا يابكوك ! الى الملتقى »

ولو ان امرءا هادىء الطبع رأى وجه ذلك الرجل العظيــم الذى وسم هذا الكلب باسمه ، خلال الجزء الاخــير من ذلك الحديث،لكاد يعجب لنار الغضب التى تأججت فى عينيه كيف لم تذب زجاجة منظــاره ، فقد كان غضبــه رهيبا جليــلا ، وخيشومه راعشا ، وقبضتا يديه مجتمعتين رغم ارادته ، حين

سمع اسمه ينبعث من فم ذلك المجرم الأثيم ، ولكنه كبح جماح غضبه مرة أخرى ، فلم ... « يسحقه » !

ومضى ذلك الخائن الغليظ يقول وهو يلقى بالرخصة عند قدمى المستر بكوك « خذ وغير الاسم وعد بالسيدة الى البيت ، انها تصلح لطبى » ..

وكان المستر بكوك فيلسوفا ، ولكن الفلاسفة مع ذلك ليسوا الا بشرا يلبسون دروعا تقيهم الطعن والضرب . وقد أصابه السهم ، ونفذ فى دروعه الفلسفية الى صميم قلبه فأصمه . وفى جنة الغضب الذى استولى عليه راح يقذف بالدواة الى الأمام فى جنون ويندفع هو نفسه وراءها ، ولكن المستر جنجل كان قد توارى ، فوجد المستر بكوك نفسه فى أحضان « سام » ! .

وصاح هذا العامل الشاذ الغريب الاطوار « ها ! يظهر ان الأثاث رخيص فى البلد الذى جئت منه ياسيدى . هذا حبر يكتب بنفسه ياسيدى . ألا ترى كيف كتب علامتك على الجدار أيها السيد الكبير ؟ هدىء روعك ياسيدى . ما الفائدة من الجرى وراء رجل ظفر بالحظ ووصل الى الطرف الاخر من الضاحية فى هذه اللحظة ؟ »

وكان عقل المستر بكوك كعقول بقية العظماء حقا مهيأ للاقتناع ، وهو المفكر السريع القوى العارضة فلا غرو اذا كانت لحظة تفكير واحدة كافية لتذكيره بأن غضبه لا أثر له ولا جدوى منه ، فلم يلبث أن هدأ بالسرعة ذاتها التى هاج بها وثار ، وراح يلهث وينظر نظرة حنان وطيبة الى صديقيه

والآن . هل نحدثكم عن العويل الذى جرى حين وجدت

مس واردل نفسها مهجورة ، قد تخلى عنها جنجل الغادر ؟ وهل نحدثكم بشيء مما كتبه المستر بكوك من وصف رائع لذلك المشهد الذى يقطع نياط القلوب ؟ »

ان كناشته التى محت أسطرها دموع العطف الانسانى مبسوطة الساعة منثورة بين أيدينا ، وكلمة واحدة تذهب بها الى أيدى الصفاقين والطامعين ... ولكن كلا ! ينبغى أن نحزم الأمر ، فلا نهز صدر الجمهور برسم ذلك الألم الشديد

وحسبنا أن نقول ان الصديقين والسيدة المهجورة عادوا بحزن ووجوم وبطء الى البيت فى غداة اليوم التالى فى مركبة ماجلتون الكبيرة ، كانت ظلال المساء القاتمة قد غمرت ما حولهم حين وصلوا الى «دنجلى ديل» ووقفوا فى مدخل «ضيعة مانور»

الفصل الحادى عشر

رحلة أخرى ـ وكشف أثرى ـ وتسجيل اعتزام المستر بكوك حضور معركة انتخابية ـ ومخطوط من القسيس الشيخ

وكانت ليلة هدوء وراحة في ذلك السكون التام الذى يحيط بمزرعة « دنجلى ديل » ، وساعة كاملة فى استنشاق انسامها العليلة ، وهوائها العطر ، فى صباح اليوم التالى ، كافيتين لاستجمام المستر بكوك من أثر تعبه الجثمانى الأخير وقلقه النفسى ، فقد غاب هذا الرجل العظيم عن أصحابه ومريديه يومين كاملين ، فلا غرو اذا هو شعر بقدر من السرور والابتهاج لايستطيع الخيال العادى أن يتصوره على حقيقته ، حين تقدم خطوة للسلام على المستر ونكل ، وتحية المستر سنودجراس عندما التقى بهما بعد عودته من رياضته فى بكرة الصباح

وكان السرور متبادلا ، ومنذا الذى ينظر الى وجه المستر بكوك المشرق المتهلل ولا يشعر بهذا الشعور ؟ ولكن بدت على صديقيه غمامة لم تكن لتفوت عين ذلك الرجل العظيم ، أو تخفى على مشاعره وان عجب وحار فى تعليلها ، فقد كان يلوح عليهما معا شىء غريب ، غير مألوف ، بل مزعج أيضا

وقال المستر بكوك وهو يتلقى صاحبيه باليدين ويبادلهما أصدق التحيات والترحاب « وكيف حال طبمن ؟ »

ولم يحر المستر ونكل جوابا وان كان السؤال موجها اليه خاصة أو أكثر من صاحبه ، بل أشاح بوجهه وبدا عليه الاستغراق فى تفكير أليم

وعاد المستر بكوك يقول بجد · « كيف حال صديقنا ياسنودجراس ·؟ انه ليس مريضا ؟ »

وأجاب المستر سنودجراس وقد تحيرت دمعة فى مآقيه كقطرة من قطرات المطر على اطار نافذة « كلا ، ليس مريضا »

ووقف المستر بكوك ينقل عينيه فى صديقيه ·

قال : ونكل ، سنودجراس ، مامعنى هذا ، أين صديقنا ، وما الذى حدث ؟ تكلما استحلفكما بالله ، أناشدكما ، بل آمركما أن تتكلما »

وكانت دعوة المستر بكوك اليهما مقترنة برهبة وجلال لايستطيعان مقاومتها

وهنا قال المستر سنودجراس « لقد ذهب ! »

فصاح المستر بكوك : « ذهب ! ذهب »

وعاد المستر سنودجراس يقول: « ذهب »

وصاح المستر بكوك قائلا « الى أين ؟ »

وأجاب المستر سنودجراس وهو يخرج كتابا من جيبه ويضعه فى يد صديقه : « ليس فىوسعنا غير الحدس والتخمين

بعد قراءة هذا الكتاب ، وقد لوحظ صباح أمس حين وصل كتاب من المستر واردل يقول فيه انه عائد مع اخته ليلا ، ان الكآبة التى كانت مخيمة على صديقنا طيلة اليوم السابق قد أخذت تشتد ، ولم يلبث أن اختفى سحابة النهار كله ، وجاء بهذا الكتاب فى المساء رسول من فندق «الكراون » فى ماجلتون، وقال انه تركه لديه فى الصباح مع تعليمات مشددة بألا يسلم الكتاب قبل حلول المساء »

وفض المستر بكوك الرسالة ، فوجدها بخط صاحبه ، وهى تحوى هذه الكلمات :

« عزيزى بكوك

« انك ياصديقى العزيز بعيد بمراحل من منال كثير »
« من مواطن الضعف الخلقى التى لايستطيع النـاس »
« الغلبة عليها ، ولست تدرى ما مدى مصـاب رجل »
« حين تهجره فجأة انسانة محببة ، ومخلوقة فاتنة ، »
« وحين يقع فريسة لاحتيال مجرم شقى ، جعل يخفى »
« بسمة الخبث والمكر خلف قناع المودة. وأرجو الله أن »
« لايعرضك يوما لمثل هذا المصاب ... ان أى كتاب »
« يرسل بعنوانى هذا : « لذر بوتل ــ قربة الجلد »
« كوبهام ــ كنت » سيجدنى ، اذا فرضنا اننى سأظل »
« حيـا . انى مسـارع من مشهد هذه الدنيـا التى »
« أصبحت قبيحة نكراء فى عينى ، فان انا سارعت من »
« هذا العالم كله ، فرحمة بى ، ومغفرة لى . ان الحياة »
« ياعزيزى بكوك لم تعد تطاق عندى أو تحتمل ، وان »
« الروح التى تحترق فينا لاأشبه بعقدة الحمال يريح »
« عليها المرء أثقال همومه وأحمال متاعبه ، فاذا هى »

« خذلتنا ، لم نعد نطيق لاحمالنا وأعبائنا احتمــالا ، »
« بل نروح تحتهــا ··· لك أن تنبىء راشل ··· »
« آه ··· من ذلك « الاسم ! ··· تراسى طبمن »

وانثنى المستر بكوك يقول وهو يطوى الكتــاب « يجب أن نغادر هذا المكان فى الحال ·· ما كان يجمل بنا أن نمكث فيه، بأى حال ، بعد الذى جرى ، ونحن الآن مضطرون الى السفر لافتقاد صديقنا »

ومشى فى المقدمة صوب البيت

وبادر الى اعلان عزبمته،وكانت دعوات القوم له ومناشدتهم اياه البقاء صادقة ملحة ، ولكن المستر بكوك لم ينثن عن عزمه ولم يلن لرجاء معتذرا بأن عملا كثيرا يقتضيه الاهتمام العاجل به

وكان القسيس الشيخ حاضرا،فانتحى بالمستر بكوك ناحية وأنشأ يقول : « لا أحسبك ذاهبا فى الواقع · أذاهب حقا ؟ »

فردد المستر بكوك القول بأنه فعلا مسافر

وقال السيد الكبير « اذن هاك مخطوطا صغيرا كنت أرجو أن تتاح لى متعة قراءته عليك بنفسى ، فقد عثرت عليه عندوفاة صديق لى من المشتغلين بالطب ، فى مستشفى الأمراض العقلية ببلدنا مع جملة أوراق أخرى ترك لى الخيار بين اتلافها أوالابقاء عليها اذا رأيتها تستحق الحرص عليها · ولا أكاد أعتقد أنه مخطوط حقيقى ، وان كان من المؤكد أنه ليس مكتوبا بخط صاحبى ، ولكن لتقرأه ، ولتحكم بنفسك ، سواء كان حقيقة من وضع رجل مجنون فعلا أو مبينا على تخريفات انسان معذب وهو ما أعتقد أنه الأرجح »

وتناول المستر بكوك المخطوط ، وودع الشيخ الخير الطيب، مبديا له كثيرا من الاحترام وصادق الدعوات

وكان توديع أهل الضيعة الذين أكرموا مثواهم وأحسنوا وفادتهم أشق وأصعب من توديع ذلك الشيخ ، وأقبل المستر بكوك على الفتاتين يقبلهما وقد هممنا أن نقول ، كما لو أنهما ابنتاه ، لكن المقارنة ما كانت تصح وان كان من الجائز أن يبث فى هذا السلام قدرا أكبر من الحرارة ـ كما عانق السيدة العجوز عناق الابن لامه ، وربت بكفه خدود الخادمات فى أبلغ صورة الأبوة وأصدق مظاهرها، وهو يدس في كف كل منهن بعض الادلة المادية على رضاه وارتياحه • وكان تبادل التحيات بينهم وبين مضيفهم الكريم الكبير والمستر ترانديل أبلغ كثيرا من ذلك وأطول أمدا ، ولم يتمكن الأصحاب الثلاثة من الافلات من مكرميهم الا بعد أن نودى مرارا على المستر سنودجراس ، فخرج أخيرا من دهليز مظلم ، وتبعته وشيكا املى وكانت عيناها البراقتان تلوحان قاتمتين على غير العادة ، وراحوا يلقون عدة نظرات الى الضيفة ، وهم سائرون فى طريقهم بخطى بطيئة ، وكم من قبلة حملها المستر سنودجراس الريح ، ردا على شيء يشبه منديل سيدة كان ملوحا به من احدى النوافذ العليا ، حتى بلغوا منعرجا في طريقهم فاحتجب البيت عن انظارهم

ولما وصلوا الى ماجلتون استأجروا مركبة تقلهم الى روشستر ، وكانت شدة حزنهم قد خفت عند بلوغها الى حد سمح لهم بتناول عشاء مبكر شهى فاخر ، وبعد أن ظفروا بمعلومات ضرورية تتصل بالطريق الى الوجهة المقصودة ، عاودوا المسير الى « كوبهام » مع الأصيل •

وكان السير بهيجا ، فقد كان الاصيل جميلا فى أحد أيام شهر يونية ، وكان طريقهم يشق صميم غابة مترامية ظليلة ، تهب عليها الأنسام فترسل حفيفا رفيقا وسط أوراق الشجر الالفاف ، ويزيدها لطفا وجمالا شدو الأطيار الجامحة فوق الأغصان ، ويتسلل خلالها اللبلاب والطحلب فى عناقيد كثيفة متلوية حول الدوح ، ويكسو العشب الناضر اللين الأرض بساطا من سندس ، وما زالوا يسيرون فى وسط تلك الغابة حتى ألموا على أرض فضاء ، وبستان نضير ، وبناء قديم يدل طرازه الأثرى الجميل على أنه يرجع الى عهد الملكة «اليزابث». وتبدو على كل جانب صفوف طوال من أشجار السرو الرائعة الفخمة وأسمطة من « الدردار » ، وتشاهد قطعان كبيرة من الغزلان وهى ترعى الكلأ الندى الصبيح ، وبين الفينة والفينة يتراءى أرنب برى وجل يعيث فى الأرض ويجول فى رحابها، بسرعة الظلال التى تلقيها السحب الخفاف الخاطفة على ذلك المشهد المشمس كأنها أنفاس عابرة انبعثت من أعماق صدر الصيف

وقال المستر بكوك وهو يجيل العين فيما حوله : « يخيل الى أنه لو كان هذا هو الموضع الذى يأتى اليه كل الذين يشكون مما يشكو منه صاحبنا لعاودهم وشيكا تعلقهم القديم بهذا العالم »

وقال المستر ونكل « وهذا رأيى أيضا »

ومضى المستر بكوك ، بعد أن أوصلهم المسير نصف ساعة الى القرية يقول : « وفى الحق.ان هذا الموضع أصلح مايختاره كاره الناس ، وأجمل نزل وأشهى مستقر رأيته فى حياتى »

وأبدى كل من المستر ونكل والمستر سنودجراس موافقته أيضا على هذا الرأى

وبعد الاهتداء الى حانة لذربوتل ، وهى حانة قروية نظيفة رحيبة لشرب الجعة ـ دخل المسافرون الثلاثة وسألوا فى الحال عن سيد يدعى « طبمن »

وقالت ربة الحان « أر السادة قاعة الجلوس ياتوم ! »

وفتح غلام ريفى ضخم البدن بابا فى نهاية الردهة فدخل الأصدقاء الثلاثة حجرة مستطيلة خفيضة السقف فرشت بعدد كبير من المقاعد ذات ظهور ومساند مرتفعة ووسائد من الجلد غرائب الاشكال ، وازدانت جدرانها بعدة رسوم قديمة مختلفة الالوان وصور أثرية أخرى ، وفى طرفها الاقصى تقوم مائدة مكسوة بغطاء أبيض ، وقد صفت عليها دجاجة مشوية ، ولحم خنزير وشراب وما اليه ، وقد جلس اليها المستر طبمن ، وهو أبعد مايكون شبها بالرجل الذى أراد أن يودع العالم ويترك الحياة

وما أن دخل الصحب عليه حتى وضع السكين والشوكة فوق المائدة ، وتقدم للقائهم تبدو عليه سمات الكآبة والأحزان

قال وهو يتناول يد المستر بكوك « لم أكن أتوقع لقاءكم هنا ، ان هذا منكم لكريم »

وقال المستر بكوك وهو يجلس ويمسح عن جبينه العرق الذى تصبب من طول المسير : « آه أكمل غداءك ، وتعال سر معى ، فانى أريد أن أتحدث اليك على انفراد »

ففعل « طبمن » كما طلب اليه ، وبعد أن انعش المستر

بكوك نفسه برشفة طيبة من الشراب لبث ينتظر صديقه حتى ينتهى من طعامه على مهل ، ولكن الطعام انتهى عاجلا فانطلقا يسيران معا

وكانا يبدوان خلال فترة تقرب من نصف ساعة رائحين غادين فى فناء الكنيسة ، ويلوح المستر بكوك من بعيد منهمكا فى مقاومة الامر الذى اعتزم صديقه الاقدام عليه ، وليس ثمة فائدة من تكرار أقواله هنا وحججه ، اذ ليت شعرى أية لغة يمكن أن تعبر عن تلك القوة التى راح صاحب تلك الحجج البادهة يستعين بها على شرحها ، ولا يهمنا أن نعرف هل كان المستر طبمن قد برم فعلا بالعزلة التى أرادها ، أو شعر بأنه العاجز كل العجز عن مقاومة تلك المناشدة البليغة التى سمعها من صاحبه ، وانما كل مايهمنا انه سلم فى النهاية وانثنى عن المقاومة ، وأنشأ يقول انه لم يعد يهمه أن يقضى البقية التعسة من أيامه فى هذه الدنيا ، ولكن مادام صديقه قد أصر على أن يصحبه ورضى برفقته الذليلة ، فلا يسعه الا قبول مقاسمته أسفاره ومخاطره

وابتسم المستر بكوك،وتصافح الصديقان ، وعادا أدراجهما ليوافيا رفيقيهما الآخرين

وفى تلك اللحظة بالذات تواتى للمستر بكوك ذلك الكشف الخالد الذى كان موضع فخار أصدقائه واعتزازهم ، ومثار حسد كل عالم أثرى فى هذا البلد وسواه ، فقد حدث وهما يجتازان الفندق ويبتعدان قليلا فى بعض أرجاء القرية أن تذكرا البقعة بالذات التى يقوم فيها ، فتلفتا وراءهما ، وعندئذ وقعت عين المستر بكوك على حجر صغير مكسور يبدو جزء منه مدفونا فى

الأرض أمام باب كوخ ، فوقف لحظة ينظر ، ثم أنشأ يقول : « ان هذا لشيء عجاب ! »

وقال المستر طبمن ، وهو ينظر بلهفة الى كل ما هو منه قريب ، ويحدق في كل شيء ببصره ، عدا الشيء الذى يعنيه صاحبه « ماهو هذا العجاب ؟ ياعجبا ··· ما الخطب وما الامر ؟ »

وكانت هذه العبارةالاخيرة صيحة تنم على الدهشة الشديدة، سببها أنه رأى المستر بكوك في حماسته للكشف وولوعه بالتنقيب ، يجثو على ركبتيه أمام ذلك الحجر الصغير ، ويشرع فى ازالة الغبار الذى علاه بمنديله

وقال المستر بكوك « أرى نقشا هنا » ···

وقال المستر طبمن « أممكن هذا ؟ »

ومضى المستر بكوك يقول ، وهو يحكه بكل ما أوتى من قوة، وينظر بانتباه بالغ من خلال منظاره : « انني ألمح صليبا وأتبين حرف الباء ، ثم حرف « التاء » هذا شيء من الخطر بمكان ، انه بعض نقوش قديمة لعلها ترجع الى ماقبل قيام الملاجىء القديمة فى هذا الموضع بأمد طويل »

ودق برفق باب الكوخ ، فخرج له رجل يعمل فى الأرض ، فبادره المستر بكوك الخير الكريم بالسؤال قائلا : « هل تعرف ياصديقى كيف أتى هذا الحجر الى هنا ؟ »

وأجاب الرجل بأدب قائلا : « كلا : لا أعرف ياسيدى ، انه كان هنا قبل أن أولد أو يولد أحد منا بعهد طويل » ·

فنظر المستر بكوك الى رفيقه نظرة المنتصر

وانثنى يسأل الرجل وهو يهتز من شدة الفضول : « انك انك .. احسبك لا توليه اهتماما خاصا فهل ترضى ان تبيعه الآن »

وسأل الرجل وقد بدت على وجهه من الأمارات ما يغلب على الظن أنه ينم عن المكر الشديد . « ولكن منـــذا يرضى أن يشتريه ؟ »

وقال المستر بكوك : « سأعطيك عشرة شلنات فى الحـــال اذا أنت حملته من مكانه لأجلى »

ومن السهل أن تتصور مبلغ الدهشـــة التى استولت على القرية ، حين رأوا المستر بكوك بعد أن تم انتزاع ذلك الحجر الصغير بضربة فأس واحدة يحمله بجهد شـــديد بكلتا يديه الى الفندق ، ويضعه فوق المنضدة بعد مسحه بعناية وتنظيفه

أما فرح البكوكيين وسرورهم به فقد جاوزا الحدود ، حين رأوا بعد الصبر والمثابرة على التنظيف والتشطيف والحك والدعك، أن جهدهم كلل بالنجاح

وكان الحجر غير مستوى الاطراف ، وكانت الحروف المنقوشة عليه متباعدة ، وغير منتظمة ، ولكن الجزء التالى من النقش كان جليا واضحا

ب آ ل س ت	B I L S T
أ م	U M
ب ش ى	P SH I
س م	S. M.
أ ر ك	A R K

ولم تلبث عينا المستر بكوك أن برقتـــا بريق سرور بالغ ،

وقد جلس ينظر الىهذا الاثر النفيس الذى كشفهمنهوم العين، فقد حقق مطمعا من أكبر مطامعه ، وقد تواتى له فى اقليم عرف بكثرة مافيه من آثار العصور الغابرة ، وفى قرية لاتزال تحوى شيئا من تذكارات الأجيال الماضية ، وقد تواتى له ، وهـــو رئيس نادى بكوك أن يكشف نقشا غريبا عجيبا ، لانزاع فى قدمه ، نقشـــا غاب عن أعين كثير من العلماء الذين سبقوه ، حتى لم يكن يصدق حواسه ، أو يعتمد على شهادة مشاعره

وقال لاصحابه « هذا ... هذا هو الذى يحدونى الى تقرير خطتى ، سنعود إلى المدينة غدا »

وصاح مريدوه المعجبون به « غدا ؟ »

قال : « أجل غدا ، ان هذا الكنز الثمين يجب أن يوضـــع فى الحال حيث يتسنى فحصه والتقصى فى دراسته وفهمه على حقيقته ، وأدى سبب اخر لاتخاذ هذا التدبير ، وهو انه بعد بضعة أيام ســــيجرى انتخـــاب عن دائرة « ايتنزول » التى سينولى فيها المستر بركر ، وهو سيد التقيت من عهد قريب به ، تأييد أحد المرشحين ، وفى نيتى أن نشهد وندرس بدقة مشهدا ممتعا لنفس كل انكليزى أقصى غاية الامتاع »

وصاح الرفقاء الثلاثة فى نفس واحد بحماسة « سنشهده حتما ! »

وأدار المستر بكوك عينـــه فيما حوله ، فلم تلبث حميـــة مريديه وشدة تعلقهم به أن أججتا جذوة الحماسة فى صدره

لقد كان زعيمهم ، وقد أحسن هذه الزعامة حقا

قال : « لنحتفل بهذا الاجتماع السعيد فى شراب ومرح »

وتلقى أصحابه هذا الاقتراح الجديد بمثل ماتلقوا بهالاقتراح الأول من الموافقة والارتياح العام ، وبعد أن تولى بنفسهايداع الحجر الخطير الشأن جوف صندوق صغير من الخشب اشتراه من ربة الفندق لهذا الغرض ، جلس فى مقعد رحيب عند رأس المائدة وترك المساء ينقضى كله فى مهرجان وسمر

وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة وهو وقت متأخر بالنسبة لسكان قرية كوبهام الصغيرة ـ حين أوى المستر بكوك الى غرفة النوم التى كانت قد أعدت لاستقباله ، ومضى يفتح النافذة ، ويضع مصباحه على المائدة ، ويسبح فى زاخر من الأفكار والتأملات بسبيل الأحداث السريعة التى جرت فى اليومين السابقين

وكان الزمان والمكان معا ملائمين للتأمل صالحين للتفكير ، فلم ينتبه منهما الا على دق ساعة الكنيسة ـ الثانية عشرة ، وكانت الدقة الاولى قد رنت رهيبة الوقع فى أذنه ، ولكن السكون حين كفت الساعة عن الدق بدا غير محتمل ، كأنه شعر بأنه قد فقد رفيقا ، فاضطربت أعصابه ، وهاجت هائجته ، فأسرع الى خلع ثيابه ، ورفع المصباح فوق طنف المدفأة وأوى الى فراشه

وكل انسان منا قد جرب تلك الحالة النفسية السيئة التى يحاول فيها الشعور بالتعب الجثمانى مغالبة الارق عبثا ، ومقاومة استعصاء النوم عليه . وكانت تلك حال المستر بكوك فى هذه اللحظة ، فقدراح أولا يتململ على أحد جنبيه، ثم مضى ينقلب على الجنب الآخر ، ويغمض عينيهبالحاح كأنما

يداعب النوم مداعبة ، ويغرى نفسه بالاستسلام اليه ٠٠٠ ولكن ذلك كله لم يجد نفعا ، ومهما يكن من شيء ، سواء كان الاجهاد الذى عاناه ولم يكن يألفه ، أو كانت حرارة الجو ، أو البزاندى والماء ، أو نومه فى فراش غريب عليه ، فقد لبثت أفكاره تعود بشكل متعب الى الصور البشعة المعلقة فوق الجدران فى الطبقة الاولى من الفندق ، والقصص القديمة التى أثارتها فى فترة المساء ، وبعد أن قضى نصف ساعة فى مغالبة غير منتجة وصل الى قرار متعب ، وهو أن لافائدة من محاولة النوم ، ونهض من فراشه ، فارتدى بعض ثيابه وهو يقول لنفسه ان تأدية عمل ما خير من الرقاد فى الفراش وتصور كل ضروب المفزعات ٠ وأطل من النافذة ، وكان الظلام شديدا ، فعاد يمشى فى الغرفة ذهوبا وجيئة ، وبدت الغرفة لخاطره قفرا موحشة

وبعد أن لبث لحظة يدور بين النافذة والباب ومن الباب الى النافذة ، خطر بباله لأول مرة ذلك « المخطوط » الذى تلقاه من القسيس ، فاستروح الى الفكرة ، وبدا له أنه اذا لم يجد قراءته متعة فلعله سيدفع به الى النوم ، فأخرجه من جيب ردائه وقرب مائدة صغيرة من سريره ، وأصلح ذبالة المصباح ووضع المنظار على عينيه ، وتهيأ للقراءة ٠ وكان الخط غريبا ، والورق ملطخا ممحوا فى عدة أجزاء منه ، وما لبث العنوان أن أحدث هزة فجائية فى نفسه كذلك ، فلم يتمالك نفسه من القاء نظرة ترقب وتوجس حول الغرفة ، ولكنه عاد يفكر فى سخف الاستسلام لهذا الشعور ، فأصلح من ذبالة المصباح مرة أخرى ، وأنشأ يقرأ القصة التالية :

قصة مجنون
كتبها بخط يده

نعم ... قصة مجنون ... ما كان أشــد وقع هذه الكلمة في قلبي ، لو قيلت منذ عدة سنين ، ولكم كانت ستثير الرعب الذي كان يتملكني أحيــانا ، ويجعــل الدم يصفر ويطن في عروقي ، حتى ليقف العرق البارد من الخوف قطرات كبــارا على بشرتي ، وترعش فرائصي من الفـــزع ! ولـــكني الآن استطيب ذلك الوصف واستروح اليه ، انه اســـم بديع ، أروني الملك الذي يخشى من عبسة غضـــبه مثــل مايخشى من حملقة عين المجنون ، أو تروح حباله ومقصلته يوما مضمونة نصف ضمانة قبضة المجنون على الرقاب ، أجل ، أجل ! انه لشيء عظيم أن يكون المرء مجنونا ، وأن يطل عليه كما يطل على الاسد المفترس من خلال قضبان قفصه الحديدية ، وأن يصرف بأسنانه ويعوى ويزمجر في سكينة الليل الطويل وهــدأته ، على رنين أصفاده ، ولحن سلاسله الثقال ، وأن ينقلب ويتلوى بين أكداس الفتن ، نشوان ثملا بتلك الموسيقى العذبة الانغام. مرحى لدار المجانين انها لمكان نادر ، وموضع بديع !

اني لاذكر أياما كنت فيها خائفا من أن أصبح مجنــونا . أياما اعتدت خلالها أن أستيقظ من نومي فأجثو ضـــارعا الى الله أن ينجيني من النقمة التي حلت بقومي ، وكنت فيها أنفر من مشهد المرح والفرح ، لاختبيء في مكان منعزل ، أو ركن مهجور ، وأقضى الساعات الطوال مراقبا سير الحمى التي كانت تأكل عقلي أكلا ، فقد كنت أعلم أن الجنون ممتزج بدمي ذاته امتزاجا ، مختلط بنخاع عظامي اختلاطا ، وأن جيــلا بأكمله مر سليما لم تظهر فيه على أحد من أهلي أعراض هــذا المرض

وأدلته ، واننى سوف أكون أول من سيتجدد فيه ويعاود الظهور عليه · لقد كنت أعلم أن الامر سيكون كذلك «حتما» ، لانه هكذا كان من قبل ، وكذلك سيكون من بعد ، فكنت كلما قبعت فى ركن مظلم من غرفة مزدحمة بالناس ورأيتهم يتهامسون ويشيرون الى ، ويديرون أعينهم نحوى، أيقنت انهم انما كانوا يتحدثون عن هذا المخلوق الذى قضى عليه بالجنون، فكنت أتسلل منصرفا الى العزلة والاكتئاب

وكذلك فعلت عدة سنين · أى والله عدة سنين طوال · ان الليالى هنا طويلة أحيانا ، طويلة مفرطة فى الطول ، ولكنها ليست شيئا يذكر اذا قيست بتلك الليالى القلقة ، التى كانت تتخللها الأحلام المفزعة ، والرؤى البشعة ، التى كلما ذكرتها الآن جعلت الدم يجمد فى عروقى · لقد كانت تتراءى لى فى زوايا الحجرة صور ضخمة مهزوزة ذوات وجوه ماكرة، وسحنات مستهزئة ساخرة ، تقترب منى فتنحنى ليلا فوق مضجعى ، لتغرينى بالجنون وتزينه لخاطرى · لقد مضت تحدثنى فى همس خافت أن أرض البيت القديم الذى مات فيه جدى لابى ملطخة بدمه ، وانه هو الذى أراقه بيده ، فى ثورة جنون استولت عليه ، فكنت أدخل أناملى العشر فى أذنى حتى لا استمع الى حديثها ، ولكنها كانت تصرخ فى رأسى حتى تدوى أرجاء الحجرة بصراخها ، وكانت تقول لى ان الجنون كان قد هجع وسكن قبل جدى لابى بجيل من الزمان ولكن جده هو غاش أعواما مقيد اليدين بالاصفاد حتى لايتمكن من تمزيق جسده بهما وتقطيع أوصاله اربا · وكنت أعلم أن الحق هو ماقالت ·· كنت أعرف ذلك حق المعرفة ، وقد اهتديت اليه قبل ذلك بسنين ، وان حاولوا اخفاء هذه الحقيقة عنى · ها · ها · لقد كنت أمكر منهم وأدهى ، وان حسبونى يومئذ مجنونا ·

وأخيرا استولى الجنون على • فعجبت لنفسى كيف كنت من قبل أتوجس منه خوفا • وأنا الآن استطيع أن أشق طريقى فى هذا العالم ، وأضحك وأصرخ بين خيار أهله وصفوة بنيه• لقد أدركت اننى مجنــون • ولكن الناس لم تخطر بأذهانهـم شبهة ولا ريبة فى أننى كذلك • ولكم رحت أعانق نفسى من فرط السرور كلمــا فكرت فى الخدعة البديعــة التى مضيت أخدعهم بها بعد تلك الاشارات التى كانوا يشيرون بها نحوي، والسخرية التى ينظرون بها صوبى ، حين لم أكن مجنونا ، بل كنت موجسا فقط من أن أصبح كذلك فى يوم من الأيام ، ولكم كنت أضحك فرحا واغتباطا كلما وجدتنى منفــــردا ، وتمثلت فى خاطرى كيف كتمت عنهــــم سرى ، وكم تخيلت أصدقائى المشفقين وهم مسارعون الى الابتعاد عنى والانفضاض من حولى ، اذا هم عرفوا الحقيقة وأدركوها • ولكم هممت بأن أصرخ من فرط اللذة،كلما خلوت الى طعام برجل منهم ضحوك ممراح ، وتصورت كيف سينقلب وجهــــه شاحبا مسفوعا ، وكيف سيطلق للريح ساقيه اذا هو عرف ان هــذا الصديق العزيز الذى يجلس بقربه ، ويشحذ سكينا لامع النصــــل فى يده ••• مجنــون ، أوتى كل القــوة ، ونصف الارادة ، فى تغييبه ذلك النصل فى صميم قلبه • أواه • لقد كانت حيــاة مرحة مليئة بالبهجة واللذات !

لقد أصبح اليسار فى هذا العالم لى ، والثراء يتــدفق على تدفقا ، وأنا أعربد وألهو بنعم ومتع زادها أضــعافا مضاعفة شعورى بسرى المكتوم • لقد ورثت عقارا ، وخدعت القانون، القانون ذاته المديد البصر كعين النسر ، فأين كل ذكاء أصحاب العقول السليمة الحداد الابصار ؟ أين براعة المحــامين المداريه

الذين لاينثنون عن اكتشاف نقص ولو يسير ، أو البحث عن أقل مخالفة للقانون ؟ ان مكر المجنون قد فاق مكرهم جميعا ٠٠

وكان المال فى يدى ، فكم تملقنى الناس وكم تلطفوا وجروا فى أذيالى ، ومضيت أنفق بسخاء ، وأفرط فى البذل ٠ ولكم مدحنى الناس وأشادوا بى ! وكيف ذهب أولئك الاخوة الثلاثة المتكبرون المتغطرسون يتطامنون ويذلون لى ويقفون خاشعين أمامى ، وكيف جعل أبوهم الشيخ الاشيب أيضا يولينى الاجلال ويخاطبنى بالاحترام والصداقة المتفانية ٠ لقد كان يعبدنى عبادة ! وكانت للشيخ ابنة ، هى للاخوة الثلاثة أخت ، وكان الخمسة فقراء ، وكنت غنيا ، فلما تزوجت الفتاة رأيت ابتسامة انتصار تخطف على وجوه أهلها المحاويج ، حين رأوا خطتهم المرسومة قد نجحت وأدركوا اننى وقعت لهم غنيمة باردة ٠ ولكن كان الابتسام أولى به أن يكون من جانبى ، فقد كنت أحق منهم بأن ابتسم وأضحك وأقهقه وأقطع شعرى تقطيعا وأتمرغ فوق الارض صارخا من المرح والسرور لانهم لم يكونوا يدرون انهم زوجوا الفتاة لرجل مجنون ٠

ولنقف هنا لحظة لنسأل هل تظنونهم كانوا منقذيها ، اذا هم عرفوا خافية أمرى ؟ أسعادة أختهم أولى ، لم ذهب زوجها؟ ان أقل ريشة أنفخها فى الهواء لتعدل السلاسل البهيجة التى تعذب بدنى ٠

ولكنى على فرط مكرى وخداعى كنت فى أمر واحد مخدوعا. فلو لم أكن مجنونا لاننا معاشر المجانين على حدة ذكائنا وشدة فطانتنا ، نضل أحيانا وتفوتنا أشياء كثيرة ، لأدركت أن الفتاة كانت تؤثر أن توسد تابوتا مظلما وهى متخشبة باردة خامدة الانفاس ، على أن يساق بها عروسا محسودة الى بيتى الفخم

المتوهج الاضواء • لقد كان أولى بى أن أعرف أن قلبها يهفو الى ذلك الشاب الأسود العينين الذى سمعت اسمه مرة وهى تلفظه فى نومها المضطرب • لقد ضحى بها عروسا لى ، لتنقد من الفاقة ذلك الرجل العجوز الأشيب وأخوتها المتكبرين •

ولست أتذكر الآن شخوصا ووجوها ، ولكنى أعرف أن الفتاة كانت حسناء • لقد كنت أعرف عن يقين أنها كذلك ، فقد كنت فى الليالى الصافية القمراء ، أستيقظ من نومى ، فأشهد قواما نحيلا ، وقدا أهيف واقفا حيالى ساكنا لا يعير حراكا فى ركن من هذا المحبس الانفرادى ، قوام امرأة ذات شعر فاحم مستطيل تتدلى ذوائبه على ظهرها ، ولا تحركه ريح من رياح هذه الدنيا ، وعينين مستقرتين على وجهى ، لا تطرفان ولا تغمضان • صه ! ان الدم ليبرد فى عروقى وأنا أكتب هذه السطور • ان ذلك القوام هو « قوامها » وان الوجه الشاحب ، والعينين زجاجيتان ، ولكنى أعرفهما حق المعرفة • ان ذلك القوام لا يتحرك أبدا ، كما تفعل الأشباح الأخرى التى تملأ هذا المكان أحيانا • ان ذلك القوام لأشد رهبا وأكثر رعبا لى من تلك الأرواح التى كانت تغرينى بالجنون منذ عدة سنين • انه قادم من القبر لتوه وساعته ، فهو أشبه بالموت كل الشبه •

ولبثت قرابة عام كامل أرى ذاك الوجه يزداد شحوبا ، وأبصر العبرات تتسلل الى خديها الحزينين ولا أدرى لذلك سببا • ولكنى اهتديت أخيرا اليه ، لانه كان من المستحيل أن يظل خافيا على طويلا • لم تكن تطيقنى ، ولم يخطر ذلك يوما بخلدى • لقد كانت تحتقر ثرائى ، وتمقت الفخفخة التى كانت تعيش فيها ، ولم أكن أتوقع ذلك • لقد كانت تحب غيرى ،

وما كان ذلك ليدور يوما فى خاطرى · واستولت على نفسى أحاسيس غريبة ، وتملكتنى أفكار ، تدفعها الى خاطرى قوة خفية مجهولة ، فتدور كالدوامة حول عقلى · لم أكن أكرهها ، وان كنت قد كرهت الفتى الذي ظلت تبكى من أجله · لقد رثيت ، نعم لقد رثيت لها ، فى تلك الحياة التعسة التى قضى بها عليها أهلها الجامدون القساة الألمانيون · وكنت أعلم أنها لن تعيش طويلا ، ولكنى تصورت أنها قبل أن يدركها الموت قد تلد مخلوقا منحوسا مقدرا عليه أن يورث أبناءه من بعده الجنون المتنقل فى ذرارينا ، فكان تصورى لهذا كله دافعا دفعنى الى تقرير خطتى · لقد اعتزمت أن أقتلها

فكرت عدة اسابيع فى استخدام السم ، ثم الالقاء فى اليم، وبعدئذ فى الاحراق،وراقنى مشهد البيت الكبير ولهب النيران مندلعة فى جنباته ، وزوجة المجنون محترقة فى ناحية منه مستحيلة رمادا · وتصورت أيضا أضحوكة دفع مكافأة كبيرة، ومنظر انسان عاقل يترنح فى الفضاء عقابا على فعلة لم يأتها · وذلك كله نتيجة مكر مجنون · فكرت كثيرا فى هذا ولكنى عدلت أخيرا عنه · آه ! ما أشد اللذة التى كنت أحسها ، وأنا أشحذ الموسى يوما بعد آخر ، واتحسس نصلها المرهف ، وأتمثل الدم المتحبس الذى ستحدثه ضربة واحدة من نصلها الرفيع ·

وجاءتنى أخيرا تلك الارواح القديمة التى كانت من قبل توافينى ، فهمست فى أذنى ان الوقت قد حان ، ودست الموسى المفتوحة فى كفى ، فأمسكتها بقوة ونهضت برفق من فراشى ، وانحنيت فوق زوجتى النائمة ، وكان وجهها مدفونا فى راحتيها ، فأزحتهما عنه بلطف فسقطتا متراخيتين فوق

صدرها · لقد كانت تبكى لانى رأيت العبرات لاتزال ندية على خدها · وكان محياها ساكنا هادئا ، بل حين أطللت عليه أشرقت ابتسامة ساجية على قسماته المصفرة · فألقيت يدى برفق على كتفها ، فأجفلت ، كأنه حلم عابر ·· فعدت انحنى فوقها ، وعندئذ صرخت واستيقظت ···

حركة واحدة من كفى ، فاذا هى خامدة الى الابد ، لاتستطيع صراخا ، ولا تخرج صوتا · ولكنى ذعرت ، وتراجعت ، لقد كانت نظراتها مستقرة على وجهى ، فانزويت منها رعبا ووجلا· ولست أدرى كيف حدث ذلك لى · بل لقد خارت حيالها عزيمتى ، ونهضت من الفراش ، وهى لاتزال ترمقنى بنظراتها، فارتجفت ، وكانت الموسى فى يدى ، ولكنى لم استطع حراكا ، ومشت الى الباب ، وما كادت تقترب منه حتى تلفتت ،وتولت بعينيها عن وجهى · لقد زال السحر·فوثبت نحوها وأمسكت بذراعها ، فسقطت فوق الارض مرسلة صرخة بعد صرخة

وكان فى وسعى عندئذ أن أقتلها بغير مقاومة ، ولكن الفزع ساد البيت ، وطرق سمعى وقع أقدام فوق مدارج السلم ، فرددت الموسى الى موضعها المألوف فى أحد الادراج ، وفتحت الباب ، ورفعت صوتى أطلب النجدة

فجاءوا ·· واحتملوها الى فراشها ، فرقدت فيه ساعات وهى هامدة لاحياة ولا حراك بها · ولكن حين عاودتها الحياة والنظرة والكلام ، تخلت حواسها عنها ، فجعلت تهذى هائجة ثائرة

ودعى الاطباء ، وكانوا رجالا أساطين فى عملهم ، أتوا الى باب دارى فى مركبات فاخرة ، وجياد مطهمة ، وخدم فى ثياب

مزخرفة ، ولبثوا يترددون على سريرها عدة أسابيع ، وعقدوا اجتماعا كبيرا ، وتشاوروا فى همس داخل حجرة أخـــرى ، وانتحى أبرعهم وأشهرهم ناحية بى ، وقال لى ، أنا المجنون ، أن استعد لسماع ماهو أنكى وأدهى • لقد أبلغنى أن زوجتى مجنونة ! وكان واقفا بجانبى عند نافذة مفتحة ، وعيناه تنظران الى وجهى ، ويده ملقاة فوق ذراعى ، وكان فى وسعى بحركة واحدة ان أقذف به الى الشارع • ولو فعلت لكان فى ذلك متعة يندر أن يكون فى الدنيا متعة مثلها • ولكنى خليته ولم أفعل• فقد كان سرى معرضا للخطر ، فأمسكت ، وبعد بضعة أيام نبأونى أنه لابد من وضعها تحت رقابة ، ولا غناء عن تعيين حارس لهـــا • فذهبت الى الحقول حيث لايستطيـــع أحـــد أن يسمعنى وضحكت ملء صـــدرى حتى ردد الفضـــاء أصـــدية صرخاتى وضحكاتى

وماتت فى غداة اليوم التالى ، وتبعهـــا الشيخ الأشيب الى القبر ، وذرف الأخوة المتكبرون دمعة على جسد المخلوقة التى كانوا فى حياتها ينظرون الى ما تعانيه من آلام نظرات قاسية كأنهم جلمود من صخر أصم • وكان ذلك كله غـــذاء لفرحى المكتوم ، فجعلت أضحك من خلف المنديل الأبيض الذى قربته من وجهى ، ونحن عائدون أدراجنا من دفنها ، « حتى أغرورقت بالدموع عيناى •• !

ولئن كنت قد نفذت غرضى وقتلتها ، فقد ظللت قلقا منزعجا ، وشعرت بأنه لن ينقصنى وقت طويل حتى يعرف الناس سرى حتما ، ولم أعد أستطيع أن أخفى المرح الثـــائر ، والسرور الهائج ، اللذين كانا يغليان فى جوانحى ، ويجعلاننى ، كلمـــا خلوت الى نفسى فى البيت ، أصفر وأصفق ، وأرقص وأزمجر

وأصرخ صراخا عاليا ، وكنت كلما خرجت وشهدت الناس مسرعين فى الطريق ، أو ذاهبين الى المسرح لمشاهدة التمثيل ، أو سمعت أنغام الموسيقى ، أو رأيت القوم يرقصون ،شعرت من فرط الفرح انى قادر على أن أندفع نحوهم ، وأمزقهم اربا، وأعوى من اللذة عواء ، ولكنى كنت أصرف بأسنانى وأضرب الأرض بقدمى ، وأغيب أظفارى الحداد فى كفى وأكبت رغبتى، فلم يكن أحد يعرف بعد اننى مجنون ٠

وأذكر ٠ وان كان ما أذكره آخر الاشياء التى لبثت قائمة فى خاطرى ، لاننى الآن أصبحت أخلط بين الحقائق وبين أحلامى،ولكثرة أعمالى هنا واستمرار نقلى من موضع الى آخر، لا أجد متسعا من الوقتأمامى لكىأفصل بين الحقائقوالأوهام لاضطراب غريب يسودها جميعا ، وفوضى عجيبة تغمرهاجملة أذكر كيف تركت سرى أخيرا ينطلق من مكمنه ٠ ها ٠ ها ٠ أحسبنى أشهد الآن نظراتهم المروعة الى وجهى ، وأحس الراحة والسرور فى دفعهم بقوة عنى ، وضرب وجوههمالمصفرة بجمع كفى ، ثم أطلق للريح ساقى ، تاركا الناس صائحين صارخين فى أثرى ٠ ان قوة عملاق جبار تتملكنى كلما فكرت فى ذلك كله أو تمثله ٠ أنظر الى هذا القضيب الحديدى كيف يلتوى من قبضتى ، حين أهيج وتثور ثائرتى ، لقد أصبحت قادرا على انتزاعه من مكانه ٠ كما انتزع عودا من العوسج أو فرعا من الفروع ، ولكن هنا دهاليز طويلة ذوات أبواب كثيرة ، فلا أظننى مستطيعا أن أهتدى الى طريقى من خلالها ، ولو استطعت ، فلست أجهل ان هناك أبوابا من حديديحرصون على بقائها موصدة بالاقفالوالمزاليج ، لأنهم يعرفون أى مجنون ذكى بارع أنا ٠ وهم فخورون بأن يبقونى هنا ليشهدنىالناس وأعترض عليهم ٠

دعنى أنظر ! • أى نعم ! لقد أخرجونى • وكان الليل قد أوهن حين بلغت دارى • وكان أشد الاخوة الثلاثة كبرياء وعجرفة منتظرا وصولى ، وذكر جيدا انه قال انه كان يرتقب رؤيتى لمسألة عاجلة • لقد كنت أكره ذلك الرجل بكل كراهية مجنون • ولكم من مرات تلهفت أناملى على تمزيقه • وقيل لى انه فى البيت يرتقبني ، فمرقت صاعدا السلم اليه ، وأمرت الخدم بالانصراف ، وكان الوقت متأخرا ، ونحن وحدنا ، لأول مرة •

وحرصت على أن أشيح بعينى عنه أولا لانى كنت أعلم انه كان يعرف ـ ولكم كان اغتباطى بأنه يعرف ـ ان بريق الجنون كان ينبعث منهما كالشرر • وجلسنا بضع دقائق صامتين وأخيرا بدأ هو الكلام ، فقال ان اسرافى فى الأيام الأخيرة ، وبعض الاقوال الغريبة التى صدرت منى عقب وفاة أخته ، كانت اهانة لذكراها ، وان عدة ظروف أخرى وأمور فاته فى أول الأمر أن يلاحظها ، جعلته أخيرا يعتقد اننى لم أكن أحسن مثواها فهو يريد أن يعرف هل هو على حق اذا استخلص من ذلك كله اننى أقصد أن ألقى ظل عتب وملامة على ذكراها ومساءة الى أسرتها • وكان اقتضاؤه منى شرحا لذلك كله يرجع الى الثوب العسكرى الذى كان يرتديه •

وكان ذلك الرجل يحمل براءة رتبة عسكرية ، براءة اشتراها بمالى ، وبشقاء أخته » وكان هو فى مقدمة الذين تآمروا على القائى فى الشرك ، ووضع أيديهم على ثروتى • لقد كان ذلك الرجل هو الأداة الكبرى فى ارغام أخته على الزواج بى ، وهو يعلم حق العلم انها قد وهبت فؤادها لذلك الغلام المزقزق كالعصفور ، كل ذلك لأنه يرتدى ثوبا عسكريا ، فلم

ألبث أن أدرت عينى اليه ، لقد فعلت ذلك على الرغم منى . ولم أنبس بكلمة واحدة .

ورأيت التغير الفجائى الذى بدا عليه من نظرتى . لقد كان شجاعا جسورا ، ولكن لونه ارتد مسفوعا وتراجع بمقعده ، فجررت أنا مقعدى اليه ، وضحكت ، فقد أحسست عندئذ بمرح بالغ ، ورأيته يرتجف وشعرت بالجنون يثور فىأنحائى. لقد تولاه الرعب منى

قلت : « لقد كنت مولعا بأختك ، وهى فى قيد الحياة ، كل الولوع »

وراح هو يتلفت حوله قلقا مضطربا ، ورأيت يده تقبض على مسند المقعد ، ولكنه لم يحر جوابا

قلت : « أيها الوغد !. لقد اكتشفتك ، وأزحت النقاب عن مؤامراتك الجهنمية ضدى ، أعرف أن قلبها كان مستقرا على انسان سواى قبل أن ترغمها على الزواج بى ارغاما .. أعرف ذلك . أعرف ذلك »

فوثب فجأة من مجلسه ، ورفع المقعد عاليا ، وأمرنى بأن أتراجع ، فقد حرصت على أن أدنو منه رويدا وأنا اتحدث اليه

لقد كان قولى صراخا أكثر منه كلاما ، فقد كنت أشعر بانفعالات صخابة هائجة تتدفق فى شراييني والأرواح القديمة تهمس فى أذنى وتغرينى بأن أمزق قلبه تمزيقا

قلت وأنا مندفع نحوه : « اللعنة عليك ، أنا الذى قتلتها ، أنا مجنون » فلتسقط ، الدم ! الدم ! أريد دما »

وبضربة واحدة من كفى أطحت بالمقعد الذى شهره فى

وجهي من فرط رعبه ، وأطبقت عليه ، وتمرغنا معا على الأرض، برجة شديدة

لقد كان ذلك الصراع بديعا ، رائعا ، لانه كان رجلا فارع القد شديد المراس ، يدافع مستميتا عن حياته ، واما أنا فمجنون قوى باطش أتعطش لدمه ، وكنت أعرف أن ليس ثمة قوة على الأرض تعدل بأسي وبطشي ، وكنت على حق نعم كنت مصيبا • مرة أخرى وان أصبحت مجنونا • وبدأت مقاومته تفتر ، وجثمت فوق صدره ، وأمسكت بكلتا يدى القويتين عنقه المفتول ، وخيل الى من لسانه المتدلي انه يسخر منى ، فشددت القبضة على مخنقه

واذا الباب يفتح فجأة في جلبة شديدة ، ويدخل جمع من الناس مهرولين ، وهم يتصايحون أن امسكوا المجنون

لقد كشف سري،وأصبح نضالى الآن في سبيل شيء واحد، وهو الحرية والفكاك ، واستويت على ساقى قبل أن تصل يد الى ،وألقيت بنفسى في وسط المهاجمين ، وشققت بينهم طريقى بذراعى القوية ، كأني كنت أحمل فأسا في يدى ، وأجندلهم به من أمامى صرعى مضرجين • وبلغت الباب ، ونزلت السلم مسرعا ، وفى لحظة واحدة احتوانى الطريق •

وعدوت لا ألوى على شيء ، فلم يجرؤ أحد على ايقافى • وسمعت وقع أقدام من خلفى فضاعفت سرعتى ، فلم يلبث وقعها أن وهن وخفت من بعيد ، ثم تلاشى بددا• ولكنى طفقت أعدو ، مخترقا مستنقعا ، عابرا جدولا ، متخطيا سياجا • قافزا فوق جدار ، في صيحة موحشة ، زادتها وحشة الصيحات المنبعثة من المخلوقات الغريبة التى تزاحمت حولى

من كل ناحية ، حتى راحت صيحاتنا مجتمعة تشـــق أجواز الفضاء . لقد كنت محمولا على أذرع شياطين تمرق فى الهواء كالريح ، وتدك كل جسر وسياج يعترضهـــا دكا ، وتلف بى لفا ، فى حفيف وسرعة جعلتـــا رأسى يموج موجـــا ، الى أن طرحتنى أخيرا عنها بهزة عنيفة ، فسقطت على الأرض فى رجة « أليمة » وحين أفقت وجدتنى هنا .. هنـــا فى هذا المحبس الانفرادى المظلم الذى قلما تدخله أشعة الشمس ويتسلل القمر اليه ، فلا يضىء الا ليرينى الظلال والأشباح السود الحوامة من حولى ، وذلك النهج الصامت القائم فى ذلك الركن المعهـــود . وكلما رقدت يقظان ساهرا ، سمعت أحيانا صرخات غريبة ، وصيحات منبعثة من بعيد فى هذا المكان الرحيب .. أما ماهى تلك الصيحات فلست أدرى وانما كل ما أدريه انهـــا ليست آتية من ذلك الشبح الناحب المـــاثل فى ذلك الركن ولا هو بعابىء بها ولا مكترث ، لانه من أول خيوط الغسق الى مطالع ضياء النهار ، لايزال قائما ثم جامدا لاحراك به يستمع الى أنغام سلاسلى الحديدية،ويرقب وثباتى وقفزاتى فوق فراشى القش »

وقد وردت فى ذيل هذا المخطوط ، المذكرة التاليـــة بخط آخر

لقد كان الرجل المنكود الذى دون هذيانه فيما سلف مثلا محزنا لعقبى القوى التى تتجه اتجاها سيئـــا فى الشباب ، ونتيجة سوأى أليمة للافراط المتمادى ، حتى يصبح اصلاحها متعذرا ، فان الاسراف فى غير روية والتناهى فى اللذات بغير تفكير ، والاباحية التى استبدت بأيام شبابه ، جعلته محموما هاذيا مخرفا ، كانت آثارها الأولى ذلك الوهم الغريب المبنى على نظرية معـــروفة فى عالم الطب ، يؤيدها فريق من أهله

ويعارضها الفريق الآخر ، وهي أن الجنون وراثي في الأسرة ، فان هذا الوهم الغريب أحدث لديه وجوما مستمرا تطور مع الأيام الى جنون سوداوى ، ثم انتهى أخيرا الى جنون هاذ صاخب . وقد توافرت عدة أسباب تحمل على الاعتقاد بأن الحوادث التي رواها ، وان جاء وصفها مشوها بفعل خياله المريض ، قد وقعت حقا ، ومن العجيب للذين عرفوا مساوىء شبابه وأدركوا طرفا من أخبار مفاسد حداثته ، كيف لم تؤد به انفعالاته الثائرة ، حين لم يعد للعقل سلطان عليها ، الى ارتكاب أفعال أكثر مما ارتكب هولا ورهبا

وكان مصباح المستر بكوك قد أوشك أن يخبو ضياؤه حين انتهى من قراءة ذلك المخطوط الذى تلقاه من القسيس الشيخ، فلما انطفأ النور فجأة ، دون رفيف سابق من ذبالته على سبيل الانذار ، أحس برجفة شديدة تسرى في كيانه المضطرب ، فأسرع في خلع ما كان قد ارتداه من الثياب عندما نهض من مرقده ، وأقضه المضجع من السهد ، ثم ألقى نظرة خوف حوله ، وبادر في عجلة الى التسلل تحت الأغطية ، ولم يلبث أن راح في سبات عميق

وكانت الشمس ساطعة في غرفته حين استيقظ ، والصباح بدأ يدنو من الضحى ، وكانت الكآبة التي استولت عليه وأرهقته في الليلة الماضية قد تلاشت مع الظلال القاتمة التي كانت تكتنف المشهد المترامى من حوله ، فأشرقت أفكاره وأحاسيسه اشراق الصباح ذاته ، وما أن تناول الصحاب الأربعة فطورهم بشهية واقبال ، حتى انطلقوا سعيا على الاقدام صوب « جريفسند » يتبعهم رجل حاملا الحجر في صندوقه الخشبى ، فوصلوا اليها حوالى الواحدة بعد الظهر ـ وكانوا

قد أمروا بأن ترسل أمتعتهم من روشستر الى لندن رأسا ـ ووجدوا لحسن الحظ أماكن لهم خارج مركبة حافلة فدخلوا لندن في أصيل اليوم ذاته مشرقي النفوس ، خفاف الارواح ، معافين

وشغلتهم الاستعدادات التى كان لابد من تدبيرها للرحلة التى اعتزموها الى دائرة « ايتنزول » الانتخابية ، طيلة الأيام الثلاثة الأولى أو الأربعة ، ويقتضى الحديث عن هذه الرحلة الخطيرة فصلا قائما بذاته ، فلا يسعنا الا أن نخصص بقية هذا الفصل لنقص عليك فيه بايجاز كبير تاريخ ذلك الكشف الأثرى وختام قصته ٠

والظاهر من محاضر النادى أن المستر بكوك ألقى محاضرة عنه في جمعية عامة عقدت فى مساء اليوم التالى لعودتهم ، وتناول فى المحاضرة طائفة من التفسيرات الطريفة،والتعليلات والنظريات البارعة ، فى معنى تلك النقوش ومرادها ، كما يظهر أن رساما حاذقا تولى رسم ذلك الحجر الغريب بكل معالمه ودقائقه فى أمانة واتقان ، وان هذا الرسم طبع على الحجر وقدمت نسخ منه الى جمعية الآثار الملكية وغيرها من الهيئات العلمية ، وأن الحسد والغيرة بمختلف أعراضهما ومظاهرهما المتعددة دبا في نفوس المنافسين فذهبوا فى الجدل حول موضوع الحجر كل المذاهب ، وان المستر بكوك نفسه كتب « رسالة » فى ست وتسعين صفحة بالخط الدقيق ، وساق سبعة وعشرين تعليلا مختلفا لمعنى تلك النقوش والمراد منها ، وان ثلاثة سادات كبار السن حرموا أكبر أولادهم من الميراث ، وقطعوا منه نصيبهم لافتراضهم الشك فى صحة ذلك الأثر ، وان شخصا آخر اشتدت الحماسة به فقطع رقبته منتحرا قبل

الاوان يأسا من عجزه عن استقصاء معانيه ، وان المستر بكوك عين عضوا فخريا فى سبع عشرة جمعية ، بين أهلية وأجنبية عرفانا بفضل اكتشافه ، وان هذه الجمعيات السبع عشرة لم تهتد واحدة منها الى شيء بسبيله ، ولكنها كانت جميعا متفقة على أنه كشف نادر خارق للمألوف حقا

غير ان المستر « بلوتن » ـ الذى يستهدف اسمه حتما لاحتقار أبدى من جانب المولعين بكل غريب ورفيع وجليل ، نقول ان المستر بلوتن راح بذلك الشك ، وتلك المكابرة ، اللذين عرفا عن العامة وأصحاب العقول السوقية ، يذهب فى تأويل هذا الكشف مذهبا يحط من القدر ، ويثير الضحك والسخرية ، فقد أراد أن يطفىء بريق اسم « بكوك » الخالد ، فقصد الى « كوبهام » بنفسه ، وعاد فألقى فى النادى خطابا يقول فيه ساخرا متهكما انه اجتمع بالرجل الذى اشترى ذلك الحجر منه ، وانه يظن أن الحجر قديم ولكنه نفى قطعا ان النقش الظاهر عليه أثرى ، لانه هو الذى نقشه بنفسه فى بعض أوقات فراغه ، وان تلك الحروف لايراد بها أكثر ولا أقل من شيء واحد وهو تكوين اسمه منها فهو يدعى «بيل سطمبس» ـهذه علامتهـ وان المستر سطمبس لم يكن قد اعتاد الانشاء، وانما كل مايسترشد به فى نقش الحروف والكلمات هو « أصواتها » أكثر مما يستهدى بقواعد الكتابة والتشكيل ذاتها ، ولهذا نسى اللام الاخرى من اسمه الاول

وقد تلقى نادى بكوك ـ كما ينتظر من معهد مستنير مثله ـ هذا القول بما يستحقه من الاحتقار ، وقرر فصل « بلوتن » الجرىء فى دعواه . الضعيف السىء الحال ، من عضويته ، واهداء المستر بكوك منظارا ذهبيا رمزا لثقةالنادى به وموافقته

على كل ماصرح به فلم يكن من المستر بكوك فى الرد على هـذا العرفان الا أن عهد الى رسام برسم صورة زيتية له لتعليقهافى قاعة النادى

ولئن كان المستر بلوتن قد طرد من النـادى ، فقـد ظل مناضلا لايقهر ، وراح يوجه « رسالة » الى الجمعيات العلمية السبع عشرة ، الأهلية والأجنبية ، مكررا فيها البيانات التى سبق أن أدلى بها ، وكاد خلالها يفصح عن رأيه فى أن هـذه الجمعيات السبع عشرة نصابة ، محتالة ، «مهرجة» وغضبت الجمعيات السبع عشرة ، الأهلية والأجنبية لكرامتها ، فلم تلبث أن ظهرت عدة رسالات أخرى فىالموضوع ذاته،وتبادلت الجمعيات العلمية الأجنبية المكاتبات مع الجمعيات العلميـة ، الأهلية وتولت هذه ترجمة رسـالات تلك الى الانجليزية ، وتولت تلك نقل رسالات الاولى الى لغاتها ، وبدأ بذلك النقاش العلمى المشهور الذى عرفه الناس جميعا ، وأطلقوا عليـه القضية البكوكية .

ولكن هذه المحاولة فى سبيل ايذاء المستر بكوك فى سمعته ارتدت فى نحر صاحبها المفترى ، فقد اجمعت الهيئات العلمية السبع عشرة على أن هذا المفترى بلوتن جاهل دعى ، وشرعت في اعداد بحوث أخرى ورسالات جديدة ، ولا يزال ذلك الحجر الى يومنا هذا قائما ، أثرا مطماسا غير مقروء من آثار عظمـة المستر بكوك ، بل أثرا باقيا من آثار صغار خصومه وهوان أقدارهم .

الفصل الثانى عشر

وصف اجراء خطير جدا اتخذه المستر بكوك ولا يقل شأنا في رواية حياته عنه في سياق هذا التاريخ

لم تكن حجرات المستر بكوك في شارع « جوزول » ـ على محدود نطاقها ـ نهاية في النظافة ، جامعة لأسباب الراحة ، فحسب ، بل كانت أيضا لائقة بنوع خاص لان تكون مسكن رجل في مثل عبقريته ، وقوة ملاحظاته . وكانت حجرة جلوسه في مقدمة الطابق الأول ، وحجرة نومه في واجهة الطابق الثاني ، وكانت الفرصة مواتية له ، سواء جلس الى مكتبه في حجرة الجلوس ، أو وقف أمام المرآة في حجرة نومه، للتأمل والتفكير في الطبيعة البشرية من جميع مظاهرها ونواحيها المتعددة ، في ذلك الحي الذى كان عظيم الشهرة بقدر ما كان كثير السكان ، وكانت ربة البيت مسز باردل ، هي الوحيدة التي آل اليها ميراث موظف سابق في مصلحة الجمارك وكانت امرأة لطيفة جمة النشاط حسنة المظهر ، أوتيت براعة طبيعية في طهو الطعام ، ازدادت بفضل الممارسة الطويلة ومداومة الدرس ، حتى استحالت الى نبوغ فائق ، وموهبة رفيعة ، ولم يكن لها أطفال ولا خدم ولا دجاج ، وكل من يساكنها في ذلك البيت رجل بدين ، وغلام صغير ، أولهما

ساكن بأجر ، والآخر نجيبها ، وكان الساكن البدين يحضر دائما فى تمام العاشرة ليلا ، فاذا جاء حشر نفسه حشرا فى نطاق سرير فرنسى قصير فى الحجرة الخلفية ، وكانت ألعاب « السيد باردل » الصغير وحركاته الرياضـــية ، ومراتعه ، مقصورة على الأفاريز المجاورة ، والمزاريب والأفنية العامة ، فكانت النظافة والسكينة تغمران البيت ، وكانت رغبة المستر بكوك فيه قانونا لانقض فيه ولا ابرام ٠٠٠

وكان كل من يعرف هـذه النواحي من التـدبير المنزلى فى ذلك البيت ، ولا يخفى عليه شىء من عقلية المستر بكوك المنظمة الجديرة بالاعجاب ، يبدو له ان مظهره وسلوكه فى الصـباح السابق لليـوم المقرر لسفره الى « ايتنزول » ، نهـاية فى الغموض والغرابة ، فقد جعل يذرع الحجرة ذهابا وجيئة بخطى مسرعة ، ويخرج رأسه من النافذة على فترات،كل ثلاث دقائق أو نحوها ، وينظر مرارا الى ساعتـه ، ويبـدى من مختلف أمارات القلق ما لم يكن من ديدنه ، وكان من الجـلى انه كان يفكر فى أمر كبير الأهمية ،ولكن لم يكن أحد ، ولا مسزباردل نفسها ، مستطيعا أن يكشف ما هو ذلك الأمر الذى يشغله٠

وأخيرا انثنى ينادى « يامسز باردل » فى اللحظـة ذاتهـا التى كانت هـذه المرأة اللطيفـة توشك أن تنتهى من « ازالة التراب من الحجرات »

وأجابت مسز باردل « نعم ياسيدى ! »

قال : « ان غلامك الصغير قد ذهب من وقت طويل جدا »

وأجابت مسز باردل محتجة ٠ « كيف ذلك ؟ ٠٠ انالطريق الى الضاحية طويل ياسيدى »

وقال المستر بكوك « آه ! . انه حقا كذلك »

وعاد المستر بكوك الى الصمت ، وواصلت مسـز باردل ازالة التراب والكنس

ولم تمض بضع دقائق أخرى حتى عاد المستر بكوك ينادى « يامسز باردل »

وأجابت قائلة « نعم ياسيدى »

قال : « هل تظنين ان الانفاق على اثنين أكثر من النفقة على واحد بمفرده ؟ »

وأجابت مسز باردل ، وقد امتقع لونها حتى وصل امتقاعه الى طرف قلنسوتها اذ خيل اليها أنها قد رأت بريق رغبة فى الزواج يشع من عينى الساكن عندها « وى .. يامستر بكوك .. وى يا مستر بكوك .. ياله من سؤال ! »

قال : « ولكن هل تظنين حقا ... أن ... »

قالت وهى تدنى « المنفضة » من مرفق المستر بكوك المسند إلى المائدة « ان هذا يتوقف كثيرا على الشخص نفسه كما تعرف يامستر بكوك ، وهل هو شخص مدبر حريص على المال أو لا ياسيدى »

قال : « هـذا عين الصـواب ، ولكن الشخص الذى أمام عينى » ــ وهنا أطال النظر الى مسز باردل ــ « أعتقد أنه قد أوتى هذه الصفات ، الى جانب علمه الواسع بالدنيا وأحوالها، ولديه قدر كبير من الذكاء قد يكون ذا فائدة محسوسة لى يامسز باردل ... »

وقالت مسز باردل وقد اصطبغ وجهها بلون الارجوان مرة أخرى وبلغت حمرته طرف قلنسوتها « وى يامستر بكوك ! »

ومضى المستر بكوك يقول وقد ازداد حماسة كشأنه اذا تكلم عن موضوع يهمه · « انى جاد حقا فيما أقوله ، ولا أخفى عنك يامسز باردل أننى قد اعتزمت التنفيذ » ···

فصاحت مسز باردل قائلة « ويحى ياسيدى ! »

وقال المستر بكوك وهو يرسل نظرة لطيفة الى رفيقته « سترين الآن انه كان غريبا منى كل الغرابة اننى لماستشرك مطلقا فى هذا الامر ، ولم أذكره اطلاقا حتى أرسلت غلامك الصغير فى هذا الصباح ، اه »

فلم تستطع مسز باردل أن تجيب بأكثر من نظرة ، فقدطالما عبدت المستر بكوك عبادة من بعيد ، ولكن هاهى ذى فجأة ترفع الى مكانة مرموقة لم تصل اليها فى يوم من الأيام ذروة أمانيها، ولا بلغها أوج ما كان يداعب خاطرها منغرائب الآمال والتعلات · لقد اعتزم المستر بكوك أن يفاتحها فى أمر الزواج بها ، ورسم الخطة لذلك ، فأرسل ابنها الصغير الىالضاحية ، ليخلو الجو لهما ، ياله من مفكر حكيم · وياله من بصير عليم بالامور !

وقال المستر بكوك « هيه مارأيك ؟ »

وأجابت مسز باردل وهى راعشة من فرط الاضطراب « أوه ! يامستر بكوك انك لكريم ياسيدى ! »

قال : « سأعفيك من كثير من التعب ، أليس كذلك ؟ »

وأجابت مسز باردل « مافكرت يوما فى مسألة التعب

ولكنه كريم منك كل الكرم يامستر بكوك أن تراعى مسألة وحدتى الى هذا الحد ، وتهتم بها كل هذا الاهتمام »

وقال المستر بكوك « الواقع أننى لم أفكر فى ذلك اطلاقا ، ولكنى أرى أن يكون فى البيت انسان يجلس معك كلما ذهبت الى المدينة . هذا هو ما أردته . تأكدى ان هذا هو ما أردت »

قالت : « سأكون سعيدة السعادة كلها بالتأكيد »

قال « وغلامك الصغير ؟ » ..

فقاطعته مسز باردل ، وهى تنتحب انتحابة أم حين يذكر ابنها . « واكبدى له ! »

قال وسيكون له هو أيضا رفيق يؤنسه « رفيق خفيف الروح يعلمه بلا شك من الألاعيب والحيل فى أسبوع واحد مالا يؤاتيه منها علمه فى عام كامل »

وابتسم المستر بكوك ابتسامة لطيفة ساجية

وقالت مسز باردل « أواه ! أيها العزيز »

فأجفل المستر بكوك

وقالت باردل « أواه .. أيها الكريم ، الحنون الطيب ، اللعوب ، ثم نهضت من مخعدها وبلا سابق انذار ، وألقت ذراعيها حول عنقه ، وأرسلت فيضا من عبراتها ، وأنفاما متلاحقة من نحيب »

وصاح المستر بكوك من فرط دهشته قائلا : « يا للعجب ! .. يا مسز باردل ، أيتها المرأة العاقلة الأريبة ، ويحى ! ياله

من موقف ، أرجوك أن تراعى •• يامسز باردل •• باردل حذار ، ماذا عسى أن يقال اذا دخل أحد ؟ »

وصاحت باردل ثائرة هائجة • « ليدخـــــلوا فلن أفارقك ولن أتركك أيها العزيز ، الكريم الحدب الحنون » ••
وراحت بهذه الكلمات تتشبث بنحره أكثر من قبل وتزيده ضما واعتناقا

ومضى المستر بكوك يقاوم بعنف وهو يقول : « رحمة بى • انى أسمع وقع أقدام على السلم ، الا كفى عن هذا • حسبك ، هيا أيتها المخلوقة الطيبة !•• كفى عنى »

ولكن توسلاته واحتجاجاته ذهبت سدى ، فقد أغمى على مسز باردل وهى بين ذراعى بكوك ، وقبل أن يتمكن من القائها فوق مقعد ، دخـــل السيد باردل الصـــغير مؤذنا بقـــدوم طبمن ، والمستر ونكل ، والمستر سنودجراس •

ووقف المستر بكوك فى مكانه جامدا لا يتحرك ، ولا ينطق نطقا ، وقف بحمله الجميل بين ذراعيه ، وهو ينظر نظرات شاردة الى وجوه أصحابه ، دون أن يحاول مطلقا أن يتقدم للسلام عليهم أو شرح موقفه ، كما وقفوا هم محملقى الابصار ، بينما لبث السيد باردل بدوره يحملق فى الجميع •

وكانت دهشة البكوكيين بالغة ، وحيرة المستر بكـــوك متناهية : الى حد كان من المحتمل معه أن يظلوا جميعا وقوفا فى أماكنهم ريثما تثوب السيدة الى نفسها ، لولا أن بدت من ولدها حركة من أجمل الحركات وأشدها تأثيرا ، وأبلغها دلالة على حبه البنوى ، وكان الغلام فى ثوب ضيق من قماش مضلع ، تناثرت عليه أزرار نحاسية من حجم كبير ، قد وقف

فى أول الأمر لدى الباب مبهوتا مستريبا ، ولكن ما لبث أن تصور أن أمه لا بد من أن تكون قداعتدى عليها ، وماعتم هذا التصور أن استولى على خاطره الساذج ، واعتقد أن المستر بكوك هو المعتدى ، فلم يلبث أن راح يرسل صراخا مروعا ، مزمجرا ، عاويا ويندفع الى الأمام ناطحا برأسه ، وبدأ بمهاجمة ذلك السيد الخالد فى ظهره وساقيه ، بلكمات وعضات أسنان بكل مافى ذراعه من قوة ، وكل مافى هياجه وغضبه من عنف .

وقال المستر بكوك من أثر ما أحسه من الضرب واللكز « خذوا هذا الغلام الشقى بعيدا انه مجنون » !

وقال البكوكيون الثلاثة الذين عقدت الدهشة ألسنتهم . « ما الخبر ؟ »

وأجاب المستر بكوك بحدة : « لست أدرى ، ابعدوا هذا الغلام ! وهنا احتمل المستر ونكل الغلام وهو يصرخ ويقاوم الى الطرف الآخر من الحجرة ! والآن أعينونى على المسير بهذه المرأة الى الدور الاول »

وعندئذ قالت مسز باردل بصوت خافت « أواه ، اننى أحسن حالا الآن »

وقال المستر طبمن الجسور كعهدنا به : « دعينى أسر بك الى الدور الأول من البيت »

وصاحت مسز باردل بتشنج : « شــــكرا لك ياســيدى ، شكرا لك »

وسيق بها الى الدور الأول يصحبها ولدها البار .

وأنشأ المستر بكوك يقول عندما عاد صاحبه « لست أتصور ما الذى دها هذه المرأة ، فما كدت أعلن لها عزمى على الاستعانة بخادم حتى استرسلت فى هذه الحالة الشاذة التى وجدتموها فيها . هذا شىء عجاب »

وقال أصحابه الثلاثة . « جدا »

واستتلى المستر بكوك يقول : « لقد وضعتنى فى موقف حرج كل الحرج »

وكان جواب الثلاثة قولهم . « جدا » ، وهم يسعلون سعلة خفيفة ، ويتبادلون نظرات الشك والارتياب

ولكن ذلك لم يغب عن نظر المستر بكوك الثاقب ، وشعر بأنهم مرتابون فى صدق ماقاله وتبين له أنهم متهموه

وأنشأ المستر طبمن يقول ان فى الدهليز الآن رجلا

فأجاب بكوك قائلا أنه الرجل الذى حدثتكم عنه ، فقد أرسلت الى الضاحية فى هذا الصباح أدعوه ، تكرم يا مستر سنودجراس فأدعه ..

واستجاب المستر سنودجراس ، وفى الحال ظهر صمويل ولر ، وابتدره المستر بكوك قائلا « أوه أحسبك لا تزال ذاكرى »

وأجاب « سام » بنظرة وتعطف « أظن ذلك . لقد بدأ ذلك الرجل بداءة غريبة . لقد كان واحدا ولكنه كثير عليكم كما كان يغلبكم فى السعوط مرة أو مرتين .. أليس كذلك »

فقال المستر بكوك فى عجلة « دعنا من تلك القصة الآن ، انى أريد أن أتحدث اليك عن أمر آخر . اجلس ! »

وأجاب سام : « أشكرك ياسيدى ، وراح يجلس دون انتظار أمر آخر ، وكان قد وضع قبعته القديمة البيضاء عند مدخل رأس السلم خارج الباب . ومضى يقول انها ـ أى القبعة ـ « منظر » فقط ، ولكن لبسها فوق الرأس مربك .. وكانت قبل أن تزول عنها حافتها ، تبدو قالبا جميلا كقالب من القرميد ، ومع ذلك أصبحت أخف مما كانت قبل زوال حافتها . هذه نقطة . والنقطة الاخرى هى أن كل ثقب فيها يدخل الهواء . ولهذا أسميها « أنبوبة التهوية ! »

ولم يكد ينتهى المستر ويلر من هذا التعبير عن عواطفه حتى أرسل ابتسامة لطيفة الى البكوكيين المجتمعين

وعاد المستر بكوك يقول : « والآن فيما يتعلق بالامر الذى دعوتك من أجله ، بموافقة هؤلاء السادة »

وقاطعه سام قائلا : « هذه هى النقطة ياسيدى ، علي بها أو اخرجها ، كما قال الوالد لابنه حين ابتلع قطعة من النقود !»

ومضى المستر بكوك يقول : « نريد أولا أن نعرف هل من سبب يدعوك الى الاستياء من مركزك الحالى ؟ »

وأجاب سام قائلا : « قبل أن أرد على هذا السؤال أيها السادة أريد أولا أن أعرف هل فى نيتكم أن تعرضوا على مركز أحسن منه »

وهنا لاحت على وجه المستر بكوك ومضة من الطيبة الهادئة وحب الخير ، فذهب يقول : « أكاد أقطع العزم على استخدامك»

قال « أحقا »

وأومأ المستر بكوك ايماءة الايجاب

قال : و « الاجر ؟ »

قال : « اثنا عشر جنيها فى السنة »

ــ «والكساء »

ــ « حلتان »

ــ و « العمل »

ــ « القيام على خدمتى والسفر معى ومع هؤلاء السادة هنا »

وهنا قال سام بلهجة التوكيد : « أكتب العقد فى الحال لقد أصبحت أجيرا فى خدمة سيد واحـــد ، وأنا موافق على الشروط »

وسأل المستر بكوك : « هل قبلت اذن العمل »

قال « بالتأكيد · واذا كانت الثياب لائقة نصف لياقة المكان ، فانعم بها »

وعاد المستر بكوك يسأله قائلا : « وفى امكانك بالطبع تقديم شهادة »

وأجاب سام « سل ربة فندق « الأيل الأبيض » عن ذلك ياسيدى »

قال : « هل فى امكانك أن تحضر فى هذا المساء »

وأحاب سام بفرح بالغ : « اذا كانت الملابس معدة الآن ، فأنا على استعداد الدخول فيها من هذه اللحظة »

وقال المستر بكوك : « تعال فى الثامنة من هذا المساء ، فاذا كانت المعلومات المطلوبة مرضية ، فسوف نعدها لك »

وكان سلوك المستر ويلر لا غبار عليه ، ولا لائمة الا من حادثة واحدة ، تنم عن نزق لطيف ، شاركته فيها مساعدة خادمة ، فلم يتردد المستر بكوك فى اتمام العقد فى ذلك المساء بالذات ، وبتلك السرعة ، وذلك النشـــاط اللذين عرفا عن ذلك الرجل النادر ، لا فى تصرفاته العامة فحسب ، بل فى كل تصرفاته الخاصة أيضا ، بادر فى الحال الى أخذ خادمه الجديد الى سوق من تلك الاسواق الرخيصة التى تباع فيها الثياب الجديدة ، والمستعملة ، ويستغنى فيها عن متاعب الشكليات ، كأخذ المقاس وتجربة الازياء ونحوها ٠ فلم يكد يحل الليـــل حتى تم تجهيز المستر ولر برداء رمادى اللون وضعت عليه شارة « نادى بكوك » ، وقبعة سوداء ذات شريط ، وصدار قرنفلى اللون مخطط وسراويل خفيفة وأغطية ساق ، وأنواع أخرى كثيرة لا يحدها الحصر

وانثنى ذلك الانسان الذى تحول فجأة كل هذا التحول يقول وهو يتخذ مجلسه خارج المركبة الحافلة الشاخصة الى « ايتانسويل » فى صباح اليوم التالى : « انى لفى عجب هل يراد منى أن أكون حاجبا ، أو سائسا ، أو حارس صـيد ، أو بائع بذور ، فانى لأبدو خليطا من هؤلاء جميعا ٠ ولكن لا بأس ، ان فيه لتبديلا للهواء ، ورؤية كثير من المناظر ، وقليلا من العمل ، وكل ذلك علاج للفاقة التى أشكو منها مر الشكوى ٠٠ فليحيى البكوكيون ٠٠! »

الفصل الثالث عشر

وصف لدائرة ايتنزول الانتخابية • ومراكز الأحزاب فيها ، وانتخاب نائب فى البرلمان عن تلك الدائرة القديمة الوفية الوطنية •

دعنا نعترف صراحة بأننا الى الفترة التى بدأنا فيها نغوص فى مجلدات محاضر نادى بكوك وأوراقها الضخمة ، لم نكن قد سمعنا « بايتنزول » أبدا ، بل دعنا نقر بتلك الصراحة ذاتها اننا قد بحثنا عن دليل يثبت وجود هذا الموضع فى عهدنا الحاضر ، ولعلمنا بالثقة البالغة التى ينبغى أن توضع فى كل مذكرة أو بيان من جانب المستر بكوك ، ونفيا لكل رغبة منا فى تغليب ذاكرتنا على بيانات ذلك الرجل العظيم وتصريحاته المدونة فى السجلات ، مضينا نستأنس بكل المراجع والمظان التى تتصل بهذا الموضوع ، ونتابع كل اسم وارد فى قوائم أ و ب ، فلم نعثر على أثر فيها « لايتنزول » فى حرف الألف ، ولا فى الحرف الذى يليه ، وتقصينا البحث أيضا فى كل ناحية من خرائط الجيب والمصورات الجغرافية للأقاليم التى يصدرها كبار الناشرين عندنا لخدمة الجمهور ، فلم نعثر فيها على أثر لذلك الاسم ، فلا غرو اذا نحن اعتقدنا

أن المستر بكوك قد تعمد الاستعاضة عن اسم الموضع الذى دون ملاحظاته عنه باسم مصطنع ، تحدوه تلك الرغبة الملحة فى تحاشى الاساءة الى أحد ، وتحفزه تلك المشاعر المرهفة التى يعرف كل من عرفوه حق المعرفة أنها أروع خلاله ، وأبرز سجاياه ، وقد تأكد هذا الاعتقاد لدينا من حادث يلوح صغيرا وتافها فى حد ذاته ، ولكنه جدير بالتنويه ، اذا نحن نظرنا اليه من هذه الناحية ، فقد تيسر لنا أن نستخلص من «كناشة» المستر بكوك عبارة تفيد بأن الأماكن المطلوبة له ولمريديه كانت محجوزة قبيل السفر فى المركبة الحافلة الشاخصة الى «نورروك» وان كانت هذه العبارة قد شطبت فيما بعد ، كأنما أريد اخفاء كل شيء يتصل بموقع هذه الدائرة والطريق المؤدى اليها ، ولهذا لا نريد أن نضرب فى أودية الحدس ، بل نمضى سراعا فى سياق هذا التاريخ قانعين بالمواد التى يسرها أبطاله لنا والاشخاص الذين ورد ذكرهم فى ثناياه

يبدو اذن أن أهل « ايتنزول » كأهل عدة بلدان صغيرة أخرى ، يعدون أنفسهم قوما لايدانيهم أحد فى خطر الشأن ، وعلو المكانة ، وان كل رجل فى « ايتنزول » يشعر بالقدر الواجب لأمثاله ، فلا يتردد فى الانتساب قلبا وقالبا الى أحد الحزبين الكبيرين اللذين تقاسما البلدة بينهما ، وهما حزب « الزرق » ، وحزب « الصفر » ، فأما الزرق فلا يدعون فرصة الا انتهزوها لمعارضة الصفر ، ولم يكن الصفر ليدعوا فرصة الا اهتبلوها لمعارضة الزرق ، فكانت النتيجة أنه كلما التقى الزرق والصفر فى اجتماع عام ، سواء فى قاعة البلدية ، أو المولد ، أو السوق ، تبادلوا الكلمات الحادة ، والألفاظ النابية.

والنزاع المستحر ، حتى لانحسب مع كل هذه الخلافات اننا بحاجة الى القول بأن « الحزبية » فى « ايتنزول » دخلت

فى كل شيء ، فاذا اقترح الصفر بناء « كوة » فى سقف السوق العامة ، لدخول النور اليها ، عقد الزرق اجتماعات ، ونددوا بهذا الاقتراح وشنعوا عليه ٠ واذا اقترح الزرق انشاء مضخة اضافية فى شارع « هاى ستريت » هب الصفر هبة رجل واحد ، وأعلنوا استنكارهم لهذه الكبيرة المنكرة ،وكانت فى البلدة صحيفتان ، صحيفة « الغازت ايتنزول » ، وفنادق لهؤلاء ، وفنادق لأولئك ، وفى الكنيسة ذاتها للزرق جناح ، وللصفر جناح

ولم يكن بد لكل حزب من هذين الحزبين القويين بطبيعة الحال من أن يختار لسانه الناطق ، وممثله الصادق ، فكانت فى البلدة صحيفتان ، صحيفة « الغازت ايتنزول » ، و« الايتنزول الانديبندنت » ، أولاهما تذود عن مبادىء الزرق، والاخرى تنتهج سياسة الصفر قطعا ، وكانت الصحيفتان ظريفتين بديعتين ، فهما فصول افتتاحية أى فصول ! وهجمات حامية أية هجمات ، فتقول احداهما عن زميلتها ٠ رصيفتنا الغازت المعدومة الفضل ، وتقول هذه « الانديبندنت » المخادعة الخسيسة » وتتحدث هذه عن « الغازت » قائلة «تلك الصحيفة السافلة العيابة الدساسة » الى آخر تلك الشتائم المثيرة للنفوس التى تتناثر غزارا فى أعمدة كل صحيفة منهما وتفيض بها أنهارها ، ولا يخلو منها عدد من أعدادها ، وتلك العبارات التى يسر لها القراء أشد السرور ، أو يغضبون منها أبلغ الغضب ، وكل حزب بصحيفتهم مرحون » ٠٠

وقد اختار المستر بكوك ببعد نظره المعروف ، وفطانته المشهورة ، الوقت الملائم كل الملاءمة لزيارة تلك الدائرة ، فما عرف يوما فيها تنافس حامى الوطيس كذلك التنافس على

الترشيح ، بين « الأونورابل » صمويل سلمكى ، من سلمكى هول ، مرشح الزرق ، والسيد هوراشيو فزكن ، من فزكن لودج بقرب ايتنزول الذى ألح عليـــه أصدقاؤه فى قبـــول ترشيح نفسه عن حزب الصفر ، وراحت صحيفة « الغازت » تهيب بالناخبين فى الدائرة ألا ينســـوا أن الأنظار ، لا فى انجلترا فحسب بل فى جميع أرجاء العالم المتحضر أيضـــا ، تتطلـع اليهم ، بينمـــا طالبت « الانديبندنت » حتمـــا بأن تعرف هل ناخبو دائرة « ايتنزول » لا يزالون على عهـــدها بهم رجالا عظماء النفوس ، أو انقلبوا آلات مهنيه مسحره ، لا يستحقون اسم « الانجليز » ولا هم جديرون بنعمة الحرية التى حباهم الله بها • وهكذا لم تشهد البلدة من الحميـــه والحماسة فى يوم من الأيام قدر ما اشهدت منهما الآن •

وكان المساء قد أوغل حين نزل المستر بكوك وصحبه ، من سقف المركبة الحافلة ، بمعاونة سام، فاذا هم يشهدون أعلاما زرقاء كبيرة ترفرف من شرفات فندق « تاون آرمز » ، ويرون اللافتات منصوبة فى كل نافذه ، معلنه بحروف ضخمة ، أن لجنة الاونورابل صمويل سلمكى تنعقد يوميا فى ذلك الفندق، ويبصرون حشدا من المتسكعين والمتبطلين قد ازدحم الطريق بهم ، وهم يتطلعون بأبصارهم الى رجل مبحوح الصوت جاهدا حتى احمر من كثرة الصراخ وجهه ، وان كانت قوة حججه ومحور خطابه قد ضاعا الى حد ما وسط الدقات المستمرة من أربعة طبول ضخمة كانت اللجنة الانتخابية المناصرةللمستر « فزكن » قد أقامتها فى ركن الشارع ، وكان بجانب الخطيب رجل نحيف كثير الحركة جعل يرفع قبعته بين لحظة وأخرى ويشير الى الناس بمعاودة التصفيق والهتاف لذلك الخطيب ، فكان الناس لا ينفكون يفعلون ذلك وهم فى أشد الحماسة ،

ولبث السيد المحمر الوجه مسترسلا فى الخطابة حتى ارتد وجهه أشد احمرارا ، كأنما كانت حماسة القوم عنده وافية بالغرض حتى ولو لم يسمع أحد مقاله ٠

وما أن نزل البكوكيون من المركبة حتى أحاط بهم فريق من أفراد الغوغاء المخلصين الاوفياء ، هاتفين ثلاثة هتافات تصم الآذان ، وما لبثت جموع الغوغاء الأخرى أن رددت تلك الهتافات لأنه ليس من الضرورى مطلقا أن يعرف المحتشدون حقيقة ما هم هاتفون بسبيله ! فلم يلبث ترديدهم أن استحال الى زئير انتصار يدوى فى الفضاء دويا ، حتى اضطر الخطيب المحمر الوجه فى الشرفة الى الوقوف عن الكلام

وصاح الغوغاء فى الختام « مرحى ! »

وصرخ الرجل النحيف الموكل باعطاء الاشارة الى الناس : « هتاف ٠٠ مرة أخرى ! ٠» فعاد الغوغاء يهتفون كأن رئاتهم من حديد ، وأجهزتها من فولاذ » ٠٠

وصرخ الناخبون الأمناء الأحرار : « سلمكى الى الأبد ! »

وردد المستر بكوك وهو يرفع قبعته : «سلمكى الى الأبد !»

وصاح المحتشدون : « لا فزكن بعد الآن ! »

وعاد المستر بكوك يهتف: «لا فزكن بعد الآن بلا شك٠٠!»

« مرحى ٠٠!»

وأعقب الهتاف زئير جديد ، كصيحة الحيوانات فى حديقتها حين يدق الفيل الجرس ايذانا بمجىء اللحم البارد ٠

وهمس المستر طبمن يسأل صاحبه : « ومن يكون سلمكى هذا ٠٠ »

وقال المستر بكوك هامسا كذلك : « لست أدرى فلا تسأل عن شيء ، لأنه من الخير فى هذه المواقف وأشباهها أن يفعل المرء كما يرى الناس يفعلون . »

وهنا قال المستر سنودجراس : « ولكن افرض أن هناك فريقين منهم ، فماذا تكون الحال ؟ »

فكان جواب المستر بكوك « تهتف مع أكثر الفريقين عددا وأعز نفرا »

وكان ذلك الرد وحده أبلغ من جملة كتب ومجلدات

ودخل الرفقاء الفندق ، وافسح الحشد لهم عن اليمين والشمال منتحين ، طريقا لمرورهم ، وهم يهتفون أشد الهتاف

وكان أول أمر أحق بالتفكير البحث عن أماكن للمبيت

فنادى المستر بكوك أحد غلمان الفندق وسأله قائلا : «هل نستطيع الظفر بسرر هنا ؟»

وأجاب الغلام : « لا أعرف يا سيدى ، أخشى أن يكون المكان ممتلئا يا سيدى ، ولكني سأستفهم يا سيدى . »

وانصرف لتنفيذ هذا الغرض ثم لم يلبث أن عاد ليسأل السادة هل هم من حزب « الزرق »

ولم يكن المستر بكوك ولا أحد من صحابه معنيا بقضية الترشيح ، ولا مهتما بأيهما يؤيد ، فلا عجب اذا كانت الاجابة عن هذا السؤال متعذرة

وانثنى المستر بكوك يسأل الغلام : « هل تعرف سيدا يدعى المستر بركر ؟ »

وأجاب الغلام قائلا : « بلا شك يا سيدى »

قال : « أحسبه من الزرق ؟ »

وأجاب الغلام : « نعم يا سيدى »

فصاح المستر بكوك قائلا : « نحن اذن ·· زرق ! » ولكنه لاحظ على الرجل شيئا من التشكك عقب هذا الاعلان الصريح، فأعطاه « بطاقته » وطلب اليه تقديمهـا الى المستر بركر فى الحال ، اذا كان بالمصادفة مقيما فى الفندق

وانصرف الغلام ، وعاد بعد هنيهة يرجو من المستر بكوك أن يتبعه ، ومشى به الى قاعة رحيبة فى الطبقـة الأولى من الفندق ، حيث جلس المستر بركر الى منضدة مغطاة بالكتب والأوراق ·

وتقدم السيد النحيف للقائه : « آه ها ، ياسيدى العزيز انى لسعيد بلقائك ، ياسيدى العزيز جدا · تكرم بالجلوس أهكذا أدخلت نيتك فى حيز التنفيذ ؟ لقد جئت الى هنالمشاهدة الانتخاب ؟ »

فأجاب المستر بكوك : « أى نعم »

واستتلى الرجل النحيف قائلا : « المنافسة حامية الوطيس ياسيدى العزيز »

وقال المستر بكوك وهو يفرك يديه : « يسرنى أن أسمع ذلك ، لانى أحب أن أشهد الوطنية الصلبة المكينـة ، فى أى جانب هى منبعثة متدفقة ، المنافسة إذن حامية ؟ »

واجاب الرجل النحيف « أى نعم الى حد بالغ فعلا ، وقد

فتحنا جميع المقاهى والمحال العامة فى البلدة ، فلم ندع لخصمنا منها شيئا غير حانات الجعة ـ ضربة عارف بالامور ياسيدى العزيز ، آه ؟ »

وابتسم الرجل النحيف ابتسامة سرور ورضى وتناول قدرا كبيرا من السعوط وسأل المستر بكوك : « وما هى النتيجة المرجحة لهذه المنافسة ؟ »

وأجاب الرجل النحيف : « لاتزال مشكوكا فيها الى الآن ياسيدى العزيز · ان جماعة « فيزكين » احتجزوا ثلاثة وثلاثين ناخبا فى مربط المركبات بفندق « الأيل الأبيض »

وقال المستر بركر ، وهو هابط بصوته الى ما يشبه « أتقول فى مربط المركبات ؟ »

ومضى الرجل النحيف يقول : « انهم سيبقونهم فى هذا المكان ريثما يحتاجون اليهم والغاية من هذا الاحتجاز هى كما ترى منعنا من الوصول اليهم ، ولو استطعنا ، لما كان ثمة أية فائدة ، لانهم يبقونهم سكارى عن عمد · ان وكيل فزكين داهية داهية كبير فعلا »

ولبث المستر بكوك محملقا ، ولم يقل شيئا

وقال المستر بركر راح ، وهو هابط بصوته الى ما يشبه الهمس : « ولكننا جد مطمئنين · وقد أقمنا هنا ليلة أمس حفلة شاى صغيرة ، دعونا اليها خمسا واربعين امرأة ياسيدى العزيز وأعطينا كل واحدة منهن مظلة خضراء عند انصرافها »

وقال المستر بكوك مبهوتا « مظلة ! »

ومضى المستر بركر يقول : « فعلا ، ياسيدى العزيز ، فعلا،

وزعنا خمسا وأربعين مظلة خضراء بسعر الواحدة سبعةشلنات وستة بنسات • كل النساء بالزخارف والزينة مولعــات ان تأثير هذه المظلات خارق للمألوف ، لأنها كفيلات بحصولناعلى أصوات أزواجهن ونصف عدد اخوتهن • انها لتفوق فيتأثيرها الجوارب والقمصان وما اليها من الأشياء الجوفاء • انهافكرتى ياسيدى العزيز ، فكرتى أنا من جميع نواحيها • انها تنفعفى البرد والمطر والشمس على السواء ، ولا تستطيع الآن أنتمشى بضع خطوات فى الشارع دون أن تلتقى بعدد « من هذهالمظلات الخضراء » •

وهنا استرسل الرجل النحيف فى ضحك شديد ، لم ينثن عنه الا بدخول شخص ثالث • وكان هذا رجلا طويلا نحيلا ذا رأس رملى اللون يميل الى الصلع ، ووجه امتزجت فيه رهبة المظهر بنظرة العمق الذى لايسبر له غور • وكان مرتديا ثوبا أســود مســتطيلا ، وصــدارا فى مثــل لون ردائه وسراويل فضفاضة ، ويتدلى منظار ذو زجاجتين من جيب صداره ، وعلى رأسه قبعة خفيضة ذات حاشية عريضة • وتولى المستر بركر تعريف المستر بكوك به فقال انه المستر « بوت » رئيستحرير « الغازت ايتنزول »

وبعد بضع ملاحظات تمهيدية راح المستر بوت يدور بعينه ناحية المستر بكوك ، وهو يقول بلهجة الجد : « هل تثير هذه المنافسة اهتماما شديدا فى العاصمة ياسيدى ؟ »

واجاب المستر بكوك : « أعتقد ذلك »

وعاد المستر بوت يقول وهو ينظر صــــوب المستر بركر مرتقبا منه التأمين على قوله « انى لواثق أن بعض الفضل فى ذلك يرجع الى مقالى المنشور فى يوم السبب الماضى »

وأجاب السيد النحيف : « بلا أدنى شك »

وقال المستر بوت : « ان الصحافة أداة ذات قوة بالغة ياسيدى »

ووافق المستر بكوك على هذا الرأى كل الموافقة

واستتلى المستر بوت قائلا : « ولكنى على يقين ياسيدى من أننى لم أسىء يوما استغلال هذه القوة العظيمة التى فى يدى ، ولم أوجه هذا السلاح الرفيع الشأن الذى وضع فى كفى فى صدر حياة الأفراد الخاصة وقدسيتها ، أو فى صميم سمعة انسان وشهرته • وأعتقد ياسيدى اننى كرست قواى وجهودى وقد تكون هذه الجهود صغيرة متواضعة ، بل أعرف انهاكذلك، فى سبيل غرس تلك المبادىء التى ••• »

وهنا بدا على رئيس تحرير « الغازت ايتنزول » ان ذهنه بدأ يشرد ، فبادر المستر بكوك الى اسعافه قائلا : « بلا شك »

وقال المستر بوت : « ودعنى اسألك ياسيدى • ماشعور الرأى العام فى لندن من ناحية خصومتى مع جريدة « ايتنزول المستقلة »

وتدخل المستر بركر قائلا ، وهو ينظر نظرة استحياء يغلب على الظن أنها عريضة • « لقد تأثرت كثيرا بلا شك »

ومضى المستر بوت يقول : « ستبقى هذه الخصومة مابقيت لى صحتى وقواى ، وذلك النصيب من النبوغ الذى وهبته ، ولن أنزوى أو أتراجع ياسيدى يوما عن هذا النضال ، حتى أضع قدمى فوق هامة « ايتنزول المستقلة » وان كان نضالى حيالها قد يحدث بلبلة فى عقول الناس ، ويثير مشاعرهم ،

ويجعلهم عاجزين عن تأدية واجباتهم اليومية فى الحياة العادية. انى أود أن يعلم أهل لندن ، وشعب هذا البلد جميعا ياسيدى أن لهم أن يضعوا ثقتهم في شخصى ، واننى لن أتخلى عنهم ، واننى معتزم أن أقف بجانبهم ياسيدى ، الى النهاية ٠٠ »

وقال المستر بكوك : « ان تصرفك ياسيدى نهاية فى النبالة وسمو النفس » وراح يتناول يد « بوت » العظيم

وعاد المستر بوت يقول ، وهو يكاد تتقطع أنفاسه من تأثير هذا التصريح الوطنى الذى أدلى به ! اننى أراك يا سيدى أخا رجاحة ونبوغ ، وانى لسعيد كل السعادة ياسيدى بمعرفة رجل مثلك » .

وأجاب المستر بكوك قائلا : « اننى أشعر بشرف عظيم من هذا الرأى الذى أبديته ، اسمح لى ياسيدى بأن أقدم اليك رفقائى في سفرى ، وهم ، أعضاء مراسلون أيضا فى النادى الذى أفخر بأننى مؤسسه »

وقال المستر بوت : « يسرنى التعارف بهم كل السرور »

فانصرف المستر بكوك لحظة وعاد بأصحابه فقدمهم كماتقتضى المراسيم الى رئيس تحرير « الغازت ايتنزول »

وهنا قال المستر بركر : « والآن ياعزيزى « بوت » ٠٠ ان المسألة التى أمامنا اللحظة هى ماذا نحن صانعون لاصدقائنا هنـا ؟ »

وقال المستر بكوك : « أظن أن فى امكاننا أن ننزل فى هذا الفندق »

واجاب المستر بيركر : « ليس فيه ولا سرير واحد خاليا . يا سيدى العزيز ، ولا سرير واحد » .

وقال المستر بكوك : « هذا غريب كل الغرابة »

وتبعه رفقاؤه قائلين : « جدا » ..

وانثنى المستر بوت يقول : « عندى فكرة فى هذا الموضوع، قد تكون موفقة كل التوفيق ، ان فى فندق « بيكوك » سريرين وفى امكانى أن اجترىء فأقول بالنيابة عن مستر بوت انها ستسر كل السرور بتوفير مكان للمستر بكوك وواحد من أصدقائه فى بيتنا اذا لم يكن ثمة مانع لدى السيدين الاخرين وخادمهما من التنقل حيث يشاؤون فى فندق « بيكوك » .

وبعد الحاح متكرر من جانب المستر بوت ، وتكرار رجاء من الأعضاء من هذا الاقتراح من جانب المستر بكوك ، محتجا بأنه لايرضى لنفسه أن يحدث مضايقة أو تعبا لزوجته الفاضلة ، تم الاتفاق على أن هذا هو التدبير الميسور الذى يمكن اتخاذه وتم هذا فعلا وعقب أن تناول الأصدقاء طعام الغداء معا فى فندق « تاون آرمز » افترقوا ، فذهب المستر طبمن والمستر سنودجراس الى فندق « بيكوك » واتجه المستر بكوك والمستر ونكل الى دار المستر بوت ، بعد أن اتفق الجميع على أن يتوافوا الى فندق « تاون آرمز » فى الصباح ، لمرافقة موكب السيد المحترم صمويل سلمكى الى مقر الانتخاب

وكانت أسرة المستر بوت مقصورة عليه هو وزوجته وحدهما، ولا يخفى ان الذين رفعتهم عبقريتهم الجبارة الى مصاف الأعلام البارزين فى هذا العالم ، لايخلون عادة من مواطن ضعف صغيرة ، تلوح أوضح وأجلى ظهورا مما هى فى الواقع ،

لتناقضها مع شخصيتهم العامة ، واذا كان في المستر بوت نقطة ضعف ، فقد كان موطن الضعف فيه انه « يكاد يبدو » خاضعا أكثر مما ينبغي لرقابة زوجته عليه وسلطانها الذى لايخلو من الغض والازدراء به ، وان كنا لانجد مبررا يدعو الى تعليق أهمية خاصة على هذه الحقيقة ، لان مسز بوت فى هذا الحادث بالذات أبدت أدبا جما ، وسلوكا ينستهوى النفوس ، وفتونا يستبى الافئدة ، فى استقبال السيدين

وقال المستر بوت وهو يقدم الضيفين « ياعزيزتى هذا هــو المستر بكوك ٠٠ المستر بكوك من لندن »

وتلقت مسز بوت يد المستر بكوك الأبوية بعذوبة ساحرة، بينما وقف المستر ونكل الذى لم يقدم اليها اطلاقا ، فى ناحية مظلمة ، وهو يحنى رأسه بالتحية ، دون أن يأبه أحد به

وقالت مسز بوت : « يا عزيزى ب »

وأجابها المستر بوت قائلا : « ايه ياعزيزتى »

قالت : « من فضلك عرفنى بالسيد الآخر »

قال : « ألف معذرة ٠ اسمح لى ــ مسز بوت ، المستر ٠٠٠ وعاجله المستر بكوك قائلا : « المستر ونكل »

وردد بوت الاسم : « ونكل »

وتم التعارف ٠٠

وأنشأ المستر بكوك يقول : « اننا معتذران لك ياسيدتى كثيرا عن ازعاجنا لنظامكما المنزلى فى « ساعة ضيقة »

وأجابت السيدة بوت برشاقة بالغة : « أرجوك ياســيدى

وقال المستر بوت « لكن ياعزيزتى »

وعاجلته زوجته قائلة : « أوه ! كلام فارغ ! لاتكلمنى ؛ هل تلعب « الاكارتيه » ياسيدى ؟ »

وأجاب المستر ونكل قائلا : « يسعدنى كل السعادة أن أتعلمها منك »

قالت : « اذن قرب هذه المنضدة الصغيرة من هذه النافذة ، ودعنى ابتعد من سماع هذا الكلام السقيم فى السياسة »

وقال المستر بوت للخادم التى أحضرت الشموع « اذهبى ياجان » الىمكتبى فىالدور الاولوهات الملف الخاص «بالغازت» عن عام ١٨٢٨ ، والتفت الى المستر بكوك ومضى يقول : « سأقرأ عليك بضع افتتاحيات كتبتها فى حينها عن تعيين واحد من الصفر جابيا جديدا لجمع المكوس هنا وأعتقد انها ستسرك »

وقال المستر بكوك : « أحب كثيرا أن أسمعها »

وجاء الملف ، وجلس رئيس التحرير ، وبجانبهجلس المستر بكوك

وقد بحثنا عبثا فى كل صفحات « كناشة » المستر بكوك على أمل الاهتداء الى خلاصة عامة لتلك المقالات الانشائيةالجميلة ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه وجد لذة تامة في قوة أسلوبها وطرافته ، وقد رأينا المستر ونكل يسجل من جانبه القول بأن عينيه ظلتا مغمضتين كأنما اغماضهما من فرط السرور ، طيلة الوقت الذى استغرقتها قراءتها

وجاء اعلانالقومانالعشاء قد هيىء ،فأوقف لعب«الاكارتيه»

وقراءة المقالات الجميلة فى « الغـازت ايتنزول » وبدت مسز بوت أصفى ماتكون مزاجا وأبدع ماتكون نفسية ، وكان المستر ونكل قد قطع شوطا كبيرا فى كسب جميل رأيها فيـه ، فلم تتردد فى ابلاغه سرا ان المستر بكوك شـيخ لطيف ظريف ، وهى عبارة تنطوى على تعبير اعتاد بعض الذين توثقت معرفتهم بذلك الرجل الجهار الذهن التحدث به والكلام فيـه ، وقـد حرصنا على ايراده هنا ، لما فيه من دليل يهز القلوب لتـوه وساعته ، ويقنع النفوس بذلك التقدير الذى تقدره به كل طبقة من طبقات المجتمع ، والسهولة التى يشق بها طريقه الى المشاعر والافئدة

وكان الوقت متأخرا ، وقد أوغل الليل ، حين أوى الصديقان الى الراحة ، بعد أن استولى النعاس على صاحبيهما الاخرين ، وهمـا المستر طبمن ، والمستر سنودجراس فى بعض زوايا فندق « بيكوك » بوقت طويل ، ولم يلبث النـوم أن أخـذ بمعاقد أجفان المستر ونكل، ولكن مشاعره كانت قد اضطربت ، واعجابه قد استثير ، فلبث وجه السيدة بوت الجميل ، وقوامها المحبب ، عدة ساعات بعد أن غشى النوم على حواسه ، فلم يعد يشعر بأمور الدنيا ومشاهدها ، يتراءيان مرة بعد أخرى لخياله السابح ، ويتمثلان له فى شوارد أحلامه وسوانح رؤاه .

وكانت الضوضاء والحركة اللتان عادتا مع مطالع الصبـاح كافيتين لان تنفيا من خاطر أغزر الخياليين فى العالم خيالا كل شىء غير الافكار المتصلة رأسـا بالانتخاب الذى أخـذ موعـده يقترب مسرعا ، فلم يلبث قرع الطبول ، والنفـخ فى الابواق والمزامير ، وصيحات الناس ، ومواقع حوافر الخيل أن ترددت أصديتها فى الشوارع من أبكر ساعات الفجر وبوادره، وجاءت

معركة عارضة بين خفاف المناوشين من كل حزب فزادت فى الحال حركة الاستعدادات صخبا ، ونوعت صورها وأشكالها تنويعا لطيفا مقبولا ...

وأنشأ المستر بكوك يقول « لسام » غلامه حين ظهر بباب غرفة نومه ، فى اللحظة التى كان يتم فيها زينته « ايه ياسام أظن الحياة قد دبت اليوم فى كل شىء »

وأجاب المستر ولر : « مباراة منظمة ياسيدى ان جماعتنا يتوافون الساعة الى الفندق ، وقد بدأت أصواتهم تبح من الصياح الآن »

وعاد المستر بكوك يسأل غلامه قائلا : وهل يبدو عليهم ياسام انهم فعلا مخلصون لحزبهم »

وقال سام : « لم أر ياسيدى اخلاصا كهذا فى حياتى »

وقال المستر بكوك : « قويا ، اه ؟ » ..

وأجاب سام : « بشكل غير عادى . لم أر الناس من قبل يأكلون ويشربون الى هذا الحد الكبير . وأعجب أنهم لايخافون أن « يتفجروا » من كثرة الاكل والشرب على هذه الصورة »

وقال المستر بكوك : « هذا يرجع الى خطأ السادات هنا فى فهم معنى العطف والحنان »

وأجاب سام بايجاز « جائز جدا »

وألقى المستر بكوك نظرة من النافذة وهو يقول : « يلوحون لى أناسا خفافا لطافا ظرافا »

وأجاب سام قائلا : « ظرافا للغاية . لقد كنت أنا واثنان

من خدم فندق بيكوك نضع تحت « المضخة » الناخبين المؤيدين لصحيفة « انديبندنت » الذين كانوا يتعشون هناك فى الليلة الماضية »

وصاح المستر بكوك قائلا فى دهشة : « تضعونهم تحت المضخة ؟ »

وأجاب خادمه : نعم ، فقد نام كل انسان حيث سقط ، فكنا نجرهم فى هذا الصباح واحدا بعد واحد الى المضخة فنضعهم تحتها ونترك الماء ينزل عليهم ، وهم الآن فى حال حسنة ، وشكل بديع ، وقد دفعت لنا اللجنة على هذا العمل شلنا عن كل رأس »

وصاح المستر بكوك فى دهشة : « أيمكن أن تحدث هذه الأمور ؟ »

وقال سام : « ياسيدى ، بارك الله فى عمرك • بالله أين كان مولدك •؟ هذه أمور بسيطة جدا • فما بالك بغيرها اذن؟ هذه لاشيء ! »

وقال المستر بكوك « لاشيء ؟ »

وأجابه غلامه : « لاشيء مطلقا ياسيدى • لقدحدث فى الليلة السابقة لآخر يوم فى الانتخاب الاخير هنا أن الحزب المعارض رشا الساقية فى فندق « تاون آرمز » لغش البراندى الذى ستقدمه لاربعة عشر ناخبا لم يكونوا قد أعطوا أصواتهم ، وكانوا نازلين فى هذا الفندق »

فسأله المستر بكوك : « ماذا تقصد بكلمة غش البراندى »

وأجاب سام قائلا : « يعنى تضع فيه منوما وقد فعلت

الساقية ، ستركتهم ينامون جميعا الى مابعد انتهاء الانتخاب باثنتي عشرة ساعة · واضطر القوم أن يحملوا واحدا منهم الى صندوق الانتخاب في مركبة نقل وهو نائم غارق في النوم ، على سبيل التجربة ، ولكنها لم تفلح لان اللجنة رفضت ، فاضطروا الى العودة به وألقوه في فراشه ليواصل النوم مرة أخرى »

وقال المستر بكوك محدثا نفسه ومخاطبا سام في وقت واحد : « هذه تصرفات غريبة »

وأجاب سام : « ليست غريبة كثيرا بالنسبة لظرف عجيب حدث لوالدى نفسه في أحد الانتخابات في هذه الدائرة ذاتها ياسيدى »

قال : « وكيف كان ذلك ؟ »

ومضى سام يقول : كان والدى يسوق مركبة الى عنا في ذات مرة ، فحل موعد الانتخاب ، فاستأجره أحد الحزبين لاحضار ناخبين من لندن ، وفي الليلة السابقة لموعد انصرافه، بعثت اللجنة الانتخابية لتأييد مرشح الحزب الآخر في طلبه سرا ، فذهب مع الرسول ، وأدخله الرسول على اللجنة ، وكانت تجلس في غرفة واسعة ، فرأى خلقا كثيرا فيها ، وأكواما من الأوراق ، والأقلام والمحابر وغيرها· وقال السيد الجالس في كرسي الرياسة : « آه يامستر ولر ، يسرني لقاؤك ياسيدى كيف حالك؟ » وقال والدى « بخير والحمدلله·أشكرك ياسيدى · » وقال السيد الرئيس « أرجو أن تكون الأحوال بين بين » وأجاب والدى · « الحال طيبة · وأشكرك ياسيدى » وقال السيد :«اجلس يامستر ولر أرجوك أن تجلس ياسيدى»

فجلس والدى ، وراح هو والسيد يتبادلان النظر طويلا ، وبدأ السيد يقول : « ألا تتذكرني ؟ وأجاب والدى « لا أستطيع أن أقول » . وقال السيد : « أنا عارفك ... لقد عرفتك وأنت غلام » . وأجاب والدى « والله أنا غير متذكر » . وقال السيد « شيء غريب جدا . لابد أن تكون ذاكرتك ضعيفة يامستر ولر » ، وأجاب والدى « ذاكرتي ضعيفة جدا » . وقال السيد: «أعتقد ذلك» . وعندئذ ملأوا له كأسا من النبيذ، وطفقوا يتحدثون معه عن سوقه ويداعبونه ويمزحون معه ، وأخيرا دسوا ورقة بعشرين جنيها فى يده . وعاد السيد يقول ان الطريق ردىء للغاية من هنا الى لندن ، وأجاب والدى : « انه طريق ثقيل فى بعض أجزائه » . وقال السيد :«وبالأخص قرب القناة» . وقال والدى « هذا طريق ملعون جدا » . وقال السيد « ولكنك يامستر ولر سواق بارع تحسن استخدام السوط ، وتفعل بخيلك ما تشاء ، ونحن جميعا نحبك يامستر ولر ، فاذا كان لابد أن يقع حادث وانت قادم باولئك الناخبين الى هنا ،فليكن ذلك الحادث اسقاطهم فى القناة ، ولكن دون أذى لهم ، وهذا المبلغ لمزاجك» . وقال الوالد « هذا كريم منك ياسيد، وسأشرب كأسا في صحتك » وراح يشربها ، ووضع المال فى جيبه وضم ثوبه عليه ، وانحنى مسلما وخرج »

ومضى سام يقول وهو يلقى على سيده نظرة جريئة صامتة لا يمكن التعبير عنها : « وسوف لا تصدق ياسيدى اذا قلت لك ان المركبة التى جاء فيها باولئك الناخبين فى ذلك اليوم انقلبت عند تلك النقطة عينها ، وسقطوا كلهم فى القناة ..!»

وأسرع المستر بكوك فى سؤاله : « وهل خرجوا منها ؟ »

وأجاب سام بكل رفق وبطء « أظن أنه ظهر أن شيخا منهم

لم يعثر عليه • ولكنى علمت أن قبعتــه وجدت ، وان لم أكن متأكدا تماما هل كان رأسه فيها أو لا ، وكل ما أنا مندهش له هو هذه المصادفة العجيبة المدهشة : ان مركبة والدى بعد الذى قاله ذلك السيد رئيس اللجنة الانتخابية قد انقلبت فى تلك الجهة بالذات ، وفى ذلك اليوم بعينه •••! »

وقال المستر بكوك : « انه بلا شك ظرف غير مألوف بالمرة ولكن نظف قبعتى ياســام لاننى أسمع صوت المستر ونكل ينادينى الى الفطور »

ومضى المستر بكوك بعد هذه الكلمات يهبط السلم الى قاعة الجلوس حيث وجد طعام الافطار مهيأ والاسرة مجتمعــة ، ولم تلبث الوجبة أن انتهت ، وزينت قبعة كل من السيدين بشارة زرقاء بارزة ، وكان المستر ونكل قد تعهد بمرافقة السيدة الى سطح أحد المساكن القريبة من مكان الانتخاب ، فذهب المستر بكوك والمستر بوت وحدهما الى فندق « تاون آرمز » ، وكان أحد أعضاء لجنة المستر سلمكى واقفا فى شرفة خلفية منـــه يخطب فى ستة أولاد صغار وصبية ، وهو يمجدهم بين كل عبـــارة وأخرى من خطابه بمناداتهم يا رجال « ايتنزول » ، فكان أولئك الغلمة يستقبلون هذا اللقب المخلوع به عليهـــم بأشد الهتاف والتصفيق

وكان فناء الاصطبلات فى الفندق مظهرا صادقا من مظاهر قوة « الزرق » وروعتهم وجلالهم ، فقد كان هنالك جيش منظم من حملة الأعــلام الزرقاء بعضــهم يحمــل سارية واحــدة ، والاخرون يحملون ساريتين ، وقد ازدانت تلك الاعلام بوسائل مبتكرة ، وزخارف مناسبة ، وكتب عليهــا عبــارات بحروف

مذهبة ، وهى ترتفع أربعة أقدام ، وتلوح كبيرة الأحجام ،كما كانت هناك فرقة موسيقية كبيرة ، تتألف من طبول ومزامير وأبواق ويسير أفرادها أربعة أربعة ، ويبرئون ذممهم من الأجر الذى يتقاضونه بحق ، ولاسيما الطبالون منهم ، فقد كانوا أشداء مفتولى العضلات ، اذا صح أن فى الناس من يكسب أجره بحق ، وكان هنالك أيضا جماعات من المحافظين على النظام يحملون عصيا زرقاء ، وأعضاء اللجنة وهم عشرون عضوا ، يضعون أغطية زرقاء حول أعناقهم ، وجمع حاشد من السوقة يلبسون قبعات بهذا اللون . وكان هنالك ناخبون على ظهور الخيل ، وآخرون مشاة ، ومركبة مكشوفة بأربعة جياد لمركب السيد الشريف صمويل سلمكى ، وأربع مركبات بحصانين لاصدقائه ومؤيديه ، وكانت الاعلام خفاقة ، والموسيقى عازفة ، والمحافظون على النظام يسبون ويلعنون ، وأعضاء اللجنة يتشاحنون ويتشاجرون ، والغوغاء يصيحون ويصرخون ، والجياد تتواثب ، وتتراجع ، والسائسون تتفصد جباههم عرقا ، وكل من فى الموضع ، وكل مافى الساحة ، قد هيء واجتمع ، وتوافر ، لخدمة السيد الشريف صمويل سلمكى ومصلحته ، وشرفه وسمعته ، وهو أحد المرشحين عن دائرة ايتنزول للنيابة عنها فى مجلس العموم ببرلمان المملكة المتحدة

وتعالت الهتافات واستطالت ، وخفقت الرايات وقد كتب على أديم احداها ، « حرية الصحافة » فى اللحظة ذاتها التى أشرف فيها رأس المستر بوت الأصفر الشعر على الحاشدين ، من احدى الشرفات ، على السوقة المحتشدين فى الفناء ، وما كان أشد الحماسة التى استقبل بها السيد الشريف صمويل سلمكى ، وقد تقدم فى حذائه الطويل وغطاء رقبته الازرق ،

فتنـــاول يد المستر بت ، معبرا فى صـــورة « مسرحيـــة » للمحتشدين فى الساحة عن شكره الذى لايمحوه شيء ، ودينه الذى لا يفى به عرفان ، لجريدة « الغازت ايتنزول »

وانثنى المستر صمويل سلمكى يسأل المستر بركر « هـل كل شيء على مايرام ؟ »

وأجاب ذلك الرجل النحيف : « كل شيء ياسيدى العزيز »

وقال الســيد الشريف : « أرجـو ألا تـكونوا قد نسيتم شيئا »

وأجاب المستر بركر : « لم نترك شيئا يصح أن يفعل الا فعلناه ياسيدى العزيز · لاشيء اطلاقا · ان لدى الباب المؤدى الى الشارع عشرين شخصا اغتسلوا واستحموا وتهيأوا لتتقدم اليهم فتصافحهم بيدك ، وستة أطفال محمولين على الاذرع لكى تربت على رؤوسهم بكفك ، وتسأل عن أعمارهم ، فاهتم خاصة بالاطفال ياسيدى العزيز ، فان هـذه الحركة كبيرة الاثر فى النفوس دائما »

وقال السيد الشريف صمويل سلمكى : « سأهتم بالأمر »

وعاد السيد النحيف الفطن المحتاط لكل شيء يقول « ويمكن أيضا ياسيدى العزيز ، اذا استطعت ، لانى أريد أن أقول أن ذلك شيء لا يمكن الاستغناء عنه وانما أقول اذا تيسر ، أن تقبل واحدا منهم ، فثق أن ذلك سيحدث تأثيرا عظيمـــا جدا فى نفوس الناخبين »

وهنا سأل السيد الشريف قائلا : « ألا يمكن أن يحدث هذا

التأثير العظيم ذاته اذا تولى عملية التقبيل أحد من الانصار والمؤيدين ؟ »

وأجاب الوكيل : « أخشى ألا يحدثه • أما اذا توليتها أنت بنفسك ياسيدى العزيز فانى اعتقد انها ستجعلك محبوبا من الشعب كل المحبة »

وقال السيد المحترم بلهجة المستسلم : « ليكن ذلك مادام لامفر منه •• »

وصاح أعضاء اللجنة العشرون : « أعدوا الموكب ! »

وفى الحال ، ووسط الهتاف المدوى من حناجر المحتشدين، اتخذت الفرقة الموسيقية ، والمحافظون على النظام ، وأعضاء اللجنة الانتخابية ، وجموع الناخبين ، والخيالة ، والمركبات ، أماكنهم من الموكب الزاخر ، وامتلأت كل مركبة من المركبتين اللتين يجرهما حصانان بأقصى عدد من الركاب يمكن حشرهم فيها وقوفا على سوقهم ، وركب فى الاخرى المستر بكوك والمستر بركر والمستر طبمن والمستر سنودجراس ونحو ستة من أعضاء اللجنة أيضا •

وسادت لحظة رهيبة ، وغمرها سكون مروع انتظارا لظهور السيد المحترم صمويل سلمكى ، وتقدمه ليستقل المركبة ، ليبدأ الموكب سيره • ولم تلبث الجماهير أن أرسلت فجأة هتافا مدويا •

وقال المستر بركر فى حماسة بالغة « لقد خرج اليهم » ، ولم يكن السيد النحيف فى موضع يمكنه أن يمكن الركب الذين معه من رؤية ماهو حادث •

وتعالى هتاف آخر أشد دويا من سالفه

وعاد المستر بركر يقول « لقد صافح الناخبين بيده »

ودوى هتاف ثالث أبعد صدى

فقال المستر بركر وهو يرعش من شدة الفضول والسعوط « لقد ربت بيده على رؤوس الولدان »

وعاد الهتاف يشق عنان السماء

وصاح السيد النحيف وهو فى فرح بالغ ، « لقد قبل أحدهم »

وتعالى الهتاف مرة أخرى

وعاد السيد النحيف يصيح من شدة الحماسة : « لقد راح يقبلهم جميعا » ...

وبدأ الموكب يشق طريقه وسط صيحات تصم الآذان .

وليس فى امكاننا أن نصف كيف اختلط هذا الموكب بالموكب الآخر ، أو بأية وسيلة اختلط وكيف تواتى له الخروج من الفوضى التى ضربت أطنابها ، من جراء هذا الاختلاط ، وكل مافى وسعنا أن نقوله ان قبعة المستر بكوك طارت من فوق رأسه فهبطت فوق عينيه وانفه وفمه ، بسبب سارية من ساريات أعلام « الصفر » أصابتها فى بداية الموكب ، وقد وصف هو المشهد بقوله أنه وجد نفسه ـ حين تيسر له أن يلتقط لمحة من المشهد ـ محاطا من كل جانب بوجوه غاضبة ، وسحنات كاشرة ، وغمامة كثيفة من الغبار ، وحشد حاشد من المتشاجرين ، وقال ان قوة خفية أنزلته من المركبة

كرها ، وانه اشتبك أيضا فى معركة ملاكمة ، ولكنه لايعرف مطلقا مع من اشتبك أو كيف ، أو لماذا ، ثم وجد نفسه يدفع من الخلف دفعا فوق مدارج سلم خشبى ، ولم يكد يرفع قبعته عن رأسه حتى رأى نفسه بين أصدقائه فى مقدمة الجانب الايسر من المنصة . وكان الجناح الأيمن مخصصا لحزب « الصفر » ، والجزء الاوسط منها للعمدة وموظفيه ، وكان أحدهم ــ وهــو المنادى البدين فى المدينة ــ يقرع ناقوسا ، ضخما ، يطلب أن يسود الصمت ، بينمـــا كان السيد هوراشــيو فيزكن ، والسيد المحترم صــمويل سلمكى ، قد وضــعا يديهمــا فوق قلبيهما وهما يدليان فى تلطف متناه ، لذلك البحر الزاخــر من الرؤوس الذى غمر مقدمة الساحة المكشوفة ، وقدتصاعدت من ناحيتها عواصف وزوابع من الانات والصرخات والصيحات والصفير ، تزرى بما للزلزال من تأثير .

وقال طبمن : « هناك ، فوق سطح ذلك البيت » .

« هاهو ذا ونكل ! »

وقال المستر بكوك ، وهو يضع منظاره فوق عينيه ، وكان لحسن الحظ قد حفظه فى جيبه الى تلك اللحظة « أين ؟ »

وقال طبمن : « هناك ، فوق سطح ذلك البيت »

وبالفعل كان المستر ونكل ومسز بت هنالك فوق الأنابيب المصنوعة من الرصاص فى سطح بيت من القرميد يجلســان مستريحين على مقعدين ، وهما يلوحان بمنديلهما تلويحة توحى بأنهما قد لمحا المستر بكوك وزميله ، وهى تحية رد عليهمــا المستر بكوك بقبلة من يده أسلمها الى الريح لتحملها الىالسيدة

ولم تكن الاجراءات المتبعة فى هذا الموقف قد ابتدأت بعد،



الانتخابات فى ايتنزول

والمعروف عن الجماهير ، حين لا تجد شيئا تنشغل به ، أن تنبعث الى « التنكيت » ، فكانت تلك الحركة البريئة من جانب المستر بكوك كافية لاثارة المجون

فصاح صوت قائلا : « آه . أيهـا العجوز الخبيب . الذى ينظر الى البنات ! أليس كذلك ؟ »

وصاح آخر : « ارجع أيها الشيخ عن الاثم وتب يوما »

وصاح ثالث ، يضـــع المنظار على عينيه « ليغـــازل امرأة متزوجة ! »

وصرخ رابع : « أراه يغمز لها بطرف عينه الاثيمة »

وقال خامس : « احرص يا بت على امرأتك »

وتعالت الضحكات

وكان غضب المستر بكوك على أشده ، من هذه النكات التى اقترنت بمقارنة مثيرة بينه وبين رجل كبير السن ، واختلطت بعدة مداعبات ونكات من هذا النوع وأمثاله ، والتى أريد منها أيضا المساس بشرف سيدة بريئة ، فكاد يرفع الصوت محتجا ، لولا أن طلب الى الجمع التزام السكوت ، فاكتفى بارسال نظرة قاسية عابسة الى الجماهير ، ورثاء لعقولها الضالة ، فما زادتهم نظرته هذه الا ضحكا مدويا ، واستهزاء متناهيا .

وصاح رجال العمدة « سكوتا ! »

وقال العمدة بلهجة فخمة تليق بمركزه الرفيع « ياويفن اطلب اليهم السكوت »

وامتثالا لهذا الامر عاد المنادى يقرع الناقوس ، وعندئذ صاح أحدهم قائلا : « أين الفطير ؟ » فدوت الضحكات مرة أخرى .

وبدأ العمدة يخطب ، فقال بأعلى صوت استطاع اطلاقه من حنجرته : « أيها السادة أيها الاخوان ناخبى دائرة ايتنزول ، لقد اجتمعنا هنا اليوم لانتخاب نائب يشغل المقعد الخالى بوفاة المرحوم ... »

وهنا قاطعه صوت من جانب الجمهور يقول : « ليحى العمدة، وليكن النجاح والتوفيق نصيبه ، حتى لايفلت من كفه المسمار . وطبق الفنجان اللذان يتقاضى منهما مرتبه ! »

فقوبلت هذه الاشارة الى مهنة الخطيب ووظيفته بعاصفة من الضحك والسرور ، فلم تلبث بقية خطبته من أثر قرع الناقوس مرة بعد أخرى أن ضاعت فى الهواء ولم تعد مسموعة ، الا حين بلغ منها العبارة الختامية التى شكر فيها للجمهور انتباهه واصغاءه لخطبته من بدايتها الى خاتمتها ، وهو شكر قوبل بعاصفة جديدة من الضحك لبث ربع ساعة مدويا .

وانبرى عندئذ رجل نحيف طويل العود يلبس قميصا أبيض مكويا بالنشاء ، ليخطب فى الجماهير المحتشدة ، ولكنه ما كاد يتكلم حتى ارتفعت الاصوات من كل ناحية تطلب اليه أن يرسل غلاما الى بيته ليسأل امرأته هل تراه ترك صوته تحت الوسادة « بيد أنه استطاع أن يقول أنه يرجو أن يرشح الشخص الجديد بشرف النيابة عنهم فى البرلمان : ولما قال ان هذا الشخص هو السيد هوراشيو فيزكن ، قابله أنصار فيزكن بالهتاف ، ومؤيدو سلمكى بالصفير ، واشتد الهتاف والصفير لحظة طويلة ، حتى لقد كان فى وسع الخطيب والذى سيليه فوق المنبر أن يغنيا أغنيات فكهة ، بدلا من أن يخطبا ويناشدا ، دون أن يأبه بهما أى مخلوق لغنائهما

وبعد أن فرغ أنصار هوراشيو فيزكن من دورهم تقدم رجل صغير الجثة سريع الغضب قرنفلي الوجه ليقترح مرشحا آخر خليقا بأن يمثل ناخبي ايتنزول في البرلمان ، وكان من الجائز لذلك الرجل القرنفلي الوجه أن يمضي في خطبته سابحا طافيا ، لو لم يكن مفرطا في الغضب والاحتداد الى حد جعله لايفطن الى مجانة الجماهير ودعابتها ، ولكنه بعد بضع كلمات حشد فيها ألوانا من الاستعارات والمجاز ، انتقل من التنديد بأولئك الذين قاطعوه الى تبادل التحدي مع السادة القائمين فوق المنصة ، فلم تلبث أن ارتفعت صيحات مزمجرة في وجهه، فاضطر الى التعبير عن مشاعره بالاشارات والحركات دون الكلام ، ثم ترك المنصة للخطيب الذي يليه فقام هذا يلقي خطبة مكتوبة استغرقت نصف ساعة وهو يأبى الامتناع عن الكلام ، والوقوف عن الخطبة ، لانه كان قد بعث بها الى صحيفة «الغازت ايتنزول » ، وكانت الصحيفة قد نشرتها فعلا بحذافيرها .

وعندئذ تقدم السيد هوراشيو فيزكن من « لودج فيزكن » بقرب ايتنزول ليخطب في جموع الناخبين ، ولكنه ما كاد يبدأ الكلام حتى أخذت الفرقة الموسيقية التي استأجرها السيد المحترم صمويل سلمكي تعزف بقوة لم يكن صخبها في الصباح ليذكر بجانب ضوضائها في هذا المقام ، فما كان من أنصار « الصفر » للرد على هذا الا أن راحوا يضربون بالعصي رؤوس « الزرق » وأكتافهم ، ومضى هؤلاء يحاولون التخلص من هؤلاء الجيران الثقلاء معاشر الصفر ، وعندئذ بدأ التدافع والتجاذب والعراك بين الفريقين ، وهو مشهد ليس في امكاننا أن نؤدي له من حق الانصاف أكثر مما فعله « العمدة » ، وان كان قد أصدر أوامر مشددة الى اثني عشر رجلا من القائمين على حفظ النظام بالقبض على كبار الجناة ، وهم قرابة مائتين

وخمسين رجلا ، وكان السيد هوراشيو فيزكن وأصحابهخلال هذه الملاحم والاشتباكات قد استشاطوا غيظا وتناهوا فى الغضب والهياج ، حتى اضطر السيد هوراشيو فى النهاية أن يرجو الى منافسه السيد المحترم صمويل سلمكى أن ينبئه هل كان عزف تلك الفرقة الموسيقية تنفيذا لامر صادر منه ؟ ولكن السيد المحترم صمويل سلمكى رفض الاجابة عن هذا السؤال ، فما كان من السيد هوراشيو فيزكن الا أن هز قبضة يده فى وجه السيد المحترم ، وعندئذ تصاعد الدم فى وجه هذا السيد ، فطلب الىمنافسه المبارزة ، وازاء هذه المخالفة الصارخة لجميع القواعد والسوابق المتصلة بأمر النظام وصونه ، طلب العمدة الى « المنادى » أن يقرع الناقوس ،وأعلن أنهسوف يدعو كلا من السيد هوراشيو فيزكن والسيدالمحترم صمويل سلمكى الى الحضور أمامه وينذرهما بوجوب حفظ النظام ، وأمام هذا التنديد المروع تدخل أنصار المرشحين وبعد أن قضى أصدقاء كل حزب ومريدوه ثلاثة أرباع الساعة فى مشاجرات ومنازعات بين كل اثنين من الفريقين ، رفع السيد هوراشيو فيزكن يده فلمس قبعته تحية للسيد المحترم صمويل سلمكى ، وفعل هذا مافعله منافسه ، فكفت الموسيقى عن العزف ، وهدأ الفريقان نوعا ما ، وسمح للسيد هوراشيو فيزكن بمتابعة الكلام .

وكانت خطبتا المرشحين ، على اختلافهما فى كل شىء ، تنويها بديعا بفضل ناخبى ايتنزول ورجاحة ألبابهم ، فقد ذهب كلاهما فى خطابه يعلن ان الدنيا لم تشهد من قبل من هم أكثر استقلالا ، ولا أوفر فطنة واستنارة ، ولا أرعى للروح الوطنية ، ولا أسمى أذهانا ، ولا أبدع نزاهة ،منمعاشر الناخبين الذين تعهدوا باعطائه أصواتهم ، كما مضى كل منهما

يشير من طرف خفى الى توجسه خيفة من أن يكون الناخبون فى الجانب الآخر من الخبث والسخف والعجز بحيث لايصلحون لتأدية الواجب الخطير الذى طلبّ اليهم تأديته ، وراح السيد فيزكن يعلن استعداده لانجاز كل ما يطلبه الناخبون منه بينما مضى سلمكى يعلن أنه معتزم ألا يفعل شيئا يطلبه الناخبون اليه أن يفعله • وقال الاثنان أن تجارة « ايتنزول » ومصالح أصحاب المصانع فيها ، ومستلزمات رخاء الدائرة ورفاهيتها، أعز على نفسيهما من كل شىء فى هذا العالم ، وان فى وسع كل منهما أن يعلن بكل اطمئنان وثقة أنه هو الرجل الذى سيفوز فى المعركة ويظفر بتمثيل الدائرة •

وعزفت الموسيقات ، وأعلن العمدة أنه يؤيد السيد المحترم صمويل سلمكى وطلب السيد هوراشيو أخذ الاصوات ، فحدد موعد للتصويت ، وعندئذ تقدم اقتراح بشكر العمدة على حسن تصرفه ، ومقدرته فى توجيه الحفل ، من كرسى رياسته، ورد العمدة شاكرا بعد أن قال أنه كان يتمنى لو أنه وجد كرسيا يستطيع وهو فيه أن يظهر كفايته وحسن تصرفه - لانه ظل واقفا على قدميه طيلة الاجتماع -.

وأعيد تنظيم الموكب ، ودرجت المركبات فى طريقها برفق شاقة صفوف الجماهير ، وانثنى الناس فى أثرها يرسلون صيحات وهتافات مختلفة كما تملى عليهم مشاعرهم وترتضى أهواؤهم •

وظلت البلدة خلال فترة أخذ الأصوات فى حمى شديدة من الهياج والحماسة ، وجرى كل شىء على أحسن وجوهه ، وفى أبدع مظاهره ، فكانت السلع التى فرضت عليها المكوس تعرض رخيصة الى حد ملحوظ فى مختلف المتاجر والمحال العامة ،

وكانت مركبات الاسعاف تطوف الشوارع لنقل الناخبين الذين يصابون فجأة بدوار خلال المعركة الانتخابية ، وهـو عارض انتشر بينهم انتشارا يبعث على أشد القلق ، حتى ليشاهد خلق كثير منهم فى أغلب الأحيـان رقودا فوق الأفاريز غائبين عن صوابهم وقد بقيت فئة قليلة من الناخبين متخلفة عن الانتخاب الى اليوم الأخير قبل اقفال الصناديق ، وهم معاشر أهل الرأى والمفكرين الذين لم يقتنعوا بحجج كلا الحزبين ، وان كثرت الاجتماعات والمؤامرات بينهم وبين أنصارهما ، وقبـل انتهاء الموعد بساعة ، طلب المستر بوت التشرف بحديث خاص مع أولئك الأذكياء الكبار النفوس الوطنيين ، فاسـتجابوا له ، وكانت حججه موجزة ولكن مرضية ، فانطلقوا بجمعهـم الى صناديق الانتخاب . وحين عادوا ، كان الفوز للسيد المحترم صمويل سلمكى من سلمكى هول « محققا »

الفصل الرابع عشر

يحوى وصفا موجزا لجمع تلاقوا فى فندق بيكوك وقصة تاجر متجول

انه ليثلج الصدر ، ويسر النفس ، التحول من التفكير فى شئون الحياة السياسية ونضالها وجلبتها،الى الراحة والسكينة اللتين تلازمان الحياة الخاصة ، ولم يكن المستر بكوك فى الحقيقة نصيرا لأى حزب بالذات ، ولا منتميا اليه كل الانتماء ، ولكن حماسة المستر بوت أوقدت مشاعره الى حد جعله يشغل كل وقته ، ويحشد كل اهتمامه ، لمتابعة الاجراءات والتدابير التى جئنا بوصفها فى الفصل السابق من كناشته ومذكراته ، ولم يكن المستر ونكل أيضا طيلة انشغال زعيمه بتلك الشئـون ، متبطلا ولا متبلدا ، بل لقد مضى يخصص كل وقته للرياضات البهيجة والرحلات الريفية اللطيفة مع مسز بوت التى لم تكن تدع أية فرصة تسنح لها الا انتهزتها ، التماسا للترفيـه عن نفسها من تلك الحياة المملة الرتيبة التى مافتئت تشكو منها ،

وهكذا بينما كان هذان السيدان يقيمان فى دار رئيس التحرير وينزلان فيهـا منزلة الأهـل والعشراء ، كا ن المستر طبمن والمستر سنودجراس قد تركا وحدهما ليستمتعا الى حد كبير بالعيش على هواهمـا ، ولم يكونا يعنيان كثـيرا بالمسـائل

السياسية ، فراحا يقتلان الوقت في الاستمتاع غالبا بكل ما تكفله الحياة في فندق بيكوك من صنوف اللهو وألوان التسلية وهي لا تعدو لعبة « البليارد » في الطابق الأول منه ، وألعاب « الكرة » ، في ساحة مهجورة من فنائه الخلفي ، وكان المستر ولر مستكمل العلم بهاتين اللعبتين ، فتولى تدريبهما على دقائقهما وما خفي عليهما من أسرارهما ، التي لايعرفها الأشخاص العاديون ، وظل يلقنهما شيئا فشيئا حتى يألفا ممارستهما على الايام ، وهكذا استطاعا رغم حرمانهما كثيرا من متعة لقاء المستر بكوك والانتفاع بمجالسه ، أن يقضيا أوقاتهما بغير ملالة ، وتمكنا من تجنب السآمة والضجر

ولكن مجالس المساء في الفندق لم تكن تخلو من مفاتن ، مكنت هذين الصديقين من التغلب على الدعوات التي كان « بت » الذكي الموهوب ، رغم بلادته وأحاديثه السقيمة ، يوجهها اليهما ، وكانت العادة أن تمتلىء في كل مساء « القاعة التجارية » في الفندق « بحلقة اجتماعية » ، كان يطيب للمستر طبمن أن يلاحظ أفرادها ، ويتأمل تصرفاتهم ، وآداب سلوكهم ، ويألف المستر سنودجراس تدوين أقوالهم وأفعالهم في مذكراته

وأكثر الناس يعرفون ما شأن تلك القاعات التجارية عادة ولم تكن هذه القاعة في فندق « بيكوك » تختلف في شيء عن أمثالها في الفنادق الأخرى ، أي أنها كانت قاعةرحيبةالجوانب تكاد تلوح خالية من الرياش عارية ، وان كان مافيها منهيوحي بأنه كان أحسن وأفضل منظرا ، حين كان أجد وأحدث عهدا وقد وضعت في وسطها منضدة كبيرة ، وعدة مناضد اخرى صغيرة في مختلف زواياها ، وجملة منوعة الاشكال من المقاعد

وبساط قديم من البسط التركية يكاد يتناسب حجمه مع مساحة القاعة ذاتها ، تناسب منديل غادة . وكانت الجدران ومقر الحارس مزدانة بخريطة أو خريطتين كبيرتين وعدة معاطف « لوحتها الشمس » ، أو ذهبت التقلبات الجوية بألوانها،وقلانس وقبعات مدلاة من صف مستطيل من المشاجب في ركن منها كما ازدان الطنف بدواة من الخشب تحوى «بقية» قلم ونصف قرطاس ودليلا للمسافرين ودليلا للأعلام ، وتاريخا للاقاليم ينقصه الغلاف ، وبقايا سمكة في تابوت زجاجي ، وكان أفق القاعة مختنقا بذوائب الدخان المتصاعد من اللفائف والقصبات ، حتى أحالت القاعة قاتمة اللون ، ولا سيما الأستار الحمر المغبرة التي تظلل النوافذ والشرفات . وكانت على الصوان الجانبي أنواع منوعة من الاشياء متجاورات متقاربات ، كان أبرز مافيها بضعة أباريق وصناديق وسياط ولفاعات للسفر وصينية للسكاكين والشوك وآنية للتوابل والخردل .

وفي هذه القاعة كان المستر طبمن والمستر سنودجراس يجلسان في مساء اليوم الذى انتهت فيه الانتخابات مع عدة نزلاء آخرين ، يدخنون ويشربون

وأنشأ رجل بدين موفور العافية ، يناهز الأربعين ، أعور، ذا عين سوداء شديدة البريق يختلج فيها المكر والمجانة والولوع بالمزاح ، يقول : « أيها السادة ، نحن معاشر السادة، ان من عادتي أن أقترح شرب نخب الحاضرين ، وأخص نفسي بشرب نخب « ماري » ، ايه يا ماري ! »

فأجابته الساقية ، وهي تبدو غير مستاءة من هذه التحية التي وجهت اليها : « الزم شأنك أيها المنكود »

وقال ذو العين السوداء : « لا تنصرفى يا مارى ! »

وأجابت الفتاة : « دعنى وهذه القحة »

وقال الأعور وهو ينادى الفتاة بعد أن تركت القاعة : « لا بأس ! سأحضر اليك بنفسى يامارى بعد لحظة ، فلا تغضبى ياعزيزتى وكونى مرحة »

ومضى فى حركة ليست بالشاقة،وهى الغمز بعينه السليمه للجميع ، مما أثار ابتهاجا متزايدا فى نفس رجل مكتهل ذى وجه قذر وقصبة تبغ من الفخار فراح يقول بعد سكون قصير « النساء مخلوقات لطيفات »

وأجاب رجل شديد احمرار الوجه قائلا من خلف لفافة فى فمه : « آه لانزاع فى ذلك »

وعاد السكون يغمر المجلس عقب هذه القطعة الصغيرة من الفلسفة

وانثنى ذو العين السوداء وهو يملأ بالتبغ قصبة هولندية كبيرة : لا تنس أن فى الدنيا أشياء ألطف من النساء وأظرف »

فسأله ذو الوجه القذر : « هل انت متزوج ؟ »

قال : « لست أستطيع أن أقول اننى كذلك »

وأجاب الآخر : « هذا هو ماخطر لى » • وعندئذ انتابته نوبات من الضحك لهذا الجواب ، اشترك معه فيها رجل ذو صوت هادىء ، ووجه رزين ، اعتاد أن يوافق كل انسان على مايقوله •

وانبرى المستر سنودجراس فى حماسة يقول : « ان النساء

أيها السادة ، رغم كل ما قيل ويقال عنهن ، دعامة حياتنا وسلوة عيشنا ، ومتعة نفوسنا »

وقال السيد ذو الوجه الساكن : « انهن لكذلك ! »

واعترض الرجل الأشعث قائلا : « حين يكن صافيات المزاج »

وقال السيد الهادىء : « هذا صحيح جدا »

وقال المستر سنودجراس · وكانت أفكاره قد عادت سراعا به الى « املى واردل » « اننى لا أقر هذا الاشتراط ، واعترض عليه بكل احتقار ، وكل غضب · ارونى الرجل الذى يقول شيئا ضد النساء ، وأنا أعلن على رؤوس الاشهاد انه ليس رجلا »

وأخرج المستر سنودجراس « اللفافة الكبيرة » من فمه ، وضرب المنضدة ضربة عنيفة بجميع كفه

وقال الرجل الهادىء : « هذه حجة سليمة صائبة » ·

وقال الأشعث مقاطعا : « ولكنها حجة تحوى نقطة لا اوافق عليها »

وقال السيد الهادىء : « وفى هذا القول بلا شك كثير من الحق ياسيدى »

وقال التاجر المتجول ذو العين الواحدة «فى صحتك ياسيدى» وراح يومىء برأسه للمستر سنودجراس ايماءة الموافقة

وقبل المستر سنودجراس منه هذه المجاملة

ومضى التاجر المتجول يقول : « اننى أحب دائما أن اسمع

حجة صائبة حجة قوية كهذه،لانها تنعش الصدر كل الانعاش. ولكن هذه المحاجة اليسيرة عن النساء قد ذكرتنى بقصة سمعتها من عم لى كبير فى السن ، وكانت ذكراها منذ لحظة هى التى حملتنى على أن أقول أن فى الدنيا أحيانا أشياء الطف من النساء وأجمل » .

وقال ذو الوجه المحمر الممسك باللفافة الكبيرة : « أحب ان أسمع هذه القصة »

وقال التاجر : « أحقا ؟ » ولم يرد بل ظل يدخن بشدة بالغة .

وقال المستر طبمن ، ولم يكن تكلم قبل هذه اللحظة : « وأنا كذلك » . فقد كان متشوقا لزيادة مدخره من العلم والتجربة .

وقال ذو العين الماكرة ، وهو يحيلها بالاختلاج أشد مكرا : « أحقا تريد ان تسمعها ، حسن جدا ، سأقصها ، ولكن كلا ، ما أنا بقاصها ، لانى أعرف انكم لن تصدقوها »

وقال المستر طبمن : « اذا قلت انها حقيقة .. فسأصدقك بالطبع »

وأجاب التاجر الجواب : « على هذا الشرط اذن سأقصها . فهل سمعتم يوما باسم بيت تجارى كبير يدعى بيلسن وسلام ؟ ولكن ليس بذى بال أن تكونوا قد عرفتموه أو لم تعرفوه ، لأنه بيت ترك التجارة من عهد بعيد ، وقد وقع ما ستسمعونه للوكيل المتجول فى خدمة ذلك البيت منذ ثمانين عاما ، وكان صديقا حميما لعمى ، وكان عمى هو الذى قصها على مسمعى ، وقد جعل لها عنوانا غريبا ، ولكنه كان قد اعتاد أن يدعوها » :

قصة التاجر المتجول

وقد اعتدت أنا أن أقصها على النحو التالى :

فى ذات مساء خلال أيام الشتاء ، وحوالى الساعة الخامسة ، حين أخذ الغسق يغمر الكون ، كان رجل يستقل عجلة ذات حصان واحد ، وهو يستحث حصانه المكدود على الطريق الذى يشق « برارى مارلبره » فى اتجاه برستل وكان من المحتمل أن يراه أحد من الناس ، بل لا أشك فى أن أحدا من الناس كان لابد ان يراه حتما ، الا اذا كان من عساه ان يمر به فى تلك الناحية أعمى لا يبصر ، وكان الجو من السوء ، أو الليل من شدة البرودة والبلل ، بحيث لم يكن ثمة شىء فى طريقه غير هطل الأمطار ، وغزارة الماء من حوله ، فكانت العجلة تشق طريقها وحيدة ، مكفهرة ، مقرورة ، ولو أن تاجرا متجولا فى تلك الأيام لمح تلك العجلة الصغيرة المتجردة التى يضرب هيكلها الى لون الطفل ، وتبدو الحمرة على عجلاتها، وشاهد تلك الفرس الشموس الشكسة السريعة التى تبدو هجينا بين حصان جزار ، ومهرة موزع بريد ، لعرف فى الحال أن ذلك التاجر لم يكن أحدا غير « توم سمارت » الذى يعمل فى خدمة بيت « بيلسن وسلام » فى شارع « كاتيتن » بحى الاعمال ، فى لندن ، ولكن لم يكن ثمة أحد من التجار الجوالين فى ذلك الطريق ليشاهده ، فلبث أمره مجهولا لا يدرى مخلوق عنه شيئا ، وظل منطلقا بغربته الطفلية اللون ، وعجلاتها الحمراء الأديم ، وفرسها الشموس السريعة الخطى ، كأنما قد احتفظ الكل بالسر ، فلبث الأمر مكتوما على الناس مخفيا .

وفى الارجاء المهجورة من هذا العالم بقاع أخف رحمة من « برارى مارلبره » حين تهب عليها الرياح العاتية ، فاذا أضفت الى ذلك كله ، ذلك المساء المكفهر القاتم ، والطريق الموحل

الزلق ، وهطل المطر الشـــديد ، وجربت ما يكون من الأثر بنفسك ، على سبيل الاختبار الشخصى ، أدركت قوة هــــذا الوصف كاملة ، ووعيت رهبة ذلك المشهد جملة ٠

وكانت الريح تهب فى الطريق ، لا فى اتجاه البلدة ولا فى الاتجاه المضاد ، وكلا الأمرين لا يقــل عن الآخر سوءا ، بل كانت تهب فى عرضه ، تاركة المطر ينحدر ويميـل كالأسـطر التى كان الطلبة فى المدرسة يسطرونها فى كراســـاتهم حتى تستقيم كتابتهم عليها ، وقد تسكن الريح لحظـــة وتتلاشى ، ويبدأ المسافر يوهم نفسه انها قد تعبت واضمحلت من هياجها السابق ، فهدأت من روعها ، وأخلدت الى الراحــة ، واذا هى تهب مرة أخرى ، وتزمجر زمجرة ، وتصفر صفيرا بعيدا ، ثم تنـــدفع فوق أعالى الربى ، وتكتسح الســـهول ، مستجمعة زفيفها وقوتها ، وهى مقتربة ، حتى تصطدم باعصارها العنيف بالفرس والرجل معا ، ملقية بقطرات المطر العصيب فى آذانيهما، وأنفاسهما الباردة الرطبة فى مستدق عظامهما ، وتنطلق مبتعدة فى زئير يصم الأسماع كأنما تسخر من ضـــعفهما ، وتغتبط بانتصارها واعتدادها بشدتها وسلطانها ٠

ولبثت الفرس تعدو مرسلة الرشاش من حولهـــا وسط الاوحال والميــــاه ، متهدلة الاذنين ، مطوحة بين لحظة وأخرى برأسها ، كأنما تريد بهذه الحركة التعبير عن اشمئزازها من هذا المسلك الجاف الذى تسلكه عناصر الطبيعة، وان احتفظت مع ذلك بسرعتها ، حتى تعود الرياح فتهاجمها مرة أخرى بأشـــد وأقسى مما هاجمتها به من قبل ، فلا تلبث أن تقف عن المســير فجأة ، وتغرز قوائمهما الأربع فى الأرض حتى لا تكتسها من مكانها ، وهى رحمة أحاطت بها ، لانها لو انساقت مع الريح ،

وهي خفيفة ، والعربة خفيفة مثلها ، وتوم سمارت من الوزن الخفيف كذلك ، لذهب الجميـــع يتدحرجون الى أقصى أطراف الأرض ، أو ريثما تهدأ الرياح ، وأغلب الظن فى كلتا الحالين ان الفرس والعربة الطفلية اللون ذات العجـلات الحمر ، وتوم سمارت ذاته ، لن يعودا صالحين للخدمة بعد ذلك ٠

وقال توم سمارت ، وكان مولعا فى بعض الاحيان بالسب واللعن : « لعنة الله على ذقنى وطوقى ، ان كان هـذا سيطول شرحه ، فلتنسفنى الريح نسفا » ٠

ولعلكم تسألوننى لماذا أبدى توم ســمارت ، بعد أن كادت الريح تطوح به ، رغبة فى التعرض لهذه العملية مرة أخرى ، ولكنى لست أدرى ما الباعث له على هذا ، وكل ما أعرفه انه قال ذلك فعلا ، أو على الاقل كان هذا هو ما اعتـاد أن ينبىء عمى بأنه قال كذلك ، وكلا الامرين سواء ٠

وصاح توم ســــــمارت : « لتنسفنى الريح ! » ، وصهلت الفرس كأن هذا هو رأيها فى الموقف تماما ٠

ولكن توم سمارت راح يربت على عنقها بطرف سوطه قائلا: « استجمعى قواك ولا تبتئسى أيتها البنت العجوز ٠ لا فائدة من مواصلة المسير فى هذه الليلة ، وأول منزل نصـــادفه فى طريقنا سنبيت فيه ، فكلما أسرعت فى الســير بلغنا المـأرب المقصود ٠ هلمى أيتها البنت العجوز ٠ هلمى ، ولكن برفق ، برفق ! »

ولست أستطيع طبعا ان أقول هـــل كانت تلك الفرس الشموس قد اعتادت سماع صوت توم الى حد يكفى لأن تفهم المعنى المقصود ، أو وجدت ان الجمود فى مكانها أشد تعرضـا

للبرد والزمهرير من متابعة المسير ، ولكن كل ما أستطيع ان أقوله انها ما كاد توم ينتهى من كلامه حتى نشرت فى الفضاء أذنيها ، وانطلقت بسرعة جعلت المركبة الطفلية اللون تجلجل حتى ليخيل اليك ان كل عجلة من عجلاتها الحمراء موشكة ان تطير من موضعها على العشب فى براري مارلبرة ، وحتى عجز توم نفسه ، وهو السائق الماهر ، عن ايقافها أو الحد من سرعتها ، الى أن وقفت من تلقاء ذاتها أمام فندق على قارعة الطريق ، فى الجانب الأيمن منه ، على مبعدة نحو ربع ميل من نهاية تلك التلال الكلئة .

وألقى توم نظرة سريعة على الطبقة العليا من المبنى ، وهو يلقى باللجام الى السائس ، ويرشق السوط فى مقعده ، وبدا له ان المكان غريب قديم العهد ، بنى من نوع من الحصباء ، ومسقوف بالاخشاب ، وله نوافذ منحدرة الشكل بارزة كل البروز الى مشرع الطريق ، وباب خفيض ، وسقيفة مظلمة ، ومدرجان عاليان يهبطان الى البيت ، ولا يصعدان اليه كالطراز المألوف فى عصرنا الحديث ، ولكنه كان على كل حال موضعا يلوح عليه انه مريح يبعث الرضى اذ ينبعث من نافذة « موضع الشراب » فيه نور قوى بهيج ، يلقى شعاعا وهاجا على الطريق، وينير العدوة الأخرى المقامة من العوسج ، ومن الشرفة المقابلة ينبثق نور خفاق يبدو لحظة ضعيفا لا يكاد يبين ، ثم لا يلبث فى اللحظة التالية ان يبرق بقوة من خلال الأستار المسدلة ، موحيا بأن نارا متأججة تتقد داخل الحجرة ، وما ان تبين توم هذه الامارات والشواهد بعين الجوابة الخبير بالأسفار حتى ترجل عن العجلة بكل خفة ممكنة ، تواتت لأوصاله وأطرافه التى كاد البرد يهرأها ، ودخل البيت .

ولم تكد تنقضى بضع دقائق حتى كان توم مستكنا فى

الغرفة المقابلة لموضع الشراب ، وهى الغرفة ذاتها التى خيل اليه انها تحوى نارا مشوبة ، وقد جلس قبالة نارمتأججةفعلا، غنية بالوقود من فحم ، ورأى فوق المدفأة أكداسا من الخشب تكفى أن تتألف منها بضعة آجام ، وقد راحت النـار تزمجر وتطقطق ، وتحدث صوتا يكفى فى حد ذاته لان يدفىء قلب أى انسان عاقل ، وكأن هذا كله مرفها على النفس ، مريحا للخاطر ، ولكنه لم يكن كل شىء فى الدار ، بل كانت ثم فتاة رشيقة ذات عين براقة وكعب نظيف ، وهى تنشر غطاء أبيض متناهيا فى النظافة فوق الخوان ، وفيما كان توم جالسا وقد أسند قدميه وهما فى الخف الى حاجز « الموقدة » ، وولى ظهره الى الباب المفتوح ،استطاع أن يشهد على أديم المرآة المعلقة فوق الموقدة منظرا فاتنا لما كان يحويه مكان الشراب من صفوف الزجاجات الخضر الذهبية ،ومن قدور المخلل والأطعمة المحفوظة ، وأنواع الجبن ولحوم الخنازير السليقة ، والقطع المستديرة من لحم العجول ، كل أولئك قد صفت فوق الرفوف بصورة مغرية ، وشكل جذاب ، ونظام بديع ، وهو مريح كذلك ، ولكن ذلك لم يكن كل ماهنالك أيضا ، فقد رأى فى مكان الشراب ، أرملة غضة بضة قد جلست تشرب الشاى على أصغر وأبدع مائدة يمكنك أن تتخيلها ، وهى قريبة من أوهج وأدق نار مشبوبة يمكن أن توقد ، ويبدو على تلك الارملة انها فى الثامنة والاربعين أو نحوها ، ذات وجه مرفه مريح كمكان الشراب ذاته والظاهر انها ربة الفندق ، وصاحبة الامر والنهى فى كل هذه الاملاك البديعة ، والذخائر الممتعة . ولكن كان ثمة عيب واحد يغض من جمال الصورةوفتون معالمها ودقائقها، وهو وجود رجل طويل مفرط الطول، فىسترة سمراء وأزرار براقة ، وشاربين اسودين ، وشعر فاحم متموج كان يجلس

الى الشاى مع الارملة ، ولا يحتاج المرء الى ذكاء وقاد لكي يتبين أن الرجل يحاول اقناعها بأنه قد حان لها ان لاتبقى أرملة ، وأن تنعم عليه بحق الجلوس فى مكان الشراب ، طيلة الاعوام التى بقيت له فى الحياة

ولم يكن « توم سمارت » بالرجل الذى تنزع به النفس الى الهياج ، أو الحسد ، ولكن منظـر ذلك الرجل الطـويل ذى السترة السمراء ، والازرار المقعرة الشكل البراقة ، لم يلبث لسبب ما أن أثار حفيظته ، وغضبه الشديد ، وخاصة لانه مضى بين لحظة وأخرى يلاحظ ، وهو فى مجلسه قبالة المرآة ، بعض حركات لطف ومودة تجرى بين ذلك العملاق وتلك الارملة مما يكفى للايحاء بأن ذلك الرجل الطويل قد أصاب عنـدها حظوة عالية كقامته • وكان توم مولعـا بشراب « البنتش » الساخن ــ بل اجرؤ على القول بأنه كان به « جـد » مولع ، فبعد أن اطمأن الى أن فرسه الشموس قد أحسن علفها ، ومهد لها مربطها ، وبعد أن أكل كل قطعة من الطعام الشهى الذى جعلت الارملة تلقيه اليـه بيديهـا ، راح يطلب قنينـة من « البنتش » على سـبيل التجربة ، واذا كان ثمـة شيء من مختلف فنون البيت وأساليب تدبيره ، تحسن الارملة اعداده ، أكثر من أى شيء سواه ، فذلكم هو « البنتش » بالذات وقـد وافقت القارورة الأولى منه مزاج توم سـمارت ، وطاب لديه مذاقها ، الى حد أغراه بطلب أخرى فى الحال ، ولا يخفى أيها السادة أن «البنتش» الساخن شراب لذيذ ممتع، غاية الامتاع، فى أى ظرف من الظروف ، ولـكنه فى تلك الغرفة الدفئـة القديمة ، وقبالة تلك النـار المتقـدة الزائرة ، وتلك الرياح القاصفة فى الخارج حتى ليكاد كل لوح من الخشب فى ذلك البيت يهتز وينشقق من هول قصفها ، كان ممتعا فى تقـدير

توم سمارت ، كل المتعـــة فطلب قارورة أخرى ، ثم ثالثـــة ولست متأكدا هل طلب واحدة بعد ذلك ، ولكن الواقع انه كلما أكثر من شرب البنتش الساخن ، اشـــتد به التفكير فى ذلك الرجل الطويل الفارع

وأنشأ توم يحدث نفسه فقـــال : « لعنة الله على قحتــه • ماشأنه فى مكان الشرب البديع وأى عمل له فيه ؟ انه لقبيح الصورة دميم • لوأن للارملة ذوقا جميلا لاختارت انســـانا أحسن من هذا نوعا ما » • ومضت عينه تنتقل بين الزجاجة المقامة فوق المدفأة ، وبين الزجاجة الموضوعة فوق المائدة ، وما أن شعر بأنه قد أمسى ثائر العاطفة ، حتى أفرغ القارورة الرابعة فى جوفه ، وطلب الخامسة

« وكان توم سمارت أيها السادة لايكف من قبل عنالتعلق بالحانات ، والولوع بالشراب ، وكان كل مناه من عهد طويل أن يقف فى مشرب يملكه ، مرتديا سـترة خضراء وأربطـة ركبتين ، وحذاء مستطيلا ، وكانت نفسه أبدا تهفو الى الجلوس فى مكان الصدارة من مجالس الشراب ، ومطارح السـمر ، ولطالما تخيل نفسه مقتعدا كرسى الرياسة فى حجرة يملكها، ويدير الحديث بلباقة وحذق ، وأى أسوة حسنة هو المتجمل بها ، أمام زبائنه ، فى الجناح المخصص للشراب ، ولم تلبث هذه الاخيلة كلها والامانى الماضية أن خطرت فى تلك اللحظة بباله ، وهو جالس الى قوارير شرابه بجانب النار التى تزأر فى الموقدة • فلا عجب اذا هو شعر بغيظ شديد من مشـهد ذلك الرجل المارد ،وهوقدأوشك أن يظفر بهذا البيت البديع، بينما هو ، توم سمارت ، لايزال يهفو فى اثر أمنية بعيـدة لاتقترب أبدا ، وبعد أن ظل طيلة بقـاء القارورتين الاخيرتين أمامه • يفكر مليا هل من حقه أن يخلق سببا للاشتجار معذلك

المارد ، لانه عرف كيف يظفر بالحظوة عند تلك الارملة البضة، وانتهى به التفكير الى نتيجة مقنعة ، وهى أنه رجل اساءت الدنيا كثيرا اليه ، واضطهدته الاقدار ، فمن الخير له أن يأوى الى الفراش

وتقدمته الفتاة الرشيقة ، تصعد به سلما قديما رحيبا ، وتظلل شمعة الحجرة بكفها وقاية لها من التيارات الهوائية التى تجد لها فى ذلك البيت القديم الذى تخفق الأرواح فيه سبيلا الى التسرب خلال منافسه ، والعبث فيه كما تشاء ، دون أن تطفىء نور الشمعة ، ولكنها مع ذلك قد هبت عليها فأطفأتها ، مهيئة لخصوم « توم » فرصة اتهامه بأنه هو الذى أطفأها ، ولم تكن الريح هى التى أخمدت أنفاسها ، وانه بينما كان يتظاهر بأنه يحاول اضاءتها ، كان فى الواقع يقبل الفتاة ويلثمها • وسواء كان هذا أو ذاك هو الصحيح ، فقد تيسر الحصول على ضوء آخر ، وتقدمت به الفتاة فى تيه من الحجرات والدهاليز حتى بلغ الغرفة التى أعدت لمبيته ، فسلمت الفتاة مودعة وتركته وحده

وكانت الغرفة رحيبة ذات مرافق كبيرة وتحوى سريرا يصح أن يتسع لمنام طلبة قسم داخلى فى احدى المدارس فضلا عن صوانين للثياب من خشب السرو يتسعان لامتعة جيش صغير ، ولكن أشد ما استرعى نظر توم وأثار خياله مقعد غريب رهيب المنظر عالى المسند ، تناهى فى طرافة الشكل ، وله وسادة من الدمقس المزين بالازهار ، وركبتان مستديرتان فى أسفل ساقية مربوطتان بقماش ارجوانى ، كأنما يشكو من نقرس أصاب أصبع قدميه

وخيل الى توم أنه دون سائر المقاعد كلها يبدو « غريبا »

حقا ، وكان الامر محتملا ان ينتهى عند هذا الحد ، فينشغل الرجل عنه ، لولا أنه لاحظ على ذلك المقعد بالذات شيئا آخر، وان لم يتبين فعلاماهو ، فقد كان من الشذوذ والغرابة بحيث لايماثله مقعد آخر من كل المقاعد وقطع الاثاث التى شهدها فى حياته ، حتى لقد استهواه ، واجتذب خاطره اجتذابا ، فجلس قبالة الموقدة ، وظل يحملق البصر فى ذلك المقعد القديم نصف ساعة وهو لايستطيع أن يسترد عنه عينه ، ولا يشيح بوجهه دونه

وراح توم يقول لنفسه وهو ينضو عنه ببطء ثيابه ويطيل النظر الى ذلك المقعد القائم بجوار مضجعه بشكله الغريب المرهوب « لعمرى ما رأيت فى حياتى عجبا كهذا فى أيامى الخاليات » ، وكان توم قد استحال « حكيما » فيلسوفا من أثر « البنتش الساخن » الذى شربه ، فمضى فى نجواه يقول : « هذا غريب جدا، غريب جدا » وانثنى يهز رأسه هزة الحكمة البالغة ، ويلقى نظرةأخرى على المقعد ، ولكنه لم ير شيئا جديدا ، يمكن أن يستخلص منه علة أو يهتدى الى سر ، فدخل فى فراشه ، وتغطى بلحافه ، ليدفىء بدنه ، ومالبث أن هبط فى سبات عميق

ولكنه بعد نصف ساعة أو قرابته استيقظ مجفلا من حلم مضطرب تراءت له فيه صور عمالقةومردة وقواوير من شراب، وكان أول شىء تمثل لخياله فى يقظته ، هو ذلك المقعد الغريب

فقال فى نفسه وهويحاول اغماض أجفانه ويقنع نفسه انه عائد الى النوم : « لن أعيرك نظرة بعد الآن » ولكن النوم لم يطاوعه ، فلم يلمح غير مقاعد غريبة تتراقص أمام عينيه ،

وتهز سوقها ، ويقفز بعضها فوق ظهور بعض ، وتحدث من الالعاب صنوفا وألوانا ·

وأخرج توم رأسه من تحت الاغطية ، وهو يقول ليس ثمة ضير من أن أشهد مقعدا واحدا حقيقيا ، كما لو شهدت مجموعتين أو ثلاث مجموعات من الكراسى المزيفة ، ونظر الى المقعد فاذا هو قائم حياله ظاهر واضح على وهج النار المشبوبة فى المدفأة يبدو متحديا مستفزا كدأبه

وفيما كان يطيل النبصر اليه ، اذ بدا له فجأة أن تحولا متناهيا فى الغرابة قدعراه ، فقد بدأ المسند العالى يتخذ تقاطيع وجه بشرى مغضن كثير المكاسر كوجوه الشيوخ ، واستحالت الوسادة الحريرية رويدا رويدا الى صدار غريب ذى شقين ، والركبتان المستديرتان الى قدمين اثنتين ، منتعلتين خفا من قماش أحمر اللون ، وبدا المقعد القديم أشبه شىء برجل متقدم فى السن دميم الخلقة الى حد بعيد ، من شيوخ القرن الماضى ، وهو مشتبك الذراعين ، فاستوى توم فى مرقده وراح يفرك عينيه ليطرد الصورة الماثلة لهما · ولكن بلا فائدة، ولا جدوى · لقد تمثل المقعد القديم أمامه رجلا عجوزا دميما ، بل أدهى من ذلك وأنكى ، راح يغمز بطرف عينه لتوم سمارت

« وكان توم بطبعه رجلا ثابت الجنان غير هياب ولا وجل ، وقد شرب خمس قوارير من البنتش الساخن فلم يلبث بعد الاجفالة العابرة التى أحسها فى بداية الامر أن استشاط غيظا منه بتلك القحة المتناهية ، وأخيرا عقد النية على ألا يسبكت على هذه الجرأة ، فراح يقول بلهجة غضب شديد ، حين رأى ذلك الوجه القبيح لايزال مستمرا فى غمزه أكثر من قبل :

« قل لى أيها الشيطان اللعين ما الذى يدعوك الى هذا الغمز لى على هذه الصورة ؟ »

وأجابه المقعد أو الرجل العجوز ، أيا ماتحبون أن تدعوه، «لانني أحب أن أغمز هكذا ياتوم سمارت !» ،ولكنه كف مع ذلك عن الغمز ، حين رأى توم يكلمه ، وبدأ يضحك ويبدى نواجذه أشبه بقرد عجوز بلغ أرذل العمر

وبهت توم حين سمعه يناديه باسمه ، وان تظاهر بأنه لم يرع منه ولم يبال · « كيف تعرف اسمى ياذا الوجه القبيح الذى يشبه « كسارة » الجوز »

وقال السيد العجوز : « لا عليك ياتوم لا عليك ليست هذه هى الطريقة التى تخاطب بها مقعدا قديما من خشب المجنة الأسبانية ، اللعنة على ، ما كنت مخاطبى بأقل من هذا احتراما لو أنى كنت مقعدا مصنوعا من قشرة لا من خشب صلب »

وبدا الشيخ وهو يقول ذلك موحشا غاضبا حتى لقد بدأ الخوف يسرى فى نفس توم من وحشة غضبه فمضى يقول بلهجة أرق كثيرا من لهجته الاولى : « لم أقصد أن أعاملك ياسيدى بأى استهزاء أواحتقار »

وقال الشيخ : « ما علينا قد يكون ذلك ولكن اسمع ياتوم»

ـ « نعم ياسيدى »

ـ « اننى أعرف كل شىء عنك ياتوم ، كل صغيرة وكبيرة ، انت فقير شديد الفقر ياتوم »

ـ « انى فى الحق كذلك ، ولكن من أين عرفت ذلك عنى »

ـ وأجاب السيد العجوز : « لاتسأل عن ذلك ، وأنت شديد الولوع بالبنتش ياتوم »

وكان توم قد هم بأن يزعم انه لم يذق قطرة منذ عيد ميلاده الأخير ، لولا أن التقت عينه بعين الشيخ وتبين له من نظراته أنه كان يعرف كل شيء ، فخجل توم ولزم الصمت

وعاد الشيخ يقول : « اسمع ياتوم ان الأرملة امرأة جميلة، جميلة الى حد بالغ ، أليست كذلك ياتوم ؟ » وانثنى العجوز يتخازر بعينيه ، ويرفع احدى ساقيه الواهيتين القصيرتين ويبدو منعزلا بشكل متناه فى القبح ، حتى اشمأز توم من هذا التصرف النزق من رجل فى مثل سنه •

ومضى العجوز يقول : « اننى ولى أمرها ياتوم »

قال : « أحقا ؟ »

واستتلى العجوز يقول : « لقد عرفت أمها ياتوم وجدتها وكانت مولعة بى ، هى التى حاكت لى هذا الصدار ياتوم »

قال : « أفعلت ذلك هى ؟ »

واسترسل العجوز قائلا : « وهذا الحذاء ، ولكن لاتذكر شيئا من ذلك ياتوم لانى لا أحب أن يعرف أحد من الناس انها كانت تحبنى الى هذا الحد • فقد يحدث ذلك بعض الكدر فى الاسرة »

وبدت على العجوز جرأة متناهية ، قال توم سمارت فى وصفها فيما بعد أنه كاد يهم من تناهيها أن يجلس فوقه بلا ندامة أو أسف

ومضى ذلك الشيخ المستهتر يقول : « لقد كنت فى زمانى أخا حظوة كبيرة عند النساء ، وكم من مئات الغيد رحن يجلسن فى حجرى ساعات طوالا لايزايلنه ، فما رأيك فى هذا ياكلب ؟ »

وهم الشيخ بأن يقص عليه طرفا من وقائعه الغرامية فى شبابه ، لولا أن استولت عليه نوبة صرير عنيفة أعجزته عن المضى فى قصصه

وقال توم لنفسه : « هذا جزاؤك أيها الشيخ المتصابى ! »، ولكنه لم يقل للعجوز شيئا

وعاد هذا الى حديثه فقال : « آه ! لقد أصبحت أعانى كثيرا من هذه العلة اليوم ، لقد بدأت أشيخ ياتوم ، وكدت أفقد كل مقوماتى الحديدية وقضبانى ، وقد أجريت لى أيضا جراحة قبل الآن · وأدخلت قطعة صغيرة فى ظهرى · وكانت المحنة أليمة قاسية ياتوم عانيت منها عناء شديدا »

وأجاب توم سمارت قائلا : « أكبر ظنى ياسيدى انك عانيت كثيرا »

واسترسل العجوز يقول : « ولكن ليست هذه هى موضوع البحث ياتوم ، وانما كل ما أريد أن أقوله أننى أريد منك ان تتزوج الارملة »

وقال توم فى دهشة : « أنا ياسيدى ؟ »

وأجابه العجوز : « نعم أنت »

وصاح توم قائلا : «بارك الله فى جدائلك الموقرة ياسيدى»

ـ وكانت قد بقيت للشيخ بضع شعرات متناثرة من شـــعر الخيل ـ « ان الارملة لن ترضى بى بعلا لها » ، وراح يزفر على كره منه ، وقد خطر « البار » لخياله

وقال الشيخ بقوة : « أحقا لن ترضى بك ؟ »

وأجاب توم قائلا : « بلى ، بلى ، ان هنـــالك انسانا آخر رجلا طويل القد ملعون الشبه ، ذا شاربين أسودين »

وقال الشيخ : « اسمع منى ياتوم · انها لن ترضى به »

وقال توم : « لن ترضى به ! أحقا ؟· لو وقفت فى مكان الشراب أيها السيد الكبير لقلت غير هذا المقال »

وصاح الشيخ قائلا : « اف ! اف منك !·· أنا عارف كل شىء »

قال : « وماذا تعرف ؟ »

وأجاب السيد الكبير : « تعاطى القبلات خلف الباب » وكل ماهو من هذا النوع أو نحوه » ، ثم انثنى يرسل نظرة وقحة أخرى ، أغضبت توم أشد الغضب ، لأن سماع عجوز ، كان أولى به أن يكون أعقل من ذلك وأحجى ، يتحدث فى هـــذه الأمور وأمثالها ، شىء تعرفون جيدا ، أيها السادة ، أنه أثقل مايكون على النفس وأسوأ مايكون قيلا

ومضى الشيخ يقول : « اننى أعرف كل شىء ياتوم وقـــد شاهدت مثله يقع كثيرا فى زمانى ياتوم بين قـــوم لا أود أن أذكر لك أسماءهم،ولكن ذلك كله لم يأت فى النهاية بنتيجة »

وقال توم وهو ينظر اليه نظرة فضول : « لابد من أنك شهدت العجب فى شبابك »

وأجاب الشيخ بغمزة مضطربة من عينيه ، وزفرة أليمةمن صدره « لك ان تقول ذلك،اننى آخر فرد من أسرتى ياتوم. »

قال بفضول : « أو كانت كبيرة العدد ؟ »

قال اثنى عشر ياتوم رفيعى الظهور حسانا تشتهى عينك أن ترانا ، ولم نكن كهذه الاجنة المجهضة التى شاعت فى هذه الايام ، كلها أذرع، ومجرد طلاء يروقك منظره ، وكان أجدر بك ألا تنخدع به »

وسأله توم قائلا : « وماذا صنع الله بالآخرين »

وأجاب السيد العجوز وهو يرفع مرفقه الى عينه : « لقد ذهبوا جميعا ياتوم وانقرضوا . لقد خدمنا خدمة شاقة ولم يكن الآخرون فى مثل قوة بنيتى ، فأصابهم النقرس فى سوقهم وأذرعهم ، ونقلوا الى المطابخ وغيرها من المستشفيات، وحدث لاحدهم ، وكان قد ابتذل طويلا فى الخدمة وقاسى بلاء شديدا ، ان فقد قواه العقلية ، وبلغ جنونه حدا اقتضىاحراقه وهى نهاية مروعة ياتوم »

وقال توم سمارت : « مرعبة »

وسكت العجوز لحظة ، والظاهر انه كان يغالب انفعالاته ، ثم عاد يقول : « ولكننى ياتوم قد شردت عن الموضوع ، ان ذلك الرجل الطويل ياتوم افلق ، وغد ، أثيم ، وسوف يبيع كل الاثاث الذى يحويه هذا البيت بمجرد الزواج بالارملة ، ويلوذ بأذيال الفرار ، وعندئذ ماذا ستكون العاقبة .؟ سوف

تجد المرأة نفسها وحيدة مهجورة ضاع مالها ، وحل الخراب بدارها ، وسوف ألفظ أنفاسى الأخيرة فى دكان أحد الراهنين»

وقال توم : « نعم ، ولكن ــ »

وصاح الشيخ به قائلا : « لاتقاطعنى » ، أما عنك انت ياتوم فلى رأى آخر مختلف كل الاختلاف عن رأيى فيه ، لانى أعرف حق المعرفة انك يوم تستقر فى مشرب وحانةعامة، لن تغادرها مادام بين جدرانها شراب تتعاطاه ».

وقال توم سمارت : « انى لشاكر لك كل الشكر هذا الرأى الجميل فى شخصى »

واستتلى العجوز فى لهجة الآمر الناهى قائلا : « ولهذا ستنالها ، أما هو فلن يظفر بها »

وقال توم فى لهفة « وما الوسيلة الى منعه ؟ »

وأجاب السيد الكبير بقوله : « هذا السر الذى اكشفه لك انه متزوج فعلا ! »

وكاد توم يهب من فراشه ، قائلا : « وكيف يتواتى لى اثبات ذلك ؟ »

وأزاح السيد الكبير ذراعه عن جنبه ، وأشار الى احدى الخزانتين ، ثم أعاد فى عجلة ذراعه الى موضعها السابق وانطلق يقول : « انه قد نسى أنه فى الجيب الايمن من سراويله الموضوعة فى تلك الخزانة قد ترك خطابا يرجو فيه ان يعود الى زوجته الحزينة التى رزقت منه بستة ــ افهم منى ياتوم ــ بستة ولدان كلهم صغار »

ولم يكد الشيخ يفوه بهذه الكلمات حتى بدت معالم وجهه تتلاشى شيئا فشيئا ، وأخذ شكله يتوارى رويدا ، وغمرت غشاوة عينى توم سمارت ، وراح الشيخ يندمج تدريجا فى المقعد ويتقمص تقمصا ، ويتحول الصدار الحريرى الى وسادة والخف الاحمر الى كيسين صغيرين من قماش ارجوانى اللون، وبدأ الضياء يخفت قليلا قليلا ، وارتمى توم سمارت فوق وسادته ، وتولاه النعاس ·

وأيقظه مطلع النهار من نومه الذى استولى عليه عقب اختفاء الشيخ ، فجلس فى فراشه ، وراح يحاول عبثا بضع لحظات أن يتذكر احداث الليلة الماضية،فلم تلبث ذكراها أن تدافعت على خاطره ، فنظر الى المقعد ، فاذا هو كما رآه من قبل، مقعد غريب الشكل ، رهيب المنظر ، وخيل اليه انه لم يكن سوى خيال بارع قوى الأثر ، ذلك الذى جعله يكشف وجوه شبه بين ذلك المقعد والشيخ الكبير الذى لايزال ماثلا لخاطره

وقال توم ، بلهجة اجرأ فى النهار مما كانت فى الليل ، والناس تعاودهم الجرأة فى النهار عامة « كيف أنت أيها العجوز المتصابى ؟ »

ولكن المقعد ظل جامدا صامتا لايحير جوابا

واسترسل توم يقول له : « صباح أنكد » ، ولكن المقعد لم يشأ أن ينساق الى الحديث ·

وقال توم : « الى أى الخزانتين أشرت ؟ أظنك لاتبخل على بهذا على الاقل »

ولكن المقعد أيها السادة لم ينبس ببنت شفة

وقال توم وهو يغادر الفراش بحذر بالغ : « لا عناء من فتحها على أية حال »

ومشى صـــوب احدى الخزانتين ، فوجد المفتـاح فى القفل فأداره وفتح الباب واذا هو يجد فعلا سراويل فى جـــوفها ، فدس يده فى الجيب ، فاطلع الخطاب عينه الذى تحدث الشيخ الكبير عنه •

وآنشأ توم يقول ، وهو ينظر الى المقعد ، ثم الى الخزانة ، ثم الى الخطاب ، ثم عاد ينظر الى المقعد : « هــذا شىء غريب ، غريب كل الغرابة » ، ولكنه لم يجد ما يقلل من هذه الغرابة التى أحارته ، فخطر له انه يحسن به أن يرتدى ثيابه ، وينهى قصة الرجل الطويل بغير ابطاء ، ليخرج من الشقاء الذى هو فيه ، وانطلق ينزل السلم ، معددا الحجرات التى يجتازها فى طريقه ، بعين فاحصة متقصية ، عين المالك العتيد ، متصــورا انه ليس من المستحيل أن تصبح تلك الحجرات وما حوت من رياش ملك يمينه ، وما ان بلغ الطبقة الدنيا من الفندق حتى لمح الرجل الطويل واقفا فى مكان الشراب الدفىء الصغير ،واضعا يديه خلف ظهره كأنه فى بيته الذى لا ينازعه فيه أحد ، ولم يكد يرى توم حتى ابتسم له ابتسامة فارغة ، ولو رآها مراقب عابر ، لظن انه انما ابتسمها ليبدى أسنانه البيض ، ولــكن توم سمارت تصور ان الشعور بالنصر كان يغمر المكان الذى كان يتمثل لخاطر ذلك المارد ، وهو يبتسم على تلك الصورة ، فراح يضحك فى وجهه وينادى ربة الفندق اليه •

قال وهو يغلق باب البهو الصغير على اثر دخولها : « طاب صباحك ياسيدتى »

وأجابته الأرملة قائلة . « صباح الخير ياسيدى ٠ أىطعام تريده لفطورك ياسيدى ؟ »

وكان توم مشغولا باعداد الـــكلام الذى يصح ان يفتتح به الموضوع فلم يجب ، ومضت هى قائلة : « ان عندنا لحم خنزير مملحا شهيا للآكلين ، ودجاجة باردة سمينة ٠ فهل أجيء بهما ياسيدى ؟ »

وأيقظت هذه الكلمات توم من سبح أفكاره وازداد اعجابه بالمرأة وهى تتكلم ، فقال فى نفسه : « يالها من مخلوقة مدبرة! يا لها من مرفهة أريبة ! »

وابتدرها توم سائلا : « من يكون ذلك الســـيد الواقف فى مكان الشراب ياسيدتى ؟ »

قالت وهى تشعر بخجل عابر: « انه يدعى جنكنز ياسيدى»

فعاد يقول : « انه رجل طويل »

فأجابت : « انه رجل بديع جدا ياسيدى ، وسيد لطيف للغاية »

وقال توم : « آه ! »

قالت وهى حيرى من سلوكه : « هل من شيء آخر تريده ياسيدى ؟ »

قال : « نعم ياسيدتى العزيزة ، هـــل تتكرمين بالجلوس لحظة ؟ »

فبدت الدهشة عليها ، ولكنها جلست ، فجلس هو كذلك

بجوارها ، ولست أدرى كيف حدث ذلك أيها السادة ،ولكن عمي اعتاد ان يقول لى ان توم سمارت نفسه قال انه لايعرف كيف حدث ذلك هو أيضا • ولكن الواقع ان راحة كف توم لمست بوسيلة من الوسائل ظهر يد الأرملة ، فاستقرت عليه، وهو منطلق يقول بلهجة المتلطف الذى يعرف حق المعرفة انه كذلك : « ياسيدتى العزيزة ، انك لجديرة بزوج بديع جدا ، انك فعلا كذلك »

وقالت الارملة ، وهو ما كان منتظرا ان تقوله : «يا الهى!»

وكانت طريقة توم فى التمهيد للحديث غير مألوفة ، ان لم نقل أدعى الى اثارة الدهشة والذهول ، ولكن يجب ان نراعى عاملا له أثره ، وهو انه لم تكن عينه قد وقعت عليها قبل الليلة البارحة •

ومضى توم يقول : « اننى لا أحب الملق ، بل أمقته وأسخر منه ياسيدتى ، انك حقا جديرة بزوج يستحق أشد الاعجاب، وسوف يكون السعيد الموفق ، كائنا من يكون »

وفيما كان توم يقول ذلك انطلقت عينه على غير ارادة منه تنتقل هائمة بين وجه الأرملة وتلك الخيرات المحيطة به من كل ناحية •

وبدت الأرملة أكثر حـــيرة وارتباكا مما كانت من قبـــل وهمت بالنهوض ، ولــكنه ضغط يدها برفق كأنمـــا أراد أن يحتجزها ، فلبثت فى مجلسها ، والأرامل أيها السادة لسن بالخوافات ، كما اعتاد عمى ان يقول •

وقالت ربة البيت الغضة البضة فى شبه ضحكة : « اننى

على يقين انني مدينة لك كثيرا ياسيدى لحسن رأيك ، واذا قدر لى يوما أن أتزوج مرة أخرى .. »

وقاطعها توم سمارت ، وهو ينظر بخبث شديد من الطرف الأيمن لعينه اليسرى : « أتقولين اذا ؟ »

قالت وهي ضاحكة ضحكة كاملة في هذه المرة : « والله اني لارجو حين أفعل ذلك ان يكون لى زوج كالذى وصفته »

وقال توم : « جنكنز مثلا ؟ »

وصاحت الأرملة : « يا الهي ياسيدى »

ومضى يقول : « أوه . لا تقول لى انني أعرفه ! »

وقالت الأرملة مستجمعةشجاعتها ازاء تلك اللهجةالغامضة التي تحدث توم بها : « انني لعلى يقين ان من يعرفه لا يعرف عنه سوءا »

وقال توم سمارت : « احم ؟ »

وبدأت الأرملة تعتقد أنه قد حان لها أن تبكى ، فأخرجت منديلها ، وسألت توم هل يريد أن يهينها ؟ وهل يرى من أدب السيد المهذب أن يطعن في حق سيد آخر من خلف ظهره ؟ واذا كان عنده ما يقوله ، فلماذا لا يقوله لذلك الرجل مواجهة ، بدلا من ترويع امرأة مسكينة ضعيفة على هذا النحو ؟

وأجاب توم قائلا : « لن أتردد في قوله له . ولكنى أردت أولا ان تسمعيه أنت »

قالت وهي تطيل النظر الى وجهه : « وما هو ؟ »

قال وهو يضع يده فى جيبه : « ستذهلين لسماعه »

وعادت الارملة تقول : « اذا كان ما تريد ان تقـولـه انه يطلب مالا ، فانى أعرف ذلك مقـــدما ، فلا تتعب نفسك فى ترديد ما أعلمه »

وقال توم سمارت : « أف ! هذا هراء ، لا شأن له ولا خطر، أنا نفسى أريد مالا ، ليس هذا هو ما أعنى »

وصاحت الارملة المســـكينة قائلة : « رباه ماذا يمكن ان يكون اذن ؟ »

وقال توم سمارت : « لا تراعى ! وبكل رفق راح يخرج الكتاب وينشره قائلا بلهجة المتشكك : « ولكنى أرجـــو ان لا تصرخى ! »

قالت : « كلا ! كلا ! دعنى أنظر الكتاب »

قال : « أولست مستسلمة الى اغمـــاء أو شىء من هـــذا القبيل ؟ »

قالت « . لا عليك ! لا عليك ! دعنى أر الكتاب »

قال وهو يضع الكتاب فى كفها : « ها هو ذا ! »

أيها السادة ، لقد سمعت عمى يقول ان توم سمارت قال ان ولولة الأرملة حين علمت بالسر كانت تنفــذ فى أى فؤاد قد من الصخر ، وكان توم بالطبع رقيق القلب كريمه ، ولكن تلك الصرخات نفذت فيــه الى الصميم ، وظلت الأرملة تهتز وتقلب كفيها وهى تقول : « أواه . ما أشـــد خبث الرجـال ومكرهم ! »

وقال توم سمارت : « انه لأمر مرعب ياسيدتى العزيزة ، ولكن هدئى من روعك »

وصاحت الأرملة : « أواه . لا أستطيع تهدئة روعى . لن أجد أبدا رجلا ســـواه يمكن ان أحبه كل هــذا الحب الذى أوليته اياه »

وقال توم سمارت : « بل ستجدينه يا عزيزتى ! » وترك دمعة من أكبر الدموع حجما تنحـــدر من عينيه رثاء لنكبــة الأرملة ، وكان توم سمارت فى فورة عطفه ، وثورة رحمته ، قد طوق خصرها بذراعـــه ، وكانت فى اشتداد حزنهـــا قد أمسكت بيـــده ، وتطلعت الى وجهه وابتسمت من خـــلال عبراتها ، فأطل هو على محياها ، وابتسم من ثنايا دموعه .

ولم أستطع أيها السادة أن أعرف يوما هل قبل توم الأرملة فى تلك اللحظة بالذات أو لم يقبلها ، فقد اعتاد أن يقول لعمى أنه لم يفعل ذلك ، ولكننى منه فى شك مريب ، وأكاد أعتقد ، فيما بيننا أيها السادة أنه قد فعل .

وعلى أية حال لقد استطاع توم أن يطرد الرجل الطويل من الباب الأمامى بعد نصف ساعة من ذلك الموقف الذى جرى ، وتزوج بالأرملة بعد شهر ، واعتـــاد أن يطوف أرجاء الاقليم فى عربتـــه الطفلية اللون ذات العجـــلات الحمر ، والفرس الشموس السريعة الخطى حتى اعتزل العمل بعد ذلك بعـــدة سنين ، وذهب الى فرنسا مع زوجته ، وانتهى الأمر بهـــدم ذلك البيت القديم على مر الأيام .

وهنا قال ذلك الشيخ الفضولى : « هل تأذن لى فى سؤالك ماذا كان من أمر المقعد ؟ »

فأجاب التاجر الأعور قائلا : « لقد لوحظ عليـــه أنه بات يكثر من الصرير والطقطقة فى ليلة الزفاف ، ولـــكن توم سمارت لم يســـتطع أن يجزم هل كان ذلك منه تعبـيرا عن فرحه ، أو شكوى من ضعفه والحاح العلة عليـــه ، وان كان يحسب الثانية هى أقرب الى الحقيقة لأن المقعد لم يعد يتكلم بعد ذلك التاريخ . »

وقال الرجل الأشعث الأغبر وهـــو يعيد ملء قصبته : « وهل صدق كل انسان هذه القصة أو وجدت من يكذبها ؟ »

وأجاب التاجر المتجول : « لقد صدقها الجميع الا خصـــوم توم ، فقد قال فريق منهم انه اخترعها اختراعا ، وقال آخرون انه كان سكران منزوفا، فتوهمها توهما ، وأمسك بالسروايل خطأ قبل ان يذهب الى النوم ، ولكن النـــاس لم يأبهوا يوما بما قال أولئك الخصوم »

ـ « وهل قال توم ان كل مافيها صحيح ؟ »

ـ « بل كل كلمة من كلماتها »

ـ « وماذا قال عمك ؟ »

ـ « كل حرف من حروفها »

وعقب الرجل الأشعث الأغبر بقوله : « لابد من أنهمـــا كانا لطيفين »

وأجاب التاجر الجوابة : « أى نعم فى منتهى اللطف فعلا »

الفصل الخامس عشر

تصوير صادق لشخصين بارزين ووصف دقيق لمأدبة فطور عامة فى بيتهما وحديقتهما ، وكيف أدت هذه المأدبة الى لقاء صاحب قديم وبداية فصل جديد ...

وبدأ ضمير المستر بكوك يؤنبه قليلا على اهماله فى الأيام الاخيرة شأن صديقيه المقيمين فى فندق « بيكوك » ، وفيما هو يهم بالخروج للبحث عنهما فى صبيحة اليوم الثالث عقب انتهاء الانتخاب ، اذ جاء خادمه الأمين فدس فى يده بطاقة كتب عليها هذا الاسم :

مسز ليو هنتر (١)
العرين ـ ايتنزول

وقال سام بلهجة غامضة : « صاحب البطاقة فى الانتظار »

وسأله المستر بكوك : « هل يريد مقابلتى يا سام ؟

(١) معنى « ليو هنتر » فى الأصل ـ « صيادة السبع » وتقيم فى «العرين» بيت السبع ، ولكن الكلمة هنا تعنى المكان الذى اتخذته السيدة للدرس والبحث أو المحراب .

وأجاب سام : « انه يريد مقابلتك شخصيا ، ولا يغنى أحد سواك عنك ، كما قال السكرتير الخاص فى خدمة الشيطان حين جاء يدعو الدكتور فاوستس »

وقال المستر بكوك : « هل هو رجل ؟ »

وأجاب المستر ولر قائلا : « اذا لم يكن كذلك فهو أحسن تقليد له »

وقال المستر بكوك : « ولكن هذه بطاقة سيدة »

وأجاب سام قائلا : « سواء كان هذا أو ذاك فقد أعطانيها سيد وهو منتظر فى حجرة الاستقبال ، وقال انه يفضل ان ينتظر طول النهار على أن ينصرف دون مقابلتك »

وما أن سمع المستر بكوك هذا الالحاح فى لقائه حتى نزل الى حجرة الاستقبال حيث جلس رجل وقور السمات لم يكد يراه مقبلا عليه حتى استوى قائما وقال باحترام بالغ ق « المستر بكوك . أليس كذلك ؟ »

قال : « بلى »

وعاد الرجل الوقور يقول : « اسمح لى ياسيدى بشرف مصافحتك ، ائذن لى ياسيدى فى تناول يدك »

وقال المستر بكوك : « بلا شك »

وهز الغريب اليد المبسوطة اليه ، ثم استرسل يقول : « لقد سمعنا ياسيدى بصيتك ، وبلغت الضجة التى أحاطت بكشفك الأثرى سمع مسز ليو هنتر زوجتى ياسيدى . فأنا المستر ليو هنتر » . وتمهل الغريب لحظة كأنما كان يرتقب

من المستر بكوك التأثر بهذا الكشف عن اسمه ، ولكنه رآه قد ظل هادئا كل الهدوء ، فاستتلى قائلا : « ان زوجتى ياسيدى .. مسز ليو هنتر لفخورة بأن تعد فى مصاف معارفهــا كل من رفعوا ذكرهم بأمجاد أعمالهم ومواهبهم ، فاسمح لى ياسيدى أن أضع فى مكان بارز من قائمة أسمائهم اسم المستر بكوك واخوانه أعضاء النادى الذى يستمد اسمه منه »

وأجاب المستر بكوك قائلا : « انى ليسعدنى السعادة كلها أن أتعرف الى مثل هذه السيدة ياسيدى »

وقال الرجل الوقور : « وانك لفاعل ياســــيدى ، فنحن صباح غد ياسيدى مقيمون مأدبة فطور عامة ، حفلة ريفية ـ لعدد كبير من أولئك الأعلام الذين ظفروا بالمجـــد والشهرة بفضل أعمالهم ومواهبهم ، فاسمح ياســيدى لمسز ليو هنتر بأن تحظى بلقائك فى مغناها المعروف بالعرين »

وأجاب المستر بكوك : « بكل سرور »

ومضى الرجل الوقور يقول : « ان مسز ليو هنتر قد أقامت عدة مآدب افطار من هذا النوع ياســيدى . مآدب للعقـــل والنهى ياسيدى ، وفيض النفس والروح ، كما وصفها أحدهم فى أبيات كتبها الى مسز ليو هنتر عن مآدبهـــا هذه ، وهى أبيات تنم عن شعور صادق ووصف مبتكر »

وقال المستر بكوك : « وهل هو من الذين مجدتهم أعمالهم ومواهبهم ؟ »

وأجاب الرجل الوقور : « أى نعم ياســـيدى . ان جميـــع معارف مسز ليو هنتر هم كذلك . ان كل أمنيتها ياســيدى ألا تعرف أحدا سواهم »

وقال المستر بكوك : « تلك أمنية سامية جدا »

وأجاب الرجل الوقور : « ان مسز ليو هنتر ستعنز حقـــا بهذه الملاحظة التى خرجت من بين شفتيك ياسيدى حين أنقلها اليها ، وأظن ياسيدى ان بين رفقائك ســـيدا أخرج قصــائد روائع ، وخرائد صغيرة »

وأجاب المستر بكوك قائلا : « ان لصـــديقى المســـتر سنودجراس نزعة قوية الى الشعر »

واستتلى الرجل الوقور يقــول : « ومسز ليو هنتر كذلك ياسيدى ، فهى بالشعر مولعة ، انها لتعبد الشعر عبادة ، بل يجوز لى أن أقول أن كل روحها وخواطر ذهنها مندمجة فيـه اندماجا • وقد أخرجت بعض قصـــائد طرائف من نظمهـــا ياسيدى ، ولعلك قرأت لها يوما أغنيتها التى تناجى فيهـــا « ضفدعة تلفظ أنفاسها » ياسيدى »

وقال المستر بكوك : « لا أظن اننى قرأت شيئا كهــذا من قبل »

وأجاب المستر ليو هنتر : « انى لفى دهشة ياسيدى ، فان تلك الأبيات أثارت ضجة بالغة ، وقد مهرتهـا بالحرف « ل » وثمانية نجوم ، وظهرت أولا فى « مجلة الســـيدة » ، وكان مطلعها :

« هل أطيق رؤيتك تلهثين
« وعلى بطنك ، ترقدين ، ولا تتنهدين ؟
« وكيف أطيق صبرا على مشهدك تموتين
« فوق الخشبة ، أيتها الضفدعة ! »

وقال المستر بكوك : « جميل ! »

وقال المستر ليو هنتر : « بديع . سلس ! »

وقال المستر بكوك : « جدا »

ومضى المستر ليو هنتر يقول : « والأبيات التالية لا تزال أكثر تأثيرا ، هل أتلوها ؟ »

وقال المستر بكوك : « من فضلك »

وقال السيد الوقور ، وقد بدا أكثر وقارا : « انها تجرى هكذا :

« خبريني أشياطين في صور غلمان
« بصرخات موحشة وصياح يصم الآذان
« صادوك بكلبهم من مستنقعات المتع
« أيتها الضفدعة التى بأنفاسك تجودين ؟ »

وقال المستر بكوك : « صياغة بديعة »

وقال المستر ليو هنتر : « كلهـــا فى الصميم ! ولـكنك ستسمع مسز ليو هنتر ترددها على سمعك بنفســـها ، فهى وحدها التى تعرف كيف توفيها حقها ياسيدى ، انهاسترددها وهى متمثلة لك فى شخصية أخرى ياسيدى صباح الغد »

ـ « شخصية أخرى ؟ »

ـ « فى شخصية « منيرفا » ربة الحكمة . لقــد نسيت ان أقول لك ياسيدى انها مأدبة فى ثياب تنكرية »

وقال المستر بكوك ، وهو ينظر الى شكله : « يا عجبـا ! ربما لا يمكننى ! »

وصاح المستر ليو هنتر بدهشة : « لا يمكنك ؟ لا يمكنك؟ ياسيدى ، كيف هـــذا ؟ ان لدى سلمون لوكس اليهـــودى فى شارع « هاى ستريت » آلافا مؤلفة من هـــذه الثياب ، فلنفكر ياسيدى فى عديد الشخصيات المناسبة لتقتار منهـا ما يلائمك . أفلاطون ، زينون ، ابيقور ، فيثاغورس ، وسائر أصحاب المدارس ومؤسسى الأندية »

وأجاب المستر بكوك : « أعرف ذلك ، ولكنى لا أستطيع ان أضع نفسى فى ميزان واحد وأولئك العظماء ، ولهذا لا أدعى لنفسى حق ارتداء ثيابهم »

ففكر الرجل الوقور مليـا ، ثم عاد بعـــد لحظات يقول : « لست أدرى بعد أن فكرت ياسيدى فى هذا الأمر هل سيكون سرور مسز ليو هنتر أكبر وأعظم ان يرى ضيوفها سيدا فى مثل صيتك الذائع فى ثوبه المألوف ، أو يشـــهدوه فى ثوب من ثياب التنكر ، وشخصية منتحلة ؟ ولكن يصح ان أجترىء فأعدك بهذا « الاستثناء » فيما يتعلق بك . نعم ياسيدى اننى لواثق كل الثقة انه بالنيابة عن مسز ليو هنتر يجـوز لى ان أقدم على هذه الجرأة »

وقال المستر بكوك : « اذا كان الامر كذلك فسوف يسرنى كل السرور ان أحضر »

وقال الرجل الوقور كأنما قد ثاب فجأة الى نفسه : «ولكنى قد أضعت عليك وقتك ياســـيدى ، وانى أعلم انه لثمـــين ياسيدى . ولهذا لن أحتجزك . سأقول اذن لمسز ليو هنتر ان لها ان تطمئن الى قدومك أنت وأصحابك الأمجاد ، طاب صباحك ياسيدى . انى لفخور بأنى قد شـــهدت شخصية عظيمة كهذه . لا خطوة ياسيدى ولا كلمة »

وتسلل المستر ليو هنتر بكل وقار منصرفا ، قبل ان يعطى المستر بكوك فرصة لاحتجاج أو رفض .

وتناول المستر بكوك قبعته ، وقصد الى فندق بيكوك ولكن

وتناول المستر بكوك قبعته ، وقصد الى فنـــدق الطاؤوس « بيكوك » ولـــكن المستر ونكل كان قد نقل اليه نبـــأ المأدبة التنكرية قبله .

وكان أول كلام اســـــتقبل به الزعيم قوله ان مسز بوت ستحضر المأدبة .

وقال المستر بكوك : « أحقا ؟ »

ومضى المستر ونكل يقول : « فى ثياب « ابوللو » . ولكن المستر بوت يعترض على الثوب فقط »

وقال المستر بكوك بلهجة التوكيد : « وله حق ، كل الحق»

وقال المستر ونكل : « أى نعم . ولهـــــذا سترتدى ثوبا أبيض من الحرير ذا برق من الذهب »

وسأل المستر سنودجراس قائلا : « أحســـبهم لا يكادون يعرفون مرادها منه ، أتظنهم سيعرفون المقصود ؟ »

فأجاب المستر ونكل بغضب : « طبعا ، سيعرفون . لانهم سيرون قيثارها »

فقال المستر سنودجراس : « هذا صحيح . لقـــد نسيت ذلك » . وقاطعه المستر طبمن قائلا : « وسأبدو أنا فى زى قاطع طريق »

وهنا قال المستر بكوك وقد تولته هزة فجائية : « ماذا ؟ »

وردد المستر طبمن القول فى رفق : « قاطع طريق ! »

ومضى المستر بكوك يقول وهو ينظر الى صـديقه بعبوس شـديد : « لا أحسبك تعني يا مستر طبمن ان فى نيتك ان تحشر نفسك فى سترة من القطيفـة « الخضراء » ذات ذيل يبلغ طوله بوصتين ؟ »

وأجاب المستر طبمن بحماسة : « هذه هى نيتى ، ولم لا ياسيدى ؟ »

وقال المستر بكوك ثائرا : « لأنك ياسيدى . لأنك أكبر سنا من أن تبدو فى هذا الذى اخترته »

وصاح المستر طبمن مبهوتا : « أكبر سنا ؟ »

ومضى المستر بكوك يقول . « واذا أردت اعتراضـا آخر ، فأنت أكثر بدانة من ذلك ياسيدى »

فاشتد احمرار وجه صديقه وانثنى يقول : « هـذه اهانة ياسيدى »

وأجاب المستر بكوك باللهجة ذاتها : « ان ظهورك ياسيدى فى حضرتى بسترة خضراء من المخمل ذات ذيل قصير لا يعدو البوصتين اهانة لى ، أكثر منه اهانة لك »

وقال المستر طبمن : « سيدى . أنت مخلوق ... »

وقال المستر بكوك : « سيدى . وأنت آخر »

وراح المستر طبمن يتقدم خطوة أو خطوتين ويحدج المستر

بدوك بنظرة حادة ، ورد المستر بكوك عليها بمثلها ، وزادها منظاره احتـــدادا ، وزفر زفرة التحدى بينمـــا وقف المستر سنودجراس والمستر ونكل يشـــهدانهما وهمـــا جامدان فى موضعهما من شدة الدهشـــة لهذا المشـــهد بين رجلين من طرازهما ٠

وقال المستر طبمن بعد لحظة بصوت خافت أجش : «سيدى لقد دعوتنى كبيرا فى السن »

وقال المستر بكوك : « نعم ، لقد فعلت »

ـ « وبدينا ٠ »
ـ « وأكرز التهمة »
ـ « ومخلوقا ـ »
ـ « وانك لكذلك ! »

وهنا مضى المستر طبمن يقول بصوت راعش من شــــدة الانفعال وهو يشمر عن معصـــميه : « ان صلتى بشخصك ياسيدى ، كبيرة ، كبيرة جدا ، ولكن لابد لى من الأخذ عاجلا بثأرى من شخصك هذا »

وقال المستر بكوك : « تقدم اذن ! ياسيدى » ٠ وراح هذا البطل من شدة تأثره بهذا الحوار المهيج المستفز يستسلم فعلا لاتخاذ موقف جمود تام ، اعتقد المشاهدان الواقفان على مرأى منه انه موقف أراد به اتخاذ وضع دفاعى حيال مهاجمه ٠

وانثنى المستر سنودجراس يصيح قائلا ، وقد اســتطاع فجأة استعادة قوة النطق التى أفقدته اياها حتى اللحظة تلك الدهشة البالغة التى استولت عليه ، وهو يندفع نحوهمـــا

فيقف حائلا بينهما ، معرضا نفسه حتمـــا لتلقى ضربة على الصدغ من أحدهما : « ما هذا يا مستر بكوك ؟ وعين الدنيا تتطلع اليك ، والعالم اليك ناظر ، والمستر طبمن مثلنا جميعا يستمد بريقا متألقا من اسمه الخالد الذى لا يمحى العـار ! أيها السيدان ! العار ! »

وما لبثت الغضون والتقاطيب غير المألوفة التى رســـمها الغضب العارض على جبين المستر بكوك الواضـــح ، وجبهته المتهللة ، أن توارت ، على منطق صديقه الشـــاب ، وانمحت كما تنمحى السطور المكتوبة بالقلم الرصـــاص من أثر الممحاة الرقيقة اللينة فاستعاد وجهه هدوءه وطيبته ، وانثنى يقول: « لقد كنت متسرعا ، متسرعا جدا ، يا طبمن هات يدك ! »

وعندئذ اختفى الظل القاتم من وجه المستر طبمن وهـــو يتناول بحرارة يد صديقه ، قائلا : « لقد كنت أنا أيضـــا متسرعا »

ولكن المستر بكوك قاطعه قائلا : « كلا . كلا ! الخطأ خطئى، أسترتدى السترة القطيفة الخضراء ؟ »

وأجاب المستر طبمن : « كلا ، كلا »

فعاد المستر بكوك يقول : « بل ستفعل لارضائى »

وقال المستر طبمن : « حسن ، حسن ، سأفعل ! »

وكذلك تم الاتفـاق على أن يرتدى المستر طبمن والمستر ونكل والمستر سنودجراس جميعـــا ثيابا تنكرية ، وهـكذا انساق المستر بكوك مع حرارة احساسه الرقيق الى قرار أمر كانت رجاحة عقله ، واصـــالة رأيه ، تمجانه ، وتنفران من

قبوله ، ولا نحسب مثلا أروع ، ولا شاهدا أبلغ ، من هذا وأجل ، يمكن ان نتصوره ، للدلالة على لطف شخصيته ، ولين عريكته ، ولو افترضنا ان الحوادث المدونة فى هذه الصفحات جاءت جميعا من نسج الخيال ٠

ولم يكن المستر ليو هنتر مبالغا فيما تحدث به عن كثرة موارد المستر سلمون لوكس والألوف المؤلفة من الثياب التنكرية فى متجره ، فقد كانت خزائنه ملأى حافلة بها ، لا بالقديم منها فحسب ، ولا بالقشيب فقط ، ولا بالمفصل التفصيل الدقيق على زى عصر بذاته ، وجيل بعينه ، بل كان كل شيء فيه مرصعا بالبرق ، وأى شيء أبدع وأجمل مظهرا من التراصيع والبروق ٠٠! ورب معترض يقول انها ليست مناسبة فى النهار ، ولكن كل انسان يعرف انها تبرق وتتلألأ اذا كانت ثمة شموع ومصابيح ، وانه لا خلاف فى أن الذنب ذنب الذين يقيمون الحفلات التنكرية ، اذ هم أقاموها نهارا ، ولم تبد الثياب براقة ذات سناء كما تلوح ليلا ، وليس الذنب مطلقا للبروق ذاتها والتراصيع ٠

وكان هذا الرأى رأى المستر سلمون لوكس وحجته المقنعة ، وقد تأثر بها المستر طبمن والمستر ونكل والمستر سنودجراس ، فقبلوا أن يستأجروا من الثياب ما وصاهم به الرجل وزكاه لديهم ، معتمدين على ذوقه وخبرته ، آخذين برأيه فيها وهى انها مناسبة للحفلة الى حد بديع ٠

واستؤجرت مركبة من فندق أسلحة المدينة « تاون آرمز » لكى تقل البكوكيين ، وأخرى مكشوفة من الفندق عينه ليركبها المستر بوت ، وزوجته ، الى دار مسز ليو هنتر ، وكان المستر بوت قد عمد الى وسيلة لطيفة لابداء عرفانه للدعوة التى وجهت

اليه ، فكتب فى جريدة « الغـــازت ايتنزول » يقول انه لعلى ثقة « بأن الحفلة سوف تتيح للعين مشـــهدا حافلا بأفانين وألوان مختلفة من الفتنة والسحر المبين ، وســـــوف تكون معرضا مدهشا يأخذ بمجامع القلوب ، تتلاقى فيه أضـــواء الجمال والنبوغ ، والكرم العظيم ، والأبهة البالغة .. وفوق ذلك كله ستمتاز المأدبة بحد من الروعـــة يلطف منه الذوق الرفيع ، وحد من الزينة يهذب من حواشيه الانسجام التام ، والحشمة الطبيعية الواجبة ، حتى ليبدو بهاء الشرق وأرض سحره التى تحدثنا عنها الأساطير ، بالقياس اليها ، قاتمـة كدرة معتمة ، كخاطر المخلوق الحقود الخسيس الذى يحـاول أن ينال بسم حسده ، ونفث حقده من جمال الاســتعدادات التى تعدها السيدة الفاضلة الرفيعة المكانة التى تتقدم بهذا الاعجاب المتواضع الى محرابها » . وكانت هذه العبارة الاخيرة سخرية لاذاعة موجهة الىالأنديبندنت « الجريدة المستقلة »التى ظلت فى أربعة أعداد متوالية تحاول الزراية بالحفلة ، لأنهـا لم تدع اليها ، وتشنع على المأدبة ، بأكبر الحروف حجمـا ، وتصفها بأسوأ الأوصاف .

وحل الصباح ، فكان مشهدا بديعا ممتعـا للعين ان ترى المستر طبمن فى ثوب « قاطع طريق » ، ذى سترة محبـوكة ضيقة للنهاية ، جالسة فوق ظهره وكتفيه أشبه شيء بمخدة الدبابيس ، بينما بدا الجزء الاعلى من ســـاقيه محشـورا فى سراويل قصيرة من المخمـــل ، والجزء الأدنى منهمـا ملفوفا مقمطا فى تلك الأربطة واللفائف المعقدة التى اعتـــاد قطاع الطرق جميعا ربطها وحزمها ، بنوع خاص ، وكان من الممتع للعين كذلك أن تشهد وجهه المتفتح الصفى المزدان بالشـارب الشبيه بسدادة القوارير ، وهو مطل من طوق قميص مفتوح،

وان تتأمل قبعته التى تحكى « قمع السكر » بأربطتها التى جمعت بين مختلف الألوان ، وقد اضطر أن يحملها فوق ركبته ، كما لو كانت شيئا مما يحمل ولا يعرف ، وله قمة تعلوه ، ولا يتواتى للمرء ان يحمله بين رأسه والسقف ٠ وكان منظر المستر سنودجراس لا يقل اضحاكا وطرافة ، فقد بدا فى صدار وحلة من الحرير الازرق ، وسراويل محكمة من الدمقس الأبيض ، وحذاء وخوذة اغريقية ، يعرف كل انسان ـ أو اذا لم يعرف ـ فان المستر سلمون لوكس يعرف ـ انه الثوب المألوف الذى يرتديه عادة شعراء الفروسية الغزلون من أبعد عصور التاريخ الى الوقت الذى اختفوا فيه جملة عن وجه الأرض ٠

كل ذلك كان ممتعا ، ولكنه لم يكن شيئا مذكورا بجانب هتاف العامة وصرخاتهم ، حين وقفت بهم المركبة ، وراء مركبة مسز بوت ، التى كانت واقفة بباب داره ، وحين انفتح الباب ذاته ، وبدا منه ذلك الرجل العظيم « بوت » مرتديا ثوب ضابط روسى من رجال الشرطة يحمل سوطا ضخما فى يده كأبدع رمز ، وأنسب شارة ، لسلطان « الغازت ايتنزول » ونفوذها المرهوب وبأسها العظيم ، وتلك السياط المخيفة التى يلهب بها ظهور المخطئين والمسيئين الى الحياة العامة ٠

وصاح المستر طبمن والمستر سنودجراس من جانب الدهليز ، حين شهدا هذا « الرمز » الماشى على قدمين « مرحى ؟ »

وهتف الجمهور ٠ « مرحى ! يا بوت ! »

وفي وسط هذه التحيات تقدم المستر بوت وهو يبتسم تلك الابتسامة المقترنة بالكرامة والهيبة التى تدل دلالة كافية على شعوره بقوته ، واحساسه بنفوذه ، ومعرفته كيف يبديه ، ومتى يجب ان ينفذه ، فدخل فى المركبة .

وعندئذ خرجت من البيت المسز بوت ، وكانت بلا ريب ستبدو أشبه بأبوللو لو لم ترتد ثوبا فضفاضا ، وكان يأخذ بيدها المستر ونكل ، وهو فى سترة ذات لون أحمر مائل الى البياض ، كان من المحتمل أن يتراءى للعين أشبه بالرجل « الرياضي » دون أحد سواه ، لو لم يرتد هو الآخر شيئا جعله أقرب ما يكون شبها الى ساعى بريد ، وأخيرا أقبل المستر بكوك ، فصفق الأولاد والغلمة له كما صفقوا للآخرين وهتفوا كهتافهم المدوى لهم ، وأغلب الظن أنهم اعتقدوا أن سراويله وأربطة ساقيه هى بعض بقايا العصور المظلمة .

وانطلقت المركبتان صوب دار مسز ليو هنتر بينما راح المستر ولر الذى تقرر أن يذهب معهم للخدمة كبعض الندول والسعاة ، يتخذ مجلسه فوق مقدم المركبة التى احتوت سيده

ولم يلبث الرجال والنساء والاولاد والبنات والاطفال الصغار الذين احتشدوا لرؤية المدعوين فى ثيابهم المستعارة ، ان صاحوا صيحات الفرح الشديد ، والمسرة البالغة ، حين رأوا المستر بكوك يمشى بين « قاطع طريق » وبين أحد الشعراء الغزلين ، الى مدخل الدار فى وقار وجلال ، وما كان أشد الصيحات التى استقبلوا بها المستر طبمن ، وهو يحاول تثبيت قبعته الشبيهة بقمع السكر فوق رأسه ، يهم بالدخول الى حديقة البيت دخلة رسمية جليلة .

وكانت الاستعدادات أبدع ما تكون مدى ، وأبهج ما تكون نطاقا ، بل كانت فى الحق مصداقا لما توقعه المستر بوت فيما كتبه عن أبهة الشرق وفخفخة أرض السحر ، وتكذيبا كافيـا فى الوقت ذاته لمـا كتبته « الانديبندنت » الأفعى عن الحفلة من سوء وقول خبيث وتشنيع .

وكانت حديقة البيت أكثر من فدان وربع فدان مسـاحة ، وهى مزدحمة بالناس ، فلم تشاهد العين يوما مثل ما اجتمع فى الحديقة ذلك الصباح من وهج الجمـال وسناء الأدب ، وحسن الأزياء ، فهنالك الغادة الشابة التى كانت تتولى قسم الشعر فى صـحيفة « الغـازت ايتنزول » ، وهى فى ثوب « سلطانة » وقد استندت الى ذراع الشـاب الذى يشرف على باب النقد والاستعراض ، وكان يرتدى ثوبا مناسـبا لمركزه ذاك ، وهو ثوب « فريق » ، خلا الحذاء وهنالك أيضا جموع من العباقرة وأهل النبوغ ممن يحسب العاقل أو من به مسكة من العقل أن الشرف كله فى لقائهم ، ولكن الى جانب أولئك جميعا كان هناك نحو ستة من أسود لندن ، من المؤلفين ، والكتاب ، الذين وضعوا كتبا ومؤلفات كاملة ، ثم عادوا فطبعوها للناس . وانك لتراهم فى الحديقة يمشون بين المدعوين كأنهم من عامة الناس ، مبتسمين ومتحدثين أحاديث لا تخلو من هراء كثير ، وليس من شك فى أنهم تعمدوها تعمـدا ، عن لطف ورعاية . لكى يفهمهم عامة الناس الذين أحاطوا بهم ، وكانت هناك أيضا فرقة موسيقية وضع أفرادها على رؤوسـهم قلانس من الورق المقوى ، وأربعة مغنين ، « من كل شىء كان » وهم مرتدون زى بلادهم ، واثنا عشر من السعاة والخدم فى الفنادق استؤجروا وجاؤوا هم كذلك فى زى بلادهم ، وهو زى قذر نهـاية فى الاتساخ كذلك .

وفوق كل هذا وذاك ، كانت هنالك مسز ليو هنتر فى زى « منيرفا » تستقبل الجميع ، وتفيض زهوا ، واغتباطا بجمع هذا الحشد الحاشد من المشاهير والاعلام فى صعيد واحد ٠

وقال خادم ينبه ربة الدار : « المستر بكوك ياسيدتى » ، بينما كان هذا السيد يقترب من تلك « المعبودة » المشرفة على الحفل ، وهو ممسك قبعته بيده ، وكل من « قاطع الطريق » والشاعر الغزلى ممسك باحدى ذراعيه ٠

وصاحت مسز ليو هنتر مجفلة ، فى نشوة دهشة مصطنعة « ماذا ! أين ! »

وقال المستر بكوك : « هنا »

فعادت مسز ليو هنتر تصيح قائلة : « هل أتيح لى حقا ان أحظى برؤية المستر بكوك نفسه ؟ أممكن هذا ؟ »

وأجاب المستر بكوك وهو ينحنى انحناءة بالغة : « هو بعينه ، لا أحد سواه ياسيدتى ٠ اسمحى لى ان أقدم أصدقائى ٠ المستر طبمن ، المستر ونكل ، المستر سنودجراس ، الى الشاعرة صاحبة قصيدة ، الضفدعة المحتضرة »

ولا يعرف غير القليلين الذين جربوا مدى المشقة التى يعانيها كل من يريد ان ينحنى بالتحية وهو فى سترة خضراء من المخمل ضيقة عليه شديدة الضيق وقبعة عالية مفرطة فى الارتفاع ، أو فى صدار حريرى أزرق وسراويل بيضاء ، أو أربطة ركب وأحذية طوال لم تفصل مطلقا على لابسيها ، بل ركبت عليهم دون أى مراعاة لتناسب الاحجام والمساحات بينها وبين المرتدين ، فلا عجب اذا قلنا انه لم يعان أحد يوما مثل

ما عاني المستر طبمن من التلوى والتقلص والتقبض وهـــو يحاول أن يبدو مستريحا ليس به من عناء ، وانه لم يقاس أحد يوما من هذه الاوضاع المحرجة مثل ما قاساه أصدقاؤه المتنكرون فى تلك الثياب ٠

وانثنت مسز ليو هنتر تقـــول : « انني مضطرة يامستر بكوك الى استنزال وعـــد منك بأن لا تتحرك من جنبى طيلة اليوم ، ان هنا مئات من الناس لابد لى قطعا من تقديمك اليهم»

وقال المستر بكوك : « انك لجد كريمة ياسيدتى »

ومضت « منيرفا » تقول وهى تشير بغير اهتمام الى فتاتين مليئتين ، احداهما تلوح فى نحو العشرين والاخرى أكبر منها بعام أو عامين ، وهما مرتديتان ثيابا أقرب ما تكون الى ثيـــاب الاحداث والصغار لكى تلوحا أصغر من سنهما ، أو تبدو أمهما أدنى الى الشباب ، وهو أمر لم يحدثنا عنه المستر بكوك فى مذكراته ، ولم يقطع فيه برأى حاسم ٠ ومضت منيرفا تقــول أول كل شيء : « ها هما هاتان ابنتاى الصغيرتان ٠ لقد كدت أنساهما »

وأجاب المستر بكوك بعد أن شهدهما تتوليان مبتعدتين ، عقب تقديمهما اليه : « انهما جميلتان فى غاية الجمال »

وقال المستر بوت بجلال : « مثل أمهما »

وصاحت به مسز ليو هنتر : « أوه أيها الرجل الشرير ! » وراحت مداعبة تدق بلطف ذراع رئيس التحرير بمروحتهـــا (تصوروا منيرفا ممسكة بمروحة !)

وقال المستر بوت ، وهو يشـــغل فى هذا البيت وظيفـــة

(النافخ فى البوق) : « والآن ياعزيزتى مستر هنتر . أنت تعرفين انه عندما كانت صورتك فى معرض الجمعية الملكية ، ذهب كل انسان يتساءل هل هى صورتك أو صورة ابنتك الصغرى ، لانكما بدوتما أقرب شبها وأتم تماثلا حتى ليحار المرء فيكما ، ولا يدرى الفارق بينكما »

وقالت مسز ليو هنتر ، وهى تنعم بدقة أخرى من مروحتها على هذا الأسد الرابض فى جريدة « الغازت ايتنزول » : « واذا كانوا قد حاروا ولم يدركوا الفارق فما حاجتك الى ترديد ذلك أمام الغرباء ؟ »

وصاحت مسز ليو هنتر فى اثر رجل غزير الشاربين فى ثوب أجنبى كان قد مر بها : « يا كونت ، يا كونت ! »

وتولى الكونت اليها بوجهه قائلا : « آه أتريدننى ؟ »

قالت : « أريد ان أقدم رجلين بارعين كل البراعة ، أحدهما الى الآخر . يامستر بكوك ، يسرنى ان أقدم اليك الكونت « سمورلتورك » وأردفت تقول للمستر بكوك مخافتة بصوتها « الاجنبى المشهور الذى جاء ليجمع معلومات ومواد لكتابه العظيم عن انجلترا . يا كونت سمورلتورك ، أقدم اليك المستر بكوك »

فحيا المستر بكوك الكونت بكل الاحترام الخليق برجل عظيم مثله ، بينما أخرج الكونت مجموعة من الألواح ومضى يقول وهو يبتسم لمسز ليو هنتر : « ماذا قلت يامسز هنت ؟ بيج فج ـ أو ما تدعونه « محاميا » آه ، فهمت بيج فج » وهم الكونت بأن يدون اسم المستر بكوك فى ألواحه بوصفه سيدا من ذوى الأردية الطوال ، ورجلا استمد اسمه هذا من المهنة

التى ينتمى اليهـــا ، لولا ان قاطعتـه مسز ليو هنتر قائلة : « كلا ، كلا ، يا كونت · ان اسمه هو بك ·· وك »

وأجاب الكونت : « آه ، فهمت ، بيك الاسم الاول « وويكى» اللقب أو الكنية ، حسن جــدا ، بيك ويكس ، كيف حالك يامستر ويكس ؟ »

وأجاب المستر بكوك بكل لطفه المألوف : « بخير ، أشكرك هل جئت الى انجلترا من عهد بعيد ؟ »

قال : « من عهد بعيد ، بعيد جدا ، من أسبوعين أو أكثر »

وسأله المستر بكوك قائلا : « وهل تنوى المقام طويلا ؟ »

قال : « أقيم أسبوعا واحدا »

وابتسم المستر بكوك وهو يقول : « سيذهب الوقت كله فى جمع كل المواد التى تريدها »

وقال الكونت : « آه ، انها مجموعة فعلا »

وقال المستر بكوك : « أحقا ؟ »

وأردف الكونت قائلا وهو يدق جبينه بيده دقة ذات دلالة : « كلها هنـــا ، وفى البيت كتاب ضـــخم حافل بالملاحظـات والمذكرات · عن الموسيقى ، والرسم ، والعلم ، والشـــعر ، والسياسة ، وكل الاشياء »

وقال المستر بكوك ان كلمة « السياسة » تقتضى وحدهـــا دراسة شاقة لا يستهان بسعة نطاقها ، وترامى حدودها »

وقال الكونت وقد عاد يخرج ألواحه : « آه ، حسن جدا ،

هذا أبدع مطلع يفتتح به فصل فى الكتاب · وهو الفصل السابع والأربعون · السياسة · ان كلمة السياسة مدهشة فى حد نفسها » وراح يدون كلمات المستر بكوك فى ألواحه ، فى مختلف الصياغات والزيادات التى عنت لخياله الخصيب ، واقتضاها علمه الناقص باللغة الانجليزية ·

ونادته مسز ليو هنتر قائلة : « يا كونت ! »

وأجاب الكونت : « نعم يامسز هنت ؟ »

قالت : « وهذا هو المستر سنودجراس ، صديق للمستر بكوك وشاعر ! »

وصاح الكونت قائلا وهو يخرج الألواح مرة أخرى : «ففى · فى باب «الشعر» أصدقاؤنا الأدباء · الاسم « سنودجراس» · حسن جدا · وقدمنا الى «سنودجراس» الشاعر الكبير ، وصديق « بيك ويكس » ، وكانت التى قدمتنا اليه هى مسز هنت ، التى نظمت قصيدة أخرى بديعة · ما هو ذلك الاسم ؟ الضفدعة ·· الضفدعة المحتضرة ؟! حسن جدا ، حسن جدا فى الحقيقة »

وأعاد الكونت الألواح الى مكانها ، وانحنى عدة انحناءات مختلفة ، وانصرف وهو مرتاح كل الارتياح لانه استطاع ان يضيف أهم وأثمن الاضافات الى خزانة معلوماته ·

وقالت مسز ليو هنتر عقب انصرافه: « الكونت سمورلتورك رجل مدهش ! »

وقال المستر بوت : « فيلسوف سديد الرأى »

وأضاف المستر سنودجراس : « صافى القريحـــة ، قوى الذهن »

وتناول جمع من الذين كانوا وقوفا على مقربة الثنـــاء على الكونت سمورلتورك فقالوا وهم يهزون الرؤوس هزة الحكماء « جدا » باجماع الاصوات ٠

وكان من الجائز وقد سرت الحماسة فى مديح الـــكونت وتعالت بالثناء عليه ، أن يتغنى القوم بها الى نهـــاية الحفل ، لولا أن بادر الأربعة المغنون « المساكين » فاصطفوا أمامشجرة تفاح صـــغيرة ، ليتراءوا فى منظر جميـــــل ، وشرعوا يغنون أغانيهم الوطنية ، وتبين أن التغنى بها لم يكن شاقا فى شىء ، لأن السر فى غنئها هو أن ثلاثة منهم كان عليهم أن يقبعــوا كالخنازير ، وليس على الرابع الا أن يعوى أو يزمجر ، ولم يكد هذا الدور الغنائى ينتهى فىوسط التصفيق الشديد ،والهتاف المدوى ، من حناجر المدعوين ، حتى انبرى غلام فبدأ يشتبك فى اسلاك مقعد ، ثم يقفز فوقه ، ويزحف تحته ، ويقع معه ، ثم يلفهما حول عنقه وأخيرا ، بمثل السهولة التى ينيسر بهـــا للمخلوق البشرى أن يبدو للأنظار كأنه ضفدعة برية ـ وكانت كل هذه الحركات والالعاب تثير السرور والضحك والابتهاج فى نفوس النظارة الحاشدين ٠

وعقب ذلك سمع صـــوت مسز بوت وهى ترسل شـــدوا مخافتا ، أو شيئا تدعوه المجاملة « غناء » ، وكان كله « قديما » أو مناسبا للمقام ، لأن « أبوللو » نفسه كان واضع «ألحان» ، وقلما يغنى واضعو الالحان ألحانهم أو ألحان سواهم ٠

وتلا ذلك قراءات من الشعر ، فقرأت مسز ليو هنتر على المدعوين مرثيتها الشعرية « للضـــفدعة المحتضرة » ٠ وكان

المدعوين يصفقون لها، ويستعيدونها ، وكادوا يكررون الهتاف باستعادتها ، لولا أن فريقـــا أكبر منهم رأوا انه قد حان أن يجدوا شيئا يأكلونه ، وذهبوا يقولون انه من المحبب للغـاية استغلال طيبة مسز هنتر وطبيعتها الكريمة ، الى حد مطالبتها باعادة الأبيات ، وكانت مسز ليو هنتر قد أبدت ارتياحهـــا التام لتلاوة القصيدة من جـــديد ، ولكن أصدقاءها الـكرام المشفقين عليها أبوا أن يسمعوها مهمـــا يكن الأمر ، وكانت قاعة الطعام قد فتحت أبوابها ، فاندفع اليها كل الذين كانوا من قبل فيها وتزاحموا عليها سراعا متدافعين ، وكان برنامج مسز ليو هنتر يقضى بتوزيع مائة بطاقة ، واعداد الطعـــام لخمسين ، أو بعبارة أخرى لا تطعم غير « الآساد » الـكبار من المدعوين وتدع الحيوانات الصغار تتلمس طعامها جاهدة »

وصاحت مسز ليو هنتر وقد جعلت « الآساد » يحيطون بها « أين المستر بوت ؟ »

وقال رئيس التحرير من أقصى طرف القاعة ، حيث لا أمل له فى الوصول الى الطعام ، ما لم تبادر ربة البيت الى نجدته : « ها نذا ! »

قالت : « أولا تأتى الى هنا ؟ »

وقالت مسز بوت بصوت رقيق للغاية : « أوه ، أرجوك ، لا تحفـــلى به ، انك تتعبين نفسك كثيرا دون ضرورة يامسز هنتر . ألا تستطيع يا عزيزى ان تؤدى لنفسك حقها وانت فى موضعك ذاك ؟ »

وأجاب بوت المسكين ، وهو يكشر نابه عن ابتسامةمصطنعة « بلا شك يا عزيزتى ! »

وا أسفا لذلك السوط الذى فى يده ٠٠! ان الذراع العصيبة التى تستخدمه بتلك القوة الضخمة فى المسائل العـامة ، قد استحالت شلاء من نظرة زوجته الآمرة المتحكمة ٠

وأرسلت مسز ليو هنتر عينها فيما حولها ، وألقت نظرة فوز وانتصار ، فقد رأت الـــكونت سمورلتورك منهمكا كل الانهماك فى تدوين ملاحظاته عن ألوان الصحاف ، والمأكل ، بينما مضى المستر طبمن يوزع « السلاط » المصنوع من جراد البحر على عدة « لبؤات » كبار بأدب جم لم يشـــهد مثله من قاطع طريق فى يوم من الايام ، وراح المستر ســـنودجراس يعرض على الشاب الذى كان يتولى نقـــد الكتب فى « الغازت ايتنزول » ويقبل على محادثة السيدة الشابة التى تشرف على قسم الشعر فيها ، وكان المستر بكوك يحاول جاهدا التلطف للجميع ، وبدا كل شيء بديعا ، والحلقة لا ينقصها أحد ، واذا بالمستر ليو هنتر ، الذى كان كل عمله فى هـــذه المناسبات الوقوف بالابواب والتحدث الى المدعوين الذين هم أقل شـــأنا من أولئك المحيطين بزوجته ، ينادى فجأة ، قائلا : « ياعزيزتى، هنا المستر شارل فيتز ـ مارشال »

وصاحت مسز ليو هنتر : « أواه ياعزيزى ، لـكم كنت فى قلق وارتقاب شديد لحضوره ، أرجو ان تفسحوا طريقا لـكى يمر المستر فتز ـ مارشال ، ألا أنبيء ياعزيزى المستر فتز ـ مارشال أن يأتى رأسا الى لكى أؤنبه على تأخيره »

وصاح صوت قائلا : « أنا آت ياســـيدتى العزيزة بأسرع ما استطعت ، زحام شديد ، القاعة غاصة ، مهمة شاقة ، جدا »

ولم يكد المستر بكوك يسمع هـــذا الصوت حتى سقطت

السكين والشوكة من يده ، وأرسل نظرة من وراء المائدة الى المستر طبمن ، وكان هذا أيضا قد سقطت السكين والشوكة من كفه ، وبدا كأنما يوشك أن يسقط على الارض بلا سابق انذار .

وصاح ذلك الصوت ، بينما كان صاحبه يشق طريقه بين الخمسة والعشرين الاخيرين من المتنكرين فى أزياء « الاتراك » والضباط والفرسان وشارل الثانى ، وهم الذين لا يزالون حائلا بينه وبين الوصول الى المائدة : « يا لله ، صقل بديع من طراز بيكر لم يدع ولا ثنية واحدة فى سترتى بعد كل هذا الحشر ، ليتنى جئت بكل ثيابى الثمينة لكى تصقل هنا ، ها ها فكرة حسنة هذه . ان تصقل الثياب هكذا وهى على جسم لابسها ، وان كانت عملية متعبة ، جدا »

وبهذه العبارات المتقطعة مضى شاب يرتدى زى ضابط بحرى يشق الطريق الى المائدة ، ويتمثل للبكوكيين المبهوتين، المستر الفريد جنجل بشكله وملامحه .

ولم يكد يتسع له الوقت لتناول يد مسز ليو هنتر الممدودة اليه ، حتى التقت عيناه بعينى المستر بكوك ، وهما من شدة الغيظ تقدحان شررا ، فقال : « ها ، لقد نسيت شيئا ! لم أعط تعليمات لسائسى الخيل ، سأذهب اليهم فى الحال وأعود بعد دقيقة واحدة »

وقالت مسز ليو هنتر : « دع الخادم ، أو المستر هنتريقوم بذلك فى الحال يامستر فتز ــ مارشال »

ولكنه أجابها قائلا : « كلا ، كلا ، سأقوم أنا بها ، لن أغيب، سأعود بعد لحظة »

واختفى فى غمار الزحمة ٠

وقال المستر بكوك وهو ينهض من مقعده : « هل تسمحين لى ياسيدتى ان أسأل من يكون ذلك الشاب وأين يقيم ؟ »

وأجابت مسز ليو هنتر : « انه سيد من أهل الثراء يامستر بكوك ، أريد ان أقدمك اليـــه ، ويقينى ان الـكونت سيسر بمعرفته »

وقال المستر بكوك فى عجلة : « نعم ، نعم ٠ ولـــكن أين يقيم ؟ »

قالت : « انه يقيم الآن فى فندق الملاك « انجل » ببلدة برى »

فعاد يسأل ليستوثق : « أتقولين فى بيرى ؟ »

قالت : « نعم فى برى سانت ادموندز التى لا تبعـــد منا أميالا كثيرة ٠ ولكن عجبا يامستر بكوك ، لا أحسبك تاركنا هكذا ، لا يمكن يامستر بكوك ان تفكر فى الانصراف هـكذا وشيكا ! »

وقبل ان تتم كلامها كان المستر بكوك قد توارى فى غمـار الزحام ووصل الى الحديقة حيث وافاه بعد لحظة المستر طبمن، وكان قد تبع حركاته عن كثب ٠

قال المستر طبمن : « لا فائدة ، لقد انطلق »

فأجاب المستر بكوك : « أعرف ذلك ، ولكنى سأتبعه »

وقال المستر طبمن مبهوتا : « تتبعه ! الى أين ؟ »

وأجاب المستر بكوك بلهجة سريعة : « الى فندق انجل فى

بلدة برى • ما يدرينا أى قوم تراه يحتال عليهم فيها • لقدغش رجلا فاضلا من قبل وكنا نحن السبب ، ولم نكن ندرى • لن أدعه يفعلها مرة أخرىاذا أنا استطعت • لأفضحنه ، ولأكشفن خبيئته للناس • أين خادمى ؟ »

واذا بالمستر ولر يقول : « أنا هو ياسيدى » ، وقد خرج من بقعة منعزلة كان فيها « يناقش » زجاجة من نبيذ «الماديرة» استخلصها من مائدة الفطور قبل ذلك بساعة أو ساعتين •

ومضى يقول : « ها هو ذا خادمك ياسيدى • الفخور بهذا اللقب ، كما قال الهيكل العظمى الحى عندما عرضوه •• »

وقال المستر بكوك : « اتبعنى فى الحال ! وانت يا طبمن اذا أنا تأخرت فى « بيرى » فوافنى اليها حين أكتب اليك ، والآن ، الى اللقاء ! »

ولم تكن الاحتجاجات على ذهابه بمجدية ، فان المستر بكوك قد اتقدت الحماسة فى صدره ، وأجمع نيته على الذهاب • فلم يسع المستر طبمن الا الرجوع الى أصحابه ، ولم تنقض ساعة حتى غرقت ذكريات المستر الفريد جنجل ، أو المستر شارلز فيتز-مارشال فى لجة رقصة « الكوادريل» (١) ، وزجاجة من الشمبانيا ، بينما كان المستر بكوك وخادمه سام ولر جالسين خارج مركبة حافلة ، تنهب بهما الارض ، وتقربهما شيئا فشيئا من بلدة « برى سانت ادموندز » لمطاردة الرجل الغريب !

---

(١) رقصة يشترك فيها أربعة أزواج من الراقصين وتسمى موسيقاها « كوادريل » كذلك •

الفصل السادس عشر

حافل بالأحداث بحيث لا يغني الايجاز في وصفها

ليس فى شهور العام كله شهر تبدو فيه الطبيعة أبهى ثيابا ، كشهر أغسطس ، ولسنا ننكر أن للربيع عديد محاسنه ، وان شهر مايو شهر وسمى متفتح كأكمام الزهر ، ولكن مفاتن هذا الشهر تزداد حسنا لاختلافها عن أيام الشتاء وشهوره ، وليس لشهر أغسطس هذه المزية ، فهو يأتى ، حين لا نذكر شيئا غير السموات الصافية ، والحقول الناضرة ، والأزاهر الفواحة ، وحين تتوارى عن خواطرنا أخيلة الجليد ، والثلوج ، والرياح المقرورة ، كما توارت عن الارض ٠٠ ومع ذلك كله ما أجمل هذا الشهر وأخفه على النفس ، فان الازهار فيه وحقول القمح لتضج بطنين العمل ، وثمار الدأب ، فنرى الأشجار رازحة فيه تحت كثاف عناقيد الثمرات الطيبة ، على أغصانها المنحنية الى الأرض ، والقمح متكدسا فى البيادر أكواما جميلة ، أو متموجا متمايلا مع كل نسمة عليلة من الأنسام الهابة عليه ، كأنما تناجى المنجل ، وتضفى على الارض لونا من نضار ، وكأنما يغمر الكون كله لطف بهيج لين بديع يسر الناظرين ، وكأنما امتدت فتنة الموسم ذاته الى المركبة التى لا تشعر بحركتها البطيئة فى الحقول الجنية غير العين وحدها ، ولا يطرق الأذن منها صوت شديد ٠

وكلما مرت المركبة مارقة من خـــلال الحقول والبســاتين المترامية على حافة الطريق ، تمهلت جموع النساء والأطفال ، الذين يجمعون الثمار فى الغرابيل أو يجنون ســـنابل القمح المتناثرة ، وكفت لحظة عن عملها ، وظللت وجوهها الملفوحة من حر الشمس بأكفها السمراء مثلها من وقدة أشــعتها ، لترمق الركب أعينها الطلقة ويروح من بينهـــا صبى قوى البدن ، وان كان أصغر ســـنا من ان يعالج عملا ، ولــكنه من فرط الخبث والنـــزوع الى العبث والأذى لا ينبغى أن يتــرك فى البيت ، يتسلق جانب « السلة » التى أودع جوفها ليبقى فى مأمن ، وينطلق يركل بقدميه ويصرخ من فرط الفرح ، بينما يكف الحاصد عن العمل ، ويقف مشبوك الذراعين ، لينظر الى المركبة وهى مارقة قبالته ، وتنثنى الخيل التى تجر العجلات، فتنعم على خيل المركبة المطهمة ، بنظرات نعسانة كأنما لسان حالها يقول ، فى أبلغ ما يمكن أن تتحدث به نظرات حصان : «انه لمنظر بديع حقا» • ولكن السير فى رفق ، فوق أرض الحقول اللينة ، أفضل من هذا العــدو السريع فوق أرض معفرة مثيرة الغبار على هذه الصورة •

واذا أنت ألقيت البصر كرة أخـــرى الى ركن من الطريق ، رأيت النساء والأطفــال قد عادوا الى ما كانوا فيه من عمــل ودأب ، وألقيت الحصد قد رجع يكب على مابين يديه ،وأبصرت العجلة قد عاودت المسير ، وكل شىء قد عاد الى الحركة والنضال

ولم يغب جلال هذا المشهد عن خاطر المستر بكوك وذهنــه المنسق المنظم ، ولكنه عقـــد العزم على كشف خبيئة الخبيث الداهية « جنجل » فى أى مكان قد يعاود فيه النصب والاحتيال على الناس ، وجلس فى بداية الأمر صموتا مفكرا ســاهما ،

يتدبر الوسائل التى يتسنى له بهـا تحقيق هدفه على أحسن وجه ، فقد أخـذ خاطره شيئا فشيئا ينجذب الى المشـاهد المحيطة به ، حتى بدأ عندئذ يجد متعة بالغة فى هذه الركبة ، كأنه قد اعتزم بها الاستمتاع بأبدع نزهة ٠

وأنشأ يقول : « مشهد بهيج يا سام ! »

وأجاب سام وهو يلمس قبعته : « انهـا لتضرب رءوس المداخن ياسيدى »

فابتسم المستر بكوك ومضى يقول : « أحسبك لم تشـهد فى كل حياتك شـيئا غير رءوس المداخن والطـوب والملاط يا سام »

وأجاب المستر ولر وهو يهز رأسه : « لم أكن طول عمرى مساح أحذية ياسيدى ٠ فقد كنت صبى حوذى صاحب مركبة نقل فى يوم من الأيام »

وقال المستر بكوك : « ومتى كان ذلك ؟ »

وأجاب سام : « عنـدما حملت من رقبتى وغرتى فألقيت لأول مرة فى هذا العالم لألعب لعبة « قفزة الضفدع » مـع متاعبها وأكدارها ، فبدأت صبى حمال ، ثم صبى سائق مركبة نقل ، ثم مساعدا ، ثم مساح أحذية ٠ وأنا الآن خادم سيد ٠ ومن يدرى فقد أصبح أنا الآخر سيدا فى يوم من الأيام ، أضع القصبة فى فمى ، ولى سقيفة فى حـديقة بيتى الخلفية ، من يدرى ؟ وان كنت أنا نفسى لن أدهش يومئذ ولن أعجب »

وقال المستر بكوك : « انك لفيلسوف يا سام »

وأجاب سام قائلا : « أعتقـد ياسيدى أنها وراثيـة فى

الأسرة ، ووالدى فى هذا الدور ذاته الآن ، فاذا « كشرت » له امرأة أبى أو هبت فيه ، لم يفعل شيئا غير ان يطلق « صفيرا » من بين شفتيه ، وان هى غضبت وكسرت قصبته ، انصرف من البيت واشترى قصبة غيرها ، واذا ما صرخت ودخلت فى دور « تشنج » واصل تدخينه هادئا ساكنا، حتى تثوب الى نفسها. هذه فلسفة ياسيدى . أليست كذلك ؟ »

فأجاب المستر بكوك ضاحكا : « أو بديل حسن جدا منها على كل حال ، ولابد من ان تكون قد خدمتك كثيرا فى سير حياتك المتنقلة يا سام »

وصاح سام قائلا : « خدمتنى ! ياسيدى ، لك ان تقول ذلك، ولكنى بعد ان هربت من الحمال ، وقبل ان أعمل مع السائق .. قضيت أسبوعين فى مسكن غير مفروش »

وقال المستر بكوك فى دهشة : « مسكن غير مفروش ؟ »

قال : « نعم ، فى عقود جسر واترلو الجافى مكان بديع للمبيت .. لا يبعد أكثر من مسيرة عشر دقائق من المكاتب العامة ، واذا كان ثمة عيب فيه ، فهو ان الموقف يبدو « طلقا » كثير الهواء ، وكنت أشهد فيه بعض المناظر الغريبة »

وقال المستر بكوك باهتمام بالغ : « أظنك لابد فعلت »

واستتلى المستر ولر يقول : « مناظر ياسيدى تنفذ فى جنب قلبك الرحيم ، وتخرج من الجنب الآخر . وأنت لا ترى المتشردين الذين يأوون الى ذلك الموضع بانتظام .. بل ثق انهم أحكم من ان يتركوك تراهم هناك ، وأحيانا ترى المتسولين الأحداث ، الذكور منهم والاناث ، الذين لم يرقوا بعد فى

المهنة ، يتخذون من ذلك المكان مقرا لهم ، ولكن المشاهد عامة فيه هم أولئك المخلوقات المكدودة الجائعة التى لا مسكن لها ولا مأوى ، فتلجأ الى تلك الزوايا المظلمة فى ذلك الموضع المعزول •• تلك المخلوقات المسكينة التى لا تستطيع ان تكفل لأنفسها ، الحبل ببنسين ! »

وراح المستر بكوك يسأله : « وما هو هذا الحبل ببنسين يا سام ؟ »

وأجاب سام قائلا : « الحبل ببنسين ياسيدى هو : وكالة رخيصة الاجور للمبيت • السرير فيها ببنسين اثنين فى الليلة •• »

قال : « ولماذا يسمون الفراش حبلا ؟ »

وأجاب سام بقوله : « بارك الله ياسيدى فى سلامة قلبك • انه ليس فراشا • وعندما بدأت السيدة والسيد اللذان أسسا هذا الفندق ينظمان عملهما ، جعلا المراقد على الارض ، ولكنهما وجدا أن العمل هكذا لا يجدى ، فبدلا من أن يأخذ النزلاء حقهم من النوم نظير بنسين لا أكثر ، راحوا يعتادون الرقاد فى الفندق نصف اليوم ، فجاء صاحبا الفندق أخيرا بحبلين ، تفصل كل منهما عن الآخر مسافة ست أقدام ، وعن السقف ثلاث ويمتدان بعرض الغرفة والمراقد مصنوعة من خرق من الخيش الخشن مصفوفة على طول الحبلين »

وقال المستر بكوك : « وماذا بعد ؟ »

قال : « ان مزية هذه الخطة واضحة ، ففى كل صباح فى الساعة السادسة يسقطون الحبلين من أحد طرفيهما ، فيقع

النزلاء جميعا من فوق مضاجعهم ، والنتيجة انهم يستيقظون طبعا ، وينهضون بكل هدوء وينصرفون »

وانقطع سام فجأة عن سياق الحديث الثرثار ، قائلا : « معذرة ياسيدى ٠٠ أليست هذه برى سانت ادموندز ؟ »

وأجاب المستر بكوك : « هذه هى »

وانطلقت المركبة تشق شوارع معبدة فى وسط بلدة صغيرة جميلة ، تلوح عليها سمات الرفاهية والنظافة ووقفت أمام فندق رحيب يقع فى شارع مفتوح واسع يكاد يواجه الكنيسة القديمة ٠

وقال المستر بكوك وهو يتطلع الى الفندق ببصره : « وهذا هو فندق (انجل) وسنترجل هنا ياسام ولكن لابد من الأخذ بشىء من الحيطة ٠ فمر بحجز غرفة خاصة ولا تذكر اسمى ٠ أتفهمنى ؟ »

وقال وهو يغمز بعينه عمزة ذكاء وفهم : « تماما ياسيدى » ومضى يجر حقيبة المستر بكوك من الجزء الخلفى الذى ألقيت فيه بعجلة عندما لحقا بالمركبة فى « ايتنزول » وانطلق المستر ولر لانجاز المهمة التى وكلت اليه ، فلم يلبث أن تم حجز غرفة خاصة ، ومشى المستر بكوك اليها دون تأخير ٠

وقال المستر بكوك : « والآن يا سام ٠ ان أول شىء ينبغى أن تفعله هو ٠٠٠ »

فعاجله المستر ولر قائلا : « نأمر باعداد الغداء ٠ فقد تأخر عن وقته ياسيدى »

فنظر المستر بكوك الى ساعته وقال : « آه هـذا صحيح ، وأنت على حق يا سام »

وأردف المستر ولر يقول : « واذا جاز لى أن أقدم نصيحة ياسيدى ، قلت وبعد هذا الاخلاد الى الراحة الليل كله فلا نبدأ البحث عن ذلك الرجل « العميق » الا فى الصباح فليس فى الدنيا ياسيدى شىء أكثر انعاشا للبدن من النوم ، كما قالت الخادمة قبل أن تتجرع ملء قشر بيضة من المخدر »

وقال المستر بكوك : « أحسبك مصيبا فيما تقول يا سام ولكن يجب أولا أن أستوثق من أنه فى هذا الفندق وأنه ليس من المرجح أن يهرب أو ينصرف »

وقال سام : « اترك هذه المسألة لى ياسيدى ، ودعنى آمر لك بغداء طيب خفيف ، واسأل فى الطابق الأسفل ريثما يعدون لك الطعام ، وأنا كفيل بأن أنتزع أى سر من قلب مساح الأحذية فى خمس دقائق ياسيدى »

وقال المستر بكوك : « افعل ! »

وفى الحال انصرف المستر ولر ، ولم ينقض نصف ساعة حتى كان المستر بكوك جالسا الى طعام شهى وبعد ثلاثة أرباع الساعة عاد المستر ولر يقول ان المستر شارلز فتز ـ مارشال أمر بحجز غرفة خاصة له الى حين صدور أوامر أخرى ، لأنه سوف يقضى المساء فى بعض الدور الخاصة فى جوارنا ، وأمر بأن ينظف حذاؤه قبل عودته وأخذ خادمه معه .

ولما انتهى المستر ولر من ابلاغ سيده هذا النبأ استرسل يقول : « والآن ياسيدى اذا استطعت أن أتحدث مع هـذا

الخادم هنا فى الصباح ، فسوف يقول لى كل شىء عن سيده »

وقاطعه المستر بكوك قائلا : « وكيف تعرف هذا ؟ »

وأجاب المستر ولر : « سبحان الله ياسيدى ، كل الخدم يفعلون ذلك دائما »

وقال المستر بكوك : « آه لقد نسيت ذلك ، وما ... ذا بعد ..؟ »

قال : « وعندها تفكر ياسيدى فى خير ما ينبغى عمله . ونحن نقوم بالتنفيذ »

وتبين أن هذا هو أحسن تدبير يصح اتخاذه ، فتم أخيرا الاتفاق عليه ، وانصرف المستر ولر بعد اذن سيده ليقضى المساء كما يهوى ، ولم تمض لحظات حتى انتخب باجماع آراء الخدم المجتمعين فى الطبقة الأولى من الفندق لتولى كرسى الرياسة ، وهو مكان مشرف عرف كيف يدير الجلسة منه ، ويشغله بجدارة فائقة ، ويكتسب أتم الرضى والارتياح من السادة الأعضاء ، حتى لقد ذهبت ضحكاتهم المدوية تخترق مخدع المستر بكوك وتقتطع ثلاث ساعات على الأقل من وقت راحته الطبيعية .

وفى بكرة الصباح أخذ المستر ولر يعالج الآثار الباقية من سهرة الليلة الماضية والافراط فى الشراب بدفع نصف بنس لقاء أخذ حمام رشاش ، بعد أن تيسر له اقناع غلام ملحق بالاسطبل بقبول هذا القدر نظير تشغيل المضخة لترش الماء على رأسه ووجهه ، حتى أفاق تماما ، واذا هو يلمح فتى فى ثوب أحمر من ثياب الخدم جالسا فوق أريكة فى فناء الفندق ، يقرأ فى كتاب يبدو عليه أنه كتاب « مزامير » وهو مستغرق

فى القراءة ، وان جعل بين لحظة وأخرى يسترق نظرات الى الشخص القائم تحت « المضخة » ، كأن هذا المنظر قد أثار اهتمامه ، رغم انشغاله بقراءة ذلك الكتاب •

وقال المستر ولر لنفسه : « انك لمخلوق بديع يطيب للعين أن تنظر اليه » • وكانت هذه الخواطر أول ما خطر له حين ألمت عيناه بنظرة ذلك الخادم الغريب فى هذا الثوب التوتى اللون ، فقد كان وجهه كبيرا أصفر اللون دميما ، وعيناه غائرتين ، ورأسه ضخما ، تدلى منه قدر من شعر فاحم •

وعاد المستر ولر الى نجواه فقال : « انك لمخلوق بديع ! » ومضى فى استحمامه ، غير مفكر بعد ذلك فيه •

ومع ذلك فقد ظل الفتى ينظر الى سام فيرفع عينيه عن الكتاب ثم يعود بعدئذ اليه ، كأنما يريد أن يجاذبه الحديث •

وأخيرا أنشأ سام يقول بايماءة مألوفة يقصد بها اعطاءه الفرصة للكلام : « كيف الحال أيها الحاكم ؟ »

وأجاب هذا قائلا بتحفظ بالغ ، وهو يطوى الكتاب : « يسعدنى أن أقول اننى بخير تام ياسيدى • وأرجو أن تكون كذلك أيضا »

فقال سام : « لو انى أشعر بأنى لا أشبه زجاجة خمر متحركة ، لما بدوت مترنحا كل هذا الترنح فى هذا الصباح • هل أنت نازل فى هذا الفندق أيها الشيخ الكبير ؟ »

فأجاب الرجل التوتى الثياب بالايجاب •

وقال سام وهو يجفف وجهه بالمنشفة : « واذا كان ذلك

فلماذا لم تكن معنا فى الليلة الماضية ؟٠٠ وأنت ظاهر يبـدو أنك انسان تحب المتعة ، وتبدو أنيسا صاحب مزاج ٠٠ وهنا خفض من صوته وانثنى يقول : « كأنك سمكة لوت حية فى سلة جير »

وأجاب الغريب : « لقـــد كنت فى الخارج ليلة أمس مـع سيدى »

وسأل المستر ولر وقد احمر وجهه من الحماسة الفجائيـة واحتكاك المنشفة معا : « وماذا يدعى ؟ »

وأجاب الرجل التوتى اللون : « فتز ــ مارشال »

فتقدم المستر ولر نحوه وهو يقول : « هات يدك ، انى أود معرفتك ويروقنى شكلك أيها الزميل القديم »

وقال الرجل التوتى اللون بكل بساطة : « هذا شىء غريب جدا ٠ وأنا أيضا شعرت بميل شديد اليك حتى لقد أردت أن أكلمك من أول لحظة رأيتك فيها تحت المضخة »

وقال المستر ولر : « أحقا ؟ »

وأجاب الرجل : « نعم ، بشرفى ، أليس هذا غريبا ؟ »

وقال سام وهو يهنىء نفسه بسذاجة هذا الغريب : « شىء مدهش ! وما اسمك أيها السيد ؟ »

قال : « جوب »

ومضى المستر ولر يقول : « وانه لاسم حسن جـــدا ٠ الا انه اسم لا يشتق منه اسم يتهكم به فما هو الاسم الآخر ؟ »

وأجاب الغريب : « تروتر · وما اسمك أنت ؟ »

وتذكر سام تحذير سـيده فأجاب قائلا : « اسمى ووكر واسم سـيدى ويلكنز · ألا تتناول قليـلا من شىء فى هـذا الصباح يامستر تروتر ؟ »

وافق المستر تروتر على هذا الاقتراح اللطيف ، فدس كتابه فى جيب ردائه وانطلق مع المستر ولر الى غرفة الشراب ، ولم يلبثا أن انشغلا بالبحث فى اختيار خليط منعش منه يتألف من مزج مقادير معينة من خمرة الهولاندز البريطانية ، وروح القرنفل ، فى اناء من الزنك ·

وأنشأ سام يسأل جليسه وقد ملأ له كأسا للمرة الثانية: « وأى مكان تشغل عند سيدك ؟ »

وأجاب جوب وهو يمسح شفتيه بلسانه : « سىء · مكان سىء جدا »

وقال سام : « أتقول جدا ؟ »

قال : « هذا صحيح ، بل أسوأ من هذا أن سيدى مقدم على الزواج »

ـ « لا تقل هذا ! »

ـ « بل هو الواقع · وأسوأ منه أيضـا انه ينوى الفرار بوريثة ثراء ضخم فى مدرسة داخلية »

وقال سام وهو يعيد ملء كأس محدثه : « ياله من ثعبان ! وأظن أن المدرسة الداخلية هنا فى هذه البلدة ؟ أليس كذلك ؟» وكان هذا السؤال قد ألقى بلهجة متناهية فى الاستخفاف

وقلة المبالاة ، ولكن المستر جوب تروتر أبدى من الحركات والاشارات ما ينبىء صراحة بأنه قد فطن الى فضول صاحبه الجديد ومحاولته انتزاع رد منه على سؤاله ، فأفرغ ما فى كأسه ، ونظر نظرات غريبة الى محدثه ، وغمز بكلتا عينيه ، واحدة بعد الأخرى ، وأخيرا أدى حركة بذراعه ، كأنما يدير يد « مضخة » وهمية ، موحيا بتلك الحركة أنه يعد نفسه تحت عملية « امتصاص » يقوم المستر ولر بها « لفتح » ما فى صدره من الأسرار ٠

وقال المستر تروتر فى النهاية : « كلا ! كلا ! هذا أمر لا يصح أن يقال لكل انسان ٠ هذا سر ، سر عظيم يا مستر ولر »

وما كاد الرجل « التوتى » اللون ينتهى من هذه العبارة حتى انثنى يقلب القدح رأسا على عقب ، كأنما يريد تذكير صاحبه أنه لم يعد لديه شىء من شراب يطفىء به ظمأه ٠ ولمح سام تلك الاشارة ، وشعر بالحركة الدقيقة التى أديت بها ، فأمر بأن يملأ الأناء شرابا ، وعندئذ برقت عينا الرجل « التوتى » الصغيرتان ٠

وقال سام : « اذن هو سر ؟ »

وأجاب « التوتى » اللون وهو يتناول رشفة من الشراب ، وقد بدا البشر فى وجهه : « أظنه كذلك »

وسأل سام صاحبه : « أحسب سيدك عريض الثراء »

وهنا ابتسم المستر تروتر ، وأمسك الكأس بيسراه وضرب جيب ردائه أربع ضربات واضحة بيمناه ، كأنما يشير بها الى

أن سيده كان من الجائز أن يفعل ذلك دون احداث ازعاج شديد لأحد بوسوسة أى نقود فى جيبه(١)

وقال سام : « آه ، أهذه هى اللعبة اذن ؟ »

فأومأ الرجل التوتى اللون ايماءة ذات مغزى .

واحتج المستر ولز قائلا : « حسن . ألا تظن أنك اذا تركت سيدك يختطف هذه الفتاة كنت مجرما شقيا ؟ »

وأجاب المستر تروتر ، وهو ينظر الى رفيقه نظرة ندامة بالغة ، ويرسل أنة خافتة : « أعرف ذلك . وهو ما يشغل ذهنى ويحرق فكرى . ولكن ماذا أفعل ؟ »

وقال سام : « ماذا تفعل ؟ تكشف السر للسيدة وتفضح سيدك »

وأجاب جوب تروتر : « ولكن من الذى سيصدقنى ؟ ان الفتاة تعد مثالا مجسما للبراءة والفطنة ، وسوف تكذبنى ، وكذلك سوف يفعل سيدى . منذا الذى يصدقنى ؟ وسأفقد مركزى ، وسأتهم بمؤامرة أو شىء من هذا القبيل . هذا هو كل ما سيصيبنى من حركة كهذه »

وفكر سام قليلا ثم مضى يقول : « فى هذا القول شىء معقول ، فيه شىء معقول »

ومضى المستر تروتر يقول : « ولو انى وجدت سيدا محترما يتولى هذه المسألة بنفسه ، لكان لدى شىء من الأمل

---

(١) أى أن سيده مثله خالى الوفاض .

فى منع هذا الاختطاف ، ولكن هنا أيضا الصعوبة ذاتها يامستر ووكر . فانى لا أعرف سيدا فى هـــذا المكان الغريب ، ولو وجدت لما صدق قصتى فى الغالب ولأنكرها انكارا »

ووثب سام فجأة من مجلسه وأمسك بالرجـل « التوتى » من ذراعه وهو يقول : « تعال معى . اننى أعتقد أن سيدى هو الرجل الذى تريده » ، وحاول جوب تروتر الامتناع قليــلا ، ولكن سام سار بهذا الصديق الذى اكتشفه حديثا الى غرفة المستر بكوك فقدمه اليه بعد خلاصة موجزة للحديث الذى دار منذ لحظة بينهما .

وقال جوب تروتر وهو يقرب من عينيه منديلا قرنفلىاللون يكاد يبلغ ست بوصات مربعة ، قائلا : « اننى ليحزننى كثيرا ياسيدى أن أخون مخدومى »

وأجاب المستر بكوك : « ان هــذا الشعور يشرفك كثيرا ، ولكن هذا هو واجبك على أية حال »

وقال جوب بانفعال شديد : « أعرف ياسيدى ان هذا هو واجبى ، واننا جميعا نحاول أن نؤدى واجبنا ياسيدى ، وانا بكل خشوع أحاول تأديته ، ولكن من التجربة القاسية خيانة عهد ســيد ترتدى ثيــابه ، وتأكل خبزه ، ولو كان فى ذاته مجرما ياسيدى »

وتأثر المستر بكوك كثيرا من قول الرجل فقال : « انك امرؤ خير ، وانسان أمين »

وهنا تدخل سام ، وقد رأى الدمع يجول فى عينى تروتر ، ولكنه لم يطق صبرا على هذا الموقف ، فقال : « كفى ، كفى . دع هذا البكاء جانبا . انه لا فائدة منه مطلقا . لا فائدة »

وقال المستر بكوك لخادمه معاتبا : « يؤسفنى يا سام أن أراك قليل المبالاة بشعور هذا الشاب »

وأجاب المستر ولر قائلا : « ان شعوره ياسيدى جميل ، وما دام الأمر كذلك ، ومن الأسف أن يفقده ، فمن الخير أن يبقيه فى جوانحه ، بدلا من أن يتركه هكذا يتبخر ماء ساخنا، وخاصة أنه لا فائدة منه ولا نفع ، ان الدموع لم تملأ فى يوم من الأيام ساعة فارغة ، ولا حركت آلة بخارية ، وانى لأنصح لك أيها الشاب اذا ذهبت بعد اليوم الى الجلوس مع جماعة من المدخنين ، أن تملأ قصبتك بهذه الفكرة التى شرحتها لك ، وأما فى اللحظة الراهنة ، فأرجوك أن تضع هذا المنديل القرنفلى فى جيبك ، انه ليس جميلا حتى تحتاج الى تركه هكذا مرفرفا خفاقا فى الهواء كأنك أحد الراقصين على الحبال »

وقال المستر بكوك مخاطبا جوب : « ان خادمى على حق ، وان كانت طريقته فى التعبير عن رأيه طريقة غير مهذبة ، ولهذا تبدو أحيانا غير مفهومة »

وأجاب المستر تروتر قائلا : « انه على حق تماما ياسيدى ، ولن أستسلم الى البكاء بعد الآن »

وقال المستر بكوك : « حسن جدا . والآن قل لى أين هذه المدرسة ؟ »

وأجاب جوب تروتر : « انها تقع فى بيت كبير قديم العهد خارج المدينة ياسيدى »

وعاد المستر بكوك يسأل : « ومتى ستنفذ هذه الخطة المنكرة ، ومتى سيتم هذا الاختطاف ؟ »

وأجاب جوب : « الليلة ياسيدى »

فصاح المستر بكوك قائلا : « الليلة ! »

وعاد تروتر يقول : « نعم ! الليلة بالذات يا سيدى ، وهذا هو ما يزعجنى كثيرا »

وقال المستر بكوك : « لابد من اتخاذ تدابير فى الحال وسأذهب على الفور لمقابلة السيدة التى تشرف على تلك المدرسة »

وقال جوب : معذرة يا سيدى اذا قلت أن هذا التصرف لن يجدى »

قال : « ولماذا ؟ »

وأجاب تروتر : « لأن سيدى رجل واسع الحيلة داهية »

وقال المستر بكوك : « أعرف ذلك عنه »

ومضى جوب يقول : « وقد استولى على قلب تلك السيدة الى حد يجعلها لا تصدق شيئا سيئا عنه ، حتى وان جثوت عند قدميها وأقسمت جاهدا أنه لحق ، ولا سيما انك لا تملك دليلا على صدق ما تقول غير كلام خادم ستزعم (وسيزعم معها سيدى بالطبع) انه فصل لبعض خطأ ارتكبه ، وأنه انما قال ذلك انتقاما وأخذا بالثأر »

وهنا قال المستر بكوك : « وماذا يحسن أن تفعل اذن ؟ »

وأجاب جوب قائلا : « لا شىء يقنع تلك السيدة العجوز غير ضبطه متلبسا بجريمة الاختطاف ياسيدى »

وعندئذ انبرى المستر ولر يقول استطرادا : « آه ، ستعود تلك القطط العجائز فتصدم رءوسها بالأحجار »

وقال المستر بكوك : « أخشى أن يكون ضبطه متلبسا أمرا من الصعب جدا تنفيذه »

وأجاب المستر تروتر بعد تفكير قائلا : « لا أعرف ياسيدى، ولكنى أعتقد أنه سهل غاية فى السهولة »

قال : « وكيف ؟ »

وأجاب الخادم : « سنختبىء أنا وسيدى فى المطبخ فى العاشرة ليلا ، بعد أن تم لنا الاتفاق مع الخادمين فى المدرسة ، فاذا أوى القوم الى مضاجعهم ، خرجنا من المطبخ ، وجاءت الفتاة من غرفة النوم ، وستكون مركبة فى انتظارنا بالباب فنمضى بها مسرعين »

وقال المستر بكوك : « ثم ماذا ؟ »

وأجاب تروتر : « لقد فكرت فى طريقة ، وهى أن تكون أنت ياسيدى فى انتظار خروجنا مختبئا فى الحديقة وحدك »

وقال المستر بكوك : « ولماذا أكون وحدى ؟ »

وأجاب تروتر قائلا : « أعتقد أنه من الطبيعى جدا أن السيدة العجوز لا ترضى أن تحدث فضيحة أليمة كهذه أمام أشخاص أكثر مما ينبغى ، ولابد أيضا من مراعاة شعور الفتاة »

وقال المستر بكوك : « أصبت ، ان هذا التفكير يدل على رقة شعورك ، امض فى حديثك فأنت مصيب كل الصواب »

ومضى تروتر يقول : « لقد بدا لى كذلك ياسيدى انك اذا انتظرت فى الحديقة الخلفية وحدك ، وجئت أنا فأدخلتك من

الباب المفضى اليها من طرف الدهليز فى تمام التاسعة والنصف، فسوف يكون دخولك على هـذا النحو فى الوقت المناسب لمعاونتى على افساد خطة هذا الرجل الشرير الذى وقعت لسوء حظى فى شركه »

وهنا زفر المستر تروتر زفرة من الأعماق ·

وقال المستر بكوك مواسيا : « لا تزعج خاطرك من هـذه الناحيـة ، فلو انه أوتى ذرة واحـدة من رقة الشـعور التى امتزت بها ، على ضعة شـأنك ، لكان فى نفسى بعض الامل فى صلاح أمره »

وهنا انحنى جوب تروتر انحناءة بالغـة ، ووثبت الدموع مرة أخرى الى عينيه رغم احتجـاج المستر ولر كمـا أسلفنا عليك ·

وقال سام مرة أخرى : « لم أشهد فى حياتى انسانا كهذا، يلعننى الله فى كل كتاب اذا لم يكن فى رأسـه صنبور دموع لا ينقطع عن السيل »

فانتهره المسـتر بكوك قائلا : « امسك يا سـام عليك لسانك »

وأجاب المستر ولر : « سأفعل ياسيدى »

وعاد المستر بكوك يقول بعد تفكير طويل : « لست راضيا عن هذه الخطة · لماذا لا أتصل بأهل هذه الفتاة ؟ »

وأجاب تروتر قائلا : « لأن أهلها يقيمون على بعـد مائة ميل من هذا الموضع ياسيدى »

وقال المستر ولر فى نفسه فى ناحية : « جواب مسكت ! »
وعاد المستر بكوك يقول : « وكيف يتواتى لى دخول تلك الحديقة ؟ »

وأجاب تروتر : « ان الجدار خفيض ياسيدى ، وفى امكان خادمك أن يعاونك على الصعود »

وقال المستر بكوك يردد هذه العبارة بغيرتفكير : «سيتمكن خادمى من معاونتى على الصعود ، وهلأنت واثق انك ستكون بقرب الباب الذى تحدثت عنه ؟ »

وأجاب تروتر : « لن تخطىء فى الاهتداء اليه ياسيدى ، فهو الباب الوحيد الذى يفتح على الحديقة ، وما عليك الا أن تطرقه طرقة خفيفة حين تسمع الساعة تدق ، فأفتحه لك فى الحال »

وقال المستر بكوك : « لست عن هذه الخطة راضيا ولكن ما دمنا لا نجد غيرها ، وما دامت سعادة هذه الفتاة ومصير حياتها كله فى خطر على هذا النحو ، فلأتخذها ، وسأكون حتما فى ذلك المكان »

وهكذا للمرة الثانية نرى طيبة المستر بكوك تورطه فى مشروع كان أحب الى نفسه أن يكون بمنأى عنه .

قال : « وما اسم البيت ؟ »

وأجاب تروتر قائلا : « وستجيت هاوس ياسيدى . وما عليك الا أن تنعطف يمنة عند خروجك من حدود البلدة ،فتراه قائما بمعزل على قيد خطوات من الطريق العام ، وتجد اسمه مكتوبا على لوح نحاسى فوق الباب »

وقال المستر بكوك : « أعرفه ، لقد رأيته مرة من قبل عندما كنت فى هذه البلدة ، لتثق اذن بى »

وهنا انحنى المستر تروتر مرة أخرى وتولى لينصرف واذا بالمستر بكوك يلقى جنيهـا فى كفه قائلا : « انك لانسـان بديع ، وانى لمعجب بطيبة قلبك ، لا شكر ، تذكر الحـادية عشرة »

وانصرف من الحجرة يتبعه سام ٠

وأجاب المستر تروتر : « لا خوف من أن أنساه ياسيدى »

وقال هذا لصـاحبه حين خرجا : « لم يكن بكاؤك فكرة سيئة ٠ انى لمستعد أن أبكى سيلا كالمطر اذا كان هـذا هو الشرط ٠ كيف تيسر ذلك لك ؟ قل لى بالله عليك ؟ »

وأجاب جوب بلهجة الجد : « انه ينبعث من القلب يامستر ووكر ٠ طاب صباحك ياسيدى »

وقال سام فى نفسه ، عقب انصراف صاحبه : « أنت عميل لطيف ٠ ولقد أخرجنا كل ما فى صدرك على كل حال »

وليس فى امكاننا أن نبين طبيعة الأفكار التى خطرت ببال المستر تروتر تماما ، لأننا لا نعرف ما هى ٠

وانقضى النهار ، وآذن المساء ، وجاء سام ولر قبيل العاشرة ينبىء سيده أن المستر جنجل وجوب خرجا معا ، وأنهما قد حزما أمتعتهما وطلبا اعداد مركبة ، وبدا أن الخطة أخـذت تسير فى دور التنفيذ كما قال المستر تروتر ٠

وبلغت الساعة العاشرة والنصف ، وهو الموعد الذى اتفق

على خروج المستر بكوك فيه لتنفيذ مهمته الدقيقة ، وعرض عليه سام أن يرتدى معطفه الكبير ، ولكنه لم يستجب لالحاحه ، حتى لا يعوقه عائق عن تسلق الجدار ، وخرج يتبعه خادمه ٠

وكانت الليلة قمراء ، ولكن ضياء القمر كان محتجبا خلف السحب ، والليل صاف بديع ، ولكن الظلام كان شديدا على غير المألوف ، وقد غمرت الحلكة الدروب ، والسياج ، والحقول ، والدور ، ولفتها جميعا فى ظلل من فوقها ظلل ، وكان الجو حارا يرهق الأنفاس ، وبرق الصيف يرعش خافتا على حافة الأفق ، وكان هو المشهد الوحيد الذى يتباين والوجوم البليد الذى يغمر كل شىء فيه ٠ ولم يكن ثمة صوت ، ولا جرس ، الا صدى عواء كلب مستيقظ مسهد فى حراسة بيت بعيد ٠

واهتديا الى المبنى المنشود ، وقرأ اللوح النحاسى ، وسارا حول الجدار ، ووقفا عند ذلك الجزء منه الذى يفصل بينهما وبين الحديقة من الخلف ٠

وقال المستر بكوك : « أما أنت فتعود يا سام الى الفندق بعد أن تعاوننى على التسلق »

ـ « أمرك ياسيدى »

ـ « وتظل ساهرا حتى أعود »

ـ « بكل تأكيد ياسيدى »

ـ « خذ برجلى ، وحين تسمعنى أقول « فوق » فارفعنى برفق »

ـ « سأفعل ياسيدى »

ولما انتهى المستر بكوك من هذه المقدمات أمسك بقمة

الجدار ، وأعطى الأمر « فوق » فنفذه سام بالحرف ، وسواء كان جسم المستر بكوك قد شارك الى حد ما عقله فى مرونته ، أو كانت فكرة المستر ولر عن « الدفـــع برفق » لم تخــل نوعا ما من الخشونة ، وتختلف قليلا مع الوصف الذى وصفه به المستر بكوك ، فان التأثير المباشر للمساعدة التى قدمها هو « تطويح » ذلك الرجل الخالد من فوق الجـــدار بجملته الى الأرض المنبسطة وراءه ، حيث حطم فى نزلته السريعة ثلاث شجيرات من التوت وشجرة ورد ، وهو يسقط بطوله كله فوق الثرى آخر الأمر .

وقال سام فى همس ظاهر ، بعد أن أفاق من الدهشة التى تولته على أثر اختفاء سيده عن ناظره : « أرجو ياسيدى ألا تكون قد أصبت نفسك بأذى »

وأجاب المستر بكوك من الجانب الآخر للجدار : « لم أصب نفسى بأذى يا سام طبعـــا ، ولكنى أعتقـــد أنك أنت الذى فعلتها »

وقال سام : « أملى أن لا أكون ياسيدى »

ونهض المستر بكوك من « الوقعة » وقال : « لا عليك لم يحدث غير بضعة خدوش . هيا انصرف والا سمعوا أصواتنا»

ـ « الى اللقاء ياسيدى »

ـ « الى اللقاء »

وانصرف سام ولر مسترق الخطى تاركا المستر بكوك وحده فى الحديقة .

وكانت الأنوار تبدو بين لحظة وأخـــرى من نوافذ البيت

وشرفاته ، اذ تنبعث من مدارج السلم ، كأنما أوى القوم الى المضاجع ، ولم يشأ المستر بكوك أن يقترب كثيرا من الباب ، قبل أن يحين الموعد المضروب ، فانزوى متسللا فى ركن من الجدار وانتظر اللحظة المعينة ٠

وكان من المحتمل أن يحدث موقف كهذا انقباضا فى نفوس كثير من الناس ، ولكن المستر بكوك لم يكن مع ذلك يشعر بأى انقباض أو « تطير » ، فقد كان يعلم أن غرضه فى الجملة طيب ، وقد وضع كل ثقته فى جوب الطيب الشعور ، وليس من شك فى أن الموقف كان ثقيلا ، ان لم نقل « رهيبا » ، ولكن فى امكان الرجل المفكر أن يتدبر الأمور فى كل حين ، فلا عجب اذا أسلمه التفكير الى سرحة عابرة ، لم يلبث نواقيس الكنيسة وهى تدق الحادية عشرة والنصف أن أيقظته منها ، فاستوى على قدميه بحذر وهو يقول فى نفسه « هذا هو الموعد » ، ورفع عينيه يتطلع الى البيت ، فاذا الأنوار قد انطفأت ، وخشب النوافذ قد أغلق ، فأدرك أن القوم بلا شك قد أووا الى مراقدهم ، فمشى على أطراف قدميه الى الباب فدقه دقة خفيفة ، ومرت دقيقتان أو ثلاث دقائق ولم يتلق جوابا ، فعاد يطرقه طرقة أوضح من تلك قليلا ، ثم دقة ثالثة أكثر منها وضوحا ٠

وأخيرا سمع مواقع أقدام على السلم ، واذا ضياء شمعة ينبعث من ثقب مفتاح الباب ، وطرق أذنه صوت سلاسل تفك ، ومزلاج يرفع ، واذا الباب يفتح ببطء ٠

وكان فتح الباب الى الخارج ، وكلما اتسعت فتحته ازداد المستر بكوك تراجعا خلفه وانزواء ٠ ولشد ما كانت دهشته حين أطل بعينه على سبيل الحذر والاحتياط فتبين أن

الشخص الذى فتحه لم يكن جوب تروتر بل خادمة تحمل فى يدها شمعة ، فأرجع المستر بكوك رأســـه الى الوراء ، بتلك السرعة البالغة التى عرفت عن ذلك الممثل البـــارع البديع « بنتش » ، حين يقف مترصدا لذلك الممثـــل الهزلى المفرطح الرأس الذى يحمل صندوقا من القصدير يحوى آلة موسيقية ·

وقالت الفتاة ، تخاطب أخرى من داخل البيت : « لابد من أن تكون القطة يا سارة »

ولما لم تجد حيوانا مثلها يعبث بالبـــاب ، عادت فى زفق تغلقه وتعيد مزلاجه الى موضـــعه تاركة المستر بكوك لاصقا بالجدار ·

وراح المستر بكوك يقول فى نفسه : « هـــذا شىء غريب جدا · أحسبهن ساهرات الى ما بعد الوقت المألوف · يا للخيبة المتناهية ! أن يخترن هــذه الليلة دون ســواها ، وهى التى جئت فيها لتحقيق ذلك الهدف · حظ سىء كل السوء »

وعاد بكل حذر الى الركن الذى كان من قبل مختبئا فيه ، منتظرا ريثما يتبين أن لا خوف من تكرار الاشارة ·

ولم تنقض خمس دقائق عليه فى ذلك الموضع ، حتى رأى برقا خاطفا يلتمع فجأة فى الفضاء ، ثم يعقبـــه قصف رعـد شديد تتردد أصديته بعيدا ، ويحدث تردادها صوتا مروعا ، واذا برق آخر ينبعث أبهر ضـــياء من الأول ، ثم يتلوه رعد أشد قصفا من سابقه ، واذا المطر ينهمر بقوة مكتســـحة كل شىء أمامها ·

وكان المستر بكوك يعلم حق العلم أن من الخطر الاحتماء عن

الصواعق بجوار شجرة ، وكانت عن يمينه واحـــدة ، وعن شماله أخرى ، وثالثة قائمة قبالته ، ورابعة من خلفـه ، فاذا هو لبث فى مكانه ، فقد يقع ضحية حادث ، ولو بدا فى بهرة الحديقة ، فقد يسلمونه الى الشرطى ، فراح يحـاول مرة أو مرتين تسلق الجدار ، ولكنه لم يجد فى هذه المرة من سيقان ترفعه الى أعلى غير الساقين اللتين أنعمت الطبيعة بهما عليه ، ولا نتيجة لهذه المحاولة غير اصابته بسحجات أليمة فى ركبتيه وخدوش منوعة فى قصبتيهما ، واجهاد قواه الى حد جعـــل العرق يتصبب غزيرا من جميع أطراف بدنه ٠

وقال المستر بكوك لنفسه وقد وقف ليمسح عرقه بعد ذلك المجهـود « يا له من موقف مروع ! » وتطلع ببصره الى البيت فوجد الظلام يغمره من جميع أرجائه فاعتقد أن القوم لابد أن يكونوا قد عادوا الى مضاجعهم ، فليجرب الاشارة مرة أخرى

ومضى على أطراف أصابع قدميه فوق الحصباء الندية وطرق الباب ٠ وأمسك بأنفاسه وأنصت الى ثقب المفتاح ولـكنه لم يسمع جوابا ٠ هـذا أمر غريب كل الغرابة ٠ ودق أخـرى ، ومضت ثانية ، فبلغ سمعه همس خافت من الداخـــل ، ثم صوت يصيح « من هذا ؟ »

وقال المستر بكوك فى نفسه : « ليس هذا صوت جوب » ٠ وتراجع فى الحال الى الجدار ، « هذا صوت امرأة ! »

ولم يكد يصل بتفكيره الى هذه النتيجة حتى انفتحت نافذة فوق السلم ورددت ثلاث أو أربع نسوة السؤال عينه : « من هذا ؟ »

ولم يجرؤ المستر بكوك على تحريك يد أو قدم ، فقد تبين له أن القوم جميعـــا قد هبوا من نومهم ، فاعتزم البقـاء فى موضعه حتى يهدأ ذلك الفزع ، ثم يحاول بجهد يفوق الطبيعة

تسلق الجدار أو يهلك دونه »

وكانت هذه العزيمة ككل عزمات المستر بكوك خير وسيلة تتخذ فى هذا الموطن ، ولـكنها كانت لسـوء الحظ مبنية على افتراض أن القـوم لن يجرؤوا على فتح البـاب مرة أخرى ، ولشد ما كانت حيرته حين سمع أصوات السـلاسل والمزالج وهى ترفع ، وشـهد الباب ينفتح شيئا فشيئا ، فتراجع الى الركن خطوة فخطوة ولكن جسـمه ، على كل حال ، حال بين فتح الباب على سعته ·

وتعالت أصوات عدة من السلم تقول : « من هناك ؟ »

وكانت هذه الأصوات تتألف من أصوات السيدة العانس ربة البيت ، وثلاث معلمات ، وخمس خادمات ، وثلاثين طالبة ، وكلهن أنصاف عاريات ، وفى غابة من الجدائل الملففةالمعقوصة فى قلانس من الورق ·

وبالطبع لم يقل المستر بكوك من هو الذى كان هناك ، واذا نغمة الصيحات تتحول الى نغمة جـديدة · وهى : « رباه ·· اننى خائفة ! »

وصاحت الراهبـة المديرة ، وقـد توخت الوقوف فى أعلى السلم ، أو فى المؤخرة ، « أيتهـا الطاهية ! لمـاذا لا تدخلين الحديقة قليلا لكى تبحثى »

وأجابت الطاهية : « من فضلك ياسيدتى · لا أحب ذلك ! »

وصاحت الطالبات الثلاثون قائلات : « يا الهى ما أغبى هذه الطاهية ! »

وعادت الراهبة تقول بجد وجلال : « يا طاهية · لا تردى على من فضلك ، انى أصر على دخولك الحـديقة فى الحـال لتبحثى عمن فيها »

وهنا بدأت الطاهية تبكى ـ وقالت خادم البيت : « ان هذا

لعار شديد تستحق عليه انذار شهر فى الحال »

وقالت السيدة الراهبة وهى تضرب الأرض بقدميها نافدة الصبر : « هل سمعت يا طاهية ؟ »

وقالت المعلمات الثلاث : « ألا تسمعين كلام سيدتك أيتها الطاهية ؟ »

وصاحت الطالبات : « ما أوقح هذه الطاهية ! »

وعندئذ لم يسع الطاهية المسكينة بعد كل هذا الالحاح الشديد عليها الا أن تتقدم خطوة أو خطوتين وترفع شمعتها الى وضع يحول بينها وبين رؤية شيء مطلقا وقالت انها لم تجد أحدا هناك ، وانه لابد أن يكون ذلك الصوت الذى سمعته هبة الريح ، وكاد الباب يغلق مرة أخرى ، لولا أن طالبة فضولية كانت واقفة تنظر من خلال « مفصلات » الباب ، أطلقت عندئذ صرخة مخيفة ، عادت على أثرها الطاهية ، والخادمة والطالبات الجريئات أكثر من أترابهن مبادرات الى الموضع .

وصاحت السيدة الراهبة فى اللحظة التى بدأت فيها الطالبة الصارخة تنطلق فى نوبة تشنجية قوة أربع بنات : « ما الذى جرى لمسز سميذرز ؟ »

وصاحت الطالبات التسع والعشرون فى نفس واحد : « رباه مسز سميذرز ! يا ويلتاه ! »

وصرخت مس سيمذرز قائلة : « الرجل ، الرجل الواقف خلف الباب ! »

ولم تكد السيدة الراهبة تسمع هذه الصرخة المروعة حتى ارتدت عائدة الى مخدعها وأحكمت اغلاق الباب ، وأغمى فى هدوء عليها ، كما تراجعت الطالبات والمعلمات والخادمات

متدافعات الى السلم ، متساقطات ، وأخذن فى صياح واغماء وتدافع لا مثيل له · وفى وسط هـذه الضجة خرج المستر بكوك من مخبئه ووقف بينهن ، وهو يقول : « أيتها السيدات ·· أيتها السيدات العزيزات ! »

وقالت احدى المعلمات ، وهى أكبرهن سنا وأكثرهن دمامة وقبحا : « انه يدعوننا بالعزيزات · آه ، من الشقى ! »

وصاح المستر بكوك مستيئسا من حرج موقفه : « أيتها السيدات ، أصغين لقولى ، أنا لست لصا ، ولكنى أريد أن أتحدث الى ربة البيت »

وصرخت معلمة أخرى قائلة : « أواه · ياله من وحش مفترس ، يقول انه يريد الكلام مع مس تومكنز ! »

وهنا ارتفع صياح عام ·

وصاحت عدة أصوات : « ليدق أحد جرس الخطر ! »

وصرخ المستر بكوك قائلا : « لا تفعلن ! لا تفعلن ، أنظرن الى ، هل أبدو كما يبدو اللص ؟ يا سيداتى العزيزات · لكن فى وسعكن أن تشددن وثاقى أو تحبسننى فى مكان ضيق ، وانما اسمعن لما أريد أن أقوله · اصغين لى »

وقالت الخادمة متلعثمة : « كيف جئت الى حديقتنا ؟ »

وأجاب المستر بكوك وهو يجهد رئتيه الى نهاية قواهما : « ادعين لى ربة البيت وأنا سأحدثها عن كل شىء ، كل شىء ، نادينها ، ولكن لا تصرخن ، وستسمعن الحكاية كلها »

وعندئذ بدأ فريق من العاقلات فيهن لا يتجاوز عددهن أربعا

يثبن نوعا ما الى الهدوء ، وقد يكون مرد ذلك الى مظهر المستر بكوك نفسه ، أو الى سلوكه الذى وصفناه ، أو الى اللهفة التى لا يستطيع عقل المرأة مغالبتها ، ونعنى بها الرغبة الشديدة فى سماع شىء يبدو فى تلك اللحظة سرا مرهوبا ، ومضين يقترحن عليه ، للتدليل على صدقه واخلاصه ، أن يذعن لما يطلبن اليه • ورضى ذلك السيد أن يعقد مؤتمرا مع مس تومكنز فى داخل غرفة صغيرة اعتادت طالبات القسم النهارى أن يعلقن فيها قبعاتهن وحقائب غدائهن ، فتقدم فى الحال الى تلك الغرفة طائعا مختارا ، وأغلق الباب عليه لتطمئن قلوبهن، وما لبث هذا التصرف أن أنزل السكينة على أفئدة الأخريات ، وجىء بالسيدة الراهبة ، من مخدعها ، وابتدأ المؤتمر !

وقالت مس تومكنز بصوت خافت : « ماذا كنت تفعل فى الحديقة أيها الرجل ؟ »

وأجاب المستر بكوك من جوف محبسه : « جئت لأنبهك ياسيدتى بأن احدى البنات هنا ستختطف الليلة »

وصرخت مس تومكنز والمعلمات الثلاثون والخادمات الخمس معا : « ستختطف ! ومن هذا الذى سيختطفها ؟ »

قال : « صديقك المستر شارلز فتز ـ مارشال »

قالت : « صديقى ! لا أعرف شخصا بهذا الاسم »

قال : « اذن فلأدعه باسمه الآخر ، المستر جنجل »

قالت : « لم أسمع بهذا الاسم فى حياتى »

قال : « اذن لقد غرر بى ، وخدعت وكنت ضحية مؤامرة ، دنيئة حقيرة • أرسلى أحدا الى فندق « انجل » يا سيدتى

اذا لم تكونى مصدقتى · ارسلى الى ذلك الفندق من يدعو خادم المستر بكوك · أتوسل اليك أن تفعلى ياسنيدتى »

وقالت مس تومكنز للمربية الكاتبة الحاسبة : « لابد أن يكون رجلا محترما ما دام له خادم خاص »

وأجابت المربية قائلة : « ان رأيى يا مس تومكنز هو أن خادمه هو الذى يحرسه وأظن أنه مجنون يا مس تومكنز والآخر حارسه ! »

وأجابت مس تومكنز : « أحسبك على حق ياجوين ،فلتذهب خادمتان الى فندق « انجل » ولتبق الأخريات هنا لحمايتنا »

وأوفدت خادمتان على عجل الى الفندق للبحث عن صمويل ولر ، وتخلفت الخادمات الثلاث لحماية تومكنز والمعلمات الثلاث والطالبات الثلاثين ، بينما جلس المستر بكوك فى الغرفة تحت حقائب الشطائر ينتظر عودة الرسولين بكل ما استطاع أن يستجمع من الفسلفة والصبر والجلد لنجدته ·

وعادتا بعد ساعة ونصف ساعة ، وتبين بكوك عندئذ أن هناك الى جانب صوت صمويل ولر صوتين آخرين ، أحدهما مألوف لسمعه ، ولكنه لا يدرى لمن هو ، ولا يذكر مطلقا صاحبه ·

وجرى حديث موجز ، وفتح الباب ، وخرج بكوك من المحبس فوجد نفسه فى حضرة أهل البيت جميعا ، وصمويل ولر ، والسيد الكبير واردل ، وخطيب ابنته العتيد تراندل ·

وجرى المستر بكوك نحو واردل فتناول يده مصافحا وهو يقول : « أهلا يا صديقى العزيز · بحق السماء اشرح لهذه

السيدة الموقف السيء الحرج الذى أنا فيه · فلابد أنك قد سمعت به من خادمى · قل على كل حال يا عزيزى اننى لست لصا ولا أنا بمجنون ! »

وأجاب المستر واردل وهو يهز يد صديقه اليمني بينما راح المستر تراندل يهز اليسرى : « لقد قلت ذلك يا صديقى العزيز · قلته قبل الآن ! »

وتدخل المستر ولر وهو يتقدم خطوة قائلا : « ومن يقول هذا أو قاله ، فانما يقول كذبا ، ولا ينطق حقا ، بل أبعد ما يكون من الحق ·· بل العكس تماما ·· وان كان فى هذا البناء رجال قالوا ذلك ، مهما يكن عددهم ، فانى ليسرنى أن أقدم اليهم دليلا مقنعا كل الاقناع بأنهم مخطئون ، هنا فى هذه الغرفة ذاتها ، اذا تكرمت السيدات المحترمات فانصرفن منها، وأمرن أولئك الرجال أن يأتوا الى واحدا بعد الآخر »

وبعد أن فرغ المستر ولر من القاء هذا التحدى بذلاقة بالغة، راح يضرب كفه المبسوطة بقبضة يده الأخرى مؤكدا بهذه الحركة قوله ، ويغمز بعينه مسرورا مداعبا المس تومكنز التى لا يستطيع أحد وصف مدى رعبها ، لظنه أنه من المحتمل أن يكون ثمة رجال فى مدرستها المقصورة على البنات دون سواهن ·

وانتهى المستر بكوك سريعا من شرح الحادث الى حد ما ، ولكنه فى عودته الى الفندق مع أصحابه وجلوسه الى نار مشبوبة وعشاء هو أحوج ما يكون اليه ، لم يقل شيئا · ولم تستطع ملاحظة واحدة من جانب أصحابه استخلاص قول منه، فقد بدا مذهولا سابح الخاطر شاردا ، وان التفت مرة أو مرتين الى المستر واردل فقال : « كيف أتيت الى هنا ؟ »

وأجاب واردل بقوله : « لقد أتينا أنا وتراندل الى هنا طلبا للقنص ، ووصلنا الليلة ودهشنا عندما علمنا من خادمك أنك هنا أيضا » وراح الشيخ يربت على ظهره وهو يقول : « وانى لمغتبط بلقائك ، وسنستمتع برحلة بهيجة الى الصيد فى أول الموسم « سبتمبر » ونهيىء لونكل فرصة أخرى · فما رأيك يا صاح ؟ »

فلم يحر المستر بكوك جوابا · بل لم يسأل عن أصدقائه فى « دنجلى ديل » ، ولم يلبث أن أوى الى غرفته ، وأمر سام بأن يحضر الشموع اذا هو دق الجرس له ·

ودق الجرس فى الوقت المناسب ، ومثل المستر ولر فى حضرة سيده ·

وتطلع المستر بكوك اليه من تحت الأغطية قائلا : « ياسام»

قال : « نعم ياسيدى »

وسكت المستر بكوك لحظة وأوقد المستر ولر الشمعة ·

وعاد المستر بكوك ينادى قائلا : « يا سام » ، كأنما يبذل مجهودا بالغا ·

وأجاب المستر ولر مرة أخرى : « نعم ياسيدى »

ـ « أين هذا الرجل الذى يدعى تروتر ؟ »

ـ « أتعنى جوب ياسيدى ؟ »

ـ « نعم »

ـ « ذهب يا سيدى »

ـ « أظن مع سيده ؟ »

ـ « مع صاحبه أو سيده أو كائنا من يكون ، لقد ذهب معه، لعنة الله عليهما معا ياسيدى »

وقال المستر بكوك وهو يكاد يختنق : « لقد فطن جنجـل الى خطتى فدس عليك ذلك المخلوق واخترع لك تلك القصة . هذا هو رأيى »

وأجاب المستر ولر : « هو ذلك تماما ياسيدى »

ـ « وكان كل ذلك كذبا وبهتانا »

ـ « كله ياسيدى ! حيلة مسبوكة ياسيدى ، لهروب فنى محبوك »

وقال المستر بكوك : « لا أظنه سيهرب منا بهذه السهولة فى المرة القادمة ياسام »

ـ « لا أظنه ياسيدى »

ونهض المستر بكوك متحاملا فى فراشه وضرب وسـادته بقبضة يده ، قائلا : « اذا قدر لى يوما أن ألتقى بهذا الرجل ، فى أى مكان ، فسأوقع عليه عقابا بدنيا الى جانب الفضيحـة التى يستأهلها الى حـد بعيد ، سأفعلن ، والا لمـا كنت أدعى بكوك ! »

وقال ســام : « واذا أنا أمسكت بذلك المخلوق المـكتئب الحزين الأسود الشعـر ، فلن أدعى ولر ان لم أجلب دموعا حقيقة الى عينيه ، ولو مرة فى العمر ، طاب ليلك ياسيدى »

الفصل السابع عشر

يبين كيف تكون الاصابة « بالنقرس » فى بعض الأحيان حافزا لعبقرية الابتكار والابتداع

لم تكن بنية المستر بكوك ، رغم مقدرتها على احتمال قدر كبير من الجهد والاعياء ، منيعة ضد تلك الهجمات المجتمعة التى قاساها فى تلك الليلة المشهودة التى وصفناها فى الفصل الماضى ، فقد كان البلل الذى أصابه من تلك الليلة العاصفة المطيرة ، والاحتجاز فى غرفة ضيقة ، خطرين كما هما فريدان فى ذاتهما ، فلا عجب اذا هو اعتكف فى فراشه من وطأة النقرس .

ولكن اذا كانت القوى البدنية التى أوتيها ذلك الرجل العظيم قد تعرضت للتلف على هذا النحو ، فقد ظلت قواه الذهنية محتفظة بشدة بأسها ، ومرتها الطبيعية ، اذ كانت المرونة غالبة على قواه المعنوية ، فلم يلبث أن استرد روحه الفكهة ، حتى لقد توارى من خاطره ذلك الغيظ الذى أحسه عقب تلك المخاطرة الأخيرة التى أقدم عليها ، فاستطاع أن يشارك فى الضحك الصادق المنبعث من القلب ، لكل تلميح أو اشارة تثيره فى نفس صاحبه المستر واردل ، دون غضب أو ارتباك ، بل أكثر من هذا ، ان سام ظل ملازما خدمته طيلة

اليومين اللذين اعتكفهما في فراشه فحاول في اليوم الأول الترويح عن سيده بالنوادر والأحاديث ، ولكن المستر بكوك طلب في اليوم الثاني مسندا وقلما ودواة ، ولبث طيلة اليوم منهمكا في الكتابة ، وفي اليوم الثالث استطاع الجلوس في غرفته ، وأوفد خادمه برسالة الى المستر واردل والمستر تراندل يقول فيها انه ليسره السرور كله اذا تفضلا بتناول شرابهما ، في حجرته في ذلك المساء ، وجاء الرد بقبول الدعوة مع أجزل الشكر ، وما أن جلسا الى النبيذ واطمأن بهما المجلس حتى أخرج المستر بكوك ، على استحياء ، القصة الصغيرة التالية ، قائلا انه هو الذى أشرف على صياغتها وتحريرها بنفسه من واقع الملاحظات التي دونها لما سمعه من رواية المستر ولر بفطرته الساذجة وسليقته البريئة ٠

قس الأبرشية
قصة حب صادق

كان في سالف الدهر ، وفي بلدة صغيرة بسواد الريف ، تبعد كثيرا من لندن ، رجل قصير القامة يدعى « نثنايل بيبكن » يشتغل في أبرشية البلدة ، ويقيم في بيت صغير في شارعها المتواضع الذى لم يكن يبعد عن الكنيسة أكثر من مسيرة عشرة دقائق ٠ وكان أكثر نهاره من التاسعة الى الرابعة يقوم بتعليم الأطفال الصغار شيئا من العلم ، وكان نثنايل بيبكن هذا مخلوقا وديعا لا أذاة منه ، ولا عدوان على أحد من جانبه ، طلب القلب ، سليم الطوية ، له أنف مرتفع الى أعلى . وساقان ملتويتان الى الداخل ، وفي عينه حول ، وفي مشيته عرج ، وقد مضى يقسم وقته بين الكنيسة والمدرسة معتقدا عن يقين أن ليس على وجه الأرض رجل في مثل براعة راعى

الأبرشية وذكائه ، ولا مكان أروع من قاعة الصلاة فيها ، ولا مدرسة في مثل نظام مدرسته وحسن تنسيقها ، ولم يكن « نثنايل بيبكن » بل كان الحدث الأوحد الذى أزعج تيار فقط ، أسقفا حقيقيا في أردان خضر ، وشعر مستعار ، فقد شبهده وهو يمشي ، وسمعه وهو يتحدث في تثبيت العماد حتى لقد استولى على نثنايل بيبكن فى تلك المناسبة الجليلة ، من فرط الرهبة والروع ، حين ألقى الأسقف يده فوق رأسه ، ما جعله يغمى فى الحال عليه ، فيحمله الشماس بين ذراعيه ويخرج به من الكنيسة ·

لقد كان ذلك حدثا عظيما ، وعهدا مشهودا ، فى حياة « نثنايل بيبكن » بل كان الحدث الأوحد الذى أزعج تيار حياته الهادئة حتى حدث فى ذات أصيل رائق ان حانت منه وهو شارد الخاطر ، نظرة ، بينما كان مكبا على لوح «الاردواز» ليفكر فى مسألة حسابية يعطيها لصبى عقابا له على خطأ ارتكبه ، واذا تلك النظرة تستقر فجأة على محيى فتاة صبيحة تدعى « مرايا لوبز » وهى الابنة الوحيدة للشيخ لوبز صانع السروج الكبير الذى تقع داره فى الناحية المقابلة ، وكانت عينا المستر بيبكن كثيرا ما استقرتا من قبل ، فى الكنيسة وغيرها على وجه مرايا المليح ، ولكن عينى مرايا لوبز لم تبدوا قبل هذه المرة فى مثل بهائهما وبريقهما ، ولا لاح خداها يوما فى مثل تلك الحمرة التى بدت بهما فى تلك المرة بالذات · فلا عجب اذا لم يستطع نثنايل بيبكن أن يرد عينيه عنهما ، ولا غرو اذا هى تراجعت عن النافذة التى كانت تطل منها ، حين رأت شابا يطيل النظر اليها ، وأغلقتها وأسدلت الستار ، ولا غرابة أيضا اذا راح نثنايل بيبكن بعد ذلك مباشرة ينقض على ذلك الصبى الصغير المخطىء فيوسعه ضربا ويمرغه تمريغا ،

شفاء لغليله ، ولم يكن فى ذلك كله من عجب ، فقد كان شيئا طبيعيا جدا لا غرابة فيه ٠

ولـــكن العجب مع ذلك أن امرءا فى مثل طبيعـة المستر نثنايل بيبكن وانزوائه وعصبية مزاجه وقلة موارده خاصة ، بدأ من ذلك اليـوم يجرؤ على التطلع الى خطبـة يد تلك الابنة الوحيدة التى رزق بها الشيخ لوبز الحاد الطباع ، والطمع فى كسب قلبها ، وهى ابنة ذلك « السروجى » العظيم ، الذى كان فى وسعه أن يشترى القرية كلها بجرة قلمه دون أن يشـعر بأنه أنفق شيئا ، ذلك لاشيخ « لوبز » الذى عرف عنـه أنه يملك أموالا طائلة مودعة فى المصرف القـائم فى « البنـدر » المجاور ٠٠ وذلك الشيخ الذى قيل انه يختزن كنوزا لا تعـد ولا تنفد ، فى تلك الخزانة الصغيرة ذات المفتاح الضخم القائمة فوق « الطنف » فى الحجرة الخلفيـة من البيت ، ذلك الشيخ الذى تسامع الناس عن مآدبه وولائمه ، وكيف كانت موائده تزدان بآنية شـاى من الفضة الخالصة ، وابريق للقشـدة ، ووعاء للســكر ، وكيف كان من عادته أن يفخر فى زهـوه وكبريائه بأن تلك « الفضيات » ستكون ملكا لابنته حين تجد الرجل الذى تختاره لفؤادها ٠ بل انى لأكرر انه من العجب العجاب حقا ، أن يجسر امرؤ مثل نثنايل بيبكن على مد عينيه الى هـذه الناحية ، ولكن الحب ، أعمى وفى عين نثنايل كمـا علمت « حول » ، ولعل هـذين العاملين مجتمعين همـا اللذان « حالا » بينه وبين النظر الى المسألة فى ضوئها الصحيح ٠

ولو كان الشيخ لوبز قد خامرته أقل فكرة عن الحب الذى دب فى قلب نثنايل بيبكن لعمـد الى المدرســة فدكها دكا ، وسواها بالتراب ، أو لمحا معلمها من وجه الأرض ، أو اقترف

أمرا آخر لا يقل فى نكره وبشاعته ، وعنفه وقوته ، عما وصفناه · فقد كان شيخا مرهوبا جبارا ، اذا مس امرؤ كبرياءه ، أو أثار غضبه ، وانه ليست الأخضرين ·· حتى لتخرج ألفاظ السباب واللعنات والأيمان متدفقة منه ، مدوية قاصفة كالرعد فى طريقها حين يندد ببلادة صبيه المعروق ذى الساقين النحيلتين ، حتى ليزحف نشنايل بيبكن ويسقط قلبه فى حذائه من الرعب ، ويقف شعر رؤوس الأطفال الصغار فى المدرسة من الفزع ·

ومرت الأيام ·· فكان نشنايل بيبكن بعد انتهاء الدروس ، وانصراف التلاميذ ، يجلس قبالة النافذة الأمامية ، متظاهرا بأنه يقرأ فى كتاب ، وهو فى الواقع يلقى نظرات جانبية على عدوة الطريق باحثا بعينيه عن عينى مرايا لوبز البراقتين ،ولم تنقض عدة أيام عليه وهو ملازم مجلسه هذا ، حتى ظهرت هاتان العينان البراقتان فى احدى النوافذ العليا ،وصاحبتهما تبدو منهمكة فى القراءة أيضا ، فكان ذلك باعث ابتهاجة وفرحة بالغة لقلبه ، وكان حسب فؤاده أن يجلس على هذه الحال ساعات طوالا ، وينظر الى ذلك الوجه المليح ، وان ظلت عيناها رانيتين الى الكتاب لا ترتفعان عنه ، ولكن بدأت مرايا لوبز ترفعانهما عنه ، وترسلان أشعتهما صوبه ، فلم يلبث فرحه واعجابه أن تجاوزا كل حد · وفى ذات يوم ، حين عرف أن الشيخ لوبز لم يكن فى البيت ، تجرأ نشنايل بيبكن على تقبيل يده « لمرايا » ، ولكنها فى هذه المرة ، لم تغلق النافذة ولم تسدل الستر ، بل راحت تقبل « يدها » له وهى تبتسم ·· فما أن رأى ذلك حتى صح منه العزم على أن يساير عاطفته بلا ابطاء ، مهما تكن العاقبة ·

ولعمرى ما وطئت وجه الأرض قدم أجمل ، ولا حوت الدنيا

فؤادا أكثر مرحا ، ولا محيا أوفر أحوالا وطوابع حسن ، ولا قواما أهيف وأبدع ، من قدم مرايا وفؤادها وطلعتها وقوامها .. لقد كان في عينيها المتلألئتين رنوة ماكرة لكي تشق طريقها الى صدور أقل حساسية من صدره ، وفي ضحكتها المرحة وسوسة فرحة لا يسع أشد الناس سخطا على الحياة ، وتبرما بالدنيا ، الا أن يبتسم لسماعها ، بل ان الشيخ لوبز نفسه ، وهو في قمة وحشيته ، وذروة حنقه ، لا يستطيع أن يقاوم ملاعبة ابنته المليحة الحسناء ، وكلما مضت هي وابنة عم لها ، تدعى « كيت » ، وهي فتاة ذكية جريئة فاتنة صغيرة البدن ، تسألان الشيخ حاجة ، وكثيرا ما تسألانه ، لم يكن يستطيع أن يرفض لهما سؤالا ، حتى ولو طلبتا اليه أن ينزل لهما عن جزء من كنوزه التي لا تعد ، ولا تنفد ، والتي حجبها عن نور الشمس ، في تلك الخزانة الحديدية .

وجعل قلب نثنايل بيبكن يخفق في جوانحه حين شهد هاتين الساحرتين الصغيرتين على قيد بضع مئات من الياردات منه ، في ذات مساء صائف في ذلك الحقل ذاته الذى طالما يجول في أرجائه الى أوان الليل وتمثل جمال « مرايا لوبز » في خاطره ، وفكر في حسنها الفتان . ولكم فكر من قبل في التقدم بجرأة اليها ومكاشفتها نجوى حبه ، اذا تواتى له يوما لقاؤها . ولكنه شعر حين وجدها في ذلك الحقل فجأة ماثلة حياله ، تصاعد الدم كله في شرايينه الى وجهه ، من فرط الخجل والارتباك ، فتخاذلت ساقاه ، لحرمانهما من نصيبهما من دمه ، ورجفتا من تحته . ولما وقفتا تقطفان شيئا من الزهر ، أو تستمعان الى شدو طائر ، وقف هو كذلك ، وتظاهر بأنه مشغول بالتفكير ، وان كان ذلك هو الواقع ، لانه كان فعلا يفكر فيما ينبغي ان يفعله ، اذا هما تولتا بظهريهما وتلاقتا به

وجها لوجه ، وهو ما ستفعلانه حتما بعد لحظة ، ولئن خشي ان يتقدم هو نحوهما ، فلم يكن ليحتمل احتجابهما عن ناظره . وحرمان عينه من رؤيتهما ، فلا عجب اذا أسرع في مشيته حين رآهما تسرعان ، وتباطأ كلما تباطأتا ، ووقف كلما وقفتا ، وكان من المحتمل أن تظلا منطلقتين على هذا النحو ، حتى تحول عتمة الليل دونهما ، لو لم تلق « كيت » بكر نظرة الى الخلف ، وتشير اشارة مشجعة اليه أن يتقدم ، وكان في اشارتها شيء لم يستطع مغالبته ، فاستجاب للدعوة ، وبعد خجل شديد منه وضحك كثير من تلك الصغيرة الماكرة ، راح نثنايل بيبكن يجثو فوق الحشائش الندية ، وأعلن أنه لن ينهض من جثوته تلك الى الأبد ، الا اذا أذنت له مرايا لوبز بالنهوض حبيبا مقبولا منها ، وعندئذ دوت ضحكات مرايا في أرجاء الفضاء ، مبددة سكينة المساء ، وان لم تكدر صفاءه ، أو تزعج هدأته ، لفرط حلاوتها ، وشدة عذوبتها ، وانطلقت الصغيرة الماكرة تضحك أكثر من قبل ، فازداد نثنايل بيبكن حياء وخجلا ، وأخيرا ، وبعد الحاح شديد من هذا الرجل الصغير الذى أضواه الحب ، أشاحت مرايا بوجهها وهمست لابنة عمها ، ان تقول له ٠٠ وقد قالت كيت فعلا ، « على كل حال كما بدا لك ـ انها تشعر بشرف بالغ مما عرضه عليها ، وتحدث به اليها ، وان يدها وفؤادها تحت تصرف أبيها ، وان لم تخف على أحد مواهب المستر بيبكن ، ولا يستطيع انسان أن ينكرها عليه » ٠ وقد جرى هذا الكلام كله بجد ظاهر ، وانطلق نثنايل عائدا مع مرايا الى البيت ، وحاول جاهدا أن ينتزع من وجنتها قبلة قبل الوداع ، فلا عجب اذا هو أوى الى فراشه سعيدا قرير العين ، وراح يحلم طيلة الليل انه قد ذهب يترضى الشيخ لوبز وينشد موافقته ، ويفتح الخزانة ويبنى

بمرايا ، ويتم له الزفاف بها ٠

وفى اليوم التالى رأى نثنايل بيبكن الشيخ يخرج على مهره الأدهم ، وبعد عدة اشارات من الصغيرة الماكرة ، وهى واقفة فى النافذة ، وان لم يستطع مطلقا فهم الغرض منهـــا ، ولا ادراك معانيها ، جاءه الصبى المعروق ذو الســـاقين الناحلتين ليقول له ان سيده سوف لا يؤوب الى البيت فى تلك الليلة ، وان الســيدتين تنتظرانه لتناول الشـــاى معهما فى تمـــام السادسة ٠ ولا يدرى نثنايل بيبكن ، ولا تلاميذه الصـــغار يدرون ، أكثر ممـــا تدرى أنت ، كيف انقضت الدروس فى ذلك النهار ، سوى انها انقضت ، على أية صورة انقضت ، ولم يكد الصبيان ينصرفون ، حتى أنفق نثنايل بيبكن الوقت كله الى السادسة فى تجميل بزته ، وتزيين سمته ، الى أن رضى عن شكله ، وراقته صورته ، ولم يكن كل ذلك الوقت الطويل قد ذهب فى اختيار الثياب التى يحسن به أن يرتديها ، اذ لم يكن لديه منها ما يتعب فى اختياره ، أو يحار كثيرا فى اصطفائه ، ولكنه انقضى فى الارتداء ذاته ، وعملية اللبس نفسها ، وأحسن المظاهر المناسبة للاشتمال بها ، فقد كان ذلك كله مهمة شاقة، وعملا خطيرا ٠

وكانت الحفلة صغيرة تتألف من مرايا لوبز وابنة عمهـــا كيت ، وثلاث أو أربع بنـــات مرحات ، فكهـــات ، متوردات الخدود ، وشاهد نثنايل بيبكن بعينى رأســـه ما تحقق به أن ما يقال عن كنوز لوبز وأمواله المخبوءة لم يكن مبالغا فيه ،فقد رأى حقا اناء الشاى ، وابريق القشدة ، ووعاء السكر ، وكلها من الفضة الخالصة ، قوائم فوق المائدة ، ورأى كذلك الملاعق، والصحاف التى وضعت فيهـــا الفطائر والخبز المحمر ، من الفضة كذلك ٠ وكان الشىء الوحيـــد الذى يؤذى العـين ،

ويقتحمه البصر ، ابن عم آخـــر لمرايا ، وأخ « لكيت » كانت مرايا تدعوه « هنرى » ، فقد راح يستحوذ على مرايا كلهـــا لنفسه فى زكن من الخوان ، ومن الممتنع للعين ان نشهد المحبة بادية فى أفق العشيرة ، ولكنها قد تغلو حتى تتجاوز الحد ، ولم يسع نثنايل بيبكن الا أن يعتقـــد أن مرايا لابد أن تكون مولعة الى حد بعيد بأهلها وذوى قرباها ، اذ كانت تبدى من العناية بهم قدر ما هى مبديته نحو ابن عمها هذا • وحـدث أيضا بعد الفراغ من تناول الشاى ان اقترحت الصغيرة الماكرة على الجمع لعبة « الاستغماء » فكان نثنايل بيبكن ، وهو أبدا أعمى معصوب العينين ، كلما ألقى يده على ذلك الفتى الصغير، وجد مرايا فى كل مرة على مقربة منه ، وعلى الرغم من أن تلك الماكرة الصغيرة والبنـــات الأخريات جعلن يعركنه ويجذبن شعره ويضعن المقاعد فى طريقه ويفعلن به ما شاء العبث لهن، بدا له أن مرايا لم تكن تدنو منه أبدا • وكان فى وســعه أن يقسم فى احدى المرات انه سمع صوت قبلة ، ثم كلمة احتجاج من مرايا ، فضحكات مكبوتة من البنـــات • وكان ذلك كله عجيبا ، متناهيا فى العجب • ولا ندرى هل كان من الجائز ان يفعله نثنايل بيبكن فى هذا الموقف لو لم تتجه أفكاره فجـأة وجهة جديدة •

وكانت الظروف التى حملته على التفكير فى ذلك الاتجـــاه الجديد هى صوت شديد بالباب ، ولم يكن ذلكالطارق العنيف أحدا سوى الشيخ لوبز نفسه ، فقد عاد فجـأة وانطلق يدق الباب كما يدق « حامل الموتى » بالمطرقة نعش ميت ، لانه كان يريد عشاءه ، وما كاد صبى وصانع السروج المعروق الناحـل الساقين يحمل هـــذا النبأ المزعج ، حتى بادرت البنـات الى الصعود الى مخـدع « مرايا لوبز » ، وألقى ابن العم ونثنايل

بيبكن فى غرفتين حبيستين داخل قاعة الجلوس ، اذ لم يكن فى البيت كله مخبأ أصلح من ذلك لهما ، وما أن انتهت مرايا لوبز وابنة عمها الصغيرة الماكرة من اخفائهما على تلك الصورة، واصلاح ما اضطرب من أثاث الحجرة حتى فتحا الباب للشيخ، ولم يكن قد كف عن الطرق منذ بدأه .

وحدث لسوء الحظ ان الشيخ كان من الجوع فى غضب موحش ، فاستطاع نثنايل أن يسمع زمجرته كعواء كلب ضخم مبحوح الحنجرة ، وكلما دخل الحجرة ذلك الصبى المعروق التعس ذو الساقين الناحلتين ، هب فيه ذلك الشيخ سابا لاعنا وهو فى حنق شديد ، لا لسبب ظاهر أو غرض غير التنفيس عن صدره باطلاق بضع لعنات أخرى ، وأخيرا وضع العشاء ، بعد تسخينه ، فوق المائدة ، فأكب الشيخ عليه كدأبه وما لبث أن أتى عليه كله ، وقبل ابنته ،وطلب قصبته .

وكانت الطبيعة قد ركبت ركبتى نثنايل بيبكن تركيبا جعلهما متقاربتين متلاصقتين ولكنهما حين سمع الشيخ يطلب القصبة ، اصطكتا ، كأن كل ركبة منهما توشك ان تسحق الاخرى سحقا ، فقد رأى فى الغرفة ذاتها التى احتبس فيها ، قصبة سوداء الجذع فضية التجويف ، متدلية من خطافين ، وكانت هى القصبة التى كان يراها فى فم الشيخ كل أصيل ومساء خلال السنوات الخمس الماضية ، ونزلت الفتاتان الى الطبقة الأولى من البيت لاحضار القصبة ، ثم صعدتا الى الطبقة العليا ، ثم ذهبتا تبحثان عنها فى كل مكان ، الا المكان الذى تعرفان ان القصبة فيه ، بينما لبث الشيخ يعصف ويقصف أعجب العصف والقصف ، ولكنه تذكر أخيرا تلك الغرفة الصغيرة ، فمشى اليها ، ولم تكن ثمة جدوى من ان يحاول

رجل صغير الجثة كنثنايل بيبكن سد الباب من الداخل ، اذا كان الذى يشده من الخارج رجلا ضخما شديد البأس كالشيخ لوبز ، فلم يحتج الى أكثر من جذبة واحدة ، واذا الباب ينفتح دفعة واحـــدة ، واذا نثنايل بيبكن واقف فى الحجرة يرعش من الخوف ويرجف من رأسه الى أخمص قدميه · الرحمـــة يارب ! ما كان أبشع النظرة التى ألقاها الشيخ على المسكين ، وهو يجره من رقبته جرا ، ويوقفه على بعد الذراع منه ·

وانثنى يصيح به قائلا بصوت مخيف : « أى شـيطان جاء بك الى هنا ؟ »

ولم يستطع نثنايل بيبكن أن يجيب ، فجعل الشيخ يهزه الى أمام ، ويرده الى خلف ، دقيقتين أو ثلاثا كى يحمله عـــلى الكلام ، والاهتداء الى رأى أو حجة يعتذر بها ·

وزأر لوبز قائلا : « ماذا تريد هنا ؟ أحسبك جئت من أجل ابنتى ! »

وكان الشيخ قد قال هذه العبارة سخرية منه وازدراء به ، لأنه لم يكن يعتقد أن مثل نثنايل بيبكن يمكن أن تسـول له النفس الاقدام الى هذا الحد ·

ولشد ما كان حنقه حين راح ذلك المسكين يقول : « يامستر لوبز · لقد جئت فى طلب ابنتك ، اننى أحبها يامستر لوبز»

وهنا زفر الشيخ ، وكاد الفالج يقدح فى ساقيه من نكرهذا الاعتراف وصاح به قائلا : « ماذا تقول أيها الشقى ، الماخط الأنف ، المعوج الوجه ، الناقص النمو ؟ ماذا تعنى بهذا ؟ قل هذا فى وجهى لكى أخنقك خنقا »

وأكبر الظن أن الشيخ لوبز كان سيخرج ذلك الوعيـــد مخرج التنفيذ ، فى فورة غضبه ، لولا ان أمسك بذراعه شبح تراءى فجأة أمامه ، ونعنى به ابن عم مرايا ذاته ، فقد خرج من محبسه وتقدم نحو الشيخ ، قائلا : « لا أســتطيع أن أسمح ياسيدى بأن تقـع التبعة عن خطأ أنا الذى اقترفته ، ان صح أن يدعى ما فعلته خطأ ، وأنا على استعداد للاعتراف به ، على هذا الشخص العاجز عن الأذى الذى دعى الى هنـــا ، بحيلة بريئة من حيل البنات ، اننى أحب ابنتك ياسيدى ، وأنا هنا لكى أجتمع بها »

وفتح الشيخ لوبز عينيه على سعتهما حين سمع هذا القول، ولكن عينى نتنايل بيبكن كانتا أكثر سعة ، وأرحب حدقا ٠

وقال الشيخ أخيرا حين تمالك أنفاســـه اللاهثة : « أأنت الذى فعلت ؟ »

ـ « نعم ٠ أنا الذى فعلت »

ـ « بعد ان منعتك من دخول هذا البيت منذ زمن بعيد »

ـ « نعم ، أنت منعتنى ، ولولا ذلك لما جئت الى هنا سرا فى هذه الليلة »

وانى لآسف أن أقرر هنا ان الشيخ كان سيهم بالانقضاض على الفتى ، لولا ان تعلقت ابنته الحســناء بذراعه ، والدموع تنهمر من عينيها البراقتين ٠

وقال الفتى : « لا تمنعيـــه يا مرايا ، فان كان يريد أن يضربنى ، فدعيه ، فلن أمس شعرة واحدة من رأسه الذىعلاه المشيب ، ولو أوتيت ما فى الأرض من ثراء »

وأطرق الشيخ خجلا من هذا العتاب ، والتقت عيناء بعينى

ابنته ، وقد ألمعت من قبل مرة أو مرتين الى بريق هاتين العينين، ولكنى هنا أقرر أن سلطانهما رغم أغروراقهما بالعبرات ، لم يقل ولم ينقص شيئا • وأشاح الشيخ بوجهه ، كأنما يتحامى من فتنتهما ، واذا هـــو بمحض المصادفة يلتقى بوجـه تلك الصغيرة الماكرة ، وكانت من خوفها على أخيها ، وضحكها من نثنايل بيبكن قد أبدت من سحر محيـــاها ، وفتون مكرها ، وحيائها كذلك ، ما لا يقوى أى رجل ، سواء أكان شيخا أم شابا ، على مغالبته ، وراحت تدخــــل فى دلال ودعابة واغراء ذراعها فى ذراع الشيخ ، وتهمس له كلاما فى أذنه ، فلم يسع لوبز ، وهو حيالهــا العاجز المستكين ، الا أن ابتســـم وان تسللت فى الوقت ذاته دمعة الى خده •

ولم تنقض دقائق حتى دعيت الفتيات من المخدع فجئن فى ضحك كثير واستحياء • وبينما كان الشباب فى سرور وهناءة بالغين ، تناول الشيخ لوبز القصبة ومضى يدخن ، وكان الظرف الذى أحاط بتلك القصبة دون سواها عجيبا ، فلا عجب اذا هو شعر بأنها ألطف قصبة دخنها فى حيـــاته وأكثر شىء امتاعا وترفيها •

ورأى نثنايل أنه من الخـير الرضى بما قسم له ، والصبر على ما أصابه ، فراح شيئا فشيئا يرتفع مكانة عنـــد الشيخ لوبز ، ويصيب حظوة متزايدة لديه ، فجعل هذا يعلمه التدخين على الايام ، واعتادا الجلوس معا فى الحديقة كلما راق المساء ، عدة سنين ، يدخنان ويتعاطيان الشراب ، فى مجلس ممتع ، وخلوة هنية •

ولم يلبث ان نقه من أثر الحب ، اذ لا يزال اسمه مدونا فى سجلات الأبرشية ، شاهدا على زواج مرايا لوبز بابن عمها ،

والظاهر أيضا من الرجوع الى وثائق أخرى انه فى ليلة الزفاف وضع فى سجن القرية وهو فى حالة سكر بين ، وعربدة فى الطريق العام ، اشترك فيها معه ، وخفف من حدتها بجانبه ذلك الصبى المعروق الناحل الساقين .

الفصل الثامن عشر

يبين بايجاز مسألتين : الأولى قوة « التشنجات » والأخرى قوة « الظروف »

وظل البكوكيون يومين عقب مأدبة الافطار فى دار مسز هنتر ، مقيمين فى ايتنزول ، يرتقبون فى قلق وصول أنباء من زعيمهم الموقر ، وهكذا وجد المستر طبمن والمستر سنودجراس نفسيهما متبطلين يلهوان كما شاءا ، لأن المستر ونكل ، لبث مقيما فى دار المستر بت ، تلبية لدعوة ملحة ، مكرسا وقته لمرافقة السيدة المحببة ، ولم يكن مجلسهما بين الفينة والفينة ينقصه حضور المستر بت نفسه ، ليستكملا هناءتهما ، ولئن كان فى شغل شاغل أكثر وقته بالتفكير فى الصالح العام والقضاء على الصحيفة المعارضة «الانديبندنت» فلم تكن من عادة ذلك الرجل العظيم ان يهبط من أوجه الذهنى الى وهدة الاذهان العادية ، ولكنه فى هذه المناسبة بالذات ، وعلى سبيل المجاملة المقصودة لأى مريد من مريدى المستر بكوك ، اضطر الى التنزل من عليائه ، والتسامح فى كبريائه ، والهبوط من قاعدة تمثاله للمشى على الأرض ، والتعطف بالنزول بأفكاره وآرائه الى مستوى افهام القطيع العام ، والتظاهر ، شكلا لا حقيقة ، بأنه واحد منه ٠

واذا كان هذا هو مسلك ذلك الرجـــل الذائع الذكر ازاء المستر ونكل ، فلا يصعب علينا ان نتصور مدى الدهشـــة البالغة التى ارتسمت على وجه ذلك السيد حين وجـد يوما ، وهو جالس وحده فى قاعة الافطار ، الباب قد فتح بعجلة ، ثم أغلق بمثلها ، على دخول المستر بت ، وهو يمشى متسللا اليه فى جلال ، ويلقى جانبا يد ونكل المبسوطة لتحيته ، ويصرف بأسنانه ، كأنما يحاول أن يخفف من حدة القول الذى يوشك أن يقـــوله ، ويصيح به قائلا فى صـــوت كالمنشار : « أيها الثعبان ! »

وصاح المستر ونكل ، وهو ينهض من مقعده : « سيدى ! »

وعاد المستر بت وهـــو يرفع من صـــوته ثم يغض منه : « ثعبان ياسيدى ! قلت ثعبانا ياسيدى · فلتفسر قولى كمـــا شئت »

واذا أنت افترقت عن رجل فى الثانية بعد نصف الليل ، على محض المودة ، ثم جاءك فى التاسعة والنصف من الصـــباح وحياك بقوله لك انك لثعبان ، فمن المعقـــول ان تستنتج من ذلك أن شيئا غير سار قد حدث فى تلك الفترة ، وهذا هـــو ما اعتقده المستر ونكل وفكر فعلا فيه ، فرد على نظرة المستر بت الجلمود القاسية بمثلها ، وأخذ امتثالا لطلبه ، يفسر كلمة « الثعبان » كما يشاء ، ولكنه لم يصـــل من التفسير الى شىء اطلاقا · ولهذا مضى بعد صمت عميق استغرق بضـــع دقائق يقول : « ثعبان ياســـيدى ·· ثعبان ·· يامستر بت ، ماذا يمكن أن تعنى بهذا ياسيدى ؟ هذا عبث ! »

وصاح المستر بت ، بحركة من يده ، تنم عن رغبة شديدة فى قذف رأس ضيفه باناء الشاى المعدنى الموضـــوع أمامه ،

« عبث ياسيدى .. عبث .. ولكن كلا .. سأظل هادئا .. سأظل هادئا ياسيدى » . وللتدليل على هـدوئه راح يتهالك على مقعد والزبد يخرج من فمه .

وتدخل المستر ونكل قائلا : « سيدى العزيز ! »

وأجاب بت : « أتدعونى سـيدى العزيز ؟ كيف تجرؤ على مخاطبتى بقولك سـيدى العزيز ؟ وكيف تجرؤ على النظر الى شذرا والتفوه بهذا القول ياسيدى ؟ »

وقال المستر ونكل : « اذا جئت الى هنا ياسيدى ، فدعنى أقل لك : كيف تجرؤ أنت على النظر الى شـذرا ، وتدعونى ثعبانا ياسيدى ؟ »

وأجاب المستر بت : « لأنك ثعبان »

وقال المستر ونكل بحرارة : « اثبت ذلك ياسيدى .. أثبته »

وهنا خطفت عبسة خبيثة على وجه رئيس التحرير ، وهـو يخرج من جيبه عدد الصباح من « الانديبندنت » ويضـع اصبعه على فقرة معينة فيه ، ويقذف بالجريدة من فوق المائدة اليه .

وتناول المستر ونكل الجريدة ، فقرأ ما يلى :

« ان زميلنا الخامل الذكر القذر ، حاول فى بعض ملاحظاته التى تتقزز منها النفوس ، على الانتخابات التى جرت أخيرا فى الدائرة ، ان ينتهك قدسية الحياة الخاصة ، فأشار بشـكل لا يمكن ان يساء فهمه ، الى شئون مرشحنا الخاصة ، بل دعنا نقول ، رغم هزيمة مرشحنا بوسائل دنيئة ، نائبنا العتيد ، المستر فيزكن . فماذا يعنى زميلنا النذل بهـذا الذى كتبه ،

بل ماذا هو قائل اذا نحن فعلنا ما فعله ، فلم نبال مثله بالأدب الاجتماعى ، وحرمة الحياة الخاصة ، وأزحنا الستار الذى يخفى لحسن الحظ حياته هو الخاصة عن السخرية العامة ، اذا لم نقل ، عن اشمئزاز الناس واستنكارهم ؟ بل ماذا تكون الحال اذا نحن أوضحنا ، وعقبنا على الوقائع والظروف التى افتضح أمرها ، وشاهدها الناس جميعا الا زميلنا المكفوف البصر ؟ ماذا تكون الحال حقا ، اذا نحن نشرنا الابيات التالية التى تلقيناها ونحن نكتب هذه السطور من مواطن موهوب ، ومراسل لنا ؟ وهذه هى الأبيات :

نداء الى « ابريق » (١) نحاسى

« لو أنك يا بت عرفت
« كيف ستروح على الدهر خائنتك
« لفعلت يومئذ ، وأنت تسمع
نواقيس الزواج تدق وتجلجل ،
« ما ليس فى امكانك اليوم أن تفعل
« ولسلمتها طائعا مختارا الى و ــ »

وانثنى المستر بت يقول بصوت رهيب : « ماذا تكون القافية التى تستوجبها كلمة « تجلجل » ، « وتفعل » ياشقى؟»

وقالت مسز بت ، وكان دخولها فى تلك اللحظة بمثابة الرد سلفا: «ماهى الكلمة أو القافية التى تتفق وكلمة «تجلجل» و « تفعل » ؟ أظنها ونكل » ، وراحت تبتسم ابتسامة عذبة للبكوكى المرتبك ، وتمد اليه يدها · ولو أن بت لم يتدخل

(١) تعنى الكلمة بت POT ابريق أو وعاءوقد لعب الناظم بالألفاظ فجاء بها على سبيل التورية مع كلمة بت POTT اسم الرجل

فيقول غاضبا : « كفى ، ياسيدتى ، كفى ، أتتناولين يده أمام وجهى ؟ » لقبلها الشاب المضطرب، مدفوعا الىذلك باضطرابه٠

وقالت السيدة مبهوتة : « يامستر ب ! »

وصاح بها زوجها قائلا : « اسمعى أيتها المرأة المنكودة ٠ اسمعى ياسيدتى : نداء الى « ابريق » نحاسى « بت » نحاسى٠ يعنى أنا ياسيدتى ٠ ولو عرفت انهـــا على الدهر ، ستروح خائنتك ٠ يعنى أنت ياسيدتى ٠ انت ! »

وبهذه الفورة الشديدة التى بدا بها غضبه ، والتىاقترنت بشىء يشبه الارتجاف ، مضى يقذف وجـه امرأته بالجريدة ، فسقط العدد عند قدميها ٠

وقالت مسز بت فى دهشة ، وانحنت فالتقطت الصحيفة : « بشرفى ياسيدى ، بشرفى ياسيدى ! »

وهنا اسخذى المستر بت وتراجـــع أمام النظرة المحتقرة التى حدجته بهـــا زوجته ، وغالب مغالبة مستيئسة لجمـــع شتات شجاعته ، ولكن تلك الشجاعة لم تلبث ان تنـــاثرت بددا ٠

وليس فى تلك العبارة القصيرة « بشرفى ياسيدى ! » شىء مرهوب أو خطير مطلقا ، وأنت اللحظة تقرأها ، ولكن اللهجـــة التى قيلت بها ، والنظرة التى صحبتها ، كانتـــا تنطويان على تلميح الى عقاب سيقع على رأس بت فيما بعـــد ، فلم تلبثا أن أحدثتا أثرهما فيـــه ، حتى لم يكن ليغيب عن أقل النـــاس فطنة ، اذا هو نظر الى وجهه المضطرب ، انه لم يكن ليتردد فى خلع حذائه الولنجتون الى أى امرىء قدير يرضى ان ينتعله فى تلك اللحظة بدلا منه ٠

وقرأت مسز بت تلك الأبيات ، وأطلقت صرخة عاليـــة ،

وألقت بنفسها على البساط ، ومددت قدميها صارخة ، وضربت بكعب حذائها ، وركلت بقدميها ، فى صـــورة لم تدع ذرة من الشك فى صدق ما كانت تحس به ، ازاء هذا الموقف ٠

وقال بت ، وقد وقف جامدا فى مكانه : « لم أقل ياعزيزتى اننى صـــدقت ذلك » ٠ ولكن صـــوت المسكين قد غرق فى صرخات شريكته ٠

وقال المستر ونكل : « دعينى يامسز بت ، أتوســـل اليك ياسيدتى العزيزة ان تهدئى من روعك » ، ولكن صرخاتهـــا ودقات كعبها فوق البساط غطت على صوته ، وكانت أكثر من قبل تتابعا ٠

وراح المستر بت يقول : « اننى جد آسف ياعزيزتى ! واذا لم تكفى مراعاة لصحتك ، فراعى مركزى أنا ياعزيزتى ، حتى لا يتجمهر الناس حول البيت »

ولكن صرخاتها زادت اشتدادا وتتابعا كلمـــا زاد المستر بوت توسلا ٠

وكانت فى البيت ، لحسن الحظ ، وصيفة خاصة لمسز بت وهى شابة كان عملها فى الظاهر الاشراف على زينة السيدة ، وان أدت اليها فى الواقع خدمات كثيرة منوعة ، وأهمها مايتعلق بمساعدة سيدتها فى تحقيق كل رغبة تتعارض مع رغبـــات بت التعس ، فلم تلبث تلك الصرخات أن بلغت ســـمع تلك الوصيفة الشابة فجاءت الى الحجرة مهرولة ، تكاد من سرعتها تفسد الى حد كبير نظام شعرها وعقصة جدائلها ووضع قبعتها

وراحت تصيح وهى تجثو مروعة بجانب مسز بوت المنبطحة على البساط : « رباه ٠٠ ياسيدتى العزيزة ، ما الذى جرى ، ياسيدتى العزيزة ؟ »

وغمغمت المريضة : « سيدك المتوحش ! »

وبدا على المستر بت الاستسلام والاستكانة فلم يفه بقول ٠

وراحت الوصيفة تقول بلهجة التأنيب : « يا للعـــار ! أنا عارفة أنه سيودى يوما بحياتك ياسيدتى ٠ واها لك ياسيدتى المسكينة ! »

فازداد بت استكانة واستسلاما ، وتابعت زوجته الهجــوم فقـــالت : « أواه ٠٠ لا تتركينى ياجودوين ، لا تتركينى » ، ومضت تنعلق بمعصم الوصيفة فى هزة عصبية شــديدة وهى تقول : « أنت الانسان الوحيد الذى يحنو على ياجودوين ! »

ولم تكد جودوين تسمع هذا الاستنجاد المؤثر بهــا ، حتى عمدت هى الاخرى الى تمثيل مأساة خاصة ، فراحت ترســـل فيضا مدرارا من العبرات، وتقول: « لن أتركك أبدا ياسيدتى ٠ أبدا ٠ أواه ٠ ياسيدى ٠ ينبغى ان تكون حريصا ٠ ينبغى لك أن تحتاط ياســـيدى ٠ انك لا تعرف أى أذى أنت محــدثه للسيدة ، وسوف تأسف فى يوم من الأيام على ما فرطت فيه من قبل ، وأنا بالأمر عارفة ٠ ولطالما قلت ذلك قبل الآن »

ولبث بت التعس ينظر خائفا متهيبا ولا يقول شيئا ٠

وقالت مسز بت بصوت خافت : « جودوين ! »

وأجابت هذه قائلة : « نعم ياسيدتى »

ــ « آه لو عرفت كيف أحببت هذا الرجل ؟ »

وقالت حارستها : « لا تحزنى نفسك باستعادة الذكريات ياسيدتى »

وبدا الخوف البـــالغ على بت ، وحانت اللحظة الحاسـمة للاجهـــاز عليـه ، فانطلقت مسز بوت تقول وهى تنتحب : « والآن ، بعد كل ذلك ، يصبح جزائى عنده هذه المعاملة التى يعاملنى بها ، وتأنيبى واهانتى فى حضرة شخص ثالث . وهذا الشخص الثالث يكاد يكون غريبا ! »

وسكتت لحظة ثم واصلت الحديث وهى ترفع نفســها فى أحضان وصيفتها : « ولـــكن لن ارتضى ذلك ياجودوين ولن أقبله ، وسيتدخل شقيقى اللفتنانت، وسأنفصل ياجودوين !»

وقالت جودوين : « يستأهل ياسيدتى »

ولم يجاهر بوت بمــا دار فى خاطره من الافكار حين تلقى هذا التهديد بالانفصال ، وانما قنع بقـــوله فى ذلة بالغة : « الا تنصتين لى يا عزيزتى ؟ »

فكان جوابها الوحيــــد فيضـــا آخر من البكاء والنحيب وازدادت بوت عصبية وتشنجا ، وراحت تتساءل لــماذا جاءت الى هذه الدنيا ، ولماذا تراها ولدت ، وغـير ذلك من الأسئلة المماثلة •

ومضى المستر بت يقول مترجيا مستعطفا : « لا تستسلمى يا عزيزتى لهذه المشاعر المؤثرة ، فما اعتقدت يوما أن هـــذه الفقرة تقوم على أساس • هـــذا مستحيل يا عزيزتى ، وكل غضبى يا عزيزتى ، بل أقول كل هياجى وحنقى ، انما هـــو موجه الى الاندبندنت وكتابها لجرأتهم على نشرها • هـــذا هو كل ما هنالك »

وألقى المستر بت نظـــرة متوسلة الى من كان سببا فيمـا

جرى ، وهو البرىء ، كأنما يناشـــده ألا يذكر شـــيئا عن « الثعبان »

وانثنى المستر ونكل يقول ، وقد استرد الشجاعة حين وجد بوت قد فقـــدها : « وأى اجراء تنوى ياســـيدى ان تتخذه للاقتصاص من هذا السوء الذى أحدثوه ؟ »

وقالت مسز بت : « أواه يا جودوين هــل ينوى أن يضرب رئيس تحرير الصحيفة بالسوط تأديبا له ؟ هــل ينوى ذلك يا جودوين ؟ »

وأجابتها حارستها : « اسكتى ياسيدتى ، وهدئى من روعك انى لأجرؤ على القول انه سيفعل ذلك اذا شئت ياسيدتى »

وقال بت حين رأى زوجته تبدى أعراضا لمعـاودة النوبة : « بلا ريب ، سأفعل ذلك بالطبع »

وعادت مسز بت تقـــول وهى لا تزال مترددة فى معـــاودة التشنج : « ومتى يا جودوين متى ؟ »

وأجاب المستر بوت قائلا : « فى الحال طبعا ، قبل ان ينقضى النهار »

وقالت زوجته : « أواه ، يا جودوين . هذه هى الســــبيل الوحيدة لتأديبه على هذه الوشاية ، ورد كرامتى أمام الناس »

وأجابت جودوين : « بلا شك ياسيدتى . وما من رجـــل ياسيدتى تطاوعه رجولته ان يرفض عملا كهذا »

ورأى المستر بت أن نوبة التشـــنج لا تزال مرفرفة توشك أن تعود ، فعاد يكرر انه سيفعل ذلك ، ولـــكن مسز بت من

فرط تأثرها بفكرة الارتيـــاب بها ، ظلت مرارا عــلى وشك الانهيار ، وكانت بلا نزاع ستعود اليه ، لولا الجهــود الملحة التي بذلتها جودوين ، ولولا التوســلات المتكررة من جانب بت المغلوب على أمره للعفو عنه، والصفح عما كان منه . وأخيرا، حين رأت مسز بت ان ذلك المسكين قد تملكه الروع ، وأنزل من عليائه الى المستوى اللائق به ، عادت فثابت الى نفسـها ، ونهض الجميع لتناول طعام الفطور .

وقالت مسز بت وهى تبتسم من خلال بقايا عبراتها : « لن تدع هذه الوشاية الحقيرة التى اخترعتها تلك الجريدة تقصر من مقامك هنا يامستر ونكل ! »

وقال المستر بت : « أرجو ان لا يكون ذلك » . وهــو يود فى أعماق نفســه لو اختنق ضيفه بتلك القطعــة من الخبز اليابس الذى كان يهم برفعها الى فمه فى تلك اللحظة ، وبذلك ينهى مقامه فى داره فعلا .

وأجاب المستر ونكل قائلا : « انك لكريم ياسيدى ، ولكن وصل كتاب من المستر بكوك ، كمــا علمت من رقعــة بعث بها المستر طبمن ، وسلمت الى فى غرفتى هــذا الصباح ، وعلمت أن المستر بكوك يرجو الينــا أن نوافيه فى « برى » اليوم ، واننا معتزمون السفر بالمركبة الحافلة ظهرا »

وقالت مسز بت : « ولكنك ستعود الينا . أليس كذلك ؟ »

وأجاب المستر ونكل : « أوه ، بكل تأكيد »

وعادت تقول وهى تسترق نظرة حنونا رفيقة الى ضيفها : « هل أنت واثق حقا ؟ »

وأجاب المستر ونكل : « كل الثقة »

وانتهى الافطار فى صمت ، لأن كل انسان منهم كان يفكر فى أمره وهمه ، فكانت مسز بت متأسـفة على فراق حبيب ، والمستر بت على تهـوزه فى التعهد بضرب رئيس تحـريـر الانديبندنت بالسوط ، والمستر ونكل على وضـع نفسـه بسذاجة وسلامة نية فى موطن حرج ·

واقترب الظهر ، وبعد عدة توديعات ووعود بالاياب انفلت المستر ونكل لا يلوى على شىء ·

وقال المستر بوت فى نفسه ، وهو يدخل المكتب الصـغير الذى يعد فيه « صواعقه » : « سأدس السم له لو رجع ! »

وجعل المستر ونكل يقول وهو منطلق فى طريقه الى فندق « بيكوك » : « لو عدت واختلطت بهؤلاء القوم مرة أخرى لكنت أنا المستحق ان أضرب بالسياط · هذا هو كل ما فى الامر »

وكان صديقاه على الأهبة · وكانت المركبة تسـتعد هى أيضا ، فلم يمض نصف سـاعة حتى انطلقوا فى رحلتهم على الطريق ذاته الذى اجتازه المستر بكوك وسام فى سفرتهمـا الاخيرة ، التى قلنا من قبل شيئا عنها ، ونعتقد اننا مطالبين بأن نقتطف ذلك الوصف الشعرى الجميل الذى وصـفها به المستر سنودجراس فى مذكراته ·

وكان المستر ولر واقفا بباب فندق « انجل » على استعداد لاستقبالهم ، فلما وصلوا أدخلهم على المستر بكوك · ولشـد ما كانت دهشة المستر ونكل والمستر سنودجراس ، بل لشد ما كان ارتبـاك المستر طبمن حين وجـدوا المستر راردل ، والمستر تراندل ، معه ·

وقال الشيخ وهو يتناول يد المستر طبمن : « كيف أنت ؟ لا تتراجع ولا تبد منفعلا مضطرب العاطفة على هـذا النحو · فليس في ذلك الامر حيلة يا صاح ، لوددت من أجلهـا حى لو أنك ظفرت بها ، ولكنى مغتبط لأنك لم تظفر بها ، وهـذا خير لك · ان شابا مثلك واجد خيرا من ذلك فى يوم من الأيام

وبهذه المواساة ألقى المستر واردل يده على ظهر المستر طبمن ، وأرسل من أعماق صدره ضحكة مجلجلة ·

وانثنى يهز يدى المستر ونكل والمستر سنودجراس معـا مصافحا ، وهـو يقول : « والآن كيف أنتما أيها السيدان الظريفان ؟ لقد كنت اللحظة أقول للمستر بكوك اننا لابد أن نأخذكم جميعا عندنا فى عيد الميلاد ، لاننا قادمون على زفاف ـ

وقال المستر سنودجراس وقد ارتدوجهه شاحبا : «زفاف!»

زفاف حقيقى فى هذه المرة »

وأجاب الشيخ الماجن : « آه ! زفاف ! ولـكن لا ترتعب للنبأ · انه زفاف تراندل و بللا »

وقال المستر سنودجراس ، وقد استراح من شك أليم كان قد ران على صدره : « أهذا كل ما فى الأمر ؟ مبارك ياسيدى وكيف حال جو ؟ »

وأجاب السيد الكبير . « بخير · نعسان كعهدك به »

قال : « ووالدتك والقسيس ، والاسرة جميعا ؟ »

وأجاب واردل . « بخير وعافية »

وقال المستر طبمن ، وهو يجاهد نفسه مجاهـدة . « وأين ··· أين هى ياسيدى ؟ »

وأشاح بوجهه ، وحجب عينيه بيديه ٠

وقال الشيخ : « هى » ، ثم هز رأسه هزة العليم ، واستثنى قائلا : « هل تعنى قريبتى العزبة ؟ »

وأومأ المستر طبمن ايمـــاءة توحى بأن ســـؤاله يراد به « راشل » الخائبة الأمل ٠

ومضى الشيخ يقول : « أوه ٠ لقد ذهبت ٠ وهى اليوم تقيم عند قريب لها يقطن موضعا بعيدا ، لأنها لم تطق لقاء ابنتى، فتركتها تذهب ، ولكن تعال ! ها هو ذا الغداء مهيأ ٠ ولابد من ان تكون جائعا ، بعـــد ركبتك ، فانى جائع ، ولم أركب مثلك ٠ فهلموا بنا نجلس الى الطعام »

وأدوا للوجبة حقها ، وحين جلسوا حول المائدة ، بعد ان رفعت الصحاف عنها ، راح المستر بكوك وسط حنق مريديه وشـــدة استبشاعهم ، يقص عليهم الحادث الذى وقـــع له ، والنجاح الذى كان حليفا لمكر جنجل الخبيث الرجيم وأحابيله النكراء ٠

وختم المستر بكوك قصـــته قائلا : « وقد أحالنى النقرس الذى أصابنى فى تلك الحديقة أعرج فى هذه اللحظة لا أستطيع المسير »

وقال المستر ونكل وهو يبتسم : « وأنا أيضا لى واقعـــة حال » ٠ وانطلق تلبية لرجاء المستر بكوك يقص قصة القذف الشنيع الذى وجهتـــه جريدة ايتنزول المستقلة ، والهيـــاج الذى انتاب صديقهم رئيس التحرير من جرائه ٠

وكان جبين المستر بكوك مقطبا خلال القصة ، وأدرك أصحابه

ذلك عليه ، فلما انتهى المستر ونكل منها ، وساد السكون ، انطلق المستر بكوك يضرب المائدة بجمع كفه ويقول : « أليس من غرائب الظروف ألا ندخل بيت رجل الا ورطناه الى حد ما وأوقعناه فى محرجة ؟ بل انى لأسأل أليس هذا دليلا على نزق أصحابى بل على ما هو شر من ذلك وأنكى ، على سواد قلوبهم ؟ فنحت كل سقف يقيمون ، تراهم يزعجون سكينة أنثى وادعة مطمئنة ويفقدونها سعادتها ورغدها . أقول ، أليس ... ؟ »

وأكبر الظن أن المستر بكوك كان سينطلق فى هذا القول ومثله ويمعن طويلا ، لولا ان دخل عندئذ سام يحمل كتابا ، فقطع عليه بدخوله فيض بلاغته .

ومسح الرجل جبينه بمنديله ، وخلع منظاره ، فمسح زجاجته ، ثم رده الى عينيه ، وقال وقد استرد رفق لهجته ، وهدوء صوته : « ما هذا الذى جئت به يا سام ؟ »

وأجاب المستر ولر : « لقد عرجت على مكتب البريد منذ لحظة فوجدت هذا الكتاب ، وقد لبث فيه يومين كاملين ، وهو مختوم بخاتم رسمى ، ومعنون بحروف مستديرة ! »

وقال المستر بكوك وهو يفض الغلاف : « لا أعرف هذا الخط . يا لله ! ما هذا ؟ لابد ان يكون هذا هزلا لا جدا . لا يمكن ان يكون هذا حقيقيا »

وسأله الجميع : « ما الخطب ؟ »

وقال المستر ونكل وقد فزع من الرعب الذى بدا على وجه المستر بكوك : « أنعى أحد ؟ هل مات انسان ؟ »

فلم يحر المستر بكوك جوابا ، بل طوح بالكتاب من فوق

المائدة ، طالبا الى المستر طبمن قراءته بصوت مسموع ،وتراجع فى مقعده ، وفى عينيه نظرة دهشة تخيف من يراها ٠

ومضى المستر طبمن بصوت راعش يقرأ الكتاب ، وكان نصه كما يلى :

« المستر صمويل بكوك

« تحريرا فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٠

« محكمة فريمان فى كورنهل

« الدعوى المرفوعة من باردل على بكوك

« سيدى

« بناء على طلب مسز مارتا باردل بشأن رفع دعوى عليك لنكثك بوعد الرواج بها ، ومطالبتك بتعويض عما أصابها تقدره المدعية بألف وخمسمائة جنيه ، نرجو أن نحيطكم علما بأنه قد صدر الاذن بالخصومة فى هذه القضية من محكمة الاحوال الشخصية ، ونرجو ان تتكرموا باخطارنا برجوع البريد باسم محاميكم فى لندن ، حتى يتيسر لنا الاتصال به٠

« وتفضلوا ياسيدى بقبول وافر الاحترام ٠

ددسن وفج »

وكان فى تلك الدهشة الصامتة التى أخذ كل منهم ينظر بها الى الجالس بجواره وراح الجميع بها ينظرون الى المستر بكوك كذلك ، شىء أبلغ من كل قول ، حتى لكأن كل منهم خشى الكلام ٠

وأخيرا عمد المستر طبمن الى تبديد ذلك الصمت المستطيل، فانثنى يكرر وهو لا يدرى « ددسن وفج ! »

وقال المستر سنودجراس ساهما مفكرا : «باردل وبكوك !»

وغمغم المستر طبمن ، وهو شارد الفكر : « يزعجون سكينة أنثى وادعة مطمئنة ، ويفقدونها سعادتها ورغدها »

وقال المستر بكوك وقد استرد أخيرا القـدرة على النطق : « هذه مؤامرة ، مؤامرة دنيئة دبرها هذان المحاميان العتيدان ددسن وفج ، لأنه من المستحيل أن تفعل مسز باردل ذلك ، ولا يطاوعها قلبها على فعله ، وليست لهاقضية ما حتى ترفعها. هذا شيء مضحك . شيء مضحك ! »

وقال المستر واردل وهو يبتسم : « أما فيما يتعلق بقلبها ، فأنت بلا شك خـــير من يحكم ، ولست أريد ان أثبطك أو أخذلك ، ولكنى أريد أن أقول فيما يتعلق بقضيتها ان ددسن وفج هما خير من أى أحد فينا وأعرف بأسبابها ومبرراتها »

وقال المستر بكوك : « هذه محاولة خبيثة لابتزاز المال »

وأجاب المستر واردل بسعلة قصيرة جافة : « أرجو ان تكون كذلك »

واسترسل المستر بكوك يقول فى حدة بالغة : « من الذى سمعنى يوما أتحدث اليها الا كما يتحدث المستأجر الى المالكة ؟ ومن الذى رآنى يوما معها ؟ حتى من أحد أصدقائى هنا ؟ »

فقاطعه المستر طبمن قائلا : « الا فى مرة واحدة »

وهنا امتقع وجه المستر بكوك ، وانطلق المســـتر واردل يقول : « آه ، هذا شيء مهم ، ولكنى أعتقـــد انه لم يكن ثمة ما يريب ؟ »

وهنا نظر المستر طبمن الى زعيمه نظرة متهيبة وقال : « لم

يكن ثمة ما يريب ، ولكنى لا أعرف كيف حدث ما حدث ٠فقد كانت بلا شك مرتمية فى أحضانه »

وصاح المستر بكوك ، وقد داهمته ذكرى ذلك المشهد : « يا للعجب ! ويا لصنع المقادير ! ما أرهب قوة الظروف ! نعم ـ لقد كانت كذلك ، لقد كانت كذلك »

وقال المستر ونكل فى شيء من الخبث : « وكان صديقنا يواسيها فى محنتها وآلامها »

وقال المستر بكوك : « كذلك ، لست أنكر ، حقا لقد فعلت »

وهنا صاح المستر واردل : « ها ! فى قضية ليس فيها ما يريب ، ان هذا ليبدو غريبا • أليس كذلك يا بكوك ؟ آه ! أيها الماكر ! »

وانطلق يقهقه حتى اهتزت الاقداح المصفوفة فوق المنضدة الجانبية من قصف قهقهته •

وصاح المستر بكوك وهو يضع ذقنه على كفيه : « ما أرهب اجتماع الظواهر يا ونكل ! وأنت يا طبمن أستميحكما صفحا عن الملاحظات التى أبديتها منذ هنيهة • فنحن جميعا ضحايا الظروف ، وأنا أكبركم لها فريسة »

وبهذا الاعتذار مضى المستر بكوك يدفن رأسه فى يديه ويستسلم لتفكير طويل بينما جعل واردل يرسم دوائر منتظمة من الايماءات والغمزات لأفراد الجمع الآخرين •

ورفع المستر بكوك رأسه ودق المائدة بيده قائلا : « سأشرح ذلك كله ، وسأقابل ددسن وفج • سأذهب الى لندن غدا »

وقال واردل : « ليس غدا . انك شديد العرج فلا تقوى على السفر »

قال : « ليكن اذن اليوم الذى بعده »

وأجاب واردل : « سيكون أول سبتمبر ، وقد تعهدت لى بالخروج معنا الى الصيد فى أرض السير جفرىماننج على أية حال . أو مقابلتنا على الغداء ، اذا لم تشترك فى الصيد معنا »

وقال المستر بكوك : « ليكن اذن اليوم الذى سيليه ، أى يوم الخميس يا سام ! »

وأجاب المستر ولر : « نعم ياسيدى »

قال : « احجز لنا مقعدين فى المركبة العامة المسافرة الى لندن صباح يوم الخميس . لى ولك »

قال : « ليكن ذلك ياسيدى »

وانصرف المستر ولر ، وذهب فى بط ليؤدى مهمته ، وهو واضع يديه فى جيبه ، وعيناه مطرقتان الى الأرض ، وراح يقول وهو يمشى الهوينا فى الطريق العام : الامبراطور ، رجل بديع ، تصور وقوعه مع مسز باردل هذه . وهى أم ولد صغير . هذه هى حال أولئك العجائز دائما . لا أعتقد انه فعل ذلك . لا أعتقد ان مثله يفعلها »

وانطلق المستر ولر فى مناجاته الأخلاقية على هذا النحو وهو فى طريقه الى مكتب حجز التذاكر فى المركبة الحافلة .

الفصل التاسع عشر

يوم سار ونهاية غير سارة

كانت الطيور ، لحسن حظها ، وسكينة خاطرها ، وراحتها وطمأنينة بالها ، فى جهل سعيد بأمر المعدات التى كانت تعد لمباغتتها فى اليوم الاول من شهر سبتمبر ، فلا غرو اذا هى رحبت بمقدمه ، كأجمل يوم مر عليها فى ذلك الموسم ، فكم من « حجلة » فتية راحت تحجل راضية مغتبطة فوق أعقاب الحصاد ، وتتخطر فى زهو الشباب وخيلائه ، وكم من بطة كبيرة مضت ترقب نزق تلك الصغيرة بعينها المستديرة ، وتنظر اليها نظرة السخرية ، وترنو نحوها رنوة الحكمة والخبرة ، وان كانت هى الأخرى فى جهل بمصيرها المقترب ، ونهايتها المحتومة ، قد مضت « تتشمس » فى أنسام الصباح العليلة ، فرحة مبتهجة ، ثم راحت بعد بضع ساعات ترف على الأرض بأجنحتها ٠

ولكنا قد أخذنا نتكلف ٠ فلنعد الى سياق الحديث ٠

لقد كان الصباح ، بصريح القول ، وحقيقة الواقع ، رائعا ، بلغ من امتاعه انك لا تكاد تصدق أن أشهر الصيف المألوف فى انجلترا ، على قلتها ، قد انقضت منذ وقت قريب ، فقد بدت الأسوار المقامة من العوسج ، والحقول والمروج والأشجار

والربىءالمسنقعات ، مرسلة ظلالها المنوعة ، وافياءها الوارفة، ونضرتها المورقة ، كأن ورقة منها لم تسقط ، ولا أثر لصفرة الذبول قد اختلط بألوان الصيف الزاهية ، حتى لاتكاد تشعر بأن الخريف قد بدأ ، فقد خلا اديم السماء من السحب ، والشمس نسطع فتملأ الكون ضياء ودفئا ، وشدو الطير ، وطنين الآلاف المؤلفة من حشرات الصيف ، تفعم الهواء صدحا ولحنا ، والبساتين المحيطة بالاكواخ مزدحمة بالأزاهر من كل لون بهيج ، تتلألأ وتبرق فى الندى الكثيف كأنها اللآلىء والجواهر المتألقة .. وكل شىء يومئذ يحمل طابع الصيف ، ولا تزال كل ألوانه الجميلة زاهية لم تنصل بعد .

كذلك كان مشهد الصبح حين وقفت بباب على عدوة الطريق مركبة مكشوفة تقل ثلاثة من البكوكيين ـ فقد آثر المستر سنودجراس البقاء فى الفندق ـ والمستر واردل ، والمستر تراندل ، بينما اتخذ سام ولر مجلسه بجانب السائق ، وكان بالباب حارس صيد فارع القامة معروق البدن ، وغلام يكاد يكون منتعلا نصف انتعال ، وقد لف بأغطية من الجلد ساقيه الصغيرتين ، وقد حمل كل منهما حقيبة رحيبة الجوانب، ومعهما كلبان .

وهمس المستر ونكل لواردل ، حين جاء الرجل فأنزل سلم المركبة لينزل الجمع منها : « هل تراهما يظنان اننا سنقتل من الطير ما يكفى ليملآ هاتين الحقيبتين ؟ »

فصاح الشيخ واردل قائلا : « يملأهما ! أى نعم ، باركالله فيك ، أنت تملأ واحدة ، وأنا أملأ الأخرى فاذا امتلأتا ، فان جيوب « السترة » تتسع لمزيد »

ونزل المستر ونكل من المركبة دون أن يحير جوابا عن هذه

الملاحظه ، ولكنه مضى يحدث نفسه قائلا انه اذا بقيت الجماعة فى الهواء الطلق حتى ينتهى هو من ملء احـــدى الحقيبتين ، فسوف لا ينجو القوم فى الغــالب من وعكة برد تصيب منهم الرءوس والصدور ٠

وانثنى واردل يلاطف الكلبين صـــائحا : « هى ، جونو ، يا حبيبة ، وأنت يا داف انزل ، انزل » ، ثم التفت الى الحارس فقال : « لا يزال السير جفرى فى اسكوتلنده بالطبع يا مارتن أليس كذلك ؟ »

فأجاب الحارس المديد القامة بالايجــاب ، ومضى ينظر فى شىء من الدهشة الى المستر ونكل وهو ممسك ببندقيته كأنه يتمنى لو أغنى جيب ردائه عنه مئونة جـذب الزناد ، ثم الى المستر طبمن وهو ممسك ببندقيته هـــو الآخر كأنه منهـا الخائف المشفق ، ولم يكن ثمة شك مطلقا فى انه كان فعــلا كذلك ٠

ولاحظ المستر واردل نظرته فقال : « ان صديقى هذين لم يتقنا هذا النوع من الصيد بعد ٠ وانت تعرف المثل القائل : من يعش ير ٠ وسوف يحســنان الرماية فى يوم من الايام ، واعتذر مع ذلك للمستر ونكل ، فقد جرى له شىء من التمرين قبل الآن »

فابتسم المستر ونكل ابتسامة خفيفة من فوق غطاء رقبته الازرق اللون ، ردا على هــذه « التحية » وارتبك فى حمـــل بندقيته أشد الارتبـــاك ، من فرط حيــائه بحيث لو كانت محشوة ، لخر مجندلا منها لساعته ٠

وقال الحارس المديد القــامة : « لا ينبغى لك ان تمسك

البندقية ، بهذا الشكل ، حين تكون محشوة ياسيدى ، والا فاللعنة على فى كل كتاب اذا أنت لم تصنع لحما باردا من أحد منا هنا »

وبادر المستر ونكل عقب هذه النصيحة الى تغيير وضع البندقية ، فجعل الماسورة بعد كل محاولة بذلها تكاد تمس رأس المستر ولر ، فصاح هذا وهو يلتقط القبعة وكانت قد انقلبت من فوق هامته ، قائلا وهو يفرك صدغه . « ها ! ها يا سيد ، اذا أنت أدرتها الى هذه الناحية ، فستملأ احدى هاتين الحقيبتين وأكثر منهما برصاصة واحدة ! »

وضحك الغلام الملفف الساقين بالجلد ضحكة عالية مرحة ثم تظاهر بأن أحدا سواه هو الذى ضحك ، وعندئذ عبس المستر واردل عبسة ذات رهبة وجلال .

وانثنى يسأل الحارس : « أين قلت للغلام ان يقابلنا ومعه قلبل من الطعام يا مارتن ؟ »

وأجاب الحارس : « بجانب « ون ترى هل » (التل ذى الشجرة الواحدة) ياسيدى فى الساعة الثانية عشرة »

قال : « ليست هذه أرض السير جفرى أليس كذلك ؟ »

وأجاب الحارس : « بلى ياسيدى ، ولكنها قريبة منها . انها أرض الضابط بولدويج ، ولكننا لن نجد أحدا يعترضنا ، وهناك أيضا موضع معشب جميل »

قال : « حسن جدا ، والآن من الخير ان نبادر ، الا توافينا فى الثانية عشرة اذن يابكوك ؟ »

وكان المستر بكوك يشتهى فعلا مشاهدة الصيد ، ولا سيما

انه كان يشعر بشيء من القلق على حياة المستر ونكل زأرصاله، وكان من المؤلم حقا ، فى صباح مغر كهذا شديد الفتنة ، أن يرفض الدعوة ويترك صديقيه يستمتعان وحدهما ، ولهـــذا راح يجيب بلهجة جدية قائلا : « سأفعل حتما »

وسأل الحارس : « أليس السيد صيادا ياسيدى ؟ »

وقال واردل . « كلا ، ثم هو أعرج لا يقدر على الحركة »

وقال المستر بكوك : « أود كثيرا ان أذهب معــكم ، كثيرا جدا »

وساد السكون لحظة أسفا ورثاء للشيخ فى ملمته .

وقال الغلام : « ان على الجانب الآخر من السوز عربة تدفع باليد ، فلو تيسر لخادم السيد ان يدفع بها على طول الدرب ، لاستطاع البقاء منا على كثب ، ونحن فى امكاننا ان نرفعهـــا من فوق الحواجز وأمثالها »

وقال المستر ولر بوصــــفه الشخص المقصود ، ولرغبتــه الشديدة فى مشاهدة الصيد : « هذا هو المطلوب تماما . وعين الجد ، أحسنت ياذا الخد الصغير ، سأخرجها من مكانهـــا فى الحال ، دقيقة واحدة »

ولكن هنا ظهرت صعوبة ، فان ذلك الحـــارس المديد احتج بقوة على اشراك سيد محمول على عجلة يد فى رحلة صـــيد ، قائلا : » ان هذا عمل مخالف لجميع القواعد المرعية والسوابق الماضية مخالفة صارخة »

وكان هذا الاعتراض حائلا كبيرا ، ولـــكن لم يكن بالمتعذر التغلب عليه ، فان الحارس بعد ان لوطف وأشـــبع ، وأرضى

خاطره أيضا بلكز الغلام المبتكر الذى اقترح الاستعانة بتلك الاداة ، فى رأسه عدة لكزات ، لم يسعه سوى السكوت ، فحمل المستر بكوك فوق العربة وانطلق الجمع ، وفى المقدمة واردل والحارس الطويل ، وفى الساقة جلس المستر بكوك فى المركبة . وتولى سام دفعها الى الأمام .

ولم يكد الجميع يجتازون نصف الميدان الأول حتى صاح المستر بكوك قائلا : « قف يا سام ! »

وقال واردل : « ماذا جرى ؟ »

فأجاب المستر بكوك بلهجة العزم الشديد : « لن أدع هذه العربة تتحرك خطوة واحدة ، اذا لم يحمل ونكل بندقيته بشكل آخر »

وقال ونكل المسكين : « بأى شكل أحملها ؟ »

وأجاب المستر بكوك : « احملها بحيث توجه فوهتها الى الأرض »

وقال ونكل : « ولكن حملها هكذا لا يتفق وقواعد الصيد »

وأجاب المستر بكوك : « لا يهمنى ألا يتفق مع قواعد الصيد أو يتفق معها ، فلست أريد أن أصاب بالرصاص وأنا محمول فى عربة يد مراعاة للمظاهر ، وارضاء لأحد »

وقال الرجل الطويل مزمجرا : « أنا عارف أن هذا السيد سيطلق القذيفة على أحد منا قبل ان يدرى ما هو صانع »

وقال المستر ونكل ، وهو يجعل فوهة البندقية الىالأرض: « حسن ، حسن لا مانع ! »

وقال المستر ولر : « أى شىء يكفل لنا الأمان . فالحياة لا يستهان بها »

وانطلقوا .

ولكنهم لم يسيروا غير بعيد حتى صاح المستر بكوك مرة أخرى : « قف ! »

فقال واردل : « ما الذى جرى أيضا ؟ »

وأجاب المستر بكوك : « ان بندقية طبمن ليست فى وضع سليم .. أعرف أنها ليست كذلك »

وقال المستر طبمن فى فزع شديد : « ايه ؟ ماذا ؟ ليست فى وضع سليم ؟ »

وقال المستر بكوك : « ما دمت ممسكا بها على هذا النحو . اننى آسف على اثارة أية اعتراضات أخرى ولكننى لا أرضى ان نتابع المسير ما لم تجعلها كما حملها ونكل من قبلك »

وقال الحارس الجديد : « أظن ياسيدى من الخير ان تفعل ، لانه من المحتمل كثيرا أن تطلق الرصاصة على نفسك أو على أحد سواك »

وبادر المستر طبمن الى النزول على الأمر فوضع بندقيته على الصورة المطلوبة ، وتابع الجمع المسير ، وكان الصائدان « الهاوبان » يمشيان منكسى السلاح ، كجنديين بسيطين فى جنازة ملكية »

وعندئذ وقف الكلبان فجأة لا يريدان تقدما وتسلل القوم خطوة واحدة ثم وقفوا هم كذلك .

وهمس المستر ونكل متسائلا : « ما الذى عرا سيقان الكلبين ؟ وما هذه الوقفة الغريبة ؟ »

وأجاب واردل مخافتا : « صه ! ألا تستطيع السكوت ؟ الا ترى كيف يشيران ؟ »

وقال المستر ونكل وهو يتلفت حوله كأنما كان يتوقع شيئا معينا من جمال المشهد وروعته : « كان الكلبان الذكيان يسترعيان الانظار اليه خاصة · أتقول يشيران ·· والى أى شيء يشيران ؟ »

وقال واردل غير ملق بالا الى هذا السؤال فى حماسة اللحظة : « افتح عينيك · والآن ! »

وارتفعت عندئذ جلبة ، وسمع رفيف طائر جعل المستر ونكل يتراجع كأنما قد أصابه الرصاص · وانبعث دوى طلقتين بانج ! بانج ! وانجاب الدخان سريعا مكتسحا الميدان، مقلوبا متجعدا فى جوف الأفق »

وقال المستر ونكل ، فى أشد الاضطراب ، وهو يتلفت ويدور فى كل ناحية : « أين هى ؟ قولوا لى متى أطلق النار ؟ أين هى ؟·· أين هى ؟ »

وقال واردل ، وهو يتناول حجلتين وضعهما الكلبان عند قدميه : « ها هما ! »

وقال ونكل فى ذهلته : « كلا · كلا اننى أقصد الاخرى »

وأجابه واردل ببرود وهو يعيد حشو البندقية : « طارت بعيدا ، وانت تسأل عنها »

وقال الحارس الطويل : « أكبر ظنى اننا سنلتقى بعد

خمس دقائق بسرب آخر ، فاذا بدأ السيد يطلق الآن فلعله مستطيع ان يخرج الرصاصة من الانبوبة عندما تتراءى الأطيار فى الفضاء »

وقهقه المستر ولر لهذه النكتة اللاذعة ٠

وقال المستر بكوك ، فى لهجة الرثاء لصاحبه فى اضطرابه وارتباكه : « يا سام ! »

ـ « سيدى »

ـ « لا تضحك »

ـ « بلا شك يا سيدى »

ومضى المستر ونكل على سبيل التعويض عن ارتباكه السابق ، يقطب تقاطيع وجهه من خلف عربة السيد ، والغلام ذو الأربطة فرح لاه بهذا المشهد وحده ، ولكنه لم يتمالك من اطلاق ضحكة مدوية ، فبادر الحارس الطويل الى لكزه كأن هذا اللكز حجة أو شفيع يبرر استدارته الى الوراء ، ليخفى ضحكاته هو من ذلك المشهد العجيب ٠

وقال واردل للمستر طبمن : « مرحى يا صاح ٠ لقد أطلقت النار فى هذه المرة على كل حال »

وأجاب المستر طبمن فى زهو ظاهر : « أى نعم ! »

وقال واردل : « أحسنت ، وستصيب شيئا فى المرة التالية اذا انتبهت ٠ سهل جدا ٠ أليس كذلك ؟ »

فأجاب طبمن : « بلى ٠٠ سهل للغاية ، وان كانت موجعة للكف ، لقد كادت تلقينى الى الخلف ٠ لم أكن أتصور ان هذه الأسلحة الصغيرة ترد المرء الى الخلف على هذا النحو »

وقال الشيخ مبتسما : « آه ! ستعتادها مع الوقت ، والآن، هيا ، كل شيء على استعداد ، والعربة معدة هي الاخرى ؟ »

وقال المستر ولر : « معدة ياسيدى »

ـ « هلموا اذن »

وقال سام وهو يرفع العربة . « امسك جيدا ياسيدى »

وصاح المستر بكوك . « ايه ! ايه ! »

وانطلقوا خفافا في طريقهم ·

وصـاح المستر واردل حين رفعت العربة من فوق أحـد الأسوار ! لتدخل ميدانا آخر ، وعاد المستر بكوك فاستقر فوقها : « دعوا هذه العربة تقف الآن الى الخلف »

وكف المستر ولر عن دفعهـا وهـو يقول : « سـأفعل ياسيدى »

والتفت الشيخ الى ونكل فقال : « والآن يا ونكل · اتبعنى متسللا ولا تتأخر كثيرا في هذه المرة »

وقال المستر ونكل : « لا تخف أبدا · هل هما يشيران ؟ »

وأجاب الشيخ : « كلا ! كلا ! ليس الآن ! فلنسكت اللحظة ولنهدأ قليلا »

وتسللوا ، وكانوا على وشك أن يتقدموا في هدوء وسكينة، لو لم يعبث المستر ونكل ، ببنـدقيته ويأت ببعض الحركات المعقدة الدقيقة ، فيطلق النار في أحرج لحظة ، من فوق رأس الغلام القصير ، في ذلك الموضع بالذات الذى كان رأس الحارس

الطويل سيكون فيه ، لو أنه كان واقفا فى البقعة التى وقف الغلام فيها ٠

وصاح الشيخ واردل قائلا : « لماذا بالله فعلت هذا ؟ » وقد رأى الطير تفر آمنة ليس عليها من سوء ٠

وأجاب ونكل المسكين ، وهو ينظر الى قفل البندقية ، كأن النظر اليها يجدى : « لم أر بندقية كهذه فى حياتى ، ان رصاصها ينطلق من تلقاء ذاته ، وستفعل هذا حتما »

وصاح واردل فى شىء من القلق والهياج : « ستفعل هذا حتما ٠ أتمنى لو أنها قتلت شيئا ومن تلقاء ذاتها أيضا »

وقال الحارس الطويل بصوت خفيض ، ولهجة المتنبىء : « لن يمضى وقت طويل ياسيدى حتى تفعل هذا »

وأجاب المستر ونكل بغضب : « ماذا تعنى ياسيدى بهذه الملاحظة ؟ »

وقال الحارس : « لا بأس ، ياسيدى ، لا بأس ٠ أنا لست متزوجا ولا رب أسرة ، وهذا الغلام الذى هنا ستأخذ أمه تعويضا حسنا من السير جفرى اذا هو قتل فى أرض صيده ٠ أعد حشد بندقيتك ياسيدى ٠ أعد حشوها »

وصرخ المستر بكوك من جانب العربة ، وقد ريع من تلميحات ذلك الحارس واشاراته المؤلمة : « خذوا منه هذه البندقية ، ليأخذها منه أحد منكم ٠ هل تسمعون ما أقول ؟ »

ولكن لم يتطوع أحد لتنفيذ أمره ، وأما المستر ونكل فقد أرسل نظرة متمردة ثائرة الى المستر بكوك وأعاد حشو بندقيته ، وانطلق مع الآخرين ٠

ونجد لزاما علينا أن نقول استنادا الى مذكرات المستر بكوك أن تقدم المستر طبمن مع الجمع كان أدنى الى الحكمة والحذر والروية ، من الطريقة التى اتبعها المستر ونكل ، ولكن هذا لا ينقص بحال من فضل هذا السيد وعلمه بكل ما يتصل بالصيد وفنونه ، فقد رأينا ـ كما قال المستر بكوك فأحسن القول ـ أن خلقا كثيرا من أفضل الفلاسفة وأقدرهم ، منذ أبعد القرون والأجيال ، كانوا فى زمانهم منارات عليا فى العلم ، من الناحية النظرية ، ولكنهم عجزوا كل العجز عن تطبيق نظرياتهم من الوجهة العملية .

فقد كانت طريقة المستر طبمن ، متناهية فى البساطة ، كشأن كثير من أكبر المكتشفات ، فقد أدرك فى الحال ، بسرعة الرجل العبقرى وحيطته ان أهم ما ينبغى تحقيقه من الاهداف فى الصيد نقطتان ـ الأولى أن يطلق بندقيته بحيث لا يحدث أذى لنفسه ، والثانية ـ أن يطلقها بحيث لا يتعرض أحد من النظارة للخطر . ومن الجلى أن الوسيلة المثلى ، بعد التغلب على صعوبة الأطلاق فى ذاته ، هى اغماض عينيه كل الاغماض، واطلاق الرصاص فى الفضاء .

وقد حدث فى احدى المرات ، بعد ان أغمض المستر طبمن عينيه وأطلق النار ، ثم فتحهما ، أن أبصر بطة سمينة وهى تسقط جريحة على الأرض ، فهم بأن يهنىء المستر ونكل بنجاحه المطرد ، ولولا ان رآه يتقدم نحوه ويمسك يده بحرارة .

وقال الشيخ : « لقد سددت يا طبمن الرماية الى تلك الحجلة بالذات ! »

وأجاب المستر طبمن « : كلا ، كلا »

قال : « بل لقد فعلت ، وقد رأيتك بعيني رأسي ، ولاحظت أنك صوبت اليهـا دون سواها . لقــد رأيت ذلك بنفسي ، وشاهدتك وأنت ترفع البندقية لتسدد الرمية ، وأريد ان أقول لك الحق ان أبرع الرماة في العالم كله لم يكن في استطاعته ان يفعل أكثر مما فعلت ولا أجمل رماية ممـا رميت ، انك لأبرع مما كنت أظن يا طبمن . هل سبقت لك في الصــيد سابقة ؟ »

وقد حاول المستر طبمن الاحتجاج ، وهو يبتسم ابتسـامة الايثار وانكار الذات ، ويقول انه لم يشترك في الصيد من قبل ، فلم يجد الانكار نفعا ، بل لقد اتخذت تلك الابتسـامة دليلا على العكس ، ومن تلك اللحظة توطدت شهرته في عالم الصيد ، ولم تكن تلك الشهرة هي الوحيدة التي نالها بهذه السهولة ، ولا كانت الظروف السعيدة الموفقة ، مقتصرة على صيد البط دون سواه .

أما المستر ونكل فقد ظل يرســل الشهب ، والنيران ، والدخان ، دون الوصول الى أية نتائج مادية تستحق الذكر ، بل راح أحيانا ينفق « الرش » في الفضاء ، وأحيـانا يطلقه ماسحا به سطح الارض مسحا يعرض حياة الكلبين لخطر بالغ ، فكان اطلاق الرصاص على تلك الصـورة منوعا كل التنويع ، وغريبا كل الغرابة ، اذا نظرنا اليه على أنه معرض لهو وعبث ، ولكنه من ناحية الرماية الى هدف معين ، قد يكون في الجملة اخفاقا ولا يخفى ان المثل السائر يقول : لكل رصاصة مستقر ، فان طبقناه على رصاصات المستر ونكل ، بدا لنا انها لم تكن سوى رصاصات « لقيطة » تعسة محرومه من حقوقها الطبيعية ، ألقيت الى هذا العالم القاء ، فلم تجد مستقرا .

وتقدم المستر واردل الى جانب المركبـة ، ومسح العــرق المتصبب عن وجهه الأحمر المرح وهو يقول : « كيف الحال ؟ انه ليوم « صائف » أليس كذلك ؟ »

وأجاب المستر بكوك : « انه لكذلك حقــا . ان الشمس لحارة أشد ما تكون حرارتها ، حتى بالنسبة لى ، وأنا الجالس لا حراك بى ، لست أدرى كيف تشعر بها انت ؟ »

وقال السيد الـكبير : « حارة جدا ، من غــير شك وقد تجاوزت الســاعة اثنتى عشرة . أتبصر تلك الربوة الخضراء التى تلوح هنالك ؟ »

ـ « بلا شك »

ـ « هذا هو الموضع الذى سنتناول فيه الغداء ، يمين الله . ها هو ذا الغلام قد حضر بالسلة فى الموعـد المضروب ، كأنه الساعة فى دقتها »

وتهللت أســارير المستر بكوك ومضى يقول : « حقــا انه لكذلك . يا له من غلام طيب .. سأنفحه شلنا فى الحال . يا سام هيا . ادفع العربة »

وقال المستر ولر ، وقد جددت من قواه أخيلة الغداء وقرب تناوله : « امسك جيدا ياسيدى ، وأنت يا صاحب الأربطة ، افسح الطريق ، ولا تقلبنى ان كنت تقدر حياتى الغالية ، كما قال ذلك السيد للسائق وهم يسوقونه الى طايبرن (١) »

وانطلق يسرع فى خطوه ، ويدفع عربة سيده بخفة نحــو

---

(١) ساحة الاعدام

الربوة النضيرة ، حتى وقف بها بجانب السلة تماما ، وأقبل يخرج ألوان الطعام منها فى سرعة فائقة وجعل يناجى نفسه ، وهو يصف الاطعمة فوق الحشائش : « فطير بلحم العجول ، هذا صنف بديع جدا ، حين تعرف السيدة التى طهته ، وتتأكد انه ليس لحم قطط ، وماذا يهم اذا كان أقرب ما يكون شبها الى لحم العجول حتى لا يعرف صناع الفطائر أنفسهم الفرق بين اللحمين ! »

وقال السيد بكوك : « أحقا لا يعرفون يا سام ؟ »

وأجاب المستر ولر ، وهو يلمس قبعته : « كلا ياسيدى ، لا يعرفون فعلا ، فقد كنت فى يوم ما أسكن مع صانع فطير فى مسكن واحد ياسيدى ، وكان الرجل لطيفا ، ملء ثيابه لطافة. ورجلا مجتهدا منتظما فى معيشته أيضا ، يستطيع ان يصنع فطيرا من أى شىء كان ، قلت له حين تأكدت الصداقة بيننا : كم من القطط تقتنى يامستر بردكس ؟ قال آه .. انى أقتنى كثيرا منها . قلت لابد من انك مولع جدا بالقطط ، فغمز لى بعينه وقال كثير الناس يربون قططا . ولكنهن لا موسم لهن متى ينقضى الشتاء ، قلت لا موسم لهن كيف ؟ قال نعم . ان للفواكه موسما ، ولكن القطط خارج الموسم ! قلت عجبا . ماذا تعنى ؟ قال أعنى ؟ أعنى اننى لن أتآمر مع الجزارين على تثبيت أسعار اللحوم . وراح يضغط بشدة ويهمس لى فى أذنى قائلا يامستر ولر ، أرجو ألا تذكر ما سمعته هنا أبدا ، ان الموسم هو الذى له دخل فى هذا كله . ان هذه الفطائر تصنع كلها من هذه الحيوانات النبيلة ، ومضى يشير الى قطة لطيفة صغيرة ، وأنا أقدد لحومها لصنع شطائر محمرة من لحم العجول الكبيرة والكلى حسب الطلب ، وفوق ذلك أستطيع أن أصنع من

لحم العجال الصغير شطائر محمرة أو من الشطائر كلاوى ، أو من هذا أو ذاك لحم ضأن ، في دقيقة واحدة ، حسب أحـــوال السوق ، والأذواق تختلف !

وقال المستر بكوك وهو يرتعش ارتعاشة خفيفة : « لابد من أن هذا لرجل كان شابا بارعا ماهرا ياسام »

ومضى المستر ولر يقــول وهــــو ماض فى تفريغ السلة : « فعلا ياسيدى · وكانت فطائره جميلة · ماذا أرى ؟ لسانا · هذا صنف بديع ، اذا لم يكن لسان امرأة ، وهذا خبز ، وهذا لحم خنزير مملح بديع ، قطع صغيرة من اللحم البارد ! مفتخر ، وماذا فى هذه القدور الفخارية يا هذا ؟ »

وأجاب الغلام وهو ينزل عن كتفه قدرين كبيرتين من الفخار مربوطتين بسير من الجلد فى هــذه القدر « بيرة » وفى الاخرى بنتش بارد »

وقال المستر ولر وهو يستعرض ترتيب الأطعمــة بسرور شديد : « انه لغداء شهى فى مجموعه · والآن أيها الســـادة اهجموا ! اهجموا ! كما قال الانجليز للفرنسـيين حين ثبتوا الحراب فى البنادق »

ولم يكن القوم بحاجة الى دعوة ثانية ليؤدوا لهذه الوجبــة حقها ، ولم يكن المستر ولر وذلك الحارس المارد والغــــلامان الآخـــران ينتظرون من يدعوهم الى الجلوس فوق العشب على مسافة قصيرة ، والانقضـــاض على نصيب طيب من اللحوم · وكانت من فوقهم شجرة سرو كبـــيرة تغمرهم بظل وارف ، ويحيط بهم مشهد ممتع تترامى فيه حيالهم المروج والحقـول وتتخلله أسوار وحواجز كثيرة من عوسج نضير ·

وأنشأ المستر بكوك يقول ، وقد أخذت بشرة وجهه البليغ في تعبيره ، تتقشر سريعا من اثر التعرض للهواء : « هذا مشهد بهيج ! بهيج كل البهجة ! »

وأجاب واردل : « هو كذلك ، هو كذلك يا صاح هيا ، كأسا من بنتش(١) »

وقال المستر بكوك : « بكل سرور » . وكان البشر الذى طفح على وجهه ، بعد تناول الشراب ، دليلا على صدق جوابه ، وانثنى يقول وهو يمسح بلسانه شفتيه : « بديع ، ممتع للغاية ، سأتناول كأسا أخرى ، انه لرطب ، رطب جدا ، هلموا يا سادة ، لنشرب نخب أصدقائنا فى دنجلى ديل »

وراح يصب الشراب من القدر وهو لا يفارقها .

وشرب النخب وسط صيحات عالية .

وقال المستر ونكل ، وهو يأكل خبزا ولحم خنزير بمطواة جيب : « سأقول لكم ماذا أنا صانع للعودة الى الصيد . سأضع بطة محشوة فوق قمة أحد الاعمدة وأتدرب على رميها ، مبتدئا من مسافة قصيرة ، ثم آخذ فى اطالتها شيئا فشيئا ، وأعتقد ان هذا تدريب بديع ! »

وقال المستر ولر : « اننى أعرف سيدا فعل ذلك ياسيدى ، مبتدئا بياردتين ، ولكنه لم يعد الى هذه التجربة أبدا لانه من الطلقة الاولى نسف الطائر نسفا فلم ير أحد له ريشا بعد ذلك »

---

(١) Punch نوع من المسكر .

وقال المستر بكوك : « يا سام ! »

وأجاب المستر ولر : « نعم ياسيدى »

قال : « من فضلك احتفظ بنوادرك حتى يطلب اليك »
ـ « بلا شك ياسيدى »

وهنا غمز المستر ولر بعينه غمزة لم يخفها وعاء الجعةالذى كان يرفعه الى شـــفتيه بلذة متناهية فلم يسع الغلامين غـير الانطلاق معا فى الضحك ، كما تفضل الرجل الطويل فابتسم.
وقال المستر بكوك ، وهو ينظر بجد الى تلك القــدر : « ان هذا البنتش السائغ فاخر بلا شك، واليوم قائظ مفرط القيظ، وأنت يا طبمن ياصديقى العزيز ألك فى كأس أخرى منه ؟ »

وأجاب المستر طبمن : « بأعظم السرور » . وبعد ان شرب المستر بكوك الكأس تناول أخرى ، لكى يتبين هل فى«البنتش» قشر برتقال ، لأن قشر البرتقال لا يوافق معدته دائما ، ولمـا لم يجد فيه أثرا له ، تناول كأسا أخرى ، فى صحة صــديقهم الغائب ، ثم وجد نفسه مضطرا حتما الى شرب نخب صـــانع البنتش ومقطره « المجهول »

وما لبثت الكؤوس المتوالية ان أحدثت أثرا كبـيرا فى نفس المستر بكوك ، فطفح محياه بشرا ظاهرا ، وابتســاما كثيرا ، وضحكا متتابعا حتى بدت نواجذه ، ومرحا شديدا يبرق فى عينيه ، وأخذ يستسلم شيئا فشيئا لحميا الشراب ، وبطشــة الصهباء ، وزاده اشتداد الهجير استسلاما ، فأبدى رغبة قوية فى تذكر أغنية كان قد سمعها فى طفولته ، ولكنه لم يستطع أن يتذكرها ، فالتمس تنبيهها واحتثاثها بكؤوس أخرى من « البنتش » تبين أنها أحدثت عكس التــأثير الذى كان يريده

منها ، فبعد ان نسى كلمات تلك الاغنية ، بدأ ينسى النطق بأى كلام اطلاقا ، وأخيرا ، وبعد ان تحامل على ســـاقيه ليخطب القوم ، ويسمعهم كلاما بليغـا ، سقط فى العربة ، وراح فى سبات عميق فى اللحظة ذاتها ٠

وبعد ان أعيدت الصحاف الى السلة ، وتبين انه من المتعذر تماما ايقاظ المستر بكوك من نعاسه الشديد ، أخذ القـــوم يبحثون هـــل كان يحسن بالمستر ولر أن يدفع العربة التى تقل سيده لمواصلة المسير ، أو أن من الأفضل أن يتركوه حيث هو ، حتى يعودوا اليه ٠ وتقرر أخيرا الاخذ بالخطة الثانية ، ولم تكن بقية الرحلة لتتجاوز الساعة ٠ وقد ألحف المستر ولر فى مرافقة الجماعة ، فصحت النية على ترك المستر بكوك نائما فى العربة ، والعودة اليه بعد الفراغ من الصـــيد ، وانطلقوا بعد أن تركوه يغط هادئا مستريحا فى الظل كما يشاء ، ويشاء له الغطيط ٠

والظاهر ان ليس ثمـة سبب معقول للشك فى ان المستر بكوك سيظل فى غطيطه تحت الظلال حتى يؤوب اليه أصحابه ، أو حتى ترتمى ظلال المســاء على المروج ، اذا هم تخلفوا عن الأوبة اليه ، ما دمنا نتصور انه قد ترك فى ذلك الموضـــع بأمان ، ولكنه لم يترك فى أمان فعلا ، واليك السبب ٠

كان الضابط بولدويج رجلا قصير القامة شـديد البطش ، يرتدى ثوبا سابغا أزرق اللون وغطاء رقبة اسود ، واذا تنزل يوما من عليائه ليتجول فى رحاب أرضـه ، حمل معه عصـا غليظة من الخيزران ذات كعب من نحاس ، واصطحب بستانيا وصبى بستانى يبدو الحلم على وجهيهما ، وتلوح الوداعة على سحنتيهما ، وكان الضابط بولدويج يصـــدر اليهما ــ لا الى

العصا ـ الاوامر فى عظمة وغلظة ، وكانت داره مغنى جميلا ، وأرضه بساتين وساحات صيد ، وكل شيء حوله رفيع ، وجليل وعظيم .

ولم يقض المستر بكوك فى ذلك السبات الذى استولى عليه غير نصف ساعة ، حتى أقبل الضابط بولدويج يتبعه البستانيان ، مسرعا على قدر ما يواتيه حجمه ، ويليق بخطر شأنه ، وحين اقترب من السروة الظليلة تمهل فى مسيره ، وأخذ نفسا مستطيلا ، ونظر الى ذلك المشهد ، كأنما كان يعتقد أن المشهد ذاته أولى به ان يتشرف بأنه قد استرعى انتباهه ، ثم راح يضرب بعصاه الأرض وينادى البستانى قائلا : « هنط ! »

وأجاب البستانى : « نعم ياسيدى »

ـ « حش هذا الموضع صباح غد ، هل أنت سامع يا هنط ؟ »

ـ « نعم ياسيدى »

ـ « واعتن بتنظيفه لى وتنظيمه . هل أنت سامع ياهنط ؟ »

ـ « نعم ياسيدى »

ـ « وفكرنى فى صنع لافتة خشبية لتحذير العامة من دخول هذ الارض وطلب الصيد فيها وما الى ذلك . أأنت سامع ؟ أأنت سامع ؟ »

ـ « لن أنسى ذلك ياسيدى »

وتقدم الآخر ويده مرفوعة الى قبعته فقال : « استمحيك المعذرة ياسيدى »

وقال الضابط بولدويج : « ايه يا ولكنز ما حكايتك ؟ »

ـ « أستميحك المعذرة ياسيدى . ولكنى أعتقد أنه كان هنا اليوم متعدون يطلبون صيدا »

وقال الضابط بولدويج مزمجرا وهو يدير عينيه فى المكان « ها ! »

ـ « نعم ياسيدى ، وأحسبهم تناولوا غذاءهم هنا ياسيدى»

وقال الضـــابط بولدويج وقـد وقعت عينه على الفتـــات والفضلات المتناثرة فوق الحشـــائش : « ما أوقحهم وأشد جرأتهم ! أحسبهم قد فعلوا ، والواقع انهم قد التهموا طعامهم هنا »

ومضى يقول فى حنق وهو يشدد قبضته على عصاه الغليظة: « ليتنى رأيت هؤلاء المتشردين هنا ! »

وقال ولكنز : « عفوا ياسيدى ولكن ... »

وزأر الضابط قائلا : « ولكن ماذا ؟... »

وأتبع عينيه نظرات ولكنز الخائفة ، فوقعتـــا على العربة والمستر بكوك .

وقال الضابط وهو يلكز المستر بكوك عدة لكزات بعصاه : « من تكون أيها الشقى ؟ وما اسمك ؟ »

وغمغم المستر بكوك قائلا : « بنتش باردِ ! وراح فى النوم مرة أخرى »

وصاح الضابط بولدويج : « ايه .. ؟ »

ولكنه لم يتلق جوابا .

وسأل الضابط تابعيه : « ما هو الاسم الذى قاله ؟ »

وأجاب ولكنز : « أظنه قال بنتش ياسيدى »

وقال الضابط بولدويج : « هذه وقاحته ، هـــذه وقاحة اللعين ، انه يتظاهر الآن بالنوم • انه سكران • رجـــل من السوقة طافح خمرا ، ابعده بعربته يا ولكنز • أسرع بابعاده من وجهى ، هيا ادفعه »

وقال ولكنز بخوف شديد : « الى أين ياسيدى ؟ »

وأجاب الضابط بولدويج : « الى الشيطان ! »

وقال ولكنز : « سمعا وطاعة ياسيدى »

وقال الضابط : « قف ! »

فامتثل البستانى للأمر •

وقال الضابط : « ادفع به ، ادفع به الى الحظيرة ودعنا نر هل سيدعو نفسه بنتش حتى يفيق • لا أريد أن أتنكد بسببه، هيا ، ادفع به »

ودفع بالمستر بكوك امتثالا لهذا الامر القـــاهر ، وانطلق الضابط بولدويج الجبار فى طريقه متورما منتفخا من ســورة الغضب •

ولشد ما كانت دهشة الجماعة حين عادوا فلم يجدوا المستر بكوك فى الموضع الذى تركوه فيه ، وبدا لهم انه أخذ العربة معه ، فقد كان ذلك أغرب شىء سمع الناس به ، وأشـــد شىء غموضا واستغلاقا على الأفهام ، فان نهوض رجل أعرج مستويا على ساقيه بلا سابق انذار وانصرافه من ذلك الموضع قد يكون حادثا خارقا للمألوف الى أبعد الحدود ، أما ان يتمكن من دفع عربة ثقيلة أمامه ، على ســبيل العبث والتسلية ، فشىء يبلغ قطعا حد المعجزات •

ومضوا ينقبون فى كل ركن ويبحثون فى كل زاوية آحادا ومجتمعين ، ويصيحون بأعلى أصواتهم ، ويطلقون الصـــفير ، والضحكات ، وينادون باسمه . ولكن كانت النتيجة واحدة . وهى الفشل فى العثور عليه ، وبعد بحث لا جدوى منه بضع ساعات انتهوا الى قرار أليم وهو أن يعودوا أدراجهم يائسين .

وكان المستر بكوك عندئذ قد نقل بعربته الى الحظيرة وترك فى أمان ، وهو لا يزال مستغرقا فى النوم ، ولشـــد ما كان فرح أولاد القرية ، بل ما كان أشد سرور ثلاثة أرباع أهلها ، وقد احتشدوا من حول الحظيرة ، منتظرين حتى يروه صاحيا من النوم . واذا كان مجرد رؤيتهم اياه وهو مدفوع اليها فوق العربة قد أثار فى نفوسهم أشد السرور ، فمـا بالك بفرحهم وابتهاجهم حين يشهدونه ، بعـــد بضع نداءات غير واضـحة « يا سام ! » قد استوى جالسا فى العربة وراح ينظر وهـو فى دهشة لا توصف الى الوجوه المترائية لعينيه . لقـــد كان فرحهم فى تلك اللحظة بلا شك أضـــعافا مضاعفة ، وكانت الصيحة العامة بالطبع هى الاشارة بأنه قد صحا من النوم ، وجاء تساؤله بالضرورة : ما الخبر ؟ فكان مدعاة الى صـيحة أشد من الأولى ، ان أمكن أن يكون بعد الأولى ما هو أشد منها .

وصرخ النظارة : « ما أعجبه من منظر ! »

وصاح المستر بكوك : « أين أنا ؟ »

وأجاب الغوغاء : « فى الحظيرة »

« كيف جئت الى هنا ؟ وماذا كنت أفعـــل ؟ ومن أين جيء بى ؟ .. »

فكان الرد الوحيد : « بولدويج ·· الضابط بولدويج »

وعاد المستر بكوك يصيح : « أخرجونى ، أين خادمى ؟ وأين أصحابى ؟ »

وصاح الناس به : « لا أصحاب لك ، مرحى ! »

وألقى بعضهم عليه لفتة ، ورشقه آخرون بقطعة من البطاطس ، وترامت اليه بيضة ، وبضعة رموز أخرى وأدلة على فرح القوم وانبعاثهم الى المداعبة والعبث ·

وليس فى استطاعة أحد ان يقول الى متى كان هذا المشهد سيطول ، أو الى أى حد كان المستر بكوك سيعانى من عبث العابثين ، لو لم تقف فجأة عربة كانت مسرعة بقرب ذلك الموضع وينزل منها الشيخ واردل وسام ولر ، وينطلق أولهما مسرعا ، فيصل اليه فى أقل مما تستغرقه كتابة هذه السطور ، ان لم نقل قراءتها ، ويحمله الى المركبة ، بينما كان الآخر قد انتهى من الجولة الثالثة والاخيرة فى معركة منفردة بينه وبين شماس القرية ·

وصاحت عدة أصوات تقول : « نادوا المأمور ! »

ووثب المستر ولر الى مكانه بجانب السائق وهو يقول : « هلموا أسرعوا فنادوه ، وأبلغوه تحياتى ، تحيات المستر ولر ، وقولوا له أننى ضربت شماسكم واذا أرسل أحدا سواه فسأعود غدا وأوسعه هو الآخر ضربا · هيا سق أيها الحوذى !»

وقال المستر بكوك حين خرجت المركبة من حدود القرية : « سأكلف أحدا برفع دعوى حجز بلا مبرر على الضابط بولدويج بمجرد وصولى الى لندن »

وقال واردل : « يظهر اننا تعدينا على أرضه »

وعاد المستر بكوك يقول : « لا يهمني ، سأرفع دعوى حتما »

وقال واردل : « كلا ، لن تفعل »

وأجاب المستر بكوك منفعلا : « بل سأفعلن بحق » . وكاد يقسم لولا ان بدت أمارات المزاح على وجه واردل فأمسك وقال « ولم لا ؟ »

وأجاب الشيخ واردل ، وهو يكاد يستلقى من الضحك . « لانهم قد يقلبون الدفة على أحدنا فيقولون انه كان قد أفرط كثيرا فى شرب البنتش »

فلم يتمالك المستر بكوك من اخفاء ابتسامة خطفت بوجهه ، وما لبثت الابتسامة ان امتدت فكانت ضحكة ، وتطورت الضحكة الى قهقهة مدوية ، والقهقهة الى زأرة عامة ، ولكى يظل مزاجهم صافيا ، وقفوا عند أول حانة وجدوها على الطريق وطلبوا « دورا » من البراندى والماء وقدرا كبيرا من شراب شديد البطش للمستر ولر .

الفصل العشرون

يبين كيف بدأ ددسن وفج من رجال الأعمال ، وكيف كان الكتبة أهل مجانة ، وكيف جرى حديث مؤثر بين المستر ولر ووالده الغائب عنه من عهد طويل ، ويصف أيضا صفوة « الزبائن » الذين يختلفون الى حانة « ماجباى اصطمب » وكيف يكون الفصل التالى ممتعا غاية الامتاع ..

فى الطابق الارضى من واجهة بيت أغبر الطلاء ، فى الطرف الاقصى من محكمة « فريمان » فى كورنهل ، كان يجلس الكتبة الأربعة الذين يعملون فىمكتب السيدين ددسن وفج المحامين أمام المحكمة العليا ومحكمة الأحوال الشخصية فى وستمنستر ، والقضاء العالى ، وهم لا يرون نورا ولا شمسا ، الا كما يرجو انسان أن يرى لمحات منهما ، وهو فى قاع بئر عميقة ، ولا يتاح لهم رؤية الكواكب فى السماء الا ما يتاح له فى ذلك الموضع المنعزل .

وكان مكتبهم غرفة مظلمة عفنة رطبة ذات حاجز يحجبهم عن الانظار ، ومن خلفه كرسيان قديمان من الخشب ، وقد قامت فوق أحد جدرانها ساعة « دقاقة » شديدة الدق و « تقويم »

للأيام والشهور ، ومشجب للمظلات ، وآخران للقبعـــات ، وبضعة أرفف وضعتفوقها عدة اضبارات تتدلى منها قصاصات تحوى أرقامها وعناوينها ، وملفات من أوراق قذرة ، وصناديق قديمة من الخشب وسمت بعناوينها كذلك وبياناتها ، وعـــدة زجاجات فخارية للمداد من مختلف الأشكال والأحجام ، وفي الحجرة باب زجاجي يؤدى الى دهليز يفضى الى الفناء ·

والى الجانب الخارجى من ذلك الباب الزجاجى تقدم المستر بكوك ، يتبعه سام ولر ، فى صبيحة يوم الجمعـــة الذى تلا الحادث الذى رويناه بأمانة فى الفصل السابق ·

وصاح صوت من خلف الحاجز ، ردا على طرقة خفيفة بالباب من كف المستر بكوك : « أدخل ، ألا تستطيع ان تدخل ؟ »

ودخل على الصوت المستر بكوك وسام ·

وتقدم المستر بكوك ، والقبعة فى يده نحو الحاجز فى رفق وسأل قائلا : « هل المستر ددسن أو المستر فج هنا ياسيدى؟»

وأجاب الصوت قائلا : « المستر ددسن ليس هنـــا الآن ، والمستر فج مشغول فى هذه اللحظة » ، وتطلع الرأس الذى انبعث هذا الصوت منه من فوق الحاجز والقلم خلف أذنه ،الى المستر بكوك ·

وكان رأسا رثا ، تلوى شـــعره المصفر المفروق على جانب واحد منه ، والمدهـــون ببعض الأدهنة العطرة ليســتقر فى موضعه ، فبدا ذوائب شـــبه مستديرة حول وجه مسطوح ذى عينين ضيقتين ، وقميص قذر وربطة عنق سوداء ناحلة ·

وعاد المستر بكوك يسأل : « ومتى ينتظر ان يعـود المستر ددسن ياسيدى ؟ »

ـ « لا أعرف »

ـ « وهل يطول انشغال المستر فج ياسيدى ؟ »

ـ « لا أعرف »

وشرع الرجل فى اصلاح قلمه بكل تؤدة ، بينمـــا ضحك كاتب آخر ضحكة الموافقة على ما أجاب به زميله وكان يذيب قدرا من مسحوق « السيدلتز » الملين ، خلف غطاء مكتبه .

وقال المستر بكوك : « أظن انه يحسن بى ان أنتظر »

ولم يتلق جوابا ، فجلس غـــير مأمور ، وأصغى الى دقات الساعة ، وغمغمة الكتبة وهم يتجاذبون أطراف الحديث .

قال أحدهم ، وهو فى رداء رمادى وأزرار نحاسية وسراويل سود وحذاء قصير ، فى ختام كلام له غير مسموع عن واقعـة حال له : « فى الليلة الماضـــية ، لقد كانت ممتعـة ، أليس كذلك ؟ »

وقال الرجل الذى يمزج « السيدلتز » : « جد ممتعة ، جد ممتعة »

وقال ذو الرداء الرمادى : « وكان توم كومنز فى كـــرسى الرياســـة ، وكان الوقت منتصف الخامســة حين وصلت الى سمرز تاون ، وكنت ســكران ثملا فلم أهتـد الى الثقب الذى يدخل فيه المفتاح ، فاضطررت الى دق الباب وايقـــاظ المرأة العجـــوز . ولست أدرى ماذا سيقول العجـوز فج اذا عرف

الحادث • سيطردنى من العمل ، أليس كذلك ؟ »

وضحك الآخرون جميعا لهذه الفكرة اللطيفة •

وقال ذو الرداء الرمادى : « لقد حدث فصل بديع مع فج هنا فى هذا الصباح ، فبينما كان جاك فى الدور العلوى يفرز الأوراق ، وأنتما الاثنان قد خرجتما للذهاب الى مكتب دفع الرسوم ، جاء فج الى هنا ليفتح البريد ، واذا الرجل الذى استصدرنا ضده أمر أداء فى « كمبرول » كما تعرفون يفاجئنا • ما اسمه ؟ فقد نسيت »

وقال الكاتب الذى كان قد خاطب المستر بكوك : « اسمه رمزى »

وقال : « آه ! رمزى وهو عميل طيب موعوك ، ونظر اليه الشيخ فج بحدة شديدة وقال : خير ان شاء الله • وأنتم تعرفون طريقته ـ هل جئت لتسوية المسألة ؟ وأجاب رمزى وهو يدس يده فى جيبه ويخرج النقود : « نعم ياسيدى ، ان مقدار الدين جنيهان وعشرة شلنات والنفقات ثلاثة جنيهات وخمسة شلنات • وها هى ذى ياسيدى » وزفر زفرة حارة ، وهو يقدم النقود ملفوفة فى ورقة « نشاف » • فنظر الشيخ فج أولا الى المال ، ثم الى الرجل ، ثم سعل سعلته المعهودة ، وعندئذ عرفت أنه يضمر أمرا • قال : « ألا تدرى أن هناك اعلانا سيزيد جملة النفقات الى حد كبير ؟ » فأجفل رمزى من هذا القول ، وأجاب : « لا تقل ياسيدى ، ان الأمر وصل الى علمى ليلة أمس فقط ، ياسيدى » وأجاب فج : « أقول هذا وأكرره • لقد ذهب كاتبى الساعة لتسجيله • ألم يذهب المستر جاكسون

لتسجيل الاعلان في قلم الكتاب بشأن قضية « بولمان ورمزى » يامستر وكس ؟ » فقلت طبعا نعم . فبيعمل فج سعلة أخرى ونظر الى رمزى ، وقال هذا : « يا الهى ! وأنا الذى كدت أجن فى سبيل جمع هذا المبلغ من هاهنا وهاهنا ، ولم أحصل عليه الا بشق الأنفس ثم لا ينتهى الأمر الى نتيجة » وقال فج بفتور : « لا نتيجة مطلقا ، فالأفضل أن تعود فتجمع مبلغا آخر وتأتى به فى الموعد المضروب » وأجاب رمزى وهو يضرب المكتب بقبضة يده : « ولكنى والله لا أستطيع » وقال فج وقد بدأ يغضب تعمدا : « لا تضايقنى ياسيدى » فقال رمزى : « لست أضايقك فى شىء ياسيدى » وقال فج : « بل أنت تضايقنى فعلا . أخرج من المكتب ياسيدى وارجـــع لى حين تعرف كيف تكون مؤدبا » وعندئذ حاول رمزى ان يتكلم ، ولكن فج منعه ، فرد المال الى جيبه وتسلل منصرفا . وما كاد الباب يغلق حتى دار الشيخ فج نحوى ، وعلى وجهه ابتسامة بديعة ، وأخرج الاعـــلان من جيبه ، وقال لى اسمع يا وكس ، خذ مركبة واذهب الى المحكمة بكل سرعة ممكنة وسجل هذا الاعلان . ان المصاريف والاتعاب فى أمان ، لانه رجل مستقيم وله أسرة كبيرة ومرتبه خمسة وعشرون شلنا فى الإسبوع ، واذا أمكننا ان نحصل على حكم بالأداء ، وهو ما أنا واثق به ، فسوف ينقدنا الثمن أصحاب العمل الذين يستخدمونه ، وهكذا يتسنى لنا ان نأخذ منه كل مافى امكاننا أخذه ، اسمع يامستر وكس ، انه عمل لا يتنافى مع أحكام المسيحية وتعاليمها ، لانه سينصلح حاله بهذا الدرس النافع الذى سيعطى له ، وهو رجل ذو أسرة كبيرة ، ودخـــل صغير ، حتى لا يعـــود الى الاستدانة . ألا ترى ذلك يا مستر وكس ؟ ألست معى فى هذا ؟ وابتسم ابتسامة مطمئنة رفيقة وانصرف ، وكان منظره فى تلك اللحظة ممتعا »

وسكت المستر وكس لحظة ثم عاد يقول بلهجة اعجـــاب شديد : « انه رجل عمل بديع ، بديع حقا ، أليس كذلك ؟ »

وأمن الثلاثة الآخرون على قوله ، وأحسوا بارتياح لا حد له لهذه القصة التى رويت لهم ٠

وهمس المستر ولر لسيده قائلا : « انهم خلق ظرفاء أهل لطف ياسيدى ! »

وأومأ المستر بكوك موافقا وســعل ليجتذب أنظار الســادة الجالسين خلف « الدريئة » وكان هــذا الحديث القصير الذى دار بينهم قد أراح خواطرهم ، فتنازلوا الى اظهـــار شىء من الاهتمام بذلك الغريب ٠

فقال جاكسن . « لست أدرى هل انتهى فج من عمله الآن؟»

وقال وكس ، وهو ينزل بكل رفق وتؤدة من فوق كرسيه الطويل : « سأرى أى اسم أحمله الى المستر فج » .

وقال الرجل الذائع الصيت صـــاحب هــذه المذكرات : « بكوك »

وصعد المستر جكسن السلم ليؤدى هــذه المهمة وعاد على الاثر يقول ان المستر فج سيقابل المستر بكوك بعــد خمس دقائق ، وعاد الى مكتبه بعد ان نقل الرسالة التى جاء بها ٠

وهمس وكس : « ما هو الاسم الذى ذكر ؟ »

وأجاب جكسن : « بكوك ٠ انه الشخص المدعى عليــه فى قضية باردل وبكوك »

وتعالت فجأة مواقع أقدام مختلطة بضحك مكبوت من خلف الحاجز ٠

وهمس المستر ولر قائلا : « انهم ، يهزءون بك ياسيدى »

وأجاب المستر بكوك : « يهزءون بى ياســـام ! ماذا تعنى بقولك يهزءون ؟ »

وهنا أشـــار المستر ولر بابهـامه من فوق كتفه ، فتطلع المستر بكوك ببصره ، فتبين له أن وجوه الكتبة الأربعة جميعا تنم عن سرور بالغ ، وانهم يطلون برءوسهم من فوق الحاجز الخشبى ، ويدققون البحث فى شكل هذا العابث « المزعوم » بأفئدة النساء والمكدر لصـــفاء عيشهن ، وما ان تطلع ببصره حتى توارت تلك الرءوس فجأة ، وتلا اختفاءها صرير الاقلام وهى تمر على الورق بسرعة متناهية .

ودق الجرس فى المكتب فجأة ، طالبا حضور المسترجكسن الى مكتب فج ، فانصرف مسرعا ، وعاد يقــول انه ، أى فج ، مستعد لمقابلة المستر بكوك لو تكرم بالصعود الى غرفته .

وصعد المستر بكوك السلم ، تاركا ســـام ولر فى الطابق الأرضى ، وكان مكتوبا على باب الغرفة « المستر فج » بحروف واضحة ، وبعد ان طرق جكسن الباب وقيل له ادخل . تقدم ليعلن ان المستر بكوك قد حضر .

وسأل المستر فج الكاتب : « هل المستر ددسن هنا ؟ »

وأجاب جكسن : « لقد حضر اللحظة ياسيدى »

ـ « ادعه الى الحضور »

ـ « نعم ياسيدى »

وانصرف جكسن .. وانثنى المستر فج يقــول للمستر بكوك : « تفضــــل بالجلوس ياسيدى ، ها هــو ذا الورق

ياسيدى . وسيأتى شريكى فى الحال ، وعندئذ نستطيع ان نتحادث فى هذه المسألة ياسيدى »

وجلس المستر بكوك وتناول الورق ، ولكنه لم يقرأه بل مضى يطل من فوقه على الرجل الجالس أمامه ، فاذا هو يبدو لعينه كهلا ذو وجه كثير البثور ، يلوح كأنه من معاشر النباتيين وأكلة الخضر ، فى رداء اسود ، وسراويل رمادية ، وأغطية سيقان سود ، وكأنه جزء لا ينجزأ من المكتب الذى جلس اليه ، ويماثله تفكيرا واحساسا .

وانقضت بضع لحظات فى صمت وعندئذ دخل المستر ددسن فاذا هو رجل بدين مهيب عبوس جهير الصوت .

وابتدأ الحديث .

قال فج : « ها هو المستر بكوك »

وقال ددسن : « آه .. أأنت المدعى عليه فى قضية باردل وبكوك ، ياسيدى ؟ »

وأجاب المستر بكوك : « أنا ياسيدى »

وقال ددسن : « حسنا ياسيدى ، وماذا تقترح ؟ »

وتبعه فج فقال : « آه ، ماذا تقترح يامستر بكوك ؟ » ودس يديه فى جيبى سراويله ، وأسند ظهره الى المقعد .

وقال ددسن : « صه يافج . ودعنى أسمع ماذا يريد المستر بكوك ان يقول »

ونظر المستر بكوك بهدوء الى الزميلين وأنشأ يقول : « لقد

جئت أيها السيدان الى هنا لأبدى دهشتى حين تلقيت كتابكما منذ أيام ، ولأسئل ما هى الأسباب التى ستستندون اليها فى رفع الدعوى على ؟ »

ولم يكد فج يقول : « الأسباب التى ... » حتى منعه ددسن من الكلام قائلا : « يامستر فج ، أنا سأتكلم »

وقال فج : « معذرة يامستر ددسن »

ومضى ددسن فى تعال وسمو يقول : « أما عن أسباب الدعوى ، فهذه تسأل عنها محاميك ، وتستطلع شعورك ، أما نحن ياسيدى فليس أمامنا غير أقوال موكلتنا ، وقد تكون أقوالها ياسيدى صحيحة ، وقد لا تكون كذلك ، وقد تكون مصدقة ، وقد تكون بعيدة عن التصديق ، ولكن اذا كانت صحيحة ، ومصدقة ، فلست أتردد فى القول ياسيدى بأن حججنا فى الدعوى قوية ، لا يدحضها شىء ، وقد تكون سيىء الحظ ياسيدى ، وقد تكون عامدا ، ولكن اذا أنا طلبت بوصفى محلفا مؤديا اليمين ، لابداء رأيى فى تصرفك ، فلست أتردد فى القول بأنى لا أملك غير رأى واحد فيه »

وهنا نصب المستر ددسن قامته ، بلهجة المستاء من انكار فضله ، ونظر الى فج ، فما كان من هذا الا أن غيب يديه فى جيبه ، وهز رأسه هزة الحكمة وقال بلهجة الموافقة التامة : « بلا أدنى شك »

وقال المستر بكوك والألم الشديد مرتسم على وجهه : « اسمح لى ياسيدى أن أؤكد لك اننى فى هذا الأمر سىء الحظ الى أبعد حد »

وأجاب ددسن قائلا : « أرجو أن تكون كذلك ياسـيدى ، بل يقينى انك كذلك ياسيدى • فان كنت حقيقة بريئا ممـا اتهمت به ، فأنت أسوأ حظا من أى انسان يمكن أن يصـاب بسوء الحظ • ما رأيك يامستر فج ؟ »

وقال فج وهو يبتسم ابتسامة من لا يصـدق ما سمع : « اننى أقول ما قلته تماما »

ومضى ددسن : « ان الاذن الصادر برفع الدعوى صـادر ياسـيدى من الجهة التى تملك اصـداره ، يامستر فج أين سجل صحف الدعوى ؟ »

وقال فج وهو يناول زميله سجلا مربع الشـكل ذا غلاف من الورق المقوى : « ها هو ذا »

ومضى ددسن يقـول : « ها هو ذا المدون فى السـجل « مدلسكس فى قضية مارتا باردل ضـد صمويل بكوك •• التعويض المطلوب عن الأضرار ألف وخمسمائة جنيه ـ الوكيل عن المدعية ددسن وفج ـ فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٣٠ » كل شىء قد تم وفقا للقانون ياسيدى »

وسعل ددسن ونظر الى فج فقال هـذا : « تماما » وعادا ينظران معا الى المستر بكوك •

وقال المستر بكوك : « أفهم من هذا اذن ان فى نيتكما فعلا المضى فى الدعوى ؟ »

وأجاب ددسن بشىء أقرب الى الابتسام بقدر ما يسمح له مركزه : « تفهم ياسيدى ؟ لك أن تفهم هذا بلا ريب »

وقال المستر بكوك : « وان التعويض هو فعـلا مقدر بألف وخمسمائة جنيه ؟ »

وأجاب ددسن : « نرالى هذا الفهم لك أن تضيف تأكيدى اننا لو أردنا أن نؤثر فى موكلتنا لجعلنا التعويض ثلاثة أضعاف هذا القدر ياسيدى »

وقال فج ، وهو ينظر الى ددسن : « وأعتقد ان السيدة باردل قالت انها لن ترضى بأقل من ذلك درهما واحدا »

وأجاب ددسن بتجهم : « بلا نزاع لأن الدعوى انما بدأت الآن ، ولا يجدى فيها قبول أى تراض من جانب المستر بكوك ، حتى وان أراد تراضيا »

وانثنى الى المستر بكوك فقال وهو يلوح بقصاصة من الورق فى يمناه ، ويقدم صورة منها بكل لطف اليه : « وما دمت لم تعرض شروطا ياسيدى ، فمن الخير أن أقدم اليك نسخة من الاذن الصادر ، واحتفظ بالاصل وهو فى يمينى كما ترى »

ونهض المستر بكوك من مجلسه ، ونهض معه غضبه فى وقت واحد ، وهو يقول : « حسن جدا ، حسن جدا ، أيها السيدان . سيتصل بكما وكيلى »

وقال فج وهو يفرك يديه : « سنكون سعيدين جدا اذا فعل . »

وقال ددسن وهو يفتح الباب : « جدا »

وعلى رأس السلم وقف المستر بكوك الثائر ثم استدار قائلا : « اسمحا لى أيها السيدان قبل انصرافى ان أقول انه ليس فى جميع الاجراءات المعيبة الخبيثة ما هو .. »

وهنا قاطعه ددسن بأدب بالغ قائلا : « قف ياسيدى لا تذهب ، يا مستر جكسن ، يامستر وكس ! » .

وأجاب الكاتبان وقد ظهرا فى أسفل السلم : « نعم ياسيدى »

قال : « أريد منكما فقط أن تسمعا ما سيقوله السيد . من فضلك استمر ياسيدى ، أظنك قلت إنه ليس فى جميع الإجراءات المعيبة الخبيثة ما هو . . . »

وأجاب المستر بكوك وقد تملكه الغضب : « نعم . لقد قلت انه ليس فى جميع الاجراءات المعيبة الخبيثة التى التجىء اليها فى يوم من الأيام ما هو أعيب من هذا الاجراء ولا أخبث منه . وأنا الآن أكرر ما قلت ياسيدى » .

وقال ددسن : « هل سمعت يا مستر وكس ؟ »

وقال فج فى اثره : « لا تنس هذه العبارات بالنص يامستر جكسن »

وقال ددسن : « ولعلك تحب ياسيدى ان تسمينا « نصابين » فقلها من فضلك اذا شئت ، هلم ياسيدى قلها من فضلك »

وقال المستر بكوك : « فعلا أنتم نصابون ! »

وقال ددسن : « جميل جدا هل أنت سامع أيها الواقف فى أسفل السلم . يامستر وكس ، أنت شاهد !؟ »

وأجاب وكس : « أى نعم ياسيدى »

وأضاف فج قائلا : « يحسن ان تصعدا قليلا اذا لم تستطيعا

سماع ما يقول . تفضل ياسيدى . اســـتمر بالله عليك . الأفضل أن تسمينا لصوصا ياســـيدى ، أو لعلك تحب أن تتعدى على أحد منا . فافعل ياسيدى اذا شئت ، فلن نبدى أقل مقاومة . تفضل أرجوك »

وتقدم فج على ســبيل الاغراء والتحريض فوقف على منال قبضـــة المستر بكوك ، وليس ثمة شك فى انه كان سيلبى ذلك الرجاء الملح ، لولا تدخل سام فى تلك اللحظة ، وكان قد سمع ذلك الحــوار فخرج مسرعا من المكتب وصــعد السلم وأمسك بذراع سيده ، وهو يقول : « تعال ، ان مشـــاهدة لعبة المضرب والكرة جميلة جدا ، ولكنها بينك وبين اثنين من المحامين وأنت لا بالكرة ولا همــا بالمضرب . منظر لا يسر .. هيا بنا ياسيدى . واذا أردت أن تريح خاطرك بضرب أحد ، فتعال الى الفناء واضربنى أنا ، ولكن الضرب هنا عملية غالية التكاليف »

وراح المستر ولر دون أن يكلف نفسه شيئا ينزل ســيده السلم ويسير به الى الفناء ، حتى اذا استقر به فى «كورنهل» واطمأن ، عاد يمشى خلفه ، تاركه يذهب به ا لى أى مكان يشاء

ومضى المستر بكوك مشدوها شارد الخاطر ، فاجتــاز دار البلدية ، وعطف على حى شيبصايد ، وبدأ سام يعجب له أين تراه يريد الذهاب ، وعندئذ دار سيده اليه فقال : « ياسام ، سأذهب فى الحال الى مكتب المستر بركر »

وأجاب المستر ولر : « هذا ، هو المكان بالذات الذى كان أولى بك ان تذهب اليه فى الليلة الماضية ياسيدى »

وقال المستر بكوك : « هذا صحيح يا سام »

وأجاب المستر ولر : « أنا أعرف أنه صحيح »

ومضى سيده يقول : « حسن ، حسن ، ياسام ! فلنذهب اليه فى الحال · ولكننى أولا أرانى معكر المزاج مما حدث وأحب أن أتناول كأسا من البراندى بالماء الساخن يا سام ، فأين تظننى أتناوله ؟ »

وكان علم المستر ولر بلندن واسع المدى عجيبا ، فأجاب على الفور ، وبلا أقل تفكير : « اتجه الى اليمين ، واقصد المحل الذى قبل الاخير ، وعلى يمينك أيضا ، وخذ المقصورة التى أمام أول موقدة لأن المائدة التى فيها ليست لها رجل فى الوسط ، ولكن الموائد الاخرى لها أرجل وسطى ، وهى متعبة جدا »

واتبع المستر بكوك توجيهات خادمه بالحرف الواحد ، وطلب اليه أن يتبعه ، ودخل الحانة التى أشار سام اليها ،ولم يلبث البراندى المزيج بالماء الساخن ان وضع أمامه بينما جلس المستر ولر احتراما له على مسافة منه ، الى المائدة ذاتها ، وسعى اليه الخادم بقدر طيب من النبيذ ·

وكانت القاعة بسيطة كل البساطة ، والظاهر ان حوذية المركبات الحافلة هم الذين يتولون أمر الاشراف عليها خاصة، لأن عددا كبيرا ممن تلوح عليهم مظاهر السائقين كانوا جلوسا فى المقاصير يشربون ويدخنون ·

وكان من بينهم رجل بدين محمر الوجه تجاوز حدود الكهولة يجلس فى المقصورة المقابلة ، وقد جذب شكله اهتماما خاصا من المستر بكوك ، فقد كان مفرطا فى التدخين وكان بين كل بضعة أنفاس من الدخان ينزع القصبة من فمه ،وينظر

أولا الى المستر ولر ، ثم الى المستر بكوك ، ثم يكب بعد ذلك على وعاء من الشراب ، فيدخل فيه من وجهه ما يسمح حجم الوعاء بدخوله ، ويعود فينظر اليهما ، ثم يتناول بضعةأنفاس من الدخان وهو مستغرق فى التفكير ، ويعاود القاء نظرة عليهما ، وأخيرا راح يضع ساقيه على المقعد ويسند ظهره الى الجدار ، ويعاود أخذ أنفاس مستطيلة من القصبة ، وهو يحملق فيهما البصر من خلال ذوائب الدخان المتصاعدة منها ، كأنما قد صحت منه النية على أن يشهد منهما أكبر قدر ممكن من المشاهدة .

وكانت حركات الرجل البدين قد غابت فى أول الامر عن نظر المستر ولر ، ولكنه حين رأى عينى المستر بكوك تتجهان اليه بين لحظة وأخرى بدأ شيئا فشيئا ينظر فى اتجاه نظرات سيده ، مظللا عينيه بكفه ، كأنما قد عرف الرجل بعض المعرفة ، ولكنه يريد ان يستوثق من شخصيته ، غير ان شكوكه لم تلبث ان تبددت ، فان ذلك الرجل البدين راح ينفخ الدخان المتصاعد من قصبته ويطلق من صوته الأجش ، كأنه خارج من بطنه ، ومنبعث من تحت اللفاعات الكثيفة التى تغطى حنجرته وصدره ، هذا النداء البطىء النبرات : « وى ، هذا سامى ! »

وقال المستر بكوك : « من يكون هذا ياسام ؟ »

وأجاب المستر ولر والدهشة بادية فى عينيه : « ما كنت لأصدق عينى ياسيدى ، انه الرجل الكبير »

وقال المستر بكوك : « الرجل الكبير ! أى رجل كبير ؟ »

وأجاب المستر ولر : « والدى يا سيدى ، كيف أنت يا أبى ؟ »

ومضى بهذا التعبير الجميل عن محبته البنوية يفسح مكانا فوق المقعد بجانبه ، لجلوس الرجل البدين الذى تقدموالقصبة فى فمه ، ووعاء الشراب فى كفه ، للسلام عليه ٠

وقال الوالد : « وى ياسامى ، لم تقع عينى عليك من عامين أو أكثر »

وأجاب الابن : « وأكثر أيها الشيخ البخيـــل وكيف حال امرأة أبى ؟ »

وقال المستر ولر الكبير ، فى جد كثير : « وى ياســامى ، اسمع منى ، ليس فى الدنيا أرملة ألطف ولا أظرف من هذه الزوجة الثانية التى تزوجتها ٠ انها مخلوقة لطيفة ياسامى ، وكل ما أستطيع ان أقوله عنها الآن انهـا أرملة لطيفـة فوق العادة ، ومن الأسف الشديد أنها غيرت أحوالها، انها لا تؤدى وظيفة الزوجة ياسامى »

وقال المستر ولر الصغير : « ألا تؤدى الوظيفة حقا ؟ »

وهز المستر ولر الكبير رأسه وأجاب وهو يرسل زفرة : « لقد جربت كثيرا ياسامى ٠ جربت أكثر من مرة ٠ فاجعل والدك مثلا أمامك ، وخذ العبرة منه ، وكن فى منتهى الحذر من الأرامل طيلة حياتك ، وبالأخص اذا كن صاحبات حانات ياسامى »

وبعد أن ألقى هذه النصيحة الأبوية بكل حماسة وعطف عاد يملأ القصبة من علبة من القصدير كان يحملها فى جيبه، ويشعل القصبة الجديدة من رماد القديمة ، ويعــاود التدخين بسرعة بالغة ٠

وواصل الحديث بعد لحظة طويلة ، مخاطبا المستر بكوك: « أستميحك المعذرة ياسيدى . لا تؤاخذنى . أرجو ألا تكون لديك أرملة ياسيدى »

وأجاب المستر بكوك ضاحكا : « كلا » ، وبينما كان يضحك ، أقبل سام ولر يهمس لأبيه عن مدى العلاقة بينه وبين ذلك السيد

وقال المستر ولر الكبير وهو يرفع قبعته : « لا تؤاخذنى ياسيدى .. أرجو ألا يكون فى نفسك شىء من جهة سامى اذا كان قد أخطأ أو وجدت فيه عيبا »

وأجاب المستر بكوك : « لا شىء على الاطلاق »

وأجاب الشيخ : « الحمد لله . يسرنى ان أسمع ذلك ياسيدى ، فقد تعبت كثيرا فى تربيته ياسيدى ، وتركته يجرى فى الشوارع وهو صغير ويتولى بنفسه أموره ، فان هذه هى الطريقة الوحيدة التى تجعل الولد ذكيا ياسيدى »

وقال المستر بكوك وهو يبتسم : « يخيل الى انها طريقة لا تخلو من خطر »

وأردف المستر ولر الصغير قائلا : « وليست مضمونة أيضا ، فقد خدعت منذ أيام »

وقال والده : « لا تقل هذا »

وأجاب ابنه : « بل حدث »

ومضى يقص عليه بكل اختصار كيف غرر به جوب تروتر بدهائه ومكره .

وأصغى المستر ولر الكبير الى القصة بأشد الاهتمام ومضى يقول فى نهايتها : « أليس هو رجـــلا طويلا نحيفا مرســل الشعر خفيف الحركة سريع الجرى ؟ »

ولم يفهم المستر بكوك تماما هذا الوصف الاخير ولكنـــه فهم الأوصاف الأول فقال على الفور : « نعم »

ومضى المستر ولر الـــكبير فقال : « أما الآخـــر فشخص اسود الشعر فى ثوب توتى اللون ذو رأس كبير الحجم جدا »

وقال المستر بكوك وسام بجد شديد : « نعم هو ، هو »

وقال المستر ولر : « انى أعرف أين هما الآن ، هـــذا هـــو كل ما هنالك ٠٠ انها الآن فى « ابسويتش » آمنين مطمئنين هما الاثنان »

وقال المستر بكوك غير مصدق : « كلا ! »

وأجاب المستر ولر : « بل همـــا كذلك ٠ وســأقول لك كيف عرفت ذلك ٠ اننى أشتغل من وقت الى آخر على المركبة التى تسافر الى « ابسويتش » بالنيابة عن صاحب لى ، وكنت أعمل عليها فى اليـــوم الذى تلا الليلة التى أصبت فيهـــا بالنقرس ٠ وقد أقللتهما الى فندق « بلاك بوى » فى تشلمز فورد ، وهو الموضع الذى كانا شاخصين اليه ، ومنه رأســا الى « ابسويتش » حيث كانا معتزمين المقام طويلا ، كما علمت من الخادم التوتى اللون »

وقال المستر بكوك : « سأتبعه ، ويصح لنا ان نشـــهد ابسويتش كما نشهد أى موضع آخر ، سأتبعه »

وسأل المستر ولر الصغير أباه : « هل أنت متأكد أنهما هما بالذات يا معلم ؟ »

وأجاب الوالد : « كل التأكد يا سامى ، كل التأكد ، وذلك لغرابة شكلهما ، وللألفة العجيبة التى بين السيد وخادمه ، وفوق ذلك كله ، لانى سمعتهما وهما جالسان فى المقدمة خلف مقعد السائق مباشرة يضحكان ويقولان انهما عرفا كيف يخدعان العجوز فيروركس (١) »

وقال المستر بكوك : « العجوز من ٠٠؟ »

وأجاب الوالد : « العجوز فيروركس » ياسيدى ، ولا شك فى أنهما كانا يعنيانك ياسيدى »

وليس فى التسمية « بفيروركس » طبعا ما يؤذى الشعور أو يستنكره الخاطر ، وان كان مع ذلك لا يزال خلوا من الاحترام أو التنويه بالفضل ، وكانت ذكرى الفصول التى مثلها جنجل قد ازدحمت فى خاطر المستر بكوك ، ولم تبق الا ريشة فترجح كفة الميزان • فكانت تسميته « بالعجوز فيروركس » هى تلك الريشة ! فراح يضرب المائدة بجمع كفه وهو يقول « سأتبعه »

وهنا قال المستر ولر الكبير : « سأشتغل على المركبة المسافرة الى ابسويتش بعد غد ياسيدى ، من فندق « بول » فى « هوايتشابل » فاذا كنت تنوى الذهاب فعلا فالأفضل أن تذهب معى »

---

(١) كناية استعملت للمستر بكوك تهكما ومعناها الصواريخ أو الألعاب النارية •

وأجاب المستر بكوك : « هذا صحيح ، وسأكتب الى بيرى حتى ينتظرونى فى ابسويتش ، سنذهب معك ، ولكن لا ننصرف هكذا مسرعا ، الا تأخذ شيئا ؟ »

وقال المستر ولر وقد وقف عن الحركة : « انك لكريم جدا ياسيدى . كأس صغيرة من البراندى اذا كان ولابد لأشرب فى صحتك ، ونجاح سامى وتوفيقه ياسيدى »

وأجاب المستر بكوك : « بلا شك ، كأسا من البراندى هنا يا غلام ! »

وجئ بالشراب ، وبعد أن جذب المستر ولر شعره تحية للمستر بكوك وأومأ برأسه لسام ، راح يلقى بكل مافىالكأس فى حلقه الرحيب ، كأنه قمع خياطة صغير .

وقال سام : « مرحى ! يا أبت ، احذر يا صاح والا عدت الى سابق مرضك ، وهو مرض المفاصل »

وقال المستر ولر وهو يضع الكأس بعد اجتراعها : « لقد وجدت دواء ناجعا لعلاجه يا سامى »

وقال المستر بكوك وهو يخرج بسرعة مذكراته : « أتقول انك وجدت دواءا ناجعا للنقرس ؟ فما هو ؟ »

وأجاب المستر ولر : « ان هذا المرض ياسيدى ينشأ من الافراط فى الراحة والرفاهية ، فاذا أصبت يوما به ياسيدى فتزوج أرملة ذات صوت صاخب وتعرف تماما كيف تستخدمه ، وأنت لن يصيبك هذا المرض بعد ذلك . هذه وصفة بديعة ياسيدى ، وأنا مداوم عليها ، وأنا ضامن انها تطرد أى علة يكون سببها الاكثار من اللهو والمرح »

وبعد ان باح بهذا السر العظيم ، أفرغ مافى الكأس مرة أخرى ، وغمز غمزة متقنة ، وزفر زفرة حارة ، وانصرف فى رفق .

وقال المستر بكوك وهو يبتسم : « ما رأيك فيما قاله أبوك ياسام ؟ »

وأجاب المستر ولر : « رأيى ؟ رأيى أنه ضحية للزوجية كما قال القسيس عن بلوبيرد وهو يرسل دمعة عليه حين تولى دفنه »

ولكن المستر بكوك لم يجب عن هذا الاستنتاج الحكيم كل الحكمة ، بل مضى بعد ان دفع الحساب ، يواصل المسير الى فندق « جراى » ، ولكنه ما كاد يصل الى غياضه المنعزلة ، حتى دقت الثامنة ، فبدا له من ذلك السيل المستفيض من الناس الذين يتجهون صوب الشوارع المختلفة فى الحى ، وهم فى أحذيتهم الموحلة ، وقبعاتهم البيضاء الملطخة ،وثيابهم المغبرة ، ان أكثر المكاتب أغلقت أبوابها ، وانتهت مواعيد العمل فيها .

وبعد أن صعد المدارج تبين له ان ما توقعه كان صحيحا ، فقد رأى الباب الخارجى فى مكتب المستر بركر مغلقا ، وظهر من السكون التام الذى تلا ركلات المستر ولر الباب بقدميه ان الموظفين انصرفوا عن العمل لدخول الليل .

فقال المستر بكوك : « هذا فصل غير سار ياسام ، اذ لا ينبغى ان تضيع ساعة واحدة منى دون لقائه ، ولن يغمض لى جفن الليلة اذا لم يهدأ بالى وأكل الامر الى أحد أرباب المهنة »

وأجاب المستر ولر : « ها هى ذى سيدة عجوز صاعدة السلم ياسيدى ، لعلها تعرف أين يتيسر لنا الاهتداء الى أحد .. ياسيدتى الكبيرة .. أين رجال المستر بركر ؟ »

وقالت عجوز نحيفة بائسة ، وقد وقفت لتتمالك أنفاسها، بعد صعود السلم : « لقد انصرفوا وأنا آتية لتنظيف المكتب »

وسألها المستر بكوك : « هل أنت خادم المستر بركر ؟ »

وأجابت العجوز قائلة : « بل أنا غسالة المستر بركر »

وقال المستر بكوك فى ناحية لسام : « آه .. انه لشىء غريب ياسام ، انهم فى هذه الفنادق يسمون العجائز جميعا غسالات ، أعجب لهم لماذا يسمونهن كذلك »

وأجاب المستر ولر : « أظن ياسيدى أن هذا يرجع الى كراهيتهن الشديدة لغسل أى شىء ياسيدى »

وقال المستر بكوك وهو ينظر الى العجوز ، ويتأمل شكلها، وحالة المكتب الذى كانت فى تلك اللحظة قد فتحته ، وما يدلان عليه من الكراهية المتأصلة لاستخدام الصابون والماء : « لست أعجب » ومضى يسأل العجوز : « هل تعرفين أين أستطيع أن أجد المستر بركر أيتها المرأة الكريمة ؟ »

وقالت العجوز بخشونة : « كلا ، لا أعرف ! انه الآن خارج المدينة »

وقال المستر بكوك : « هذا حظ سىء . وأين كاتبه ؟ هل تعرفين ؟ »

وأجابت الغسالة : « نعم أعرف أين هو ، ولكنه لن يشكرنى على تعريفك به » .

وقال المستر بكوك : « ان لدى عملا خاصا معه »

قالت : « ألا يمكن ارجاؤه الى الصباح ؟ »

وأجاب المستر بكوك : « لا أظن »

قالت : « اذا كان الامر كذلك ، وكان المفروض ان أقول أين هو ، فلا بأس اذن من قولى لك عنه ، اذا ذهبت الى حانة ماجباى اصطمب وسألت فى مكان الشراب عن المستر لوتن فسوف يدلونك عليه ، فهو كاتب المستر بركر »

ولم يكد المستر بكوك وسام يتلقيان هذا التوجيه ويعرفان أيضا ان تلك الحانة تقع فى أحد الافنية ، وانها لحسن الحظ أيضا بقرب « كلير ماركت » وبجوار الجدار الخلفى لفندق « نيو ان » حتى راحا يهبطان السلم المتداعى بسلام ، وينطلقان صوب حانة ماجباى واسطمب .

وكانت تلك الحانة المفضلة عند المستر لاوتن وزملائه ، لقضاء الليل فى القصف واللهو والشراب . هى ما يعده عامة الناس محلا عاما . وكان الدليل الكافى على ان صاحبها رجل مولع بجمع المال وجود فراغ صغير تحت نافذة قاعة الشراب، لا يتجاوز موضع كرسى كبير ، مؤجر لاسكاف يرقع الاحذية، كما يقوم الدليل على حبه للخير وانبعاثه الى البر فى سماحة لبائع فطير ببيع أطعمته الشهية على عتبة الحانة ، بلاخوف من اعتراض أحد عليه ، وفى الشرفات الخفيضة المزدانة بأستار صفراء اللون تتدلى بطاقتان أو ثلاث بطاقات للاعلان عن ديفونشير سايدر، وتنوب دانتزج الفضى(١) ولافتة كبيرة سوداء الطلاء كتب عليها « ليكن معلوما لدى الجمهور المستنير ان فى أقبية المحل نصف مليون برميل من جعة الاستاوت الجيدة »

(١) شجر يشبه الصنوبر .

وهى لافتة تدع الخاطر فى شك لا بأس منه من ناحية المدى الذى يظن أن هـذه الحانة الضخمة تشغله فى بطن الأرض ، واذا نحن أضفنا الى هذا أن اللافتة التى ضربتهـا الشمس ومحت التقلبـات الجوية نصف معالم صـورة طائر يدعى العقعق ، وهو يحدق البصر فى « عرق » أعوج اسـود الطلاء تعلم الجيران منذ طفولتهم أن يسموه « القرمة » أو «العقب» ، فقد قلنا كل ما نحتـاج الى قوله فى وصف ذلك البنـاء من الخارج (١)

وتقدم المستر بكوك الى محل الشراب فخرجت اليـه امرأة كبيرة السن من خلف حاجز فيه ٠

قال : « هل المستر لوتن هنا ياسيدتى ؟ »

وأجابت ربة الحان : « هنا ياسيدى ، يا شارلى ، خذ السيد الى المستر لوتن »

وقال غلام أحمر الشعر يحجل فى مشيته ويسعى بأباريق الشراب على الزبائن : « لا يستطيع السيد ان يدخل اللحظة عليه ، فان المستر لوتن يغنى الآن أغنية هزلية ، فاذا دخل عليه غضب ، ولكنه سينتهى فورا ياسيدى »

وما كاد الغلام الاحمر الرأس يتم قوله هذا ، حتى تعـالى دق اجماعى على الموائد وقرع كؤوس ، مما يوحى بأن الاغنية قد انتهت فى تلك اللحظة ذاتها ٠

وبعد ان طلب المستر بكوك الى سام الترويح عن نفسه فى القاعة العامة ، ترك الغلام يذهب به الىالمستر لوتن ٠

(١) هذا هو تفسير اسم الفنـدق ماجباى واصطمب ، فان الـكلمة الأولى معناها اسم هذا الطائر والأخرى القرمة ٠

وما ان قال الغلام : « ان سـيدا يطلب التحدث اليك ياسيدى » ، حتى انبرى رجل منتفخ فى نضارة العمر يشغل المقعد القائم فى رأس المائدة ، فتطلع ببصره فى دهشة صوب الجهة التى انبعث منها الصوت ، ولم تقل دهشته حين استقرت عيناه على شخص لم يره من قبل ·

وأنشأ المستر بكوك يقول : « أستميحك عفوا ياسـيدى ، بل أنا آسف كل الاسف على تعكير صفو السـادة الآخرين ، ولكننى قادم لامر خاص ، فلو سمحت لى باحتجازك فى الطرف الاقصى من هذه الحجرة خمس دقائق ، لكنت لك من الشاكرين »

ونهض الرجل المنتفخ الاوداج من مجلسه ، وقرب كرسيا من مقعـد المستر بكوك فى ركن مظلم من الحجرة ، وأصغى بانتباه الى محنة المستر بكوك والخطب الذى ألم به ·

وقال عقب فراغ المستر بكوك من قصـته : « آه ، ددسن وفج ؟ أولئك قوم ماهرون فى عملهم ، رجال أعمال مجدون ، ددسن وفج ياسيدى »

وآمن المستر بكوك على وصف الرجل لعملهما ، بينما مضى هذا يقول : « ان المستر بركر ليس الآن فى المدينة ، ولا ينتظر أن يعود اليها قبل نهاية الأسبوع القـادم ، ولـكن اذا أردت اتخاذ اجراءات الدفاع ومطالبه ، وتركت لى صورة الاعلان ، استطعت ان أنجز كل ما هو مطلوب ريثما يعود »

وقال المستر بكوك وهو يسلم النسخة اليه : « هذا هـو عين ما جئت من أجله ، واذا حدث شىء مهم ، ففى وسعك أن تكتب الى خطابا فى « شباك البريد » فى ابسويتش »

وأجاب كاتب المستر بركر : « هذا حسن ! » وعندئذ رأى عين المستر بكوك حائمة بفضول حول المائدة ، فأضاف قائلا : « هلا انضممت الينا فقضيت معنا نصف ساعة أو نحوه ؟ نحن هنا فى مجلس أنس بديع ، وقعدة بديعة معنا ، فهذا وكيل مكتب سامكن وجرين ، وهذا كيل سميذر وبرايس ، أما كاتب بمكن وتومس فهو خارج المنزل وهو مغن بديع . ومعنا أيضا جاك بمبر وكثيرون غيرهم . أحسبك قادما من الريف ، فهل تحب أن تجلس معنا ؟ »

فلم يستطع المستر بكوك ان يغالب فرصة مغرية كهذه لدراسة الطبيعة البشرية ، فترك الرجل يمشى به الى المائدة ، وبعد ان قدمه الى الجمع بكل المراسيم المألوفة ، اتخذ مجلسه بقرب الرئيس ، ونادى الغلام فطلب كأسا من الشراب الأثير لديه .

وأعقب ذلك سكون عميق لم يكن المستر بكوك يتوقعه مطلقا .

وقال جاره الجالس عن يمينه ، وهو رجل فى قميص مرتوق وأزرار من الفسيفساء ، ولفافة طويلة فى فمه : « أرجو ياسيدى ألا يكون هذا الشيء مزعجا لك »

وأجاب المستر بكوك : « لا ، مطلقا . انى أحبه كثيرا وان كنت أنا نفسى لا أدخن »

وتدخل سيد آخر فى الجهة المقابلة من المائدة فقال : « اننى آسف كل الاسف أن أقول اننى أدخن . ان التدخين عندى هو الاكل والمسكن »

ونظر المستر بكوك الى ذلك المتحدث فقال فى نفسه « لو كان الاستحمام أيضا لكان أفضل وأجدى »

وساد السكون مرة أخرى ٠

فقد كان المستر بكوك غريبا ، والظاهر ان قدومه عليهم أثقل على نفوسهم شيئا ما ٠

وقال الرئيس : « ان المستر جرندى معتزم أن يشنف الاسماع بأغنية »

وقال المستر جراندى : « كلا ، ليس معتزما »

وعاد الرئيس يقول : « ولم لا ؟ »

وقال المستر جرندى : « لأنه لا يستطيع »

وأجاب الرئيس قائلا : « بل الأفضل أن نقول أنه لايريد»

وأجاب المستر جرندى : « حسن ، انه لا يريد »

وانتهى رفض المستر جرندى القاطع لتشنيف أسماع القوم الى سكون آخر ٠

وقال الرئيس بحزن : « ألا يريد أحد ان يطربنا ؟ »

وانبرى شاب ذو شاربين وحول فى عينيه وقميص مفتوح بطوق قذر ، من أقصى المائدة فقال : « لماذا لا تطربنا أنت أيها الرئيس ؟ »

وقال السيد المدخن الذى يلبس المجوهرات الفسيفسائية : « استمعوا ، استمعوا ! »

وأجاب الرئيس : « لانى لا أعرف الا أغنية واحـــدة وقد غنيتها قبل الآن ، وتكرار أغنية بعينها فى ليلة واحدة يقتضى غرامة طلب دور من البراندى لجميع الجالسين »

ولم يجب أحد ، وساد السكون مرة أخرى •

وأراد المستر بكوك ان يخلق موضوعا يتيسر للقوم الاشتراك فى مناقشته فقال : « لقد كنت الليلة أيها السادة فى مكان لا أشك فى أنكم جميعا تعرفونه حق المعرفة ، وان لم أذهب اليه منذ بضع سنين ، ولا أعرف عنه الا القليل • اننى أقصد أيها السادة فندق جراى ، ان هذه الفنـــادق القديمة هى فى مدينة كبيرة كلندن زوايا غريبة ، وأركان عجيبة »

وهمس الرئيس من فوق المـــائدة للمستر بكوك قائلا : « والله لقد وقعت على موضوع يستطيع واحد منا على الاقل ان يتحدث عنه طوال العمر ولا ينتهى ، لقد أخرجت الشـــيخ جاك بمبر من مخبئه ، فما شـــوهد يوما يتكلم عن شىء غـــير الفنادق ، فقد عاش وحده فيها حتى كاد يذهب لبه »

وكان الرجل الذى أشار لوتن اليه بهذا القول قصير القامة أصفر اللون مرتفع الكتفين ، ذا وجه لم يفطن اليـــه المستر بكوك من قبل ، لاعتياده الانحناء الى الامام ، كلما لزم الصمت، ولهذا عجب حين رأى الرجل يرفع وجهه المغضن ، وتســتقر عيناه الرماديتان على وجهه فى نظرة حادة متســـائلة ، كيف غاب من قبل عن نظره ذلك الوجه العجيب •

وتبين له ان على سحنة الرجل ابتســـامة مستقرة ثابتـة لا تفارقه، وانه قد أسند ذقنه الى يد طويلة معروقة ،استطالت أظافرها الى حد غير مألوف ، وأمال رأسه الى ناحية ، وراح

يرسل نظرات حادة من تحت حاجبين أشيبين متعرجين ، حتى ليبدو على ابتسامته شيء من مكر موحش تنبو الانظار عنه .

ذلكم هو الرجل الذى أقبل يطلق فيضا زاخرا من الكلام ، ولكنى أرى هذا الفصل قد طال ، وذلك الرجل الكبير السن شخصية غريبة ، فأولى به وأحق ، كما هو أنسب لنا وأوفق، أن ندعه يتحدث عن نفسه في فصل قائم بذاته .

انتهى الجزء الأول

تصـــويبات

ص	سطر	خطأ	صواب
٣٩	١٦	الزياوة	الزكاوة
٨٨	١٧	الدكتر	الدكتور
١٦٠	١٨	(تكذب)	تكذب
١٧٤	١٤	غداء	غداءا
١٩٧	٢٢	لتهينني	لتهينني ـ
٢٦٧	٣	فالفيت	فالقيت
٢٩٦	١٨	المستر بركرراح	المستر بركر
٣١٠	٢٢	بوت	بت
٣٥٧	٢٢	يمكنى	يمكننى
٣٦٥	٢٤	بوت	بت
٣٦٦	١	المستر بوت	المستر بت
٣٧٥	٨و٩	من قاطع طريق	قاطع طريق
٤٣٠	١٣	إسخذى	استخذى
٤٣٦	٢٣	المستر راردل	المستر واردل
٤٦٣	١٨	هذ الأرض	هذه الأرض
٤٨٦	١٠	انها الآن	انهما الآن

بيـان بالأعلام والأماكن الواردة بالـكتاب

Blotton	بلوتن
Budger	مسز بادجر
Barnwell	بارنول
Belle Savage	بل سافج
Bill Stumps	بيل سطمبس
Black Boy	بلاك بوى
Brixton	بريكستون
Brompton	برومتن
Bury St. Edmonds	برى سانت ادموندز
Bamber, Jack	جاك بمبر
Boots	بوتس
Boldwig	بولدوج
Bolaro Fizzgig, Don	دون بولارو فزجج
Mrs. Budger	مسز بادجر
Mr. Blotton of Aldgate	مستر بلوتن من أولدجيت
Bardell, Martha	مارثا باردل
Clubber, Sir Thomas	سير تومس كلابر
Camberwell	كمبرول
Chatam	تشاتم
Cheapside	تشنيبصايد
Chelmsford	تشلمزفورد
Clare Market	كلير ماركت
Cobham	كوبهم
Christina, Donna	دونا كريستينا
Cruickshank, George	ادورد تشبمن

Cruickshank, George	جورج كرؤكشنك
Cummins, Tom	توم كمينز
Dantzig	دانزج
Devonshire Cyder	ديفونشير سايدر
Daph	داف
Diogenes	ديوجينيس
Dodson & Fogg	ددسن وفج
Dumkins	دمكنز
Ebenezer	ابنزر
Emily	امل – اميلى
Epicurus	أبيقور
Edward Chapman	ادورد تشبمن
Fleet Street	شارع « فليت ستريت »
Fort Pitt	حصن بت
Furnival's Inn	فندق فرنيفال
Fizkin	فيزكن
Fireworks	فيروركس
Fizzgig, Don Bolaro	دون بولارو فزجج
Grandee	جراندى
Goswell Street	شارع جوزول
Green	جرين
Gwynn	جوين
Grundy	جرندى
Gravesend	جريفسند

Hampstead	هامستد
Hornsey	هورنزى
Highgate	هايجيت
Hunt	هنط
Hunter, Leo	ليو هنتر
Heyling	هيلنج
Hutley	هطلى
Isabella	ايزابللا
Ipswich	ايبسويتش
Joseph Smiggers	جوزيف اسمجرز
Jinkins	جنكنز
Joe	جو
Juno	جونو
Jack Bamber	جاك بمبر
Job Trotter	جب تروتر
Jackson	جكسن
Leatherbottle	لذر بوتل
Lowton	لوتن
Lobbs, Maria	مرايا لوبز
Liffey	لفى
Lucas, Solomon	سلمون لوكاس
Manour Farm	ضيعة مانور
Maria Lobbs	مرايا لوبز
Mullin's Meadows	مراعى مولين
Miller	ملر

Martha Bardell	مارثا باردل
Martin	مارتن
Marshalsea	مرشالسى
Minns	مينز
Medway	مدواى
Manning, Sir Geoffrey	سير جفرى مانتج
Magpie & Stump	ماجباى واسطمب
Nimrod Club	نادى نمرود
Norwich	نوروك
Nathaniel Winkle	نثنايل ونكل
Nathaniel Pipkin	نثنايل بيبكن
Pickwick	بكوك
Podder	بودر
Pentonwil	بنتنويل
Plato	أفلاطون
Pythagoras	فيثاغورس
Punch	بنتش
Payne	بين
Perker	بركر
Price	برايس
Pimkin	بمكن
Pott	بت
Rochester	روشستر
Ramsey	رمزى
Snodgrass, Augustus	أوجستس سنودجراس

Swift	سويفت
Stroud	استراود
Seidlitz	سيدليتز
Samkin	سمكن
Smithers	سميذرز
Smart, Tom	توم سمارت
Surrey	صرى
Somers Town	سومرز تاون
Snipe, Wilmot	ويلموت سنايب
Seymour	سيمور
Smithie	اسميثى
Smithers	سميذرز
Smorltork, Count	كونت سمورلتورك
Savage, Belle	بل سافج
Dr. Slammer (Slam)	دكتور سلامر (سلام)
Struggles	استرجلز
Staple	ستيبل
Stump, Magpie &	اصطمب وماجباى
Stumps, Bill	بيل سطمبس
Tupman, Tracy	تراسى طبمن
Tyburn	طايبرن
Tony Weller	تونى ولر
Trotter, Job	جب تروتر
Tappleton, Lieutenant	الملازم تابلتون
Tomkins	تومكنز
Tomlinson	توملينسون
Tuppy	طبى

Thomas	تومس
Winkle	وينكل
Whitechapel	هوايتشابل
Whitehall	هوايتهول
William	وليم
Westgate House	وست جيت هاوس
Wicks	وكس
Weller, Sam (Sami)	ولر ، سام (سامى)
Walker	ووكر
Zeno	زينون



الناشر:
المؤسسة القومية للنشر والتوزيع
٥ شارع دربريه القاهرة . ت : ٧٧٨٧٦